(فهرست كتاب مناهج الالباب)

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفة

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

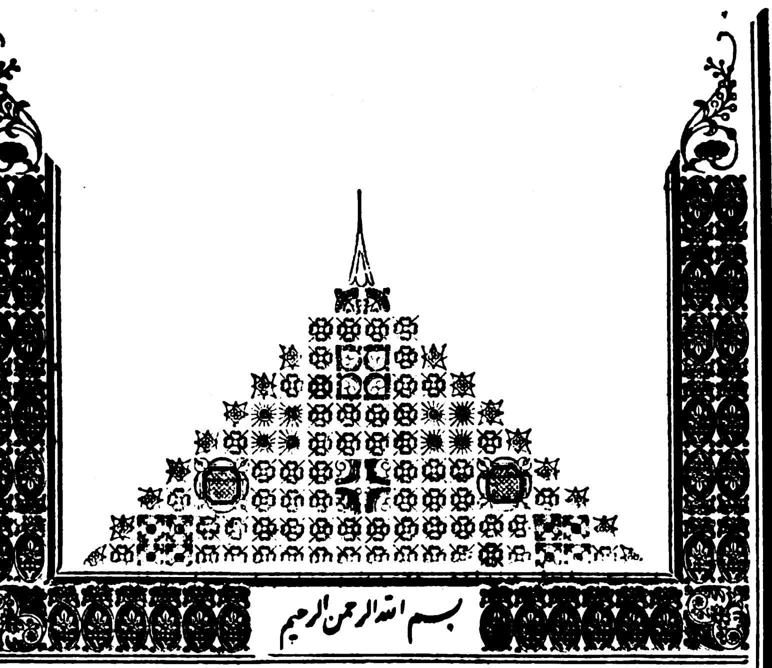
Rifāʿah Rāfiʿ

Manāhij al-albāb

كتاب

مناهج الالباب المصريه في مباهج الآداب العصريه
تأليف أوحد زمانه ونادرة عصره وأوانه المجد
في نفع وطنه بنشر المنافع حضرة الامير
المعظم رفاعه بك رافع ناظر قلم
ترجمه وأعضاء مجلس
القومسيون

م



بسم الله الرحمن الرحيم

حديث الخير وخير الحديث حمد الله القديم وأتم صلاته وأعم سلامه على نبيه الكريم
ذى الخلق العظيم المرسل بدينه القويم والهادى الى صراطه المستقيم وعلى آله
منابع الحكم ومنافع الأمم وأصحابه الهادين وخلفائه الراشدين ثم الدعاء
ببلوغ أشرف الدرجات العليه للحضرة العزيزية الاسماعيليه أدام الله لتجديد هذا
العصر علاها وخلد على جيد مصر حلاها (أما بعد) فكل عاشق لجمال العمران
وناشق لشذا عبير هذا الزمان يتهلل سرورا ويمتلئ قلبه حبورا حيث يرى بعين
المحبة انه قد عاد لمصر عزها القديم وبهوها الفخيم ومجدها المؤثل وسعدها الاول
وانها لا زالت مجدة السير على غاية من السرعه لتحظى بالحظ الوافر من علو الجلادة
وسمو المنعه وتستحوذ على ضخامة الشان وفخامة الرفعه وتصير أبهى قطر من
اقطار المعمورة وأزهى بقعه وليس هذا التقدم العجيب والسبق فى ميدانه الرحيب
الا من عهد المرحوم محمد على وورثائه من بعده فكل منهم أبدى فى مصر من المحسنات
بقدر طاقته وجهده وعلى حسن نيته وخلوص قصده وفى هذه الحالة الراهنة
ظهرت بهاءة العمران ظهورا جليا وصار فى معلاها مسعى اسمعيل بصفا النية عليا
وحظيت بما تحب وتشتهى وفازت من ثغر التمدن ونية الصفا بلثم مقبله الشهى

ومن يكن أصله قد طاب منبته * فما له غير احراز العلا ثمرة

فقد

فقد تعزز الوطن المحروس والبلد المأنوس بالعلوم والمعارف والمنافع واللطائف جملة وتفصيلا وتأسيسا وتأصيلا وصارت فيه قواعد التمدن على أساس مكين وتمكن وجودها من وصف البقاء أتم تمكين فلله من أحيا بها آثار المكرمات وبنى بها أسوار العهود وبين أسرار المبهمات بالهمة العليه والنخوة العلويه حتى انتظمت معالم العلوم وآداب البراعه بعوامل الفنون وعمليات الصناعه واكتسبت براعة التجارة كمال البراعه وبتحرى العدل استقامت الأمور واعتدلت مصالح الجمهور ونمت بركة المنافع العمومية بالامنيه وسمت حركة المعامله وبلغت درجة الأهميه واحرزت مصر بين الممالك المتمدنة أسنى الرتب وصارت فى البلاد المشرقية أحق الأقطار المتنزهة عن شوائب الريب فعاد الى بحرها العذب بدره وجواهره وترنم من روضها فوق الأيك طائره ووفد عليها من جميع الممالك كل سالك ومن رفيع الممالك كل أمير ومالك وورد اليها كل صاحب صناعة يؤديها وبضاعة يبديها وقصدها كل سياح متفرج ومتنزه متبرج ومشرقى ومغربى وأعجمى وعربى وامتزج أهلها بهم امتزاج الماء بالراح والأجساد بالأرواح وقوى جأش الجميع حسن سياسة الحكومة المصريه وشمولها بعين العدل الحقيقى المسوى بين الرعية وغير الرعيه مع ما فى طباع أهل مصر من الوفاء للأقارب وخلوص النية والصفاء للأجانب والتوادد والتحبب مع أهل المشارق والمغارب كما قيل

لا تعجبوا من أهل مصر لان وفوا * بوعودهم ما فى الوفا منهم جفا
وافى لهم فى كل عام نيلهم * فتعلموا من نيلهم ذاك الوفا

وحسن سياسة حكومتها فى هذه الازمان الاخيره قد قوت استعدادها فيما يكون لزيادة العمارية عمدة وذخيره فقد اختلطت معاشرة الأغراب فى الاطراف والاكناف بكل عشيره واقتبس الاهالى لوطنهم من مستحسن الصنائع والفنون ما لا يحصى كثرة فى مدة يسيره وهذا أدل دليل وأجل برهان على انها قد عادلها الزمان وعدلها بقسطاس تعديل الامانى والامان وصح ما قيل فيها من موافيها

ديار مصر هى الدنيا وساكنها * هم الانام فقابلها بتفضيل
يا من يباهى ببغداد ودجلتها * مصر مقدمة والشرح للنيل

فمن ذا الذى يجحد الآن تقدمها فى التمدنيه ولا يشهد بترقيها فى القيام بحقوق الوطنيه ومراعاتها لما تقتضيه علائق المواقع مع أهالى الممالك الأجنبيه فانها وسيلة عظمى لانقياد المنافع العمومية الأبديه وكما حسنت أخلاق أهل الوطن مع الاجانب وجذبوهم بحسن الطباع الانفس كل جانب تحسن أيضا من الاغراب أن يحسنوا

اخلاقهم ويحفظوا رفاقهم وفاقهم

لاتعاد الناس فى أوطانهم * قلما يرعى غريب الوطن
واذا ماشئت عيشا بينهم * خالق الناس بخلق حسن

مطلب سبب تأليف هذا الكتاب

ولما كان من الواجب على كل عضو من أعضاء الوطن أن يعين الجمعية بقدر الاستطاعه ويبذل ماعنده من رأس مال البضاعه لمنفعة وطنه العموميه وينصح لبلاده بث مافى وسعهم من المعلوميه بذلت جهدى وجدت بما عندى وجلت فى مضمار المحسنات وقلت انما الاعمال بالنيات علما بأن من خدم وطنه برهة من الزمن عطف عليه بتنسيق أحواله الوطن ومن المعلوم ان طرائق خدمه عديده وكلها سديدة مفيده وأدناها يرجع الى تحريض من يعى * اذا لم تحارب يا جبان فشجع *
انى سمعت مع الصباح مناديا * يامن يعين على الفتى المعوانا

ولاشك ان الوطن كالجسد يصلحه ازالة العضو الغير النافع كما ان الشجرة تثمر بتقليم الغصن اليابس وابقاء المثمر اليانع فلهذا بذلت المجهود لبيان الغرض والمقصود بتصنيف نخبة جليله وترصيف تحفة جميله فى المنافع العموميه التى بها للوطن توسيع دائرة التمدنيه اقتطفتها من ثمار الكتب العربية اليانعه واجتنيتها من مؤلفات الفرانساوية النافعه مع ماسنح بالبال وأقبل على الخاطر أحسن اقبال وعززتها بالآيات البينات والاحاديث الصحيحة والدلائل المبينات وضمنتها الجم الغفير من أمثال الحكماء وآداب البلغاء وكلام الشعراء من كل ماترتاح اليه الافهام وتنزاح به عن الذهن الاوهام وتتأيد به السعاده وتتأبد به السياده وبالجملة فقد أودعتها مايكون لاهل الوطن ذخرا ويعقبه النجاح دنيا وأخرى وسميتها مناهج الالباب المصريه فى مباهج الآداب العصريه متحفا بها حضرة ولى عهد هذا

مطلب العنوان والاتحاف

الوطن الشريف وحامى حمى مصر المنيف الوزير الاعظم والمشير الافخم الجامع الاسباب الفضائل والحكم والرافع لجمعية المعارف تحت لواء أبيه أعلى علم من هو بالمجد الأثيل جدير وحقيق حضرة محمد باشا توفيق لازال فى ظل والده ممتعا بطريف العز وتالده

واذا الصنيعة صادفت أهلا لها * دلت على توفيق مصطنع اليد

فقد بدت من جنابه العالى دلائل حب الاوطان باصطناع التطول لجمعية العرفان حيث حلى جيدها بعقود المنه وجعل حصن حمايتها وقاية وجنه فلذلك شكر حسن صنيعه الوطن وأطلق حسان مدحه على محمد الفضائل لسانه بالثناء الحسن

اطلق لسانك بالثناء على الذى * أولاك حسن رغائب وغرائب

واشكره شكر الروض حياه الحيا * كما تقوم له ببعض الواجب
وبكم له حفظه الله على الوطن من صلات موصولات وعوائد متواصلات تقول بلسان حالها معربة عما أسدته اليد البيضا من جزيل نوالها

كم من يد بيضاء قد أسديتها * تثني اليك عنان كل وداد
شكر الاله صنيعها أوليتها * سلكت مع الارواح فى الاجساد

ورتبت هذا الكتاب على مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة حسن بحسنها الدعاء مستجاب وعلى الله القبول وهو لبلوغ الأمل مسؤل

(مقدمة)

(فى ذكر هذا الوطن وما قاله فى شأن عدنه أرباب الفطن)

قد تحقق فى مصر اسمها بالمعنى المتعارف أكثر من غيرها لمصير الناس اليها واجتماعهم فيها لمنافعهم ومكاسبهم وماذاك الا لحسن موقعها العجيب الذى أسرع فى اتساع دائرة تقدمها فى التأنس الانسانى والعمران واحرازها أعلى درجة التمدن من قديم الزمان وعلى مر العصور وكر الدهور انصقلت فى مرآة جوهرها صور أخلاق الخلائق وتهذبت طباعهم على التدريج وتشبثوا بثمرات العلوم والمعارف ووقفوا على الحقائق وبمخالطة غيرهم من الامم ذاقوا حلاوة الاخذ والعطاء وكثرة العلائق وكما تمدنوا بصنائع العمران تدينوا بما اتخذوه من الاديان وكان يعترف خواصهم وحكماؤهم فى الباطن بوحدة الملك الديان

مطلب
وصف مصر

ورق الرياض اذا نظرت دفاتر * مشحونة بأدلة التوحيد

فتحقق فيهم من الاحقاب القديمة والاسطتان المقومتان اذ ذاك لكمال التمدن والعمران (احداهما) تهذيب الاخلاق بالآداب الدينيه والفضائل الانسانيه التى هى لسلوك الانسان فى نفسه ومع غيره مادة تحفظه تصونه عن الادناس وتطهره من الارجاس لان الدين يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب على اراداتها حتى يصير قاهرا للسرائر زاجرا للضمائر رقيبا على النفوس فى خلواتها نصوحا لها فى جلواتها فبهذا المعنى كان الدين اقوى قاعدة فى صلاح الدنيا واستقامتها وهو زمام للانسان لانه ملاك العدل والاحسان فالدين الصحيح هو الذى عليه مدار العمل فى التعديل والتجريح فحقيق على العاقل أن يكون به متمسكا ومحافظا عليه ومتنسكا فأدب الشريعة ما أدى الفرض وأدب السياسة ما عمر الارض وكلاهما يرجع الى العدل الذى به سلامة السلطان وعمارة البلدان لان من ترك

مطلب
نفع الدين فى المملكه

الغرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الارض فقد ظلم غيره وأظلم بالاساءة أمسه
(والواسطة الثانية) هي المنافع العمومية التي تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال وتنعيم
البال على عموم الجمعية وتبعدها عن الحالة الاولية الطبيعية فان نور التمدن الجامع
لهاتين الوسيلتين تذوق به العباد طعم السعادة ويتقدمون تقدما عموميا وأما اذا كان في البلد
تقدمات جزئية في أشياء خصوصية كالبراعة في الفلاحة فلا يعد هذا التمدن الا محليا
ولذلك نرى كثيرا من الممالك والاقطار امتاز أهلها بمزايا مخصوصة وبرعوا فيها بحيث
لا تصل الى اصطناعها الممالك المتمدنة ومع ذلك فلا تعد في باب التمدن مثل غيرها ممن تمكنه
وأيضا الفنون الموجبة لتقدم التمدن مختلفة قوة وضعفا فيه ففن الملاحة مثلا أقوى
في انتاج التمدن من الفلاحة ونفعه أعم منها في توسيع دائرة العمران عند عارفيه
وقد اقتضت الحكمة الالهية ان الخلاق لم يجمع منافع الدنيا في أرض بل فرقها
واحوج بعضها الى بعض فلا تكتسب الا بالاسفار وجوب مفاوز البراري والبحار
فالمسافر يجمع العجائب ويكتسب التجارب ويجلب المكاسب فالمملكة التي سخر
الله لها الجمع بين صنعتي الملاحة والفلاحة كالديار المصرية لقابلية انتظامها محرزة
لوسائط التمدن على وجه أكمل بشرط زوال الموانع والعوائق التي لا تخلو منها مملكة
في ابتداء انتظامها كما أشار الى ذلك نابليون الاول سلطان فرانسا بقوله ان فرانسا تسارع
دائما في أسباب التمدن وتحصل منه على الكثير الا أن دولة الانكليز تعوقها عن تتميم
بعض أغراضها ولولا ذلك لتقدمت كل التقدم في حيازة جواهر المنافع وأعراضها
انتهى فقد لا يستوفي كيفه الجوهر القائم بنفسه ولكل شيء آفة من جنسه
ويفهم مما قلناه ان للتمدن أصلين (معنوي) وهو التمدن في الاخلاق والعوائد والآداب
يعني التمدن في الدين والشريعة وبهذا القسم قوام الملة المتمدنة التي تسمى باسم دينها
وجنسها للتميز عن غيرها فمن أراد أن يقطع عن ملة تدينها بدينها أو يعارضها في حفظ
ملتها المحفورة الذمة شرعا فهو في الحقيقة معترض على مولاه فيما اقتضاه لها وأولاه
حيث قضت حكمته الالهية لها بالاتصاف بهذا الدين فمن ذا الذي يجترئ ان يعانده
ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة وحسبنا في هذا المعنى قول الكرار أما وقد
اتسع نطاق الاسلام فكل امرئ وما اختار فبهذا كانت رخصة التمسك بالاديان
المختلفة جارية عند كافة الملل ولو خالف دين المملكة المقيمة بها بشرط أن لا يعود منها
على نظام المملكة أدنى خلل كما هو مقرر في حقوق الدول والملل وما أحسن قول بعض
الظرفاء

يقولون نصرانية أم خالد ... فقلت ذروها كل نفس ودينها

مطلب
اعانة المنافع العمومية على التمدن

مطلب
المفاضلة بين الفلاحة والملاحة

مطلب
حرية الذمة

فان

فان تك نصرانية ام خالد * فان لها وجها جميلا يزينها
ولا عيب فيها غير زرقة عينها * كذاك عتاق الطير زرق عيونها

وعلى ذكر زرق العيون يحسن ذكر قول الشاعر مع ما فيه من التورية

لك يا أزرق اللواحظ مرأى * قمري أضحى على الوجه يزهى
يا لها من سوالف وخدود * ليس تحت الزرقاء أحسن منها

(والقسم الثانى) تمدن مادى وهو التقدم فى المنافع العمومية كالزراعة والتجارة والصناعة ويختلف قوة وضعفا باختلاف البلاد ومداره على ممارسة العمل وصناعة اليد وهو لازم لتقدم العمران ومع لزومه فان أرباب الاخلاق والآداب يخشون صولة تقدم أهل الفنون والصنائع ويخافون ارتفاع مراتبهم بقوة مكاسبهم فى المنافع وأهل الفلسفة والعلوم الحكمية النفيسه يعتقدون ان الصنائع من المهن والامور الخسيسه وأرباب الاقتصاد فى الاموال والاداره يبالغون فى توسيع دائرة المنافع ووسائل العماره ويتغالون بتكثيرها فى دوائرهم لجباية فوائدهم منها وتيسيرها ويباشرون جمع متفرقها ونظم منثورها ويبحثون عن نشيد كل شارده وتقييد كل آبده لان مصلحتهم تقتضيها وحاكم أغراضهم يرتضيها

مطلب
اختلاف الاغراض فى المنافع العمومية

وارادة التمدن للوطن لا تنشأ الا عن حبه من أهل الفطن كما رغب فيه الشارع ففى الحديث حب الوطن من الايمان قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمر الله البلاد بحب الاوطان وقال على كرم الله وجهه سعادة المرء أن يكون رزقه فى بلده وقال بعض الحكماء لولا حب الوطن لما عمرت البلاد الغير المخصبة وقال الاصمعى دخلت الباديه فنزلت على بعض الاعراب فقلت له أفدنى فقال اذا أردت ان تعرف وفاء الرجل وحسن عهده ومكارم اخلاقه وطهارة مولده فانظر الى حنينه لاوطانه وشوقه الى اخوانه قال الشاعر

مطلب
الترغيب فى حب الوطن

وحبب أوطان الرجال اليهم * مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكرت أوطانهم ذكرتهم * عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
ولى موطن آليت انى أعزه * وان لا أرى غيرى له الدهر مالكا

(وقال آخر)

بلد صحبت به الشبيبة والصبا * ولبست ثوب العيش وهو جديد
فاذا تمثل فى الضمير رأيته * وعليه أغصان الشباب تميد

(وقال آخر)

اذا أنا لا أشتاق أرض عشيرتى * فليس مكانى فى النهى بمكين
من العقل أن أشتاق أول منزل * غنيت بخفض فى ذراه ولين
وروض رعاه بالاصائل ناظرى * وغصن ثناه بالغداة يمينى
وانى لا أنسى العهود اذا أتت * بنات الهوى دون الخليط ودونى
اذا أنا لم أرع العهود على النوى * فلست بمأمون ولا بأمين

والمراد ببنات الهوى بنات الدهر أى حوادثه فالوطن محبوب والمنشأ مألوف حتى لغير المتمدن بل يقال ان البادى الجبلى يتعلق بجبال أوطانه ويعلق بأذيال باديته ولا تعلق الحاضر بمدينته وحاضرته بحيث لا ينتقل الجلف من باديته الا للاتجاع فى الفلوات ويستسهل خرط القتاد ويرى عزه فى الصحارى التى ألف طبعه سكنى خيامها وتربض عقله عليها واعتاد كما يدل لذلك ما حكى عن ميسون بنت بحدل أنها لما اتصلت بمعاوية رضى الله عنه ونقلها من البدو الى الشام كانت تكثر الحنين على ناسها والتذكر بمسقط راسها فسمعها ذات يوم وهى تنشد

لبيت تخفق الارواح فيه * أحب الى من قصر منيف
وأكل كسيرة من كسر بيتى * أحب الى من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج * أحب الى من نقر الدفوف
ولبس عباءة وتقر عينى * أحب الى من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراق حولى * أحب الى من قط ألوف
وبكر يتبع الاظعان صعب * أحب الى من بغل زفوف
وخرق من بنى عمى نحيف * أحب الى من علج عنيف

فلما سمع معاوية الابيات قال ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتنى علجا من علوج العجم فالعربى كثير التعلق ببادينه فلا يمدح الا بها كما قال بعضهم

هذا أبو الصقر فردا فى محاسنه * من نسل شيبان بين الضال والسلم

والضال والسلم من أشجار البوادى ذوات الشوك فأشار الشاعر بذلك الى ما يتمدح به العرب من سكنى البادية لان العز عندهم مفقود فى الحضر فكان العظيم منهم بين الضال والسلم اشهر من نار على علم أو أنه من البعد عن الهضم والضيم شمس أو قمر بلا غيم بخلاف المتمدن فانه يكثر التنقل ولكن فى الحقيقة تنقله ثمرة من ثمرات التمدن مرتفعه تعود على الوطن بالمنفعه ولا نظر الى من حصل له ذل وهوان فرغب بذلك عن الاوطان كما قال الشريف الرضى

مالى لا أرغب عن بلدة * يكثر فيها الدهر حسادى

ما الرزق فى الكرخ مقيما ولا * طوق العلا فى جيد بغداد

وقال بعض امراء الحرمين

قوض خيامك عن أرض تهان بها * وجانب الذل ان الذل مجتنب

وارحل اذا كانت الاوطان منتقصة * فالمندل الرطب فى أوطانه حطب

فقد يذم الوطن من واحد ويمدح من آخر بحسب حال المتوطن فقد مدح الشريف المرتضى بابل وتشوق اليها بقوله

الا يا نسيم الريح من أرض بابل * تحمل الى أهل الخيام سلامى

وانى لاهوى أن أكون بأرضهم * على اننى منها استفدت مقامى

وقد كنت كالعقد المنظم منهم * فها أنا اذا سلكا بغير نظام

أبات أرجى أن يلم خيالهم * وكيف يزور الطيف دون منامى

فلا برق الاخلب بعد بينهم * ولا عارض الا بياض جهام

وخالف ذلك شرف الدين البيهقى حيث قال

أبابل لا واديك بالبر مفعم * لدى ولا ناديك بالرحب آهل

لئن ضقت عنى فالبلاد فسيحة * وحسبك عارا اننى عنك راحل

وان كنت بالسحر الحرام مدلة * فعندى من السحر الحلال دلائل

قواف تعير الاعين النجل حسنها * فكل مكان خيمت فيه بابل

وقال آخر يخاطب أحد الملوك

ان تكرمونى فانى غرس دولتكم * فما بقيت فطوع ومذعان

وان اهنتم فأرض الله واسعة * لا الناس أنتم ولا الدنيا خراسان

وقال آخر فى حق مصر

لم لأ ادين كبارهم * وصغارهم تيها وكبرا

ما النيل من ماء الحيا * ة ولا جميع الارض مصرا

فهذا قول المغلوب وكلام مهجور الوطن لا المحبوب وأحسن من ذلك قول من تغرب وأصيب فى الغربة بداء حب وطنه وتجرب

وبلدة قد رمتنى * بكل داء عنادا

ولو رجعت لاهلى * كانت بلادى بلادا

ويكفى فى حب الوطن ان كراهة الاجلاء منه مقرونة بكراهة قتل الانسان نفسه فى قوله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه (حكى) ان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مر ليلا فى المدينة فسمع

امرأة تقول

هل من سبيل الى خمر فاشربها * أم هل سبيل الى نصر بن حجاج

أي الى وصله لانه كان حسن الصورة وهو من بني سليم فدعاه عمر فرآه أحسن الناس وجها وله شعر حسن فحلق شعره فكان أحسن الناس بلا شعر فقال له أمير المؤمنين لا تساكني في بلدي فتشفع نصر اليه ان لا يخرجه من المدينة فلم يقبل عمر رضي الله عنه فلما ودعه نصر قال له يا أمير المؤمنين سمتني قتل نفسي فقال عمر كيف ذلك فقال قال الله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه فقرن هذا بهذا فقال ما أبعدت يا نصر لكن أقول ما قال شعيب ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله وقد أضعفت لك يا نصر عطاءك ليكون ذلك عوضا لك ومن أحسن ما قيل في حب الاوطان قول الصقلي

ذكرت صقلية والاسى * يهيج للنفس تذكارها

فان كنت أخرجت من جنة * فاني أحدث أخبارها

ولولا ملوحة ماء البكا * حسبت دموعي أنهارها

وصقلية جزيرة بايطاليا المسماة الآن سيسيليا كانت في يد الاسلام زمنا طويلا ويناسب هذا قول من قال

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى * ما الحب الا للحبيب الاول

كم منزل في الارض يألفه الفتى * وحنينه أبدا لاول منزل

وما أحسن قول بعضهم

عليّ لربع العامرية وقفة * ليملي عليّ الشوق والدمع كاتب

ولي مذهب حب الديار لأهلها * وللناس فيما يعشقون مذاهب

(وقال آخر)

وقائلة ماذا وقوفك ههنا * ببرية يعوى من العصر ذيبها

فقلت لها قلى الملامة وانصفي * هوى كل نفس حيث حل حبيبها

وحسب المؤمن بحب الوطن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة علا مطيته واستقبل الكعبة وقال والله لاعلم انك أحب بلد الله الي وانك احب أرض الله الى الله تعالى عز وجل وانك خير بقعة على وجه الارض واحبها الى الله تعالى ولولا ان أهلك أخرجوني منك لما خرجت وبالجملة فحب الاوطان على عظم الحسب وكرم الادب أبهى عنوان وهو فضيلة جليلة لا يؤدي حق الوفاء بها الا من حاز الشمايل النبيلة ولا تعين عليها الا الهمم العلية والعزائم الملوكية التي تقلد أعناق

الامتحلى المنة والنعمه فتبعثهم على التشبث بالاوطان والتعلق باذيال الاخوان والخلان لاسيما اذا كان الموطن منبت العز والسعاده والفخار والمجاده كديار مصر فهى أعز الاوطان لبنيها ومستحقة لبرها منهم بالسعى لبلوغ أمانيها بتحسين الاخلاق والآداب من جهتين عظيمتين (الاولى) انها ام لساكنيها وبر الوالدين واجب عقلا وشرعا على كل انسان (الثانية) انها ودود بارة بهم مثمرة للخيرات منتجة للمبرات فبرها يعود على ابنائها ثمرته وترجع اليهم فائدته ويحسن الصنيع بتضاعف الفوائد العوائد اضعافا مضاعفة وكلما تحسنت جهات البر من أهاليها حسنت أيضا الثمرات لطالبيها فاذا كانت لا تحرم من ثمرات مصر الاجانب فبالاحرى ان تتمتع بها الاقارب ففى الاثر من أعيته المكاسب فعليه بمصر وعليه بالجانب الغربى منها (ويروى) ايضا قسمت البركة عشرة أجزاء تسعة فى مصر وجزء فى الامصار كلها ولا يزال فى مصر بركة مافى الارضين كلها وقيل فى تفسير قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها ان المراد بمشارق الارض ومغاربها أرض مصر وقال عليه الصلاة والسلام مصر خزائن الارض والجيزة غيضة من غياض الجنة ذكر هذا الحديث صاحب المفاخرة بين مصر والشام (قال) بعض من انتصب لتفضيل دمشق لكونها وطنه على مصر عرفنا طيب الديار المصرية ورقة هوائها ولكن نحن لا نجفو الوطن حيث حبه من الايمان ومع هذا فلا ننكر ان مصرا قليم عظيم الشان وان مغلها كثير وان ماءها نمير وان ساكنها ملك أو امير وان الذهب فيها لا يوزن بالمثاقيل ولكن بالقناطير وان دمشق يصلح ان تكون بستانا لمصر ولاشك ان أحسن مافى البلاد البستان وهل دمشق الالمصر مثل الجنان

وقال عبد الله بن عمر أهل مصر أكرم الاعاجم كلها وأسمحهم يدا وأفضلهم عنصرا وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة يشير بهذا الى هاجر ام اسمعيل عليه السلام فانها من قرية ام دينار أو قرية أم دنين وكلاهما بمصر او يقال انها من بلدة بقرب الفرما والى مارية ام ابراهيم فانها من قرية بصعيدها من اقليم الجيزه (وقد روى) عن أبى ذر أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا باهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما فاذا رأيتم رجلين يقتتلان فى موضع لبنة فاخرج منها قال فمر بربيعة وعبد الرحمن ابنى شرحبيل يتنازعان فى موضع لبنة فخرج منها (ويروى) عن عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم منكم صهرا وذمة (وقال) عبد الله بن عباس رضى الله عنهما دعا نوح عليه

مطلب
بر مصر لبنيها وغيرهم

مطلب
خير مصر وبركاتها

الصلاة والسلام لولده وولد ولده مصريم الذى به سميت مصر مصرا فقال اللهم انه قد أجاب دعوتى فبارك فيه وفى ذريته واسكنه الارض الطيبة المباركة التى هى أم الدنيا وما أحسن قول الشاعر

جميع الارض فيها طيب عيش * ولذات وروضات أنيقه
وهذا كله فى غير مصر * مجازى وفى مصر حقيقه

فلهذا يقال ان مصر هى اختيار نوح عليه السلام لولده وكذلك صارت اختيار الحكماء لأنفسهم واختيار عمرو بن العاص لنفسه واختيار مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز وهكذا فكيف لا وهى بلد العلم والحكمة من قديم الدهر وحديثه ومنها خرج العلماء والحكماء الذين عمروا ممالك الدنيا بتدبيرهم وحكمتهم وفنونهم وصنائعهم ولم تزل الى الآن يسير اليها طلبة العلم وأصحاب الفهم من سائر الاقطار لتحصيل درجة الكمال وكفاها فخرا أنها تسمى خزائن الارض كما حكاه الله تعالى عن يوسف عليه السلام فى قوله لملك مصر اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم ولذلك قال بعضهم ان مصر خزائن الارض كلها وسلطانها سلطان الارض كلها يعنى ان يوسف لما تمكن من أرض مصر يتبوأ منها حيث يشاء كان بسلطانه فيها سلطان جميع الارض كلها لحاجتهم اليه والى ما تحت يديه حتى فى أيام الخلفاء كانت مثرية بالمآثر والمكارم تغنى الوافد عليها والقادم كما قال بعض الشعراء

قدمت مصر فأولتنى خلائقها * من المكارم ما أربى على الامل
قوم عرفت بهم كسب الالوف ومن * تمامها انها جاءت ولم أسل

ومما يدل أيضا على انها كانت بمكانة من التمدن فى قديم الازمان قوله تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام انه قال ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا وكذا قوله تعالى مخبرا عن فرعون انه قال أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى افلا تبصرون قال بعض المفسرين ولم يكن فى الارض ملك أعظم من ملك مصر وكان جميع الارضين يحتاجون الى مصر وأما الانهار فكانت قناطر وجسورا بتقدير وتدبير حتى ان الماء يجرى من تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاؤا انتهى وهذا عين التمدن اذ لا يكون ذلك الا بتقدم الصنائع والفنون ويؤيده بقايا الآثار المشاهدة التى لا كان مثلها فى غير مصر ولا يكون مع ما انمحى منها بشهادة قوله تعالى ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون وقد قنع المأمون بهذه الآية حين استصغر مصر فى عينه وذهل عن حقيقة الدراية والرواية فادرك بها من الحكمة الغاية

وبالجملة

وبالجملة فهى فرضة الدنيا يحمل خيرها الى ماسواها فيحمل منها من طريق بحر القلزم الى الحرمين واليمن والهند والصين والسند وبلاد افريقية ومن جهة بحر الروم الى بلاد الروم والقسطنطينية والافرنج وسواحل الشام والثغور الى حدود العراق والى صقلية وكريد وبلاد المغرب ومن جهة الصعيد الى بلاد الغرب والنوبة والسودان والحبشة والحجاز واليمن ولاسيما الآن بوصل البحرين الابيض والاحمر واتصال افريقية بآسيا على وجه أظهر فبهذا يقرب النقل منها واليها من سائر الاقطار المعموره والمنظور انها تصير بمنافع جميع ممالك الدنيا مغموره وتكثر مخالطتها مع جميع الامم فلا غرو وأن يأتى لها زمان يصير فيه تمدنها راسخ القدم فان لطالع التمدن دورا مخصوصا من أدوار الجمعيات التأنسية عند حضور الاوان تسطع أنواره على سائر الآفاق والبلدان

وما البدر الا واحد غير أنه * يغيب ويأتى بالضياء المجدد
فلا تحسب الاقمار خلقا كثيرة * فجملتها من نير متردد

فكل مملكة تأخذ حظها الاوفر من نير التمدن مدة قرون وأزمان بحمية أهلها ومغالاتهم فى حب الاوطان فقد شبه بعضهم حب الاوطان الحقيقى والغيرة عليها بحرارة جديدة محليه متمكنة من الابدان الاهليه متى حلت ببدن الانسان غلبت على الحرارة العزيزيه فلذلك اذا ظهرت الحمية الوطنية فى أبناء الديار المصريه وولعت بمنافع التمدنيه فلا جرم ان تذكو نارها وتغلب على القوة الاوليه فيحصل لهذا الوطن من التمدن الحقيقى المعنوى والمادى كمال الامنيه فبقدح زناد الكد والكدح والنهض بالحركة والنقلة والاقدام على ركوب الاخطار تنال الاوطان بلوغ الاوطار

دع الهوينا وانتصب وانتشب * واكدح فنفس المرء كداحه
وكن عن الراحة فى معزل * فالصفع موجود مع الراحه

وقال آخر

تنقل فلذات الهوى فى التنقل * ورد كل صاف لاتقف عند منهل

فمادامت المنافع متفرقة فى الجهات فلتكن الهمم فى تحصيلها من جهاتها قضايا موجهات فلابد لكل انسان وكل مملكة من الحصول على المادة الكافية لبلوغ الوطر لاسيما التى لايعرى منها بشر قال تعالى وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين فاذا انعدمت المادة التى هى قوام النفس لم تدم الحياة ولم تستقم الدنيا لاهلها فاذا تعذر على الانسان شئ من معايش الدنيا لحقه الوهن والاختلال فى دنياه

بقدر ما تعذر من المادة عليه لان الشيء القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله .

مطلب اختلاف اسباب المواد وتشعب المكاسب

ولما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة اليها وجب الحصول عليها من جهاتها ثم ان أسباب المواد مختلفة وجهات المكاسب متشعبة وانما كانت كذلك ليكون اختلاف أسبابها علة الائتلاف بها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها كي لا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون أو يشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون وقد هدا هم الله سبحانه وتعالى بعقولهم وأرشدهم اليها بطباعهم حتى لا يتكلفوا ائتلافهم في المعايش المختلفة فيعجزوا ولا يعانوا تقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا حكمة من الله سبحانه اطلع بها على عواقب الامور قال تعالى ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى قيل في تفسيره أعطى كل شيء ما يصلحه ثم هداه له وقيل أعطى كل شيء صورته ثم هداه لمعيشته وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا أى معايشهم متى يزرعون ومتى يغرسون وقال تعالى وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين أى قدر في كل بلدة منها ما لم يقدره في الاخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد ثم ان الله تعالى جعل للناس مع ما هداهم اليه من مكاسبهم وارشدهم اليه من معايشهم دينا يكون لهم حكما وجعل لهم شرعا يكون عليهم قيما ليصلوا الى مرادهم بتقديره ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره حتى لا ينفردوا بارادتهم فيتغالبوا ولا تستولى عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا قال تعالى ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن ثم انه جلت عظمته جعل توصلهم الى منافعهم من وجهين مادة وكسب اما المادة فهى حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها وهى شيآن نبت نام وحيوان متناسل قال تعالى وانه هو أغنى وأقنى أى أغنى خلقه بالمال وجعل لهم قنية وهى أصول الاموال وأما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى الكفاية والتصرف المؤدى الى الحاجة من وجهين أحدهما تقلب في تجارة والثانى تصرف في صناعة وهذا ان الوجهان هما فرع لوجهى المادة السابقين فصارت أسباب المواد

مطلب تقسيم اسباب المواد والمكاسب

المألوفة وجهات المكاسب المعروفة أربعة أوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة وكذلك حكى الحسن بن رجاء عن الخليفة المأمون انه كان يقول معايش الناس على اربعة أقسام زراعة وصناعة وتجارة وامارة فمن خرج عنها كان كلا علينا ولكن سيأتى لنا ان الامارة هى قطب رحى المنافع العموميه

مطلب اختلاف احوال المنافع العمومية

ثم ان احوال المنافع العمومية تختلف بتنقل الاحوال وتغير العادات ولا يمكن استيعاب طرق تحسينها وأدوات تمكينها وانما يجتهد كل انسان في الحصول على ما يبلغه من الوسع في صنائع زمانه وما استحسن عرفا من محسنات عصره واوانه

ولولا تغير الاحوال والعادات لكان المتقدم كفى المتأخر تكلفها وانما لحظ المتأخر أن يعانى نشد الشارد مع حفظه وجمع المتفرق بلحظه ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته وأوانه فيثبت ما كان موافقا وينفى ما كان مشاققا ثم يستمد خاطره فى استنباط الزوائد واستخراج الفوائد واختراع ما به السهولة وابتداع ما يبلغ رب البصائر مأموله

لعمرك ما الأبصار تنفع أهلها * اذا لم يكن للمبصرين بصائر
وهل ينفع الخطى غير مثقف * وتظهر الا بالصقال الجواهر

فتى اسعف الانسان بشئ اخترعه حظى بفضله بشرط ان يكون مألوفا للوقت وعرف أهله فان لاهل كل وقت عادة تؤلف ومنافع تعرف تقع من النفوس بموقع المحبة والرغبة لوضوح مسلكها وسهولة مأخذها والا كان ضائعا مستهجنا والاتيان به تعسف والالزام به تكلف فان العادة حقيقة بقول القائل

شئ به فتن الورى غير الذى * يدعى الجمال ولست أدرى ما هو

فان مستحسن العرف والعادة لا يوجبه عقل أو شرع بدليل اختلاف ذلك باختلاف البلاد كالتجمل والزينة فان لاهل المشرق زيا مألوفا ولاهل المغرب زيا معروفا غيره وكذلك يختلف العرف باختلاف اجناس الطوائف فان للاجناد زيا مألوفا يخالف مألوف العلماء والتجار وأصله ان يكون للناس على اختلافهم سمة يتميزون بها فان عدل واحد عن عرف بلده وجنسه بدون مندوحة عد ذلك منه حمقا فكل يتبع القيافة الخاصة به ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد المحدود أدل على الحق وامنع من الذم وربما توهم البعض أن التزيى بزى البلاد الاجنبية المشهورة بالتمدن هو من المروءة الكاملة والسيرة الفاضلة فيبادر بالامتياز بها عن الاكثرين بدون موجب مع ان قيافة بلده لا تنقص عنها شيأ وانما قصد بذلك الخروج من قيافة وطنه التى استرذلها الاجانب وخفى عليهم تعدى طورهم وتجاوز قدرهم وقبح بين أهل الوطن ذكرهم

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه * فكل رداء يرتديه جميل

فالتمدن ليس فى زينة الملابس بعرف مجهول متخيل استحسانه لاسيما اذا كان لا يمكن لمن تزيا به احسانه

وما الحلى الا زينة لنقيصة * يتمم من حسن اذا الحسن قصرا
وأما اذا كان الجمال موفرا * كحسنك لم يحتج الى ان يزورا

فحاجة الوطن الى المنفعة الحقيقية اشد من حاجته الى تقليد العرف الذى هو منفعة ظاهرية ولما كانت الديار المصرية فائقة فى المآثر جاهلية واسلاما ولها أسبقية التمدن

قديما وحديثا والآن تنافس الممالك الاخرى فى الفنون والصنائع وسائر أنواع المنافع لها الآن أن تزاحم فى ميادين صحيح الفخار وتصون درجة السلف التامة الاعتبار حتى يصح أن نقول

نشيد كما شادوا ونبنى كما بنوا * لنا شرف ماض وآخر غابر

فلهذا وجب علينا أن نسرد فى صحائف هذا الكتاب ما يبدو لنا من أحوال المنافع الملائمة لمزاج الوقت والحال مما عساه أن يستفيد منه الاهالى الفوائد الجمة من أسباب الرفاهية والنعمه كما قال النابلسى

لم أزل فى الحب يا أملى * أمزج التوحيد بالغزل

وتكفى الادلة الاقناعيه فى افادة أهمية المنافع العموميه وليكون للجميع فى وسائلها ومقاصدها كمال المعلوميه

كل له غرض يسعى ليدركه * والحر يجعل ادراك العلا غرضه

فالآن تعطر ملك مصر بشذا نسائم منافع الممالك الاجنبية فصار كما قيل

كأن تجارا تحمل الطيب عرسوا * به ثم فضوا ثم كل ختام

أى فضوا ختام المسك فتعطرت الارجا فهو لرجاء بلوغ الدرجة الكمالية أقرب حصولا وأرجى

(الباب الاول)

فى بيان المنافع العمومية من حيث هى وفى موادها ومتفرعاتها وما يتعلق بها وفيه فصول

مطلب تعريف المنافع العمومية

(الفصل الاول)

(فيما تطلق عليه المنافع وبيان موادها الاصلية وانها دالة على التمدن والعمران)

المنافع جمع منفعة وهى فى اللغة ضد المضرة ومنه قوله

اذا أنت لم تنفع فضر فانما * يرجى الفتى كيما يضر وينفع

وقد تطلق على الدواء كقوله

هم الناس فالزم ان عرفت طريقهم * ففيهم لضر العالمين منافع

وتطلق على المنفعة الشرعية فتكون عبارة عن جميع ما شرع من أنواع البر للتعاون وعليه كالقرض والعارية والهبة والصدقة والوقف وما أشبه ذلك مما يقتضى الالفة واتفاق الآراء فى تدبير المعاش والمعاد وتطلق فى عرف تدبير المنزل على ما يفعل لمصلحة

تخص بلدة أو مدينة أو مملكة لراحة أهلها وتنظيم أحوالهم من كل ما يعود عليهم بفائدة لها وقع فى المملكة وبها يترقى الوطن وتشترك فى ثمرتها أربابه فلهذا تقيد بالعمومية فهى بالمعنى العرفى تخص السياسة حيث انه قد لا تقتضى الاوضاع الشرعية المتأدب بها فى المملكة عين المنفعة السياسية الابتأويلات للتطبيق على الشريعة ومع ذلك فبنى المنفعة فى السياسة الشرعية على طريق اكتساب المال من غير مهانة ولا عسف وانفاقه فى المصارف الجيدة العاقبة الجميلة الذكر وبنى المنفعة أيضا على صرف الهمة الى ازالة المكروه عن الناس بقدر ما تسعه القدرة البشرية من اسعافهم واعانتهم وسيأتى فى الفصل الاول من الباب الثانى تعريفها فى اصطلاح الادارة الاوربية وانها مجمع الفضائل وقد ذكرنا فى المقدمة انقسام أسباب المعايش الى أربعة أقسام وهى زراعة وصناعة وتجارة ونتاج الحيوانات ونقول هنا ان هذه المنافع اذا وجدت فى مملكة دامت متى روعى فيها العدل والانصاف فتكون مقابلة للاستثمار والتمول وتحصيل النقود والمتاع والعقارات وجميع الاملاك الاحتياطية فبواسطة اكتساب الاهالى هذه المكاسب يصح لهم الانفاق المنزلى مع السعة والثروة وبفضول أموالهم يؤدون حقوق المملكة القائمة بحفظهم وصيانتهم مما أوجب ثروتها واقتدارها وينفقون فى سبيل الله ما شاء ان ينفقوا رحمة بذوى الحاجات فبهذا يتم النظام المنزلى والنظام المدنى وقوام كل من النظامين على الاقتصاد فى الانفاق وترك الحرص والطمع والاسراف والتبذير عملا بقوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك أى لا تمسك عن الانفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك فى وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات أى لا تجعل يدك فى انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط ثم قال ولا تبسطها كل البسط أى ولا توسع فى الانفاق توسعا مفرطا بحيث لا يبقى فى يدك شئ ثم قال تعالى فتقعد ملوما محسورا أى تلوم نفسك وأصحابك يلومونك على تضييع المال بالكلية ومعنى محسورا مقطوعا عن الانفاق يعنى عاجزا متحيرا وقد ذكر الحكماء ان لكل خلق طرفين أحدهما الافراط وثانيهما التفريط وهما مذمومان فالبخل مثلا افراط فى الامساك وهو مذموم والتبذير تفريط فى الانفاق وهو مذموم أيضا والوسط ممدوح وهو العدل فى الانفاق وهكذا كل فضيلة لها طرفان ووسط والوسط عبارة عن الانصاف فى الفضيلة وهو الممدوح منها ولكن ربما يقع فى الوهم فضيلة أحد الطرفين لعدم الوقوف على الحقيقة بترك معاشرة أرباب الفضائل فلهذا ينبغى تعيين محل تعلم الفضائل حتى لا تشتبه باضدادها وبيان ذلك ان الانسان من بين جميع الحيوان لا يكتفى بنفسه فى تكميل ذاته ولا بد له من معاونة قوم كثيرى العدد حتى تتم حياته طيبة

ويجرى أمره على السداد ولهذا قال الحكماء ان الانسان مدنى بالطبع أى هو محتاج
الى مدينة فيها خلق كثير لتتم له السعادة الانسانية فكل انسان بالطبع وبالضرورة
محتاج الى غيره فهو لذلك مضطر الى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة
ويحبهم المحبة الصادقة لانهم يكملون ذاته ويتممون انسانيته وهو أيضا يفعل بهم مثل
ذلك فاذا كان ذلك كذلك بالطبع وبالضرورة فكيف يؤثر العاقل العارف بنفسه التفرد
والتخلى وتعاطى ما يرى الفضيلة فى غيره فاذن القوم الذين رأوا الفضيلة فى الزهد وترك
مخالطة الناس وتفردوا عنهم اما بملازمة المغارات فى الجبال واما ببناء الصوامع
فى المفاوز واما بالسياحة فى البلدان للدروشة لا يحصل لهم شئ من الفضائل الانسانية
المدنية المعهودة التى عددناها وذلك ان من لم يخالط الناس ويساكنهم فى المدن لا تظهر
فيه هذه الفضائل من العفة والنجدة والسخاء والعدالة بل تصير قواهم وملكاتهم
التى ركبت فيهم بالنسبة للخيرات المدنية والمنافع العمومية عاطلة لأنها
لا تتوجه الى خير ولا الى شر بالنسبة للعموم فاذا تعطلت ولم تظهر أفعالها الخاصة بها
صاروا بالنسبة لقصور صفاتهم عليهم وعدم عودها بالمنفعة على غيرهم بمنزلة الجمادات أو
الموتى من الناس ولذلك يظنون ويظن بهم انهم اعفاء وليسوا بأعفاء فهم كما قال الشاعر

يقول أبو سعيد مذ رآنى * عفيفا منذ عام ما شربت
على يد أى شيخ تبت قل لى * فقلت على يد الافلاس تبت

وتقول العامة من العفة ان لا تجد وكذلك فى سائر الفضائل أعنى انه اذا لم يظهر منهم
اضدادها هذه التى هى شرور ظن بهم الناس انهم أفاضل وليست الفضائل اعداما بل
هى افعال واعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم وفى المعاملات وضروب
الاجتماعات ونحن انما نعلم ونتعلم الفضائل الانسانية التى نساكن بها الناس ونخالطهم
لنصل منها وبها الى سعادات أخر اذا صرنا الى حال أخرى وتلك الحال غير موجودة لنا
الآن فالسخاء فرع عن وجود مال بيد الانسان استفاد بالمخالطة حسن صرفه
فى الخير فاذا أحسن صرفه بالوجه الاوسط كان حائزا لفضيلة السخاء وعلى كل حال
فمن جوامع الكلم قول بعض الحكماء لا خير فى السرف كما لا سرف فى الخير فمن يطلب
زيادة المال ويلتمس الكثرة فى أسباب الكسب ليصرف مكاسبه فى وجوه الخير ويتقرب
بها فى جهات البر ويصنع بها المعروف جدير بالحمد اذا توقى مطالب التبعات
ومكاسب الشبهات لان المال آلة المكارم وعون على الدين ومؤلف للاخوان
ومن فقده من أبناء الدنيا قلت الرغبة فيه وكثرت الرهبة منه ومن لم يكن منهم بموضع
رغبة ولا رهبة استهان الناس به وما أحسن ما قاله مع التورية الامام العارف بقية

السلف الطاهر أبو الفضل بن ونى

وخـل سمتـه صفـعا بمال * فقال تو ازعـوه يا صحابى
اذا الحمل الثقيـل توازعتـه * اكف القوم هان على الرقاب

ومثله فى التورية ماكتبه ابن أبى حجلة الى الخواجه شهاب الدين الذهبى وقد مطله بحوالة ذهب من قوله

قد منعتم صرف الدنانير عـنى * ولكم فى الورى هبات كثيره
وانا شاعر وفى شرع نظـمى * صرفها واجب لاجل الضروره

قال مجاهد الخـير فى القرآن كله المال فقوله تعالى وانه لحب الخير لشـديد يعنى المال وأحببت حب الخير عن ذكر ربى يعنى المال وقوله تعالى فكاتبوهم ان علمتم فيهـم خيرا يعنى مالا وقال تعالى عن شعيب انى أراكم بخير أى بمال وغنى وانما سمى الله المال فى القرآن خيرا اذا كان فى الخـير مصروفا لان ما أدى الى الخير فهو فى نفسه خير (وقد روى) عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ان أحساب أهل الدنيا هـذا المال (وقال) عبد الرحمن بن عوف يا حبذا المال أصون به عرضى وأرضى به ربى (وقال) ابن عباس الدراهم والدنانير خواتم الله فى الارض لا تؤكل ولا تشرب وحيث قصدت بها قضيت حاجتك * قيل لبعضهم لم تحب الدنانير وهى تدنى من النار قال هى وان أدنت منها فقد صانت عنها (وقال) بعض الحكماء من الملوك من أصلح ماله فقد صان الاكرمين الدين والعرض ومر رجل من أرباب الاموال ببعض العلماء فتحرك له وأكرمه وأدناه فقيل له بعد ذلك أكانت لك اليـه حاجة فقال لا ولكن رأيت ذا المال مهيبا فهبته و يقال الدراهم مراهـم لانها تداوى كل جرح ويطيب بها كل صلح وقال أحيحة بن الجلاح

رزقت لبا ولم أرزق مروءته * وما المـروءة الا كثرة المال
اذا أردت مواساة تقاعدنى * عما ينوه باسمى رقة الحال

وقال بعضهم

ومن يطلب المال الممنع بالقنا * يعش ماجدا أو تخترمه الخوارم

وقال آخر

كفى حزنا انى أروح وأغتـدى * ومالى من مال أصون به عرضى
وأكثر ما ألقى الصـديق بمرحبا * وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

وأما ذم جمع المال فهو محمول على من يقتنى الاموال ليدخرها و يكف عن صرفها فى وجوه الخيرات حيث ان ذلك يستدعى سوء ظنه بخالقه مع ان فى حسـن الظن بالله

راحة القلوب مصداق ذلك والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم

ثم ان مشروعية التعاون على المنافع العمومية يدل عليها كثير من الآيات والاحاديث النبوية فمن ذلك قوله تعالى وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان وقوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون أى ان من أنفق كان من جملة الأبرار الذين قال تعالى فيهم ان الابرار لفى نعيم على الارائك ينظرون الآية والبر أيضا أكثر اعمال الخير فهو صفة جامعة ومعنى الآية عليه لن تتصفوا بهذه الصفة وهى استجماع اعمال الخير حتى تنفقوا مما تحبون فتفوزوا بفضيلة البر فأفضل طاعات الانسان انفاق مايحبه فكان السلف اذا أحبوا شيأ جعلوه لله تعالى (روى) انه لما نزلت هذه الآية قال أبو طلحة يارسول الله لى حائط أى بستان بالمدينة وهو أحب أموالى الى أفأتصدق به فقال عليه السلام بخ بخ ذاك مال رابح وانى أرى ان تجعلها فى الاقربين فقال أبو طلحة افعل يارسول الله فقسمها فى اقاربه ويروى انه جعلها بين حسان بن ثابت وأبى بن كعب رضى الله عنهما (وروى) ان زيد بن حارثة رضى الله عنه جاء عند نزول هذه الآية بفرس له كان يحبه وجعله فى سبيل الله فحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم اسامة فوجد زيد فى نفسه فقال عليه السلام ان الله قد قبلها * واشترى ابن عمر جارية أعجبته فأعتقها فقيل له اعتقتها ولم تصب منها فقال لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون والانفاق هنا يشمل الزكاة وغيرها من كل شئ أنفقه الانسان من ماله يبتغى به وجه الله تعالى حتى التمرة وقوله مما تحبون فيه اشارة الى ان انفاق الكل لايجوز كما قال تعالى والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فهذا أدب الله تعالى وقال عليه الصلاة والسلام ان الله يحب الرفق فى الامر كله وقال الشاعر

عليك بأوساط الامور فانها * نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

ويقال ثلاثة من حقائق الايمان الاقتصاد فى الانفاق والانصاف من نفسك والابتداء بالسلام وضابط الاقتصاد فى الانفاق ان مادبره العقل وناله الفضل فهو الاقتصاد الجميل الحسن فالعقل السليم لايميل الى الفرط ولا الى الشطط بل يتبع الوسط الذى هو خير الامور

مطلب المروءة

ومن شواهد فضيلة البر ودلائل الكرم والانفاق المروءة التى هى حلية النفوس وزينة الهمم وهى مجاراة النفس على أفضل أحوالها (روى) عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته وحرمت غيبته (وسئل) بعض الحكماء

عن

عن الفرق بين العقل والمروءة فقال العقل يأمرك بالانفع والمروءة تأمرك بالارفع ولا ينقاد للمروءة مع ثقل تكلفها الامن سهلت عليه المشاق رغبة فى المحمدة وهانت عليه الملاذ حذرا من المذمة ولذلك قيل سيد القوم اشقاهم أى أكثرهم مشقة قال المتنبى

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والاقدام قتال

وقال

واذا كانت النفوس كبارا * تعبت فى مرادها الاجسام

والداعى الى استسهال الصعب فى التمسك بالمروءة شيئان علو الهمة وشرف النفس فأما علو الهمة فانه باعث على التقدم وداع الى التخصص أنفة من خمول الضعة واستنكار المهانة النقص وفى الحديث الشريف ان الله تعالى يحب معالى الامور ويكره سفسافها وأما شرف النفس فبه يكون قبول التأديب وتقويم التهذيب فاذا شرفت النفس كانت للاداب طالبه وفى الفضائل راغبه فاذا تجرد شرف النفس عن علو الهمة كان الفضل به عاطلا حتى قيل ان شرف النفس مع صغر الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس لان من غلبت عليه همته مع دناءة نفسه كان متعديا الى طلب مالا يستحقه ومتخطيا الى التماس مالا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحقه ومقصر عما يجب له والفرق بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد منهما من الذم نصيب قال الشاعر

ان المروءة ليس يدركها امرؤ * ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا * ونهته عن سبل العلا فأطاعها
فاذا أصاب من المكارم خلة * يبنى الكريم بها المكارم باعها

قال أنوشروان الكامل المروءة من حصن دينه ووصل رحمه وأكرم اخوانه (وقال) بعض الحكماء كامل المروءة من أحب المكارم واجتنب المحارم فالبر الحقيقى المذكور فى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون حليف للمروءة الكاملة ويطابق هذه الآية الشريفة قوله صلى الله عليه وسلم اذا مات ابن آدم انقطع عمله الامن ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به او ولد صالح يدعو له رواه الامام مسلم رضى الله عنه بلفظ اذا مات المسلم بدل ابن آدم فقد حث الحديث النبوى على ثلاث فضائل جامعة شاملة لاساس الدنيا والدين فى حق صاحب العمل تديم عمله وتجعله باقيا كأن صاحب العمل حى يعمله مأجور دائما فهذه الفضائل مخلدة للذكر مؤبدة للاجر وبضدها تتميز الاشياء فان من لا صدقة له فى حياته ولا علم ولا ذرية فعمله مقطوع من أصله فهو ميت الاحياء

مطلب
حديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله الامن ثلاث

حيث عدم الفضائل الثلاثة
فالفضيلة الاولى الصدقة الجارية خصها بعض العلماء بالوقف وجعلها من أدلة تشريعه وقال بعدم دخول الوصية فى معنى الصدقة وبعدم دخول صدقة التطوع والقرينة دالة على العموم لاسيما اذا كان الحديث فى معرض فضائل الاعمال فالعبرة بعموم لفظه فالمدار على أن تكون الصدقة جارية مستمرة باقية مخلدة لا ينقطع نفعها ولا يمتنع من الدر ضرعها كحفر الآبار فى أى محل من المحال حيث يصير النفع بها رصدت على جهة أم لم ترصد وغرس الاشجار التى يتظلل بها واجراء الانهار وتسليك الطرق وجميع الافعال الخيرية الدائمة فالصدقة الجارية بهذا المعنى جامعة لاكثر أركان المنافع العمومية والاوقاف داخلة فيها مما رصد للمساجد والمارستانات ونحو ذلك مما يبتغى به الواقف وجه الله تعالى حتى يكون من المنافع العمومية والباقيات الصالحات والاعمال الحسنات فان كثيرا من أرباب اليسار يحرصون على بناء المساجد والمدارس ويحبسون عليها الدور والخانات والحوانيت وغيرها ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد ذكرهم ويذكر فى صحف أهل الخير خيرهم فاذا كان هذا البناء وما رصد عليه من وجه حلال طيب كان من مصداق الحديث يعنى من الصدقات الجارية النفع والثواب والا بأن كان بوجه الاغتصاب أو كان لمجرد الفخر كان راصده مجردا عن الاجر مجازى بالعقاب فلو كان صاحبه رد المال على أربابه لكان أولى وكذلك من تظاهر بصرف ماله على الفقراء لكن يرسل الى نظار الجوامع والمساجد أشياء جسيمة لا تصل الى أربابها المحتاجين اليها بل أخذها من لا يستحقها ويظن مرسلها ان صدقته صادفت محلا فقد تساهل فى صدقته اذ قد تعدت مصارفها الحقيقية فأولى من هذه الصدقات الظاهرية تصرف الاموال فى منفعة عمومية حقيقية يكون فيها الغبطة والمنفعة للفقراء والمساكين بحيث تعود عليهم مستمرة لا منقطعة

مطلب الصدقة الجارية

ومن جملة الصدقات ما يكون للنفس فيه خبيئة وهى حب المدح والاعطاء والرياء والسمعة ليقال فلان يعطى كصدقة المتصدقين فى المحافل لقصد الشكر وافشاء المعروف ومن الناس من يكثر من الملاهى والافراح بدون لزوم وينفق فى ذلك النفقات الجسيمة وهو يعلم كثرة الفقرا فى قريته والجياع من جيرته وأهل بلدته بل ومن أرحامه فلو انفق عليهم ما صرفه فى محض اللهو واللعب لفاز ولو استفتى العقل فى ذلك لافتاه بالنجاز ولكن قد فاته كمال السباق الى الفضائل فى ميدان السابقين وما درى ان أداء الواجب خصوصا فى اطعام الفقراء للمستحقين خير من نوافل النوافل بيقين ودون من لا يعرف وجوه المصارف الحقيقية وأبواب المنافع العمومية من

يجمع المال ويبخل باخراجه ولا يتصدق به ولا يترضه لمحتاجه فيجهد النفس فى البخل المهلك ويرى ان الامساك خير من الانفاق واولى فلا ينتفع بثواب الآخرة ولا بمنفعة الاولى فهذا قابض بيده على اسباب الحرص والامل ولا شك ان الحرص من سبل المتالف وآفة من آفات الحرمان واطالة الامل من اساءة العمل وذلك لما فيه من التسويف وقيل الامل مذموم الا من العلماء فلولا أملهم لما صنفوا وأيضا لا يخلو الامل من سر لطيف لانه لولا الامل ما تهنأ أحد بعيش ولا طابت نفسه أن يشرع فى عمل من أعمال الدنيا فالمذموم منه الاسترسال فيه وعليه يحمل حديث أنس رفعه أربعة من الشقاوة جمود العين وقسوة القلب وطول الامل والحرص على الدنيا أخرجه البزار (قال) بعض الحكماء الرزق مقسوم والحريص محروم والحسود مغموم والبخيل مذموم وقال الشاعر

لا تحسدن أخا حرص على سعة * وانظر اليه بعين الماقت القالى
ان الحريص لمشغول بشقوته * عن السرور بما يحوى من المال

وكان المأمون يعجبه قول أبي العتاهية

تعالى الله يا سلم بن عمرو * اذل الحرص أعناق الرجال

وقبله

نعى نفسى الىّ من الليالى * تصرفهن حالا بعد حال
فما لى لست مشغولا بنفسى * وما لى لا أخاف الموت ما لى
لقد أيقنت انى غير باق * ولكنى أرانى لا أبالى

تعالى الله يا سلم بن عمرو الخ

وبعده

هب الدنيا تساق اليك عفوا * أليس مصير ذلك الى الزوال
فما ترجو بشئ ليس يبقى * وتنسى ما تغيره الليالى

قال فلما بلغ سلم الخاسر قول أبى العتاهية قال

ما أقبح التزهيد من واعظ * يزهد الناس ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صادقا * أضحى وأمسى بيته المسجد
ان رفض الدنيا فما باله * يكثر المال ويسترفد
يخاف أن تنفد أرزاقه * والرزق عند الله لا ينفد
الرزق مقسوم على من ترى * يسعى له الابيض والاسود

مطلب نوادر البخلاء

فقد بين ذلك البيت وهو تعالى الله يا سلم بن عمرو الخ نتيجة الحرص وعاقبة البخل فشطره الاول من التهويل المبكت وشطره الاخير من جوامع الكلم المسكت

وقد تفنن الادباء وأرباب النوادر فى حكاية وقايع للبخلا اما واقعية او اختراعية فلنذكر

جملة منها الترويح النفوس فنقول مما يحكى انه قيل لبعض البخلاء ما الفرج بعد الشدة فقال أن يحلف على الضيف فيعتذر بالصوم قيل ان رجلا من البخلاء حضر بخصم الى حاكم فقال يا حاكم المسلمين اشتريت البارحة رأسا فأكلت لحمه وتركت عظمه على بابى لا تجمل به فجاء جارى هذا فنقله الى بابه وتخاصما فسمعه الحاكى وهو يقول له ويحك أنت تقعد يوما على باب دارى ويوما تقعد فى ظل جدارى ويوما تقول كيف راح فلان فهل بلغك انى على مطلب قيل وكان العماد الحلى يقول ليس الشجاع عندى عمرو بن معدى كرب ولا عنترة العبسى ولا خالد بن الوليد انما الشجاع الذى يرى طعامه يؤكل بحضرته وهو صابر ويقال ان العماد الحلى المذكور اشترى مملوكا تركيا فحضر اليه يوم سبت بدمشق المحروسة فقال له أريد أن أتفرج مع المماليك فاعطنى شيأ فأعطاه فلسا فرماه فغضب العماد وقال ويحك ترمى الفلس وهو النقطة التى فى وسط الدينار فقال له المملوك وكيف ذلك فقال لا ترى فى يدك فلسا حتى تصرف درهما ولا ترى فى يدك درهما حتى تصرف دينارا وهذا الفلس الذى رميت به يقضى حاجة ساعة وحاجة يوم وحاجة اسبوع وحاجة شهر وحاجة عام وحاجة الدهر كله فقال له مملوكه وكيف ذلك فقال اما حاجة ساعة فقصعة عقيد أو كوز فقاع وأما حاجة يوم فباقة بقل أو زيت للسراج وأما حاجة اسبوع فقطن للقناديل وأما حاجة شهر فكبريت وأما حاجة عام فلح وأما حاجة الدهر فوتد يدق فى الحائط ليعلق عليه الثياب (قال) عبد العظيم بن أبى الاصبع نزلت من قلعة الرها يوما وصحبنى اثنان من أصحاب الملك المظفر شهاب الدين لقصد السلام على العماد الحلى بالمدرسة وكان وكيل بيت المال بالرها من قبل الملك العادل قال فلما اجتمعنا به طلبنا الغداء منه فقال نحن بصريون نتخارج على جارى عادتنا ولكن ما احيف عليكم لانى صاحب البيت انا وحدى ومن عندى ثلاثة أشياء وأنتم الثلاثة من عندكم شئ واحد أنا من عندى الغلام الذى يشترى الحاجة والبيت للجلوس والسفرة التى يؤكل عليها وأنتم الثلاثة من عندكم الفضة التى يشترى بها الحاجة فقلت له يا عماد ما أشبه هذه المخارجة بمخارجة بعض الخلفاء مع نديم له اجتمع به فى يوم نوروز وعزما على الشرب فقال له نديمه من عندك شئ ومن عندى شئ وقد تم المقام وقال اسمع منى شعرا أذكر فيه ما يكون من عندى وما يكون من عندك وأنشد

منى ومنك غدا يوم نسر به * فى صحة اليوم ان اليوم نوروز
البيت منك ومنى الكنس اكنسه * والرش منى ومنك الماء والكوز
واللحم منك ومنى النار نطبخه * والاكل منى ومنك الخبز مخبوز
والراح منك وريحان وفاكهة * والشرب منى اذا دارت قواقيز

قوله قواقيز جمع قاقوزة وهى مشربة او قدح او الصغير من القوارير اهـ مؤلفه

هذى مخارجة ماسن سنتها * فى مثل ذا اليوم بهرام وفيروز

وأما قوله نحن نصنو بون نتخارج على جارى عادتنا فاشارة الى بخل أهل البصرة كما تشيده واقعة النضر بن شميل النحوى فانه لما ضاقت معيشته بالبصرة خرج يريد خراسان فشيعه من أهلها نحو من ثلاثة آلاف رجل مافيهم الا محدث أو نحوى أو عروضى أو أخبارى أو لغوى فلما صار بالمربد قال يا أهل البصرة يعز على فراقكم والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلى مافارقتكم فلم يكن فيهم من يتكلف له بذلك وهذه الواقعة تشبه واقعة القاضى عبد الوهاب البغدادى المالكى فانه لما نبت به بغداد خرج منها طالبا مصر فشيعه من أكابرها وفضلائها جماعة موفورة فقال لهم لما ودعهم لو وجدت بين ظهرانيكم كل غداة وعشية رغيفين مافارقت بغداد ومن شعره فيها

مطلب ماقيل فى البخلاء من الشعر

بغداد دار لاهل المال طيبه * وللمفاليس دار الضنك والضيق

أقمت فيها مضاعا بين ساكنها * كأننى مصحف فى بيت زنديق

وقيل حلف بعض البخلاء على صديق له فاحضر له خبزا وجبنا وقال لا تستقل هذا الجبن فان رطله بثلاثة دراهم فقال ضيفه أنا أجعل الرطل بدرهم ونصف قال وكيف ذلك قال آكل لقمة بجبن ولقمة بغير جبن (وقيل) شوى لبعض البخلاء دجاجة وقدمت اليه فوجد أخذها قد عدم فنادى فى داره من ذا الذى تعاطى فعقر والله لاخبزت فى هذا التنور خبزا مدة شهر فقال له غلامه وكان ذكيا ياسيدى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا فقال ويحك أما قرأت قوله تعالى واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (وقيل) سمع بعض البخلاء قارئا يقرأ قوله تعالى الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل فقال هنأهم الله (قيل) كان أبو دلف سخيا بالمال بخيلا بالطعام سئل رجل كان يأكل معه كيف كان طعامه فقال كان على مائدته رغيفان قيل كيف كانت صحافه قال كأنها خرطت من الخردل قيل فكم بين اللون واللون قال فترة نبى قيل فمن كان يأكل معه فقال الكرام الكاتبون وأنشد فيه

أبو دلف يضيع ألف ألف * ويضرب بالحسام على الرغيف

أبو دلف لمطبخه قتار * ولكن دونه ضرب السيوف

والقتار رائحة القدر * ومما قيل من الاشعار فى البخلاء

ثقلت على الرئيس أبى على * وكنت على قريحته خفيفا

ومالى عنده والله ذنب * سوى أنى كسرت له رغيفا

غيره

رأيت الشيخ أعرض حين جئت * وكاد يموت لما أن دخلت
فقلت علام تجزع من لقائى * لك البشرى فانى قد أكلت

غيره

ويعجن للضيف فى مسعط * دقيق الشعير ولا ينخل
ويستقبل الضيف من فرسخ * أيا ضيف قل لى متى ترحل

وقال آخر

أتيت عمرا سحرا * فقال انى صائم
فقلت انى قاعد * فقال انى قائم
فقلت آتيك غدا * فقال صومى دائم

وقال الشيخ شمس الدين المزين

مسلمانى أضافنا * لبنا ماله ثمن
بيض الله وجهه * كلما جاء باللبن

وقال الحمدونى

رأيت أبا زرارة قال يوما * لحاجبه وقد حضر الطعام
حلال الله من أهل ومال * على وكل مايجرى حرام
لئن فارقت باب الدار شبرا * وعندى منه عرق أو عظام
لا تصفن منك بكل حق * وأملا منك سيفى والسلام
فقال له الغلام فان أتانى * أبوك وليس لى فيه مرام
فقال لئن أتى فى البيت هز * على خبزى أضاربا أو أضام
اذا حضر الطعام فلا حقوق * على لوالدى ولا ذمام
فما فى الارض أقبح من خوان * عليه الخبز يحضره زحام

وقال ابن بسام

أما الرغيف على الخوا * ن فمن حمامات الحرم
ما ان يحس ولا يمس ولا يذاق ولا يشم

وقال الحمدونى

أبو نوح دخلت عليه يوما * فغدانى برائحة الطعام
وجاء بلحم لا شئ سمين * وقدمه على طبق الكلام

فكان

فكان كمن سقى الظمآن آلا * وكنت كمن تغدى فى المنام

فالممسك عن الانفاق حرصا على الدنيا وخشية من الاملاق ضعيف الايمان قليل الوثوق بالرزق الذى ضمنه لعباده الملك الرزاق حيث قال نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا مع أن الرزق يتيسر بالصدقات وفعل الخيرات فهى من جملة أسبابه فقد قال عليه الصلاة والسلام استنزلوا الرزق بالصدقة وقال جعفر بن محمد انى لأملق فأتاجر الله بالصدقة فأربح (وقيل) لعلى رضى الله عنه كيف يحاسب الله العباد على كثرتهم قال كما قسم فيهم أرزاقهم وقال الامام مالك سمعت أهل مكة يقولون ما من أهل بيت فيهم اسم محمد الا رزقوا و رزق خيرا وقال بعض الحكماء ليس كل طالب للدنيا مذموما بل المذموم من طلبها لنفسه فمن طلب الدنيا للدنيا كان مذموما ومن طلب الدنيا لاصلاح معاشه ومعاده كان ممدوحا

مطلب الرزق

وعلى هذا تحمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم فكل ما دخلوا فيه من أسباب الدنيا فهم بذلك الى الله متقربون وفى رضاه متسببون لا يقصدون بذلك زخرف الدنيا وزينتها ولا ذوق حلاوتها ولذتها ولذلك وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا وما ظنك بقوم اختارهم الله تعالى لصحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ولمواجهة خطابه فى تنزيله فما أحد من المؤمنين الى يوم القيامة الا وللصحابة فى عنقه منن لا تحصى وأياد لا تستقصى لانهم هم الذين حملوا الينا عنه صلى الله عليه وسلم الحكم والاحكام وبينوا الحلال والحرام وفهموا الخاص والعام وفتحوا الاقاليم والبلاد وقهروا أهل الشرك والعناد وقال صلى الله عليه وسلم فيهم أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وقد وصفهم الله تعالى بأوصاف الى أن قال يبتغون فضلا من الله ورضوانا فدل ذلك على أن ما ابتغوه من الدنيا لم يقصدوا به الا وجه الله الكريم وقال سبحانه وتعالى فى آية أخرى فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فلم يبق عنهم الاسباب ولا التجارة ولا البيع ولا الشراء فلا يخرجهم عن المدحة غناهم اذا قاموا بحقوق مولاهم

مطلب طلب الدنيا لغرض

قال عبد الله بن عتبة كان لعثمان رضى الله عنه يوم قتل مائة ألف وخمسون ألف دينار وألف ألف درهم وترك ألف فرس وألف مملوك وخلف من ضياعه بئر أريس وخيبر ووادى القرى ما قيمته مائتا ألف دينار وبلغ مال الزبير بن العوام خمسين ألف دينار وترك ألف فرس وألف مملوك وغنى عبد الرحمن بن عوف أشهر من أن يذكر وكانت الدنيا

فى أكفهم لا فى قلوبهم صبروا عنها حين فقدت وشكروا الله تعالى حين وجدت وانما ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالفاقة فى أول أمرهم حتى تكملت أنوارهم وتطهرت أسرارهم فبذلها لهم حينئذ لانهم لو أعطوها قبل ذلك فلعلها كانت تأخذ بمجامع قلوبهم فلما أعطوها بعد التمكين والرسوخ فى اليقين تصرفوا فيها تصرف الخلفاء الامين وامتثلوا فيها قول رب العالمين وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فكانت الدنيا فى أيدى الصحابة لا فى قلوبهم

مطلب مآثر الصحابة فى الصدقات

ويكفيك فى ذلك خروج عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عن نصف ماله وخروج أبى بكر عن ماله كله وخروج عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه عن سبعمائة بعير موقورة الاحمال وتجهيز عثمان بن عفان رضى الله عنه جيش العسرة الى غير ذلك من أفعالهم فتضمنت الآية التزكية لظواهرهم وسرائرهم ولا شك أن الصحابة الأكرمين والسلف الصالح صار واقدوة لغيرهم فبهذا المعنى سنوا سننا فكان لهم أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ولا شك أنها من الصدقات الجارية وداخلة أيضا فى العلم الذى ينتفع به الآتى فى الفضيلة الثانية وأما ما صنعه الخلفاء من الصدقات فهو أكثر من أن يحصر ولو لم يكن الا ما فعلته أم جعفر زبيدة بنت جعفر زوجة الرشيد من الخيرات لكان كافيا فى الدلالة على همة الخلفاء فى فعل المعروف

مطلب الصدقة التى تصادف محلها

فقصتها فى حجها وما اعتمدته فى طريقها مشهورة أوليس أنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار وأنها أسالت الماء عشرة أميال بحط الجبال ونحت الصخر حتى غلغلته من الحل الى الحرم وعملت عقبة البستان فقال لها وكيلها يلزمك نفقة كثيرة فقالت اعملها ولو كانت ضربة فاس بدينار

ثم ان فعل الصدقة يكون فى البلاد المتمدنة المحتاج اليها من الفقراء العاجزين والمتقاعدين والارامل وأهل الضرورات من أهل البلاد أو من غريب الاقطار ومن المعلوم أن ديننا الاسلام الذى شرع لسعادة الامة هو وسيلة التمدن المعظمى فأول ما فتح الله سبحانه وتعالى مصر فى عهد أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان أول من رتب وارصد من بيت مال المسلمين على الخيرات والعلماء والمجاهدين وأولادهم وعيالهم وأهل الضرورات ما لزم من الارصادات وهاذه الارصادات الشرعية مستمرة فى جميع الدول والقرون ولله فى شريعته أسرار لا يعقلها الا العالمون وتبع أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه على زيادة هذه الارصادات واجراء حقوقها من جاء بعده من الخلفاء والسلاطين فكانت سنة حسنة متبعة الى وقت تولية السلطان نور الدين الشهيد فأحدث هذا السلطان مرتبات وعلوفات وأنشأ أوقافا

مطلب خيرات نور الدين الشهيد ومن اقتفى أثره

كثيرة

كثيرة من بيت المال على جهات خير من مساجد ومارستانات إعانة المستحقين
على وصول حقهم اليهم من بيت المال بسهولة فقيل للسلطان نور الدين الشهيد ان
في بيت المال مرتبات كثيرة مصروفة للفقراء والضعفاء والقراء فلو استعنت بها
في الجهاد ومنعتها عن هؤلاء وصرفتها للاجناد لكان أمثل فغضب رحمه الله تعالى
وقال اني لا ارجو النصر بأولئك القوم قال صلى الله عليه وسلم وهل تنصرون
وترزقون الا بضعفائكم كيف أقطع خيرات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي
وأصرفها الى قوم لا يقاتلون عني الا اذا رأوني بسهام قد تخطئ وتصيب وهؤلاء لهم
نصيب في بيت المال كيف أقطعه عنهم ولا أصرفه لهم ثم تبعه على ذلك السلطان
صلاح الدين يوسف فأرصد كثيرا من بيت المال للمستحقين والارامل وأرباب
الانساب من البكرية والعمرية وغيرهم وتبعه الملك الكامل من بني أيوب فانه لما
ملك مصر أرسل وزيره ليكشف له على أموال مصر وخراجها فأرسل الوزير يخبره
في رقعة ان المرتبات من بيت المال للعلماء والفقراء في كل سنة مائتان وسبعون ألف
دينار وانه يحصل بذلك خلل في الخزائن السلطانية ونقص من الاموال فكتب الملك
الكامل تحت ذلك بخطه الفاقة مرة المذاق والمال مال الله الرحيم الرزاق والخلق
عيال الله وهو الواحد الخلاق ما عندكم ينفد وما عند الله باق أجروا الناس على
عوائدهم في الاستحقاق فانا لا نحب أن ينسب الينا المنع والى غيرنا الاطلاق
والاولى بالمرء الحسنة من مكارم الاخلاق والكم هذا الحديث يساق وقال صلى الله عليه
وسلم من تسبب في قطع رزق أخيه المسلم قطع الله رزقه

مطلب
اقرار السلطان سليم خان المرتبات بمصر على حالها

فلما تولى السلطان الظاهر برقوق الديار المصرية أراد أن يبطل المرتبات والعلوفات
التي احدثها ملوك الاكراد قبله من بيت المال وعقد لذلك مجلسا حافلا وقال ان اصول
هذه المرتبات قيل أخذت من بيت المال بالحيلة وقد استغرقت نصف أموال بيت المال
وأراد ابطال ذلك فأقنعه علماء عصره ومنهم شيخ الشيوخ اكمل الدين شارح الهداية
مفتي السادة الحنفية وعلامة عصره الشيخ البلقيني شيخ السادة الشافعية وغيرهما من
العلماء وقالوا جميع ما أرصد وقرر على مستحق بيت المال ومصارفه فلا سبيل لولي
الامر على نقضه وانقضى المجلس على ذلك وقد أفتى بذلك أيضا سلطان العلماء العز بن
عبد السلام وغيره من العلماء الاعلام ولم تزل الملوك العادلون يقتفون اثر من قبلهم
في ذلك ويسلكون في ترتيب الخيرات واجراء الصدقات الجارية أقوم المسالك الى
أن تولى الملك المظفر السلطان سليم خان وتظم مصر في سلك دولة بني عثمان فأبقى جميع
ما بمصر من العلوفات والمرتبات على ما كان عليه ولما وشى اليه بعض امرائه بأن تلك

الموقوفات قد استغرقت كثيرا من الاموال وطلب منه رفعها لاقتضاء الاحوال قابله
بالمنع والطرد وردّ عليه أشنع الردّ وقال تلك صدقات من قبلنا فلا نحب ان يكون
قطعها من قبلنا ولما تولى بعده ولده السلطان سليمان خان تغمده الله بالرحمة والرضوان
سعى اليه بعض أهل الحدثان وذكروا له ان هذه المرتبات الآيلة للاولاد والعيال
والحرميات لم تصادف من الشرع محلا وانها باطلة فرعا وأصلا فأرسل خطا شريفا
بابطال ذلك فراجعه علماء عصره وزمانه وترجوا عظيم عطفه واحسانه وذكروا له
ان ما رتب وأرصد على تلك الخيرات وعلى الارامل وعيال المقاتلة وأولادهم والعلماء
لا سبيل الى نقضه شرعا لصدوره عن نواب السلطنة مع موافقته المصالح الشرعية
وذكروا له احسان والده على الاقطار المصريه فابقى ما كان على ما كان وزاد
من لطفه فوق ذلك الاحسان وأصدر فرمانه الشريف وخطه الهمايونى المنيف
بابقاء المرتبات على ما هى عليه اغتناما للثواب واحرازا للدعوات الصالحات التى
ليس دونها حجاب

مطلب
تنظيم الصدقات الجارية بأساليب جديدة فى أيام المرحوم محمد على واقتفاء خلفه أثره

ولم تزل هذه الارزاق على مستحقيها دارّه وبها عيون العواجز والارامل وأهل العلم
والقرآن قارّه الى ان حصلت التقلبات والفتن وتصاريف الدهر بالمحن وتغلب
الفرانساويه على الديار المصريه بعد عسف وجور دولة المماليك وسوء تدبيرهم
فى الرعيه ثم ازيحت اشكال هذه البليه وانتج الانتاج الصحيح تمام مقدمات
القضيه باستيلاء المرحوم محمد على على المملكة اليوسفيه فكان من أعظم
الاعوان والانصار لمصر فى رفع التكاليف الشاقة ودفع متاعب الاكدار فقصد
اعادة فضيلة مصر على سائر الامصار بما لم يسبق لها مثله فى سائر الاعصار وقد وجد
فى ارصاد هذه المرتبات شذوذا فى أساليب التراتيب فرد ترتيبها الى نظام جيد عجيب
وزاد فى هذه الخيرات أضعافا مضاعفه واجرى ما درج عليه ملوك الاسلام من
الطرائق الشرعية والمتعارفه وما أسسه من صنائع الخير والمبرات يكاد أن يكون
خصوصية جعلها الله له من أعظم الكرامات واقتدى به فى ذلك خلفه الصالح
فجدد الفعل الخير فى مصر صالح المصالح وفى مشهور الحكم أسعد الملوك من له وزير
اذا نسى ذكره واذا ذكر أعانه ونسأل الله تعالى ان يديم العز والنصر لمن يريد الخير
العميم لمصر

مطلب
استحسان اعانة أهل اليسار لولى الامر على فعل الخير لتكثير المحال الخيرية

ومما ينبغى اعانة ولى الامر على مضاعفة المحال الخيريه من أرباب جمعيات الاغنياء
واهل الميسرة لتكثير وسائل البر والتقوى كتكثير المارستانات التى ترصد على المرضى
والزمنى العاجزين عن المعالجة فى بيوتهم وكترتيب مارستانات ترصد على الاطفال

الذين

الذين يلتقطونهم من الطرق والايتام وعلى الشيوخ المتقدمين فى السن والعميان والبله والمجانين وأرباب العاهات العاجزين وكالمحال الخيريه والشركات السلميه اى المتعلقة بالبيع والشراء على سبيل السلم لتسهيل الاخذ والعطاء وقطع دابر الربا ولاغاثة الملهوفين من القرض بربا الفضل ولاعانة المعسرين والمفلسين من التجار المتعطلين عن الاشغال لحصول حادثة جبرية أوجبت الكساد وسوء الحال وبالجملة فارصاد التكايا والمدارس والرباطات والشركات المباحة شرعا وكل مافيه مصلحة هى مشروعات خيرية لايستطيع ان تقوم بها الدولة وحدها أو انسان مخصوص وحده ويد الله مع الجماعة فلابد فى ابراز هذه المصالح الخيرية من جمعية أغنياء ترصد عليها الارصادات وترتب لها الرواتب اللازمة الدائمة الاستغلال فهذه صدقات جارية من جهة شركات تعاونية يقتسمون أجرها ويحرزون شكرها فجمعيات فعل الخير بالاشتراك قليلة فى بلادنا بخلاف التصدقات الشخصية والارصادات الاهلية يرصدها الواحد فى الغالب كالسبيل والصهريج والمكتب فان هذا يجدد بمصر كثيرا ولا يتأسس له مابه يكون الدوام والاستمرار ومن العجيب انه يسهل على النفوس احداث الجديد و يصعب عليها اصلاح القديم المحتاج للاصلاح والتعمير ومع ذلك فالمصر لايستغنى عن الخيرات العمومية التى تقتضيها الاوقات والاحوال كارصاد مكاتب لتعليم البنات لاسيما مكتب لتعليم فاقدات البصر منهن و يتمنى أن من يفوز بارصاد هذه المكاتب للنساء يكون من الخواتين الغنيات اللاتى يوقفن فى العادة أوقافا عظيمة دون ماذكر فى الاهمية ومن الثابت ان زبيدة زوجة الرشيد فعلت كثيرا من الخيرات وكان لها مائة جارية يحفظن القرآن ولكل واحدة ورد عشر القرآن وكان يسمع فى قصرها كدوى النحل من قراءة القرآن مع ماأحدثته من الخيرات العديدة وحسبها العين الجاوية بالحجاز المسماة عين زبيدة فليت جميع الخواتين والهوانم يقتدين بها فى احياء المآثر واسداء المكارم

وكذلك عظماء الامراء فانهم أولى بالارصادات العظيمة التى تليق بمقامهم فبالبيتهم يقتدون فى ذلك بحضرة الامير راتب باشا الشهير ناظر عموم الاوقاف سابقا حيث بنى رواقا واسعا متصلا بالجامع الازهر موقوفا على طلبة العلم من الحنفيه وعلى مدرسى هذا المذهب واجزل فيه من الخيرات الوفيه لتكثير اهل المذهب فرواقه الآن بالازهر علم منيف وطراز مذهب بل عمت خيرات الباشا المشار اليه المتواصله حتى اقتضت احياء مذهب السادة الحنابله فقد رتب لرواقهم جرايات للشيخ والطلبه وحضروا من الشام لاحياء هذا المذهب وكان المشار اليه للخير العظيم سببه فهذا

هو فعل الخير المبني على الاخلاص فى البر والاحسان من أمير خطير هو خلاصة اشراف معد وعدنان فما أحسن هذا الصنيع من الامير صاحب المقام الرفيع الذى وضع الندى فى موضعه وما أوضع الحريص المضيع ماله لشرهه ولطمعه ومما ينظم فى سلك التعاون على البر والتقوى ومراعاة وجه الله الكريم فى التمسك بالسبب الاقوى ما صنعه حضرة خليل أغا باش أغاوات حضرة ذات الدولة والعصمة والدة الجناب الخديو ولى النعمه حيث انشأ بجانب المشهد الحسينى مدرسة العدد كثير من الايتام المنقطعين وأوقف عليها ما يقوم باجراء عوائدها وتبرع لها بما لم يسبقه به أحد من المتبرعين فخصص رأس مال جسيم لدوام هذه المدرسة واشترط لوقفها وأسس أصولا مستحسنة لحسن ادارتها وتنظيمها وانشأ أيضا تكية للأغوات القديمى الاكتساب ولم يسبق فى ذلك وخصه الله بالهام هذا الصواب وهذا مما يطيب ذكره ويضاعف ثوابه وأجره وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يزيد فى العمر الا البر ولا يرد القدر الا الدعاء

وهذا كله انفاق ممدوح وعلامة القبول عليه تلوح بخلاف انفاق من يحمل نفسه ولو فى الصدقات فوق ما تطيق فيعلوه الدين الذى لا يعرف له جهة وفاء فيدخل نفسه فى ربقة الضيق ويعدم الحميم والصديق فتسوء اخلاقه ولا ينفعه تصدقه وانفاقه قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت ان قتلت فى سبيل الله مقبلا غير مدبر أيكفر الله عنى خطاياى قال نعم الا الدين بذلك اخبرنى جبريل وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال صاحب الدين محبوس عن الجنة بدينه * طلب رجل حكيم من رجل أن يديه دينا فلم يفعل فقال الحمد لله لم يكن من منعك الآن وجهى احمر من الحياء مرة واحدة ولو أعطيتنى لم يصفر وجهى من مطالبتك مرة بل ألف مرة قال تعالى وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعلى لسان العامة لاهم الاهم الدين ولا وجع الا وجع العين وهذا كله محمول على الدين الذى ينفق فى غير الرشد أو يترتب عليه المطل وعدم الوفاء والا لما كان القرض مشروعا (وقال) جعفر بن محمد المستدين تاجر الله فى أرضه * وقال عمر بن عبد العزيز الدين وقر طالما حمله الكرام (وقال) عمرو بن العاص من كثر صديقه كثر دينه وقال بعضهم الدين رق فلينظر احدكم اين يضع رقه وكان ابن الزبير رضى الله عنه ينشد

ألا ليت النهار يعود ليلا * فان الصبح يأتى بالهموم
حوائج ما نطيق لها قضاء * ولا دفعا وروعات الغريم

وذلك لان الدين هم بالليل وذل بالنهار فالعجب كل العجب من يتطوع بالخير ويتصدق

مطلب الدين

باموال

بأموال الناس ويخلط العمل الصالح بالسيء ويظن انه من الفعل الحسن مع انه بمعزل عن الحزم والاستقامة معتمدا على قضاء دينه الذى استدانه بدون باعث شرعى ولا مقتضى سياسى ومعولا على سوف وعسى ولعل فهذا هو المديان الذى يتراكم عليه الدين ودين الدين لا الى نهاية ولا الى أجل بل ربما لا ينقضى وان انقضى الاجل فصدقة من هو بهذه المثابه قل ان تقع موقع الاصابه فليست موضوع الصدقة الجارية المذكورة فى حديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية الحديث وانما موضوعها ارباب الغنى واليسار انفرادا واجتماعا انفصالا واشتراكا ومن المعلوم ان مكارم الاخلاق ممدوحة عند جميع الدول والملل لاعانة المحتاجين لا لاهل البطالة والكسل

ولهذا لما تغلبت الفرانساوية على الديار المصرية لحوا أن بها كثيرا من الكسالى القادرين على الاشغال الذين يؤثرون السؤال على الاعمال ويلحون فى الطلب فخنق حاكمهم من ذلك ونشر قانونا مشتملا على خمسة بنود

البند الاول جميع الناس الذين يسألون الناس فى الطريق ويطلبون الحسنة منهم يصير القبض عليهم وحضورهم أمام ضابط مصر ثم يتوجهون الى سجن القلعة مالم يكونوا من أصحاب العاهات كالعميان والعرجان والعاجزين عن الاشغال

مطلب قانون الشحاذة

البند الثانى كل ملة من الاسلام والنصارى من أروام وقبط وشوام ومن اليهود أيضا تعمل من الآن فصاعدا حانوتا لقبول كافة العميان والعرجان والشحاذين العاجزين عن الشغل يكون معدا لهم

البند الثالث كل رئيس ملة يلتزم بلوازم حانوته وكافة مصاريف الحانوت من نفقة الاكل والشرب وخلافه تتقرر على أهالى الملة المذكورة

البند الرابع فى مدة تدبير الحوانيت وترتيبها يأمر كل كبير ملة بجمع كافة فقراء ملته ويرضيهم ويعطيهم لوازم الاكل والشرب والسكنى الى حد انتهاء تدبير الحوانيت المذكورة واستكمالها

البند الخامس يجب على كبير كل ملة أن يتبصر فى أمر تدبير الحانوت لملته ويأخذ الامر اللازم لذلك من شيخ البلد ويسعى فى اتمامه فهذه التدابير فى حد ذاتها خيرية ولكن الحكومة المصرية الحالية قد كفت أهل الحاجة والمسكنة مؤنة السؤال ورتبت للجميع فى جامع طيلون اسبتالية جسيمة منقسمة الى بلوكات للفقراء والمساكين وارباب العاهات من نساء ورجال وكبار وأطفال يتحقق بها جارى الصدقات الوطنية حيث نافست قديم المرتبات القلاوونية فمثل هذه من الصدقات الجارية المذكورة

هو فضل الخير المبنى على الاخلاص فى البر والاحسان من أمير خطير وخلاصة اشراف معتد وعدنان فما أحسن هذا الصنيع من الامير صاحب المقام الرفيع الذى وضع الندى فى موضعه وما أوضع الحريص على المضيع لماله لشره وطمعه ومما ينتظم فى سلك التعاون على البر والتقوى وتمر اعاته وجه الله الكريم فى التمسك بالسبب الاقوى ما صنعه حضرة خليل أغا باش أغاوات حضرة ذات الدولة والعصمة والدة الجناب الخديوى ولى النعمة حيث انشأ بجانب المشهد الحسينى مدرسة لعدد كثير من الايتام المنقطعين وأوقف عليها ما يقوم باجراء عوائدها وتبرع لها بما لم يسبقه به أحد من المتبرعين فخصص رأس مال جسيم لدوام هذه المدرسة ونشر علومها وأسس أصولا مستحسنة لحسن ادارتها وتنظيمها وانشأ أيضا تكية للاغوات القديمي الاكتساب ولم يسبق فى ذلك وخصه الله بالهام هذا الصواب وهذا مما يطيل ذكره ويضاعف ثوابه وأجره وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يزيد فى العمر الا البر ولا يرد القدر الا الدعاء

وهذا كله انفاق ممدوح وعلامة القبول عليه تلوح بخلاف انفاق من يحمل نفسه ولو فى الصدقات فوق ما تطيق فيستلزم الدين الذى لا يعرف له جهة وفاء فيدخل نفسه فى ربقة الضيق ويعدم الحميم والصديق فتسوء اخلاقه ولا ينفعه تصدقه وانفاقه قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت ان قتلت فى سبيل الله مقبلا غير مدبر أيكفر الله عنى خطاياى قال نعم الا الدين بذلك اخبرنى جبريل وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال صاحب الدين محبوس عن الجنة بدينه * طلب رجل حكيم من رجل أن يدينه دينارا فلم يفعل فقال الحمد لله لم يكن من منعك الا ان وجهى احمر من الحياء مرة واحدة ولو أعطيتنى لم يصفر وجهى من مطالبتك مرة بل ألف مرة قال تعالى وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعلى لسان العامة لا هم الا هم الدين ولا وجع الا وجع العين وهذا كله محمول على الدين الذى ينفق فى غير الرشد أو يترتب عليه المطل وعدم الوفاء والا فما كان القرض مشروعا (وقال) جعفر بن محمد المستدين تاجر الله فى أرضه * وقال عمر بن عبد العزيز الدين وقر طالما حمله الكرام (وقال) عمرو بن العاص من كثر صديقه كثر دينه وقال بعضهم الدين رق فلينظر احدكم اين يضع رقه وكان ابن الزبير رضى الله عنه ينشد

ألا ليت النهار يعود ليلا * فان الصبح يأتى بالهموم
حوائج ما نطيق لها قضاء * ولا دفعا وروعات الغريم

وذلك لان الدين هم بالليل وذل بالنهار فالعجب كل العجب ممن يتطوع بالخير ويتصدق

مطلب الدين

بأموال الناس ويخلط العمل الصالح بالسيء ويظن انه من الفعل الحسن مع انه بمعزل عن الحزم والاستقامة معتمدا على قضاء دينه الذى استدانه بدون باعث شرعى ولا مقتضى سياسى ومعولا على سوف وعسى ولعل فهذا هو المديان الذى يتراكم عليه الدين ودين الدين لا الى نهاية ولا الى أجل بل ربما لا ينقضى وان انقضى الاجل فصدقة من هو بهذه المثابة قل ان تقع موقع الاصابة فليست موضوع الصدقة الجارية المذكورة فى حديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية الحديث وانما موضوعها ارباب الغنى واليسار انفرادا واجتماعا انفصالا واشتراكا ومن المعلوم ان مكارم الاخلاق ممدوحة عند جميع الدول والملل لاعانة المحتاجين لا لاهل البطالة والكسل

ولهذا لما تغلبت الفرانساوية على الديار المصرية لحوا أن بها كثيرا من الكسالى القادرين على الاشغال الذين يؤثرون السؤال على الاعمال ويلحون فى الطلب فخنق حاكمهم من ذلك ونشر قانونا مشتملا على خمسة بنود

البند الاول جميع الناس الذين يسألون الناس فى الطريق ويطلبون الحسنة منهم يصير القبض عليهم وحضورهم أمام ضابط مصر ثم يتوجهون الى سجن القلعة مالم يكونوا من أصحاب العاهات كالعميان والعرجان والعاجزين عن الاشغال

مطلب
قانون الشحاذة

البند الثانى كل ملة من الاسلام والنصارى من أروام وقبط وشوام ومن اليهود أيضا تعمل من الآن فصاعدا حانوتا لقبول كافة العميان والعرجان والشحاذين العاجزين عن الشغل يكون معدا لهم

البند الثالث كل رئيس ملة يلزم بلوازم حانوته وكافة مصاريف الحانوت من نفقة الاكل والشرب وخلافه تتقرر على أهالى الملة المذكورة

البند الرابع فى مدة تدبير الحوانيت وترتيبها يأمر كل كبير ملة بجمع كافة فقراء ملته ويرضيهم ويعطيهم لوازم الاكل والشرب والسكنى الى حد انتهاء تدبير الحوانيت المذكورة واستكمالها

البند الخامس يجب على كبير كل ملة أن يتبصر فى أمر تدبير الحانوت لملته ويأخذ الامر اللازم لذلك من شيخ البلد ويسعى فى اتمامه فهذه التدابير فى حد ذاتها خيرية ولكن الحكومة المصرية الحالية قد كفت أهل الحاجة والمسكنة مؤنة السؤال ورتبت للجميع فى جامع طيلون اسبتالية جسيمة منقسمة الى بلوكات للفقراء والمساكين وارباب العاهات من نساء ورجال وكبار وأطفال يتحقق بها جارى الصدقات الوطنية حيث نافست قديم المرتبات القلاوونية فمثل هذه من الصدقات الجارية المذكورة

في حديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث الحديث
والفضيلة الثانية تؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم أو علم ينتفع به أي علم علمه الانسان لغيره فصار نافعا والعلم النافع مرادف للحكمة المفسرة به فهو ما يوصل الى الصفات العليه والمناقب السنيه ويثمر الثمرات الدنيويه والاخرويه ويدعو الى المكرمة وينهى عن القبيح وهو المراد بقوله تعالى ومن يؤت الحكمه فقد أوتي خيرا كثيرا حيث فسر العلماء الحكمة بتفاسير كثيرة ترجع الى العلم النافع والافعال الحسنة الصائبة فالعلم بهذا المعنى يشمل العلوم النظرية والعملية بمعنى معرفة الحقائق والاقدام عليها بالعمل فجميع العلوم النافعة عقلية ونقلية نظرية وعملية داخلة بهذا المعنى تحت قوله صلى الله عليه وسلم أو علم ينتفع به

مطلب العلم النافع

ثم ان العلم أشرف ما رغب فيه الراغب وأفضل ما طلبه وجد فيه الطالب وانفع ما اكتسبه واقتناه الكاسب

اذا رمت تسمو لنيل العلا * وقدرك بالله عال وغالى
فبالعلم فاسم لها محرزا * فما مثله لطلاب المعالى

لان شرفه ينم على صاحبه وفضله ينمى عند طالبه قال تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فمنع من المساواة بين العالم والجاهل لما خص به العالم من فضيلة العلم وأنشد الرشيد عن المهدى

يا نفس خوضي بحار العلم أو غوصي * فالناس ما بين معموم ومخصوص
لا شئ في هذه الدنيا يحاط به * الاحاطة منقوص بمنقوص

وقال على كرم الله وجهه قيمة كل امرئ ما يحسن فقيل في هذا المعنى

لا يكون الهلى مثل الدنى * لا ولا ذو الذكاء مثل الغبى
قيمة المرء قدر ما يحسن المر * ءقضاء من الامام على

واعلم ان كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها أمر محال (قيل) لبعض الحكماء من يعرف كل العلوم فقال كل الناس وحسبك قوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا * قال بعض الحكماء المتعمق في العلم كالسابح في البحر ليس يرى أرضا ولا يعرف طولا ولا عرضا

قل للذين قضوا في العلم عمرهم * ثم اطمأنوا وظنوا أنهم فرغوا
العلم أعظم مما تزعمون فكم * قد بلغ الناس في هذا وما بلغوا

واذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة أهمها والعناية بأولاها وأفضلها فأولى العلوم وأفضلها العلوم الشرعية التي بمعرفتها جميع الناس

يرشدون وبجهلها يضلون ولا يهتدون فهي كما قال صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وقال صلى الله عليه وسلم خيار امتي علماؤها وخير علمائها فقهاؤها * وروى عن أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال التفقه في الدين حق على كل مسلم الا فتعلموا وعلموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا انتهى

وربما مال بعض المتهاونين بالدين الى العلوم العقلية ورأى أنها أحق بالفضيلة وأولى بالتقدمة استثقالا لما تضمنه الدين من التكليف واستصعابا لما جاء به الشرع الشريف من التعبد والتوقيف ولكن قل أن ترى ذلك فيمن سلمت فطنته وصحت رويته لان العقل يمنع من ان يكون الناس هملا اوسدى يعتمدون على آرائهم المختلفه وينقادون لاهوائهم المتشعبه لما تؤول اليه امورهم من الاختلاف والتنازع وتفضي اليه احوالهم من التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن شريعة يأتلفون اليها ويتفقون عليها * ونقل القطب الشعراني عن شيخه سيدى على الخواص انه قال أحب لاخواننا من طلبة العلم ان لا يتحكموا على كلام الله القديم بظاهر أدلتهم وتأويلهم وان لا يعطلوا أنفسهم من العمل ويقولون حتى نفرغ من التعلم ثم نعمل وان لا يستغرقوا عمرهم في زوائد العلوم التي لا يحتاج اليها الا في النادر وان لا يتركوا عمل الحرفة التي يكون بها قوام معاشهم خوفا عليهم ان يأكلوا بدينهم وعلمهم أو يتعرضوا الصدقات الناس وأوساخهم فان الاكل بذلك يطمس افهامهم بخلاف أكل الحلال فان له مدخلا في فهم دقائق العلوم ولذلك فاق النووى أقرانه مع قصر عمره وصار ترجيح المذهب راجعا اليه لانه كان لا يأكل الا من الحلال انتهى (وقال) بعضهم ارزاق الفقهاء من صدقة أموال الظلمة مكدرة بشروط الواقفين منغصة بمنن النظار من باشرها أكلها صدقة ومن لم يباشرها أكلها حراما وبالجملة فان الاكل من صدقات الناس ولا ثمهم يقسي القلب ويسد الفهم وهو ضد الورع فالعلماء للشريعة هم الزمام وبانتظام احوالهم يكمل الانتظام فاذا اكتسبوا من الحلال بصنعة استغنوا عن الشبهة المتوسطة بين الحرام والحلال واكتفوا شر السؤال كما قيل

ان حزت علما فاتخذ حرفة * تصون ماء الوجه لا يبذل
ولا تهنه أن يرى سائلا * فشان اهل العلم أن يسئلوا

مطلب تعداد فضائل العلوم الشرعية وآلاتها

ويتعلق بالشريعة الغراء عدة علوم بين الشافعي رضي الله تعالى عنه فضيلة كل علم منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم العربية رق طبعه انتهى فقد جمع في ذلك العلوم الشرعية النقلية وأدواتها وهي علوم العربية والرياضية التي عبر

مطلب الحساب

عنها الحساب (قال) بعضهم وأما العلوم العقلية فترجع الى أربعة علوم فعلم له أصل وفرع وعلم له أصل ولا فرع له وعلم له فرع ولا أصل له وعلم لا أصل له ولا فرع * فأما الذى له أصل وفرع فهو الحساب والعلوم الرياضية ليس بين أحد من الخلق فيها اختلاف فالحساب مستنبط من حروف المعجم وهو فى حد ذاته أصل من أصول العلوم النافعة لانه كما قاله ابن خباح به يعلم عدد الصلوات والزكوات والصيام والشهور والسنين وتحدث السنون من الشهور والشهور من الجمعات والجمعات من الايام والايام من الساعات والساعات من الدرج والدرج من الدقائق والدقائق من الشعائر والشعائر من الانفاس وتنتهى قسمة الانفاس الى أجزاء لا يعلمها الا الله تعالى ومنشأ هذه الازمنة من دوران الفلك ويستدل على ذلك بسير الكواكب والشمس والقمر فتنشأ بين ذلك كله الازمنة والاوقات التى يستدل بها على معالم الدين من أوقات الصلوات والصيام والحج وحين الزكاة ومدد عدد النساء ومحل الآجال ويقيد ذلك كله بالحساب والعدد حتى لا يشذ شئ مما يحتاج علمه بالتاريخ المصطلح عليه وقد عدد الله تعالى نعمه علينا بذلك فى قوله هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق وقد أخذت العرب حسابهم من أبجد فوجدوه ينتهى من واحد الى ألف لا زيادة ولا نقصان اولها الالف الذى هو واحد وآخرها الغين الذى هو ألف ولكن تعبدت الامة المحمدية برؤية الهلال عند الصوم وعند الافطار لا بالحساب الذى يقوله الحساب والمنجمون من ان الهلال لم يظهر لانه كان فى حجاب الشمس أو فى السرار مما لم تتعبد به بل أحال الشرع على الرؤية التى يستوى فيها الناس فقال صلى الله عليه وسلم صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فان غم عليكم فاقدروا له أى اكملوا عدة شعبان فهذه منافع الحساب فى العبادات والعادات ومنافعه فى المعاملات والعقليات وفى كل شئ لا تحصى ولا تحصر فهو أصل له فروع كثيرة * والعلم الذى له أصل ولا فرع له فهو علم النجوم فالنجوم لها حقيقة وأثر ظاهرى فى العالم كالفصول والاوقات ونحو ذلك ولا يتفرع عنها شئ * وأما العلم الذى له فرع ولا أصل له فالطب فانه مبنى على التجارب الى يوم القيامة يعنى أن أصله من نفسه فهو يتجدد بفروعه التجريبية وهذا لا يمنع من كونه ينقسم الى عدة أقسام اتسعت أيضا فروعها بالتجارب حتى صارت علوما وتعددت موضوعاتها بالنسبة لاجزاء بدن الانسان على تعددها فالموضوع الكلى للطب المبحوث عنه فيه هو بدن الانسان صحة واعتلالا ثم تعدد الموضوع كطب العين والاذن والانف وهكذا وكالتشريح وتشخيص الامراض وكل هذا هو عين التجربة التى هى دائما آخذة فى التجدد الى ما شاء الله * وأما العلم

الذى

الذى لا أصل له ولا فرع فهو العلوم السوفسطائية والمغالطات والجدليات التى هى عبارة عن الفلسفة الفاسدة الهادمة لاصول الاديان لا الفلسفة الصحيحة المرادفة للحكمة وأما العلوم الشرعية فهى وآلاتها أول العلم النافع

مطلب
تقسيم العلوم

وقد اعتنى العلماء بالتأليف فيها لاسيما العلوم الثمانية وهى علم التفسير ويلحق به علم القراآت والتجويد ثم علم الحديث دراية ورواية ثم علم الفقه ثم علم اصول الفقه ثم علم اصول الدين ثم علم النحو ومنه الصرف ثم علم المعانى والبيان ويلحق بهما البديع والعروض ثم علم التصوف وكل هذه علوم نافعة ثم يليها الفنون والصناعات وهى أيضا علوم وعمليات من درجات اخرى متفاوتة لاتتم العلوم الشرعية الابها وما لايتم الواجب الابه فهو واجب فان الفنون والصنائع عليها مدار انتظام الممالك وتحسين الحالة المعاشية للامم والآحاد فهى من فروض الكفايات أوليس ان من الفنون صناعة الخط الذى له فضل وشرف ومنفعة لايجهلها من عرف وبه تقيد العلوم وتثبت وتزرع فى الصدور وتنبت وقد قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه المحكم اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم وقال عليه الصلاة والسلام قيدوا العلم بالكتابة

مطلب
فضل الكتابة

ولما لم يكن عند اكثر العرب كتابة فى الجاهلية وكانت اذ ذاك امة امية جعل لها الشعر عوضا فادركت به مراما وغرضا اقيم عن الكتابة مقامها فابدت بمحفوظ الشعر كلامها وعرفت به انسابها وأيامها فكان أول من أدخل فى بلاد العرب الكتابة العربية هو سيدنا اسمعيل فاختص بهذه الفضيلة الاولية وأول من أدخل الكتاب العربى أرض الحجاز هو حرب بن أمية أو سفيان بن أمية فتشبثوا بالحقيقة وساعدتهم على المجاز يعنى فازوا بالصناعتين واتسعت تجارتهم بالبضاعتين وقس على منفعة الخط فى البلاد المنتظمة غيره من الفنون والصناعات التى اكسبت جميع البلاد المجد والعظمة مما يفيد المال الصالح للرجل الصالح فانه لاتصلح الفعال الا بالاموال من الحلال والاموال لاتكون الا بالكسب من وجه من وجوه الصنائع المعاشية لتعين على المعاد به فلا أحسن ممن يكسب المال من حله ويصرفه فى محله ويكف به وجهه عن الناس فالفنون التى هى وسائل ذلك ليس عنها مندوحة وهى فى الشرع ممدوحة فلا مانع من دخولها تحت قوله صلى الله عليه وسلم أو علم ينتفع به أى نفعا متصلا دائم الثواب فالحديث الشريف فى قوله أو علم ينتفع به شامل لتعليم المعارف النافعة سواء كانت علوما أو فنونا أو صناعات أو آلات فانها لاتخلو عن مدارك علمية وشامل أيضا الاجتهاد المجتهدين ووضع الواضعين وتدوين المدونين وللتصنيف

والتدريس وغير ذلك فالعمدة على العمل الذي ينشأ عنه معلومات نافعة لاهل الملة والوطن وللناس أجمعين ويدل على ذلك ما ورد في رواية أخرى اذا مات ابن آدم ختم على عمله الاعشرة فذكر هذه الثلاثة وزاد غرس النخل ووراثة المصحف والرباط في الثغر وحفر البئر واجراء النهر وبناء بيت للغريب وبناء مسجد لله تعالى وتعليم القرآن فهذا يفيد أن الصدقة الجارية يدخل فيها جميع ما ذكر كما بيناه اولا وتعليم القرآن ووراثة المصحف يدخلان في العلم المنتفع به وان الثلاثة المذكورة ليست حاصرة فلا مانع ان يقاس على التعليم كتابة الكتب وطبعها ممن يأمر بذلك او يباشره أو يعين عليه أو من يدل عليه حيث كان الدال على الخير كفاعله

فكل من سن سنة حسنة دائمة النفع فهي داخلة في العلم النافع يدل على ذلك ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام في قوله من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فالمؤمن الغارس غرسا حسيا أو معنويا يحصد ثمره ثمرا حلوا حسيا أو معنويا فغرسه لا يثمر شوكا مادام ملازم الاخلاص فقاصد النفع العمومي يثاب ثواب الخواص لحصر الامام السيوطي للمستثنيات من انقطاع العمل فيما هو مذكور في النظم الآتي وهو

اذا مات ابن آدم جاء يجري * عليه الاجر عد ثلاث عشر
علوم بثها ودعاء نجل * وغرس النخل والصدقات تجري
وبيت للغريب بناه يأوي * اليه أو بناء محل ذكر
ووراثة مصحف ورباط ثغر * وحفر البئر أو اجراء نهر
وتعليم لقرآن كريم * شهيد في القتال لاجل بر
كذا من سن صالحة ليقضي * فخذها من أحاديث بشعر

والكل في الحقيقة ترجع الى الثلاث وتزيد بالنظر لفروعها التي لا تنحصر فالعدد لا مفهوم له

مطلب الاجتهاد في تحصيل العلم ومدحه

وما أحسن قول الزمخشري وقول من خمس ابياته

قطع الجهول زمانه بتغزل * ان الجهول عن الكمال بمعزل
انا لا اميل الى كلام العذل * سهري لتنقيح العلوم الذ لي
من وصل غانية وطيب عناق

ان كنت جئت لدى العدا بنقيصة * فهي الكمال وذا التعزي عن خصيصة
طلبي لغالية يبذل رخيصة * وتمايلي طربا لحل عويصة
في الذهن أبلغ من مدامة ساقي

سم الجهالة زال من ترياقها * وهي العلوم بمقتضى اشراقها
حررتها بالطرس باستحقاقها * وصرير أقلامي على أوراقها
أشهى من الدوكاه والعشاق

فانهض لتحصيل العلوم ووفها * حقا بأشرف حالة وأعفها
انى كففت عن السوى باكفها * والذ من نقر القيان لدفها
نقرى لالقى الرمل عن أوراقى

نعلو على اوج المعالى همتى * فى نيل مقصودى وقرب أحبتى
وانا الذى عزمى كسيف مصلت * يامن يبالغ بالامانى رتبتى
كم بين مستعل وآخر راقى

اصبحت موصوف العلا منعوته * لا أختشى من جانب تفويته
ياقاصرا فينا يحاول صيته * أأبيت سهران الدجى وتبيته
نوما وتبغى بعد ذاك لحاقى

فمن هذا ينتج ان صاحب العلم أو الفن أو الصناعة ينبغى دائما ان يجتهد فى تكميل قواعد علمه أو فنه أو صناعته أصولا وفروعا اجتهادا واستنباطا ويرغب الى الله تعالى فى العون على ذلك فاذا تمت فضيلته وكملت أهليته فعليه أيضا ان يشتغل بالتصنيف والجمع والتأليف ليطلع جميع الناس على حقائق الفنون ورقائق العلوم ودقائق الصنائع وعليه ان يجيد البيان حسب الامكان وكل مايعم نفعه وتكون الحاجة اليه أولى يقدمه على غيره ويعتنى بما لم يسبق اليه

مطلب
تقديم أوائل العلوم على اواخرها

ويقدم المبادى على المقاصد لان للعلوم أوائل تؤدى الى أواخرها ومداخل تفضى الى حقائقها فلا يطلب الآخر قبل الاول ولا الحقيقة قبل المدخل لان البناء على غير أساس لا يثبت والثمر فى غير غرس لايجنى ولا ينبت فلا تحمل طالب المنفعة الاسباب الفاسدة والدواعى الواهية على ان يتبع اغراض نفسه المختصة بنوع من العلم فيدعوه الغرض الى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته كرجل يؤثر القضاء أو يتصدى للحكم فيقصد من علم الفقه أدب القاضى ومايتعلق به من الدعاوى والبينات أو يحب ان يختص بوظيفة الشهود فيتعلم كتاب الشهادات لئلا يصير موسوما بجهل مايعانى فاذا أدرك ذلك ظن انه قد حاز من العلم جمهوره وأدرك منه مطويه ومنشوره ولم يرمابقى الا غامضا طلبه وعويصا استخراجه فلو نصح نفسه لعلم ان ماترك أهم مما أدرك لان بعض العلوم مرتبط ببعض ولكل باب منها تعلق بما قبله فلا تقوم الاواخر الا بأوائلها وقد يصح قيام الاوائل بانفسها فيصير طلب الاواخر بترك الاوائل تركا

للاواخر والاوائل جميعا ومثل ذلك الفنون والصنائع
وقد يقصد الانسان بطلب العلم التكسب أو التجمل فينهض من العلم بتعلم ما يشتهر به من مسائل الجدل وطريق النظر و يتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ويجادل الخصوم وهو يجهل مذهبه مخصوم فكثيرا ما تجد من هذه الطبقة عددا وقد تحققوا بالعلم تحقق المتكلفين واشتهروا به اشتهار المتحزبين فاذا أخذوا فى مناظرة الخصوم ظهر كلامهم واذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلت أفهامهم حتى انهم ليخبطون فى الجواب خبط عشواء فلا يظهر لهم صواب ولا يتقرر لهم جواب ثم لا يرون ذلك نقصا حيث نمقوا فى المجالس كلاما موصوفا ولفقوا فى المحافل احتجاجا مألوفا وقد جهلوا من المذهب ما يعرفه المبتدى فهذه طرائق من يقول اعرفونى وهو غير عروف ولا معروف وقد قال زهير

ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم

وبالجملة فالمتواضع من طلبة العلم أكثرهم علما كما ان المكان المنخفض أكثر البقاع ماء
وينبغى لطالب العلم ان يخرج دائما فى عباراته من الرمز الخفى الى اللفظ الجلى فان الرمز لا يليق بالعلم المعنوى ولا الكلام اللغوى وانما يختص غالبا بأحد شيئين اما بمذهب شنيع يخفيه معتقده و يجعل الرمز به سببا لتطلع النفوس اليه واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه كالتنجيم والطلاسم واما بما يدعى أربابه انه علم معوز وان ادراكه بعيد معجز كالصنعة التى وضعها أربابها أسماء علم الكيمياء ورمزا بأوصافه ليوهموا الشح به والاسف عليه خديعة للعقول الواهيه والآراء الفاسده وقد قال الشاعر

مطلب وضوح العبارة وترك الرموز الخفية

منعت شيأ فأكثرت الولوع به * احب شئ الى الانسان ما منعا

فالمتشبثون بمثل هذه الامور لا ينتفع بعلمهم فلا يدخل فى هذه الفضيلة المذكورة فى قوله أو علم ينتفع به
(الفضيلة الثالثة) المذكورة فى قوله صلى الله عليه وسلم أو ولد صالح يدعو له اشارة منه صلى الله عليه وسلم الى ان الانسان مخلوق لحكمة الهية وهى تعمير الدنيا وتمام انتظامها وهذه الحكمة انما تتم بتكثير النوع البشرى واستمرار نسله وهذا انما يكون بالتوالد والتناسل وان كل انسان اجتهد فى تحصيل مال أو علم أو جاه يحب طبعا امتيازه به فى حياته دون غيره وان لا يتوارثه عنه الا نسله بعده ليكون حيا حياة معنوية دائم النسل باقى الذكر والا لكان الانسان لا يجتهد الا بقدر عيشته الضرورية فأمل انتقال الوراثة الى النسل والولد اكد فى النوع البشرى تكثير العمل فقد يكون مدار الاعمال المعاشية

والمعادية على الاعمال التولدية • فأشار الحديث الشريف الى معنى لطيف وهو
الحث على التناسل والتوالد وتاهيل النسل لدرجة الرشد وبلوغ غرض الوراثة النافعة
وينبغي للوالد ان يهتم بشأن الصبي في شبيبته ليعلمه ما ينبغي تعلمه حفظا في حال صغره
لينكشف له معناه في حال كبره فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والايقان
والتصديق وذلك مما يحصل في الصبي من غير برهان فقد من الله عز وجل على قلب
الانسان بالحفظ وشرح له صدره في أول نشأة الايمان من غير حجة وبرهان وانما
تحصل التقوية والاثبات في الصبي والعامي بعد ذلك حتى يرسخ الايمان ولا يتزلزل
وليست التقوية والاثبات في الصبي ان يعلمه وليه صنعة الجدل والكلام بل يشغله بتلاوة
القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه ويشتغل مع ذلك بوظائف العبادات فلا يزال
اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد
الحديث وفوائده وبما يسطع عليه من أنوار العبادة ووظائفها وبما يسري اليه من
مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وهيئاتهم في الخضوع لله تعالى وهذه هي التربية
الحسنى حتى ينمو في الصبي بذر الايمان ويقوى فيه شجرة راسخة طيبة أصلها ثابت
وفرعها في السماء فيظهر اعتقاده في الثبات كالطود الشامخ ثم ينوطه بالصناعة التي
تميل اليها نفسه ويستحسنها ظنه وحدسه ومع ذلك فلا يتأخر مع أداء صنعته عن تلاوة
القرآن (قال) صلى الله عليه وسلم ان القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل يارسول الله وما
جلاؤها قال قراءة القرآن (وقال) صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن ثم رأى ان أحدا
أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله • وعن مالك بن أنس رضي الله عنه انه كان
اذا دخل رمضان نفر من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم وأقبل على القراءة
في المصحف (وكان) أبو حنيفة والشعبي يختمان في رمضان ستين ختمة وقال صلى الله
عليه وسلم القرآن فيه خبر من قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم • قال علي رضي الله
عنه من قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزوا وتقييد الولد
بالصالح مع زيادة قوله يدعو له اشارة منه صلى الله عليه وسلم الى حق الولد على الوالد وهي
تربيته تربية حسنة وتوصيله الى درجة الصلاح والاستقامة والى حق الوالد على الولد
وهي الدعاء لوالده لان فرض الكلام بقاء الولد بعد موت والده المفهوم من قوله اذا مات
ابن آدم الخ والمراد بالولد ما يعم الذكر والانثى كما ان المراد بالدعاء له عموم اعمال ولده
الصالحة فان الوالد ينتفع باعمال ولده الصالحة لانه السبب في وجوده وصلاحه
وارشاده الى الهدى ومن جملة الاعمال التي تصدر عن الولد الصالح وينتفع بها والده
دعاؤه له فقد ورد ان الانسان ينعم في الآخرة بنعيم عظيم فيقول من أين هذا النعيم فاني

لم أعمل فى الدنيا عملا يوجب لى ذلك فيقال هذا من دعاء ولدك الصالح لك وبالجملة فالولد الصالح من الباقيات الصالحات لان اعماله الصالحة ينتفع بها والمراد أيضا بالولد مايعم ولد الولد ذكورا واناثا أسباطا وحفدة فانهم لاصولهم كالاجنحة وهم أصول يصول بهم الاكبر ويده بهم تطول وهم العدة عند الشدة (قيل) لمحمد بن الحنفية كيف كان على رضى الله عنه يقحمك فى المآزق أى المتالف ويولجك فى المضائق دون الحسن والحسين فقال لانهما كانا عينيه وكنت يديه فكان يقى بيديه عينيه * ورأى على رضى الله عنه الحسن يتسرع الى الحرب فقال أملكوا عنى هذا الغلام لايهدنى فانى أنفس بهذين على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله فانى انفس بهذين أى بالحسن والحسين أى أخشى ان ينقطع بموتهما النسل النبوى (وكان) يقال لعمر بن الوليد بن عبد الملك فحل بنى مروان وقد كان يركب معه ستون رجلا لصلبه * وقد كان لمعاوية امرأة لؤى بن غالب أولاد منه فقالت له يوما أى بنيك أحب اليك قال الذى لايرد بسط يده بخل ولا يلوى لسانه عجر بالراء المهملة أى لكنة ولا يلوى طبيعته سفه وهو أحد ولدك بارك الله لى ولك فيه يعنى كعب بن لؤى أحد أجداده صلى الله عليه وسلم

مطلب الانتفاع بالذرية والتعضد بها

ودخل عبد الملك بن مروان على معاوية ومعه بنوه فلما جلسوا على الكراسى وأخذوا مجالسهم اغتاظ معاوية ثم قال كانك أردت مكاثرتى ببنيك يا ابن مروان وما وجدت مثلى ومثلك الا كما قال الشاعر

تفاخرنى بكثرتها قريظ * وقبلى والد الحجل الصقور

فقال عبد الملك يا أمير المؤمنين انما هم ولدك ويدك وعضدك وقد علمت انما خفت عليهم من العين وليسوا عائذين (قال) بعضهم للمهلب ما النبل أى الشرف قال ان يخرج الرجل من منزله وحده ويعود فى جماعة وكان المهلب كثير البنين ومن الشجاعة والسخاء بمكانة فقيل له انك لتلقى نفسك فى المهالك قال ان لم آت الموت مسترسلا أتانى مستعجلا ثم أنشد

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد * لنفسى حياة مثل أن أتقدما

ومر بقوم من ربيعة فى مجلس لهم فقال رجل من القوم هذا سيد الأزد قيمته خمسمائة درهم فسمعه المهلب فأرسل اليه بخمسمائة درهم وقال دونك يا ابن أخى قيمة عمك ولو كنت زدت فيها لزدتك وقال بعضهم فى المهلب وبنيه يمدحه

براك الله حين براك بحرا * وفجر منك أنهارا غزارا
بنوك السابقون الى المعالى * اذا ما أعظم الناس الخطارا

والخطار

والخطار فعال من خاطر يعنى سابق و راهن ويعنى الخطر وهو المراد وهذان البيتان لكعب بن معدان الاشقرى الازدى يقال ان الخليفة المنصور حسد آل المهلب على المدح بهما وكذلك بعده المأمون قال للشعراء ألا قلتم فى كما قال كعب فى المهلب وولده وأنشدهم هذين البيتين السابقين

وقد ينتج من العنصر الطيب فروع تزيده طيبا على طيبه ومن غير الطيب فروع تكون سببا فى ذكره وتوصيل الثواب له فكان يقال بنو امية دنخل أخرج الله منه زق عسل يعنى عمر بن عبد العزيز فهو الولد الصالح المستوفى للفرد الاكمل النسبى من الحديث (ويحكى) أن الخليفة المنصور قال له رجل من الهاشميين اعقل أبى رحمه الله ومات فى وقت كذا رحمه الله فقال الربيع وزير المنصور كم تترحم على أبيك بين يدى أمير المؤمنين وكيف ذلك فقال له الهاشمى لا ألومك فانك لم تعرف حلاوة الآباء فضحك المنصور وخجل الربيع لانه لم يكن له أب يعرف على ما قيل والذى فى التواريخ أنه ابن يونس بن أبى فروة مولى الحرث الحفار مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه كان حاجبا للمنصور ثم صار وزيره وكان يميل اليه ويعتمد عليه فقال له يوما يا ربيع سل حاجتك فقال حاجتى أن تحب الفضل ابنى فقال له ويحك ان المحبة تقع باسباب فقال له قد أمكنك الله من ايقاع سببها قال وماذا ذاك قال تفضل عليه فانك اذا فعلت ذلك أحبك واذا أحبك أحببته قال قد والله حببته الى قبل ايقاع السبب ولكن كيف اخترت له المحبة دون كل شئ قال لانك اذا أحببته كبر عندك صغير احسانه وصغر عندك كبير اساءته وكانت ذنوبه كذنوب الصبيان وحاجته اليك حاجة الشفيع العريان يشير بذلك الى قول الفرزدق

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا * مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا

فقد سعى الربيع فى تقديم ولده الفضل عند الخليفة وأدى ما يجب للولد على الوالد وبالجملة فقد قال صلى الله عليه وسلم الولد ريحانة من الجنة وقال بعضهم الولد ريحانة الى سبع ووزير الى سبع أخرى وبعد ذلك اما صديق حميم واما عدو مبين وبشر الامام عمر الفاروق رضى الله عنه بولد فقال ريحانة اشمها برهة من الزمان وعما قليل اما ولد بار واما عدو ضار وأنشد بعضهم

هذا الزمان الذى كنا نحاذره * فى قول كعب وفى قول ابن مسعود

ان دام هذا ولم يحدث له غير * لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

(وقال) الفضيل ريح الولد من الجنة ومزايا الاولاد دنيا وأخرى لا تعد ولا تحصى فانه قد يعود من الولد على رحمه ولو كان الرحم خاملا أنواع الرعاية فقد روى

كعب بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما يعنى أن هاجر أم اسمعيل كانت قبطية ومارية أم سيدنا ابراهيم كانت كذلك وقال صلى الله عليه وسلم لو عاش ابراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطى ولحرمة الولد والوالد وارتباط العلاقة المتينة بينهما بما تقتضيه الحقوق أقسم الله بهما فى قوله تعالى لا اقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الانسان فى كبد المراد بالبلد مكة المشرفة التى جعلها الله حرما آمنا وجعل مسجدها قبلة لاهل المشرق والمغرب والمراد بالوالد ابراهيم واسمعيل وما ولد محمد صلى الله عليه وسلم لان ابراهيم بانى مكة واسمعيل ومحمدا عليهما السلام سكانها وقيل المراد بالوالد فى الآية ابراهيم وما ولد جميع ولد ابراهيم من العرب والعجم فانهم سكان البقاع الفاضلة من أرض الشام وبيت المقدس وأرض العرب ومنهم الروم لانهم ولد عيص من اسحق فقد عمرت البقاع الفاضلة من نسل ابراهيم عليه السلام وآخر الانبياء وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من أولاده فلذلك قرن اسمه باسمه فى الصلوات بالصيغة الابراهيمية التى هى أيضا عظيمة الفضيلة فى جميع الاوقات وكان صلى الله عليه وسلم يصلى بها فيذكر بها جده فقد دخل صلى الله عليه وسلم فى ضمن حديثه الشريف من قوله أو ولد صالح يدعو له

مطلب تربية الاولاد

ثم ان توصيل الولد الى الرتبة المطلوبة والدرجة المرغوبة تتوقف على حسن التربية والتهذيب والتعليم والتأديب ولا يخفى ان الله سبحانه وتعالى شرف الانسان بصفتين صغيرتين وهما قلبه ولسانه وخصه بصفتين عظيمتين وهما همته واحسانه وما عدا ذلك من محض المال أو الجمال فانما هو حظ الادنياء من النساء والرجال فلا يرتفع المرء حتى يرفعه اكبراه وأصغراه فالجنان قابل واللسان قائل والهمة حاملة والاحسان فضيلة عاملة والجنان عارف مستقر واللسان معترف مقر والهمة حركة منتشرة والاحسان بركة مبشرة فان الجنان ينشى واللسان يفشى وكلاهما يساعد الهمة والاحسان والعزم والاتقان ولذلك كان المرء بأصغريه ومعلوم ان الولد الصغير مستعد بأصغريه الى استكمال اكبريه فيحتاج الى التربية التى هى صفة المربى الذى يقيمه الولى لتأديب الصبى فيما يقصد منه فيجب على الولى أن يتأمل فى حال الصبى وما هو مستعد له من الاعمال ومتهيئ له منها فيعلم أنه مخلوق له لحديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له فلا يحمله على غيره فانه ان حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه عادة فيفوته ما هو متهيئ له فاذا رآه حسن الفهم صحيح الادراك جيد الحفظ واعيا فهذا من

علامة

علامة قبوله للعلوم والفنون وتهيئته لها فلينقشها فى لوح قلبه مادام خاليا فانها تتمكن من القلب وتستقر فيه وتزكو معه وان رآه بخلاف ذلك من كل وجه علم انه لم يخلق لذلك فان رأى عينه طامحة الى صنعة من الصنائع مستعدا لها قابلا عليها وهى صناعة مباحة نافعة لاهل وطنه فليمكنه منها وهذا كله بعد تعليمه المعارف الابتدائية التى يشترك فيها كل فرد من افراد الجمعية التأنسية وهى الكتابة والقراءة وما يحتاج اليه فى دينه من العقائد وغيرها واصول الحساب ونحو ذلك من السباحة والعوم والفروسية وأسبابها من ركوب الخيل والرمى واللعب بالرمح والسيف وأشباه ذلك من آلات الحرب ليتمرن على وسائل الدفع عن وطنه والمحاماة عنه فان هذه الاشياء من المنافع العمومية التى ينبغى تمرين الاطفال فى زمن الشبوبية عليها هذا بالنسبة للذكور وأما بالنسبة للبنات فان ولى البنت يعلمها ما يليق بها من القراءة وامور الدين وكل ما يليق بالنساء من خياطة وتطريز وان اقتضى حال البلاد تعليم النساء الكتابة وبعض مبادى المعارف النافعة فى ادارة المنازل فلا بأس بتعليم الحساب وما اشبهه لهن ويشترك الصبيان والبنات فى تعليم الاخلاق والآداب وحسن السلوك

فبهذا كله يتيسر للجميع كسب الفوائد الجسيمة المنتجة للاستقامة التامه وغنى النفس بما اكتسبه العقل من العلوم والمعارف ومارسته الايدى من الصنائع واللطائف التى هى أمن من الفقر الذى استعاذ منه صلى الله عليه وسلم فى قوله اللهم انى اعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال وفى رواية أخرى من الفقر والعيلة (وقال) صلى الله عليه وسلم كسب اليد أمان من الفقر وقال أيضا ان الله يحب العبد المحترف ويكره الصحيح الفارغ

وفى عوارف المعارف روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ان الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون فى حفظ الله مادام فيهم انتهى وفى ذلك قيل

مطلب بر الولد لوالده

وأيت صلاح المرء يصلح أهله * ويعديهم عند الفساد اذا فسد
يعظم فى الدنيا لفضل صلاحه * ويحفظ بعد الموت فى الاهل والولد

فهذا هو الصلاح الموروث المسلسل المقصود من قوله فى الحديث أيضا أو ولد صالح يدعو له فالرجل اذا علم ولده ما فيه صلاحه واستقامته اجتنى ثواب ثمرة عمله دنيا وأخرى أما ثواب الآخرة فأمره ظاهر وأما ثمرة عمله فى الدنيا فهى البر والطاعة وهما حق كبير على الولد لوالده قال الخليفة المأمون لم أر احدا أبر من الفضل بن يحيى وهو

فى سجن الرشيد لا بيه بلغ من بره انه كان ابوه لا يتوضأ الا بماء سخن فنعهم السجان
من الوقود فى ليلة باردة فلما اخذ يحيى مضجعه قام الفضل الى قمقم فأدناه الى المصباح
فلم يزل قائما وهو فى يده حتى اصبح فشعر السجان بذلك فغيب المصباح فتأبطه الى الصباح
(قال) على رضى الله عنه لو علم الله شيأ من العقوق أدنى من أف لحرمه فليعمل العاق
ماشاء أن يعمل فلن يدخل الجنة وليعمل البار ماشاء فلن يدخل النار
ومن البر أن لا ينتمى الولد الى غير أبيه قال صلى الله عليه وسلم ملعون ملعون من انتمى الى
غير أبيه او ادعى غير مواليه ومن البر أيضا ان لا يكون سببا لسب أبيه لحديث ابى هريرة
رضى الله عنه لا تمش بين أمام أبيك ولا تجلس قبله ولا تدعه باسمه ولا تستسب له أى
لا تعرضه للسب وتجره اليه بان تسب أبا غيرك فيسب اباك مجازاة لك وقد جاء مفسرا
فى الحديث الآخر ان من أكبر الكبائر ان يسب الرجل والديه قيل وكيف يسب
والديه قال يسب الرجل فيسب اباه وأمه (وقال) ابن عمر رضى الله عنه أتى رجل رسول
الله صلى الله عليه وسلم فقال ان والدى يأخذ مالى وأنا كاره فقال اما علمت انك ومالك
لأبيك ومن حق الأولاد اعظام الاصغر للاكبر وحنو الاكبر على الاصغر قال صلى الله
عليه وسلم حق كبير الاخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده

مطلب
ترتيب تعليم الاطفال

*وقد ذكر فى كتاب الحسبة فى الكلام على مؤدبى الاطفال انه لا يجوز لهم تعليم الاطفال
فى المساجد لنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأمره بتنزيه المساجد عن الصبيان
والمجانين لانهم لا يتحرزون من تسويد حيطان المساجد بل يتخذون للتعليم حوانيت
فى الدروب واطراف الاسواق قال وينبغى للمؤدب ان لا يعلم الصبى القصار من سور
القرآن الا بعد حذقه بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل وتأليف طبعه اليها ثم يؤلف
طبعه على القرآن وحفظه ثم يعرفه عقائد الدين ثم اصول الحساب ومايستحسنه من
المراسلات والاشعار ثم يأمر الصبيان بتجويد الخط على المثال والمشق ويكلفهم بالحفظ
على ظهر الغيب ومن كان عمره سبع سنين أمره بالصلاة وفى الجماعة وهذا
لا ينافى قوله صلى الله عليه وسلم جنبوا مساجدنا صبيانكم ومجانينكم وشراءكم
وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم واقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا
على أبوابها المطاهر وجروها فى الجمع لان النبى صلى الله عليه وسلم قال مروا أولادكم
بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر فالمنع محمول على مادون السبع التى
هى سن التمييز

مطلب
اطوار الصغير

قال صاحب الاخلاق عند ذكر تأديب الاحداث والصبيان خاصة ان أول قوة
تظهر فى الانسان أول مايكون هى القوة التى يشتاق بها الى الغذاء الذى هو سببه

كونه

كونه حيا فيتحرك بالطبع الى اللبن و يلتمسه من الثدى الذى هو معدنه من غير تعليم ولا توقيف وتحدث له مع ذلك قوة على التماسه بالصوت الذى هو مادته ودليله الذى يدل به على اللذة والاذى ثم تتزايد فيه هذه القوة ويتشوف بها أبدا الى الازدياد والتصرف بها فى انواع الشهوات ثم تحدث له قوة على التحرك نحوها بالآلات التى تخلق له ثم يحدث له الشوق الى الافعال التى تحصل له هذه ثم تحدث له من الحواس قوة على تخيل الامور ويرسم فى قوته الخيالية مثالات فيتشوق اليها ثم تظهر فيه قوة الغضب التى يشتاق بها الى دفع ما يؤذيه ومقاومة ما يمنعه من منافعه فان أطاق بنفسه أن ينتقم من مؤذياته انتقم منها والا التمس معونة غيره وانتصر بوالديه بالتصويت والبكاء ثم يحدث له الشوق الى تميز الافعال الانسانية خاصة أولا أولا حتى يصير الى كماله فى هذا التميز فيسمى حينئذ عاقلا وهذه القوى كثيرة وبعضها ضرورى فى وجود الاخرى الى أن ينتهى الى الغاية الاخيرة وهى التى لا تراد لعلة أخرى وهى الخير المطلق الذى يتشوقه الانسان من حيث هو انسان

واول ما يحدث فيه من هذه القوة الحياء وهو الخوف من ظهور شىء قبيح منه ولذلك قلنا ان أول ما ينبغى ان يتفرس فى الصبى و يستدل به على عقله الحياء فانه يدل على أنه قد أحس بالقبيح ومع احساسه به هو يحذره ويتجنبه ويخاف أن يظهر فيه أو منه فاذا نظرت الى الصبى فوجدته مستحييا مطرقا بطرفه الى الارض غير وقاح الوجه ولا محدقا اليك فهو أول دليل نجابته والشاهد لك على أن نفسه قد أحست بالجميل والقبيح وان حياءه هو انحصار نفسه خوفا من قبيح يظهر منه وهذا ليس شىء أكثر من ايثار الجميل والهرب من القبيح بالتميز والعقل

وهذه النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية لا يجب ان تهمل ولا تترك ومخالطة الاضداد الذين يفسدون بالمقاربة والمداخلة من كان بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة فان نفس الصبى ساذجة لم تنتقش بعد بصورة ولا لها رأى وعزيمة تميلها من شىء الى شىء فاذا نقش بصورة وقبلها نشأ عليها واعتادها فالاولى بمثل هذه النفس ان تنبه أبدا على حب الكرامة ولاسيما ما يحصل له منها بالدين دون المال من سننه ووظائفه ثم يمدح الاخيار عنده و يمدح هو فى نفسه اذا ظهر شىء حسن منه ويخوف بالمذمة على أدنى قبيح يظهر منه ويؤاخذ بالاستهانة بالمآكل والمشارب والملابس الفاخرة ويزين عنده صلف النفس والترفع عن الحرص فى المطاعم خاصة وفى اللذات عامة ويحبب اليه ايثار غيره على نفسه بالغذاء والاقتصار على الشىء المعتدل والاقتصاد فى التماسها وان أولى الناس بالملابس الملونة النساء اللواتى تتزين للرجال ثم العبيد والخول وان

الاحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه حتى اذا تربى على ذلك
وسمعه قلما يقرب منه ويكرر عليه ذلك ولا يترك ومخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته
لاسيما من أترابه ومن كان فى مثل سنه ممن يعاشره ويلاعبه وذلك ان الصبى فى ابتداء
نشئه كثيرا ما يكون قبيح الأفعال جدا فانه يكون كذوبا يخبر ويحكى بما لم يسمعه ولم يره
ويكون حسودا سروقا نموما لحوحا ذا فضول ومحك وكيادا أضر شئ بنفسه وبكل أمر
يلابسه ثم لايزال به التأديب والسن والتجارب حتى ينتقل فى أحوال بعد أحوال
فلذلك ينبغى ان يؤاخذ مادام طفلا بما ذكرناه ونذكره ثم يطالب بحفظ محاسن الاخبار
والاشعار التى تجرى مجرى ما تعوده بالادب حتى يتأكد عنده بروايتها وحفظها
والمذاكرة بها جميع ما قدمناه ذكره ويحذر من النظر فى الاشعار السخيفة وما فيها من ذكر
العشق وأهله وما يوهمه اصحابها انه ضرب من الظرف ورقة الطبع فان هذا الباب
مفسدة للاحداث جدا ثم يمدح بكل ما يظهر منه من خلق جميل وفعل حسن ويكرم عليه
فان خالف فى بعض الاوقات ما ذكرته فالاولى ان لا يوبخ عليه ولا يكاشف بانه اقدم عليه
بل يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله أنه قد تجاسر على مثله ولاهم به لاسيما ان ستره
الصبى واجتهد فى ان يخفى ما فعله على الناس فان عاد فليوبخ عليه سرا وليعظم عنده
ما أتاه ويحذر من معاودته فانك ان عودته التوبيخ والمكاشفة حملته على الوقاحة
وحرضته على معاودة ما كان استقبحه وهان عليه سماع الملامة فى ركوب القبائح
من اللذات التى تدعو اليها نفسه وهذه اللذات كثيرة جدا

والذى ينبغى أن نبدأ به فى تقويمها أدب المطاعم فيفهم أولا انها انما تراد للصحة لا للذة
فان الاغذية كلها انما خلقت وأعدت لنا لتصح بها أبداننا وتصير مادة لحياتنا فهى
تجرى مجرى الادوية يداوى بها الجوع والألم الحادث منه فكما ان الدواء لا يراد للذة
ولا يستكثر منه للشهوة كذلك الاطعمة لا ينبغى ان يتناول منها الا ما يحفظ صحة
البدن ويدفع ألم الجوع ويمنع من المرض فيحقر عنده قدر الطعام الذى يستعظمه
أهل الشره ويقبح عنده صورة من شره اليه ونال منه فوق حاجة بدنه أو ما لا يوافقه
حتى يقتصر على لون واحد ولا يرغب فى الالوان الكثيرة واذا جلس مع غيره لا يبادر
الى الطعام ولا يمد يده قبل غيره ولا يديم النظر الى ألوانه ولا يحدق اليه شديدا ويقتصر
على ما يليه ولا يسرع فى الاكل ولا يوالى بين اللقم بسرعة ولا يعظم اللقمة ولا يبتلعها
حتى يجيد مضغها ولا يتتبع نظره مواقع الايدى من الطعام ويعود أن يؤثر غيره بما
يليه ان كان أفضل ما عنده ثم يضبط شهوته حتى يقتصر على أدنى الطعام وأدونه
وليأكل الخبز القفار الذى لا أدم معه فى بعض الاوقات وهذه الآداب وان كانت جميلة

بالفقراء فهي بالاغنياء أجمل وينبغي ان يستوفي غذاءه بالعشي فانه ان استوفاه بالنهار كسل واحتاج الى النوم وتبلد فهمه مع ذلك وان منع الطعم في أكثر أوقاته كان نافعا له في الحركة والتيقظ وقلة البلادة وبعثه على النشاط والخفة

فأما الحلواء والفواكه فينبغي ان يمنع منها البتة ان أمكن والا فليتناول أقل ما يمكن فانه استحيل في بدنه فيكثر انحلالها وتعوده أيضا الشره ومحبة الاستكثار من المأكل ويعوّد أن لا يشرب في خلال طعامه الماء فأما النبيذ وأصناف الاشربة المسكرة فاياه واياها فانها تضره في بدنه وفي نفسه وتحمله على سرعة الغضب والتهور والاقدام على القبائح وعلى القحة فيها وسائر الخلال المذمومة ولا ينبغي ان يحضر مجالس أهل النبيذ بل مجالس الادباء والفضلاء فاما مجالس غيرهم فلالئلا يسمع الكلام القبيح والسخافات التي تجري فيه وينبغي أن لا يأكل حتى يفرغ من وظائف الادب التي يتعلمها ويتعب تعبا كافيا وينبغي ان يمنع من كل فعل يستره ويخفيه فانه ليس يخفي شيأ الا وهو يظن أو يعلم انه قبيح

ويمنع من النوم الكثير فانه يقبحه ويغلظ ذهنه ويميت خواطره وهذا بالليل فاما النهار فلا ينبغي أن يتعوّده ويمنع أيضا من الفراش الوطيء أي اللين وجميع أنواع الترفه والرخاوة حتى يصلب بدنه ويتعوّد الخشونة ولا يعوّد الملابس الرقيقة والمداراة في الصيف ولا الفراء والنيران في الشتاء ويعوّد المشي والحركة والركوب والرياضة حتى لا يتعوّد اضدادها ويعوّد أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع في مشيه ولا يرخي يديه بل يضمهما الى صدره ولا يربي شعره ولا يزين بملابس النساء ولا يلبس خاتما الا وقت حاجته اليه ولا يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه ولا بشيء من مآكله وملابسه وما يجري مجراها بل يتواضع لكل أحد ويكرم كل من يعاشره ولا يتوصل بشرف ان كان له أو سلطان من أهله ان اتفق الى غصب من هو دونه او استهداء من لا يمكنه ان يرده من هواه أو تطاول عليه كمن اتفق له ان كان خاله وزيرا او عمه سلطانا فيطرف به الى هضيمة أقرانه وثلم اخوانه واستباحة أموال جيرانه ومعارفه وينبغي أن يعوّد ان لا يبزق في مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضرب تحت ذقنه بساعده ولا يعمد رأسه بيده فان هذا دليل الكسل وانه قد بلغ به التنعم أن لا يحمل رأسه حتى يستعين بيده ويعوّد أن لا يكذب ولا يحلف البتة لا صادقا ولا كاذبا فان هذا قبيح بالرجال مع الحاجة اليه في بعض الاوقات فاما الصبي فلا حاجة به الى اليمين

ويعوّد أيضا الصمت وقلة الكلام ولا يتكلم الا جوابا فاذا حضر من هو أكبر منه اشتغل بالاستماع منه والصمت له ويمنع من خبيث الكلام وهجينه ومن السب واللعن

واللغو من الكلام ويعوّد حسن الكلام وظرايفه وجميل اللقاء وكريمه ولا يرخص له
أن يستمع لاضدادها من غيره ويعوّد خدمة نفسه ومعلمه وكل من كان أكبر منه
وأحوج الصبيان الى هذا الادب أولاد الاغنياء والمترفين وينبغي اذا ضربه المعلم أن
لا يصرخ ولا يستشفع باحد فان هذا فعل المماليك ومن هو خوّار ضعيف ولا يعيّر أحدا
الا بالقبيح ولا بالسيئ من الادب ويعوّد أن لا يوحش الصبيان بل يبرهم ويكافئهم على
الجميل بأكثر منه لئلا يتعوّد الربح على الصبيان وعلى الصديق ويبغض اليه الفضة
والذهب ويحذر منهما أكثر من تحذير السباع والحيات والعقارب والافاعي فان حب
الفضة والذهب للصبي آفته أكثر من آفة السموم
وينبغي ان يؤذن له في بعض الاوقات أن يلعب لعبا جميلا ليستريح اليه من تعب الادب
ولا يكون في لعبه ألم ولا تعب شديد ويعوّد طاعة والديه ومعلميه ومؤدّبيه وأن ينظر
اليهم بعين الجلالة والتعظيم ويهابهم
وهذه الآداب النافعة للصبيان هي للكبار من الناس أيضا نافعة ولكنها للاحداث
أنفع لانها تعوّدهم محبة الفضائل وينشؤن عليها فلا يثقل عليهم تجنب الرذائل
ويسهل عليهم بعد ذلك جميع ما ترسمه الحكمة وتحده الشريعة والسنة ويعتادون
ضبط النفس عما تدعوهم اليه من اللذات القبيحة وتكفهم عن الانهماك في شيء منها
والفكر الكثير فيها وتسوقهم الى مرتبة الفلسفة العالية أي الحكمة النافعة
وترقيهم الى معالي الامور من التقرب الى الله عز وجل ومشابهة الملائكة في التنزه عن
الشهوات مع حسن الحالة في الدنيا وطيب العيش وجميل الاحدوثة وقلة الاعداء
وكثرة المداح والراغبين في مودته من الفضلاء خاصة فاذا تجاوز هذه الرتبة وبلغ أيامه
الى أن يفهم أغراض الناس وعواقب الامور فهم ان الغرض الاخير من هذه الاشياء
التي يقصدها الناس ويحرصون عليها من الثروة واقتناء الضياع والعبيد والخيل
والفرش واشباه ذلك انما هو ترفيه البدن وحفظ صحته وأن يبقى على اعتداله مدة ما
وان لا يقع في الامراض وان لا تفجأه المنية وان يتهنى بنعمة الله عليه ويستعد لدار
البقاء والحياة السرمدية وان اللذات كلها بالحقيقة هي خلاص من آلام النصب
وراحات من التعب فاذا عرف ذلك وتحققه ثم تعوّده بالسيرة الدائمة عوّد الرياضات
التي تحرك الحرارة الغريزية وتحفظ الصحة وتنفي الكسل وتطرد البلادة وتبعث النشاط
وتزكي النفس
فمن كان ممولا مترفا كانت هذه الاشياء التي رسمناها اصعب عليه لكثرة من تحف به
وتغويه ولموافقة طبيعة الانسان في أول ما ينشأ هذه اللذات واجماع جمهور الناس

على ما أمكنهم منها وطلب ما تعذر عليهم بغاية جهدهم فاما الفقراء فالامر عليهم أسهل بل هم قريبون الى الفضائل قادرون عليها متمكنون من نيلها والاصابة منها وحال المتوسطين من الناس متوسطة بين هاتين الحالتين

وقد كان ملوك الفرس الفضلاء لا يربون أولادهم بين حشمهم وخواصهم خوفا عليهم من الاحوال التى ذكرناها وكانوا ينفذونهم مع ثقاتهم الى النواحى البعيدة منهم ومن سماع ما حذرنا منه وكان يتولى تربيتهم أهل الجفاء وخشونة العيش ومن لا يعرف التنعم ولا الترفه وأخبارهم فى ذلك مشهورة وكثير من رؤساء الديلم ينقلون أولادهم عند ما ينشؤن الى غير بلادهم ليتعودوا بها هذه الاخلاق ويبعدوا عن الترفه وعادات أهل البلدان الرديئة

واذ قد عرفت هذه الطريق المحمودة فى تأديب الاحداث فقد عرفت اضدادها أعنى أن من نشأ على خلاف هذا المذهب والتأديب لم يرج فلاحه ولا ينبغى أن يشتغل بصلاحه وتقويمه فانه قد صار بمنزلة الوحش الذى لا يطمع فى رياضته فان نفسه العاقلة تصير خادمة لنفسه البهيمية ولنفسه الغضبية فهى منهمكة فى مطالبها من النزوات وكما أنه لا سبيل الى رياضة سباع البهائم الوحشية التى لا تقبل التأديب كذلك لا سبيل الى رياضة من نشأ على هذه الطريقة واعتادها وأمعن قليلا فى السن اللهم الا أن يكون فى جميع أحواله عالما بقبح سيرته ذاما لها عائبا على نفسه عازما على الاقلاع والانابة فان مثل هذا الانسان من يرجى له النزوع عن أخلاقه بالتدريج والرجوع الى الطريقة المثلى بالتوبة وبمصاحبة الاخيار وأهل الحكمة وبالاكباب على التفلسف والعلوم النافعة

وقد كنت نظمت فى كتاب تعريب الامثال فى تأديب الاطفال منظومة لطيفة تحسن بعنوان التعريب نسجها فيحسن هنا بمناسبة المقام ادراجها

الحمد لله وصل رب * على النبى وآله والصحب

وبعد فالتأديب للابناء * آكد واجب على الآباء

من أجل ذا نظمت للتنبيه * خمسا وأربعين بيتا فيه

فى نحو ساعتين والمولى على * قصدى أعان جل ربى وعلا

فى برّ والديك بالغ تغنم * لا سيما فى العيد أو فى الموسم

وان ترم سرور أم وأب * يوما فكسب العلم خير مكسب

من رام عند الناس طرا أن يحب * فليلتزم حسن السلوك والادب

وان يكون طيب السريره * مهذب الاخلاق زاكى السيره

من رام بين العالم ارتفاعه * فليلزم العفة والقناعه
هل ذل عند الناس عبد يقنع * اوعز سيد لديهم يطمع
ان رمت أن تشوق الاولادا * وأن ترى من نجلك اجتهادا
فعده بالاتحاف يوم العيد * وقدم الوعد على الوعيد
يعاقب الجانى بما جناه * وذاك فى دنياه او عقباه
والظالم لا يتركه المولى سدى * مآل كل ظالم الى الردى
من رام أن يكتسب اللطافه * عليه طول الدهر بالنظافه
فانها من شعب الايمان * تطلب فى الثياب والابدان
وشر اوصاف الفتى هو الغضب * يفضى الى ارتكاب مالا يرتكب
فياله من خصلة ذميمه * فى تركها مصلحة جسيمه
وقسوة الرأس مع العناد * من أقبح الخصال فى الاولاد
والامتثال صفة جليله * للود ليس مثلها وسيله
مما يعد من صفات الذم * كتم الصغير عن أب أو أم
سرا حقيرا أو جليلا بل يجب * ابداؤه وعنهما لا يحتجب
يطلع المولى على ما نعمله * بعلمه لكنه قد يمهله
ففز بفعل صالح الاعمال * تحز صلاح الحال والمآل
من يعص والديه ضل وندم * وساء حاله ولا رشد عدم
وضاع سعيه وخاب أمله * ما لم يتب فلا يضيع عمله
وعفة الشريف عند الفقر * وصبره لعسره مع شكر
خير فضيلة عليها يحمد * يعقبها اليسر ويبقى السودد
والولد الصالح عند الاهل * يحب بل يكرم عند الكل
يمتاز عن أقرانه فى المكتب * تشمله بركة المؤدب
فضل البنات الشغل والتطريز * ومن حوت علما به تفوز
فى سائر الاحوال الاحتشام * من جنسهن والحيا يرام
الرفق بالفقير والضعيف * من حسن أخلاق الفتى الشريف
وخوف رب العرش والمراقبه * أمن من الشر وسوء العاقبه
من رام نظمه بسلك السعدا * فليسعد الناس ليبقى مسعدا
يحب مثل ما له لغيره * يعطى أخاه جانبا من خيره
يحسن حفظ اللوح للصغير * على مر اربل وللكبير

يرسخ فى الذهن وليس يمحى * جزته بالتقسيم واقبل نصحا
الكبر ناشئ عن الحماقه * وما لعاقل عليه طاقة
يبغض كل الناس رب الكبر * وبالرفيع والوضيع يزرى
تستحسن الطباع وصف الادب * واحسن الآداب آداب النبى
وماسوى أخلاقه فباطل * ومن تحلى بسواها عاطل
ولايليق من غلام الطاعه * خروج رأيه عن الجماعه
ففى اجتماع الكلمة السلامه * بها يتم الفتى مرامه
والحمد لله وصلى الله * على النبى وكل من والاه

وينبغى أن يعلم ان كل انسان معتد لحو فضيلة ما فهو اليها أقرب وبالوصول اليها أحرى ولاجل ذلك يجب على مدبر المدن أن يسوق كل انسان لحو سعادته التى تخصه ثم يقسم عنايته بالناس وتطوه اليهم الى قسمين أحدهما فى تسديد الناس وتقويمهم بالعلوم الفكرية والآخر فى تسديدهم نحو الصناعات والاعمال الحسية فكل من هاتين الفضيلتين عليه مدار العمل وخلاصته العمل الذى لا ينقطع ثوابه المشار اليه بحديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث الحديث

مطلب استعداد كل انسان لفضيلة ما

فتلخص من هذا الحديث النبوى ان الانسان يخلد عمله بعد انقضاء حياته بالعلم النافع للامة والصدقة الجارية التى تؤبد شرفه ونبله والولد الصالح الذى يؤبد نسله فاذا كثر أفراد هؤلاء الناس الجامعين لهذه الفضائل المستكملين للمآثر الجميلة والشمائل انتظم بهم التمدن والعمران وحسنت أحوال الاهالى والبلدان لاسيما وان ابن آدم فى الحديث هو الانسان فهو يعم أشخاص الملوك والسوقة وأكثر الملوك جامع للاتصاف باجتماع هذه المزايا ثم يليهم الوزراء والامراء والكبراء والقضاة ووجوه التجار ووجوه أهل الفلاحة والصناعة فكل على قدر مرتبته وبحسب ميسرته يسارع فى تقويم أود مملكته وتقديم منافع بلدته لكسب القوة المليه واحراز الرتبة العليه وهذا كله انما يتم بتمام السعى بالنفس والمال وقد قيل فى الحكم والامثال ان من العجائب عبد بطال ويطلب منازل الابطال فخير الناس من صنع الخير وانتفع بمعروفه قال الشاعر

لاتقطعن يد المعروف عن أحد * مادمت تقدر فالايام تارات
واشكر فضيلة صنع الله اذ جعلت * اليك لا لك عند الناس حاجات

وقال امرؤ القيس

ولو أن ما أسعى لادنى معيشة * كفانى ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل * وقد يدرك المجد المؤثل امثالى

وقال أيضا

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه * وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لاتبك عينك انما * نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومن الكلام الهاشمى قول عبد المطلب

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة * ولو تسلت أسلناها على الاسل
لاينزل المجد الا فى منازلنا * كالنوم ليس له ماوى سوى المقل

وقال آخر

بغوص البحر من طلب اللآلى * ومن طلب العلا سهر الليالى
تروم العز ثم تنام ليلا * لقد أتعبت نفسك فى الوبال
ومن رام العلا من غير كد * اضاع العمر فى طلب المحال

فمدار تأسيس قوة الملة والدولة ونفع الاوطان وعمار البلدان على العمل الآتى فى الفصل الآتى

الفصل الثانى

فى العمل الذى هو القوة الاولية فى ابراز المنافع الاهليه وفى تطبيقه على الارض الزراعيه

مطلب منابع الثروة

قد سبق أن منابع الثروة ترجع الى اربعة اشياء وهى الزراعة والصناعة والتجارة وتنمية الحيوانات وأما الامارة فهى القوة المدبرة لهذه المنابع ويمكن ادخال تنمية الحيوانات فى الزراعة فتكون أصول المكاسب ثلاثة وأفضل هذه الاشياء الزراعة لانها اطيب الجميع حيث هى الى التوكل أقرب والله يحب المتوكلين (قال) النووى انما كانت الزراعة أفضل من غيرها لان نفعها يتعدى الى غير الزارع من الطيور والبهائم وكثير من الحيوانات وما كان متعديا فهو أفضل من اللازم فى غالب الاوقات وقد قال صلى الله عليه وسلم لايغرس مسلم غرسا ولايزرع زرعا فيأكل منه انسان أو دابة أو طير الا كانت له صدقة يوم القيامة

فمن فضائل الزرع ان الله سبحانه وتعالى كرر فى كثير من الآيات ما أنعم به فى اخراج الزرع والنبات ووصف نفسه بأنه هو الذى أخرجه للحاجات فقال تعالى وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به أى بالماء نبات كل شئ فأخرجنا منه يعنى من الماء خضرا يعنى أخضر نخرج منه حبا متراكبا يعنى سنابل البر والشعير والارز والذرة

وسائر الحبوب يركب بعضه بعضا وقال تعالى وهو الذى أنشأ جنات معروشات
وهو ما انبسط على الارض وانتشر كالعنب والقرع وهو شجرة الدباء والبطيخ وغيرها
وغير معروشات ما قام على ساق وبسق كالنخل والزرع وسائر الاشجار ثم قال
والنخل والزرع مختلفا أكله أى ثمره وطعمه الحامض والمر والحلو . . . متدانيات يقرب
بعضها من بعض فى الجوار وتختلف بالتفاضل وجنات أى بساتين من أعناب وزرع
ونخيل صنوان وغير صنوان الآية والصنوان النخلات يجمعهن أصل واحد
وتتشعب منه الرؤس فيكون نخلا وقال سبحانه ينبت لكم به الزرع والزيتون
والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون وقال تعالى
أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز وهى التى لا نبات فيها فنخرج به زرعا الآية
وقال عز وجل وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا الآية وقال
تعالى والارض وضعها للانام فيها فاكهة الى قوله والحب يعنى جميع الحبوب
من حنطة وشعير وغيرهما ذو العصف يعنى البذر أول ما يبدو وقال تعالى ومثلهم
فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع
الآية فقوله تعالى ومثلهم يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم
وقوله فى الانجيل كزرع أخرج شطأه يعنى فراخه يقال أشطأ الزرع اذا افرخ فآزره
أى قوامن الموازرة بمعنى المعاونة أو من الايزار وهى الاعانة فاستغلظ فاستوى
على سوقه فاستقام على قصبه جمع ساق يعجب الزراع بكثافته وقوته وغلظه
وحسن منظره وهو مثل ضربه الله للصحابة قلوا فى بدء الاسلام ثم كثروا واستحكموا
فترقى أمرهم بحيث أعجب الناس وقال تعالى أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه
أم نحن الزارعون فحسب أرباب الزراعة فخرا أن الله تعالى وصف نفسه بهذا
الوصف فى قوله أم نحن الزارعون وهو مثل قوله تعالى خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم
وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ومعنى الزارعون المنبتون وسيأتى بعض الكلام
على هذه الآية فالافعال فى الحقيقة كلها لله سبحانه وتعالى قال تعالى والسماء بنيناها
بأيد وانا لموسعون والارض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم
تذكرون فقد امتن الله سبحانه وتعالى على عباده ببناء السماء أى خلقها وبتمهيد الارض
وخلقة زوجين من كل شئ لان السماء يأتى من جهتها المطر النازل من السحاب ولان
فيها تقدير الارزاق كلها ولولاه ما حصل فى الارض حبة قوت وجمع بين السماء والارض
فى الامتنان لان السماء مسكن الارواح والارض موضع الاعمال والمراد بالايد القوة
ولكون المخلوقات المتعيشة بالارض هى التى تعمرها قال ومن كل شئ خلقنا زوجين

والمراد بالزوجين ما يشمل الزوجين الحقيقيين والمتشاكلين والضدين ونحو ذلك وقوله تعالى في جانب السماء وانا لموسعون أي أوسعناها بحيث صارت الارض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة الى السماء وسعتها كحلقة في فلاة والبناء الواسع الفضاء العجيب فان القبة الواسعة لا يقدر عليها البناؤن لانهم يحتاجون الى اقامة آلة يصح بها استدارتها ويثبت بها تماسك اجزائها الى ان يتصل بعضها الى بعض فقوله وانا لموسعون يرجع الى تمام القدرة بالنسبة اليه تعالى ومنه لا يكلف الله نفسا الا وسعها أي ما تقدر عليه وقوله تعالى فنعم الماهدون يعني النارشون لها بعد خلق السماء ومع ذكر الامتنان على عباده ففيه افادة الوحدانية في الذات والصفات والافعال الحقيقية وفيه تعليم لعباده أن يتشبثوا باستثمار ما خلق لاجلهم واكتساب فوائده كما أرشد موسى عليه السلام حين استسقى لقومه بقوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل اناس مشربهم فضربه عليه السلام الحجر بعصاه استخرج الماء الذي به حياة النفوس من الصخرة الصماء فالرزق انما يكون عادة بالعمل في الارض لكن بفعل الله سبحانه وتعالى ولذلك قال تعالى أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون فأشار بذلك الى خلق الرزق الذي به بقاء المخلوقات ثم ذكر الماء الذي به الانبات ومنه المشروب ثم ذكر ما به اصلاح المأكول وهو النار فقال تعالى أفرأيتم النار التي تورون أي تقدحونها أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون فامتن سبحانه وتعالى بثلاثة أمور وهي المأكول والمشروب والمصلح للمأكول فذكر من المأكول الحب لانه الاصل ومن المشروب الماء لانه الاصل ومن المصلحات النار لان بها اصلاح اكثر الاغذية وانواعها ودخل في كل واحد منها ما هو دونه

مطلب الحرث والزرع

ثم ان الحرث هو أوائل الزرع ومقدماته من برش الارض وردها وتحديدها وخدمتها والقاء البذر فيها وسقي المبذور وأما الزرع فهو آخر الحرث من خروج النبات واستغلاظه واستوائه على السوق فهو بهذا المعنى ليس فعلا للحارث الذي لا ينسب اليه الا المبادي فان ايجاد الحب في السنبلة ليس بفعل الناس وانما فعلهم هو القاء البذر والسقي ولكن لما كان الحرث متصلا بالزرع وكان الحرث أوائل الزرع والزرع أواخر الحرث جاز اطلاق أحدهما على الآخر ولهذا قال تعالى اعجب الكفار أي الزراع نباته أي الحراث وقال تعالى أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون بمعنى المنبتون وقوله صلى الله عليه وسلم الزرع للزارع بمعنى آخر وفيه فائدة أخرى وهي ان الزرع لا يكون الا لمن أتى بالامر المتأخر وهو القاء

البذر أي من له البذر على مذهب أبي حنيفة رحمه الله فقوله للزارع أظهر لانه بمجرد
الالقاء فى الارض يجعل الزرع للملقى سواء كان مالكا أو غاصبا وهذا يفيده لفظ
الزارع لانه لو قال الزرع للحارث لافاد أنه لا بد من الابتداء بعامل الزرع وتقليب
الارض وتسويتها والقاء البذر فيها مع ان المقصود الاخير أي من له البذر
فعلم من هذا أن الله سبحانه وتعالى قد من على عباده بالارض الزراعية والسقى وخلق
بقية العناصر النافعة لانباتها وانما يحتاجون الى الاعمال الحراثية وغيرها فجعل
سبحانه وتعالى فيهم القدرة على ذلك وخلق أفعالهم المستعدة لذلك فأعدهم للاشغال
وبعث هممهم صوب الافعال فللامور المعاشية فى الظاهر جهتان جهة فاعلية وجهة
انفعالية اى محلية والاول هو الاشغال والثانى هو الاراضى الزراعية
ثم اختلف هل منبع الغنى والثروة وأساس الخير والرزق هو الارض وانما الشغل مجرد
آلة وواسطة لا قيمة له الا بتطبيقه على الفلاحة أو أن الشغل هو أساس الغنى والسعادة
ومنبع الاموال المستفادة وأنه هو الاصل الاولى للملة والامة يعنى ان الناس
يكتسبون سعادتهم باستخراج ما يحتاجون اليه لمنفعتهم من الارض أو راحة المعيشة
فالفضل للعمل وأما فضل الارض فهو ثانوى تبعى وهذا هو الذى يعتمده أهل الفلاحة
ويستدلون على ذلك بانه لا يمكن ايجاد الخصب فى الارض الا بدوام الشغل واستمرار
العمل والا لبقيت مجدبة اذا انقطع الشغل عنها فان الشغل يعطى قيمة لجميع الاشياء
التى ليست متقومة بدونه كالاشياء المباحة التى لا تباع ولا تشرى مما لو خليت ونفسها
لا تساوى شيأ مثلا الماء والهواء أصلان لمنافع حياة الانسان ولا يدخلان فى الثروة
والسعادة ولا فى الملكية المسعدة لان هذين العنصرين اقتضت الحكمة الالهية
الاكثار منهما فى جميع المحال وابيح لكل انسان التمتع بهما فهما فى حد ذاتهما على
العموم ليسا من الاملاك المتقومة وان عظمت فائدتهما ولا مزية فى منفعتهما النسبية
الا العمل والشغل يعنى أن جلبهما اذا احتاج للعمل كان له قيمة بقدر العمل فقط لان
الظمآن اذا احتاج الى من يجلب له الماء فى اناء كان الماء المجلوب لسد خلة العطش
مقوما عند جلبه اليه دون قيمته فى النهر فان كوز الماء قد يعطى لمن يطلبه مجانا بدون
مقابل وقد يعطى بثمن على قدر العمل وقد يبلغ عند الضرورة والاحتياج ثمنا جسيما
كما وقع فى غزوة الفرنساوية بمصر ان أحد رؤساء العسكر الفرنساوية دفع فى كوز
الماء مائة فرنك يعنى أربعمائة قرش واذا كان الانسان فى بيته واحتاج الى
استنشاق الهواء فالعمل الذى يكون به فتح المنافذ كالابواب والطاقات والشبابيك
يجعل له قيمة لم تكن له قبل ذلك وكذلك عند الضرورة كالهواء للمسجون فانه يتغالى

فى تحصيله بدفعه للسحاب قدرا جسيما فما يصرفه الانسان لتحصيل المباح من الماء والهواء انما هو قيمة العمل وأجرة الخدمة وفى مقابلة الامر والنهى والسلب والايجاب بحسب منافع هذه الاشياء ومضارها فهذا هو الذى يعد ملكا للانسان وثروة له باستحواذه على الماء والهواء وفيه ترويج للعقارات المشتملة على منافع هذين العنصرين ومشابهما النار والكلأ المباح لقوله عليه الصلاة والسلام الناس شركاء فى ثلاثة الماء والكلا والنار فلا يجوز لاحد تحجرها ولا للامام اقطاعها

فالمدار على العمل فى الرواج اذ به يستحوذ الانسان على منافع الحيوانات وصناعتها الالهامية فيؤلفها لهذه المنافع لينتفع بها أهل وطنه ويؤنس المتوحش منها الذلك فيتملك الانسان صناعة النحل وصناعة دود القز بتربيتهما وبجودة العمل يتوصل الانسان الى اغتنام العون بحركة الهواء والماء وبصلابة الاجسام ولينها وبتصعد الابخرة وبالسيارات وبكل مافيه قوة معنوية وأسرار منتشرة فى أجزائه الكونية وخواص تجريبية ليست من دائرة تصرف القوة البشرية وانما حدثت للانسان من جودة الصناعة وتقدم المهارة والبراعة ومعرفة الانتفاع بتلك القوى الطبيعية التى بثتها فى الكون الحكمة الالهية فالمولى سبحانه وتعالى خلق لنا هذه الاسرار والخواص وخلق فينا العقل لنقدر على الاستعانة بها لتكميل ضعفنا والاستفادة منها فيما نحتاج اليه فان الآلات والدواليب الجارية مثلا والسفن المنشورة الشراع فى البحار العظيمة نستفيد منها الفوائد الجمة لقوة العمل الذى يعسر أن يكون مثله بالايدى منتجا مقدار انتاجه بالآلات

وفى الحقيقة جميع هذه الاعمال لا يتمكن الانسان من الانتفاع بها حق الانتفاع الا بوجود الارض المخصبة أو القابلة للخصوبة بالصناعة التى هى محل العمل

ولن تصادف مرعى ممرعا أبدا * الا وجدت به آثار منتجع

فالارض المخصبة فضلها انما هو وجود خاصية الخصب الذى هو قبول الانتاج والاثمار وهذه الخاصية بالنسبة لذات الارض غير محسوسة بل هى عبارة عن الاستعداد والقبول لاستخراج المحصولات منها بالعمل فهى فى أول أمرها وقبل اصلاحها تحتاج كغيرها من الاشياء الطبيعية الى قوة ارادة واختيار صادرة عن عقل وتمييز ممن يريد أن يتعاهدها بالعمل ويصلحها

فالمملكة المتسعة الاراضى القابلة للزراعة اتساعا بليغا يزيد عن حاجتها اليس فيها حق الملكية مشروعا ولا منتظما وليس لها ايراد ولا محصول ينتج من القدر الزائد عن حاجة أهاليها لقلتهم فالقدر الزائد من الاراضى ضائع بالنسبة الى المملكة هباء منثورا

ولكون

ولكون طريقها وعرا بقي اقليمها قفرا

كم من رياض لا انيس بها * تركت لان طريقها وعر

ومع ذلك لو استيقظ أهلها من الغفلة لادوا لوطنهم مفروض العمران ونفله

لاتسكونن للامور هبوبا * فالى خيبة يصير الهبوب

فلنفرض أن اقليما مشتملا على قوم يعمرونه كبلاد الشلوك والدنكة من الاقطار السودانية التابعة لهذه الحكومة المصرية به أرض زراعية يعني قابلة للزراعة لخصوبتها وان مقدارأهله مليون من الانفس وأن أراضيه الواسعة الخصبة تكفي لتعيش عشرة ملايين من الاهالي ففي هذه الحالة كل واحد من سكانه يشتغل بحراثة مقدار من الارض بقدر غذائه لاغير وليس له من الاشغال غير ذلك فآحاد الاهالي بهذا الاقليم مقتصرون على منافعهم الشخصية الغذائية فلا يتفكر بعضهم وهو القوة الحاكمة ان يطلب من البعض الآخر وهو القوة المحكومية شيأ في مقابلة المحصولات الغذائية بوصف الخراج ولا يرضى أحد منهم على فرض ان يطلب منه ذلك ان يدفع شيأ بهذا الرسم ولا برسم آخر كاستعاضات تجارية أو تبرعات ثوابية واذا دفع شيأ لآخر فانما يكون في مقابلة الاعمال فقط اذا كان الحارث يشتغل على ذمة آخر بأجرة عمله فلم يكن الحارث مكلفا الا بالشغل على ذمة الزارع الذي وفر من زراعة عدة سنوات ماضية شيأ من المحصولات يعطيه للحارث بقدر تقاوي أرضه وقدر ما يتعيش به الى أوان المحصول الجديد

فيسرة الزارع أي صاحب الزرع واقتداره على البذر والاجرة ثروته فهي منبع الايراد بعد الشغل والشغل وهو العمل منبع الايراد قبل تحصيل البذر واجرة الحارث وهذا ينتج أن منبع السعادة الاولى هو العمل والكد ومزاولة الخدمة ومع ان كد العمل مصدر السعادة الاصلي فهو أيضا يعين صاحب الميسرة على تكثير ميسرته بقوة العمل ومضاعفة الهمة حسب الطاقة أزيد مما تساعد خصوبة الارض عليه يعني لو زرعنا أرضا خصبة وميزنا ما يمكن ان ينسب من ايرادها للعمل وما ينسب للخصوبة منه وفرزنا كلا على حدته وجدنا محصول العمل أقوى من محصول الخصوبة

ودليل ذلك ان الامة المتقدمة في ممارسة الاعمال والحركات الكدية ذات الكمالات في العملية المستكملة للادوات الكاملة والآلات الفاضلة والحركة الدائمة قد ارتفعت الى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات أعمالها بخلاف غيرها من الامم ذات الاراضي الخصبة الواسعة الفاترة الحركة فان أهاليها لم يخرجوا من دائرة الفاقة والاحتياج فاذا قابلت بين أغلب أقاليم أوروبا وافريقية ظهر لك حقيقة ذلك

فمن هذا يظهر ان أساس الغنى مبني على كثرة الاشغال والاعمال فهي مصادر وموارد

للاموال ومنابع للسعد الاقبال ومع ذلك فليس تعويد النفس على النشاط سهلا فان الانسان من أصل الفطرة مركوز فى طبعه كراهة التكليف بالعمل والتباعد منه حسب الامكان مع احتياجه اليه لحفظ نفسه وبقاء جنسه بالتناسل الذى من لوازمه كثرة العمل وذلك انما يكون بالتشويق للزواج الذى به ينمو النوع البشرى فى البلاد الخصبة فتبعث الوجدانيات صاحب العيلة على ان يستعمل حركة قواه لحاجته وتحصيل لوازمه فيغلب التطبع على الطبع ويحمل الانسان على الشغل رغما عن أنفه فهذا التطبع الذى هو طبع ثان للانسان طارئ وعارض عليه يزول بانتهاء قضاء الاوطار فيعود للانسان طبعه الاول من حب الدعة والراحة والانهماك على البطالة ولا يخرج من ذلك الا اذا تولد عنده احتياج جديد فيعمل بقدر قضاء الوطر ثم يعود الى الدعة والبطالة وهلم جرا وهذه الحالة فى البلاد الخشنية هى حالة طبيعية قريبة من الحالة الفطرية التى هى حالة النوع البشرى فى أول أمره .

فالانسان فى هذه الحالة من حيث انه فرد من أفراد الهيئة الاجتماعية لم يكن قوى الميل لتمدن الهيئة الاجتماعية يعنى ان كل فرد من أفرادها يكون بهذه المثابة لا انتفاع للجمعية بعمله لجميع أعضاء الجمعية الخشنية تلتذ نفوسهم بالراحة والدعة لاسيما أهل الاقاليم التى لا تستدعى احتياجاتهم بها كبير عمل ولا عظيم شغل فبطالة اعضائها كأنها رأس مالهم وراحتهم بمقوتهم امن أعظم أحوالهم وكذلك بعض أهالى المدن الغنية المثرية بذات الايراد المتلذذة بحسن المطعم والمسكن والزينة والرفاهية فانهم يصرفون النظر عن التلذذ بالشغل ويميلون للراحة والتلذذ بالبطالة والاستراحة ويهربون بالسرعة من التمتع بالرفاهية اذا اضطروا الى ان يشتغلوا بأنفسهم لا بخدمهم فلا يعملون الاعمال الشاقة فى اراضيهم التى لا تقوم بهم الا بكثرة العمل فيتركون ملاذهم اذا اقتضى الحال ان يكدوا أنفسهم بعمل هين ولو كان جزءا من ألف جزء من المتاعب التى يتعبها العملة فيفرون من هذه اللذات الجسمية ايثارا للدعة والراحة عليها لما قلناه من ان محبة الراحة فطرية مألوفة للنفوس على الاطلاق متمدنة أو غير متمدنة يعنى ان أهل الممالك المتمدنة لو كانت مترفوهم وأهالى رفاهيتهم العمل اليسير وكان لولاه لفاتهم التمتع بها فانهم يؤثرون الراحة على الشغل ولذلك تقول العامة الراحة والكسل أحلى مذاقا من العسل وقد نظم هذا المعنى بعض الشعراء فقال

ان البطالة والكسل * أحلى مذاقا من عسل
ان لم تجرب فاسأل * من كان مثلى فى الكسل

فمن هذا ينتج ان كل امة مجموع شغلها المنجز يساوى مجموع احتياجاتها البشرية

فاذا فرضنا فى القضية المتقدمة ان اقليم الشلوك والدنكة بالسودان اقليم فلاحة وان مقدار أهله مليون ومساحة أرضه عشرة ملايين من الفدادين وان الشخص الواحد يكفيه فى غذائه فدان واحد فتكون ارض هذا الاقليم كافية لغذاء عشرة ملايين من الانفس فهى زائدة تسعة ملايين عن حاجة أهلها الموجودين بها فكل انسان من الاهالى يشتغل بقدر ما يلزم لحاجته فالعمل الزراعى لا يكون من الجميع الا بقدر المؤنة اللازمة للجميع دون الزيادة عليها وفى هذه الحالة يكون عمل كل انسان بأقل من طاقته وجهده ودون قواه الطبيعية بحيث يكون له من البطالة نصيب عظيم وأيضا لا يزرعون فى هذه الحالة من اقليمهم الا المزارع الخصبة التى تكون سهلة الحراثة قريبة السقى بدون ان يكون فيها كبير مشقة على الحارث فتلك الامة التى فرضنا اتصافها بتلك الصفات تقنع بالفلاحة اليسيرة وتكتفى بقدر القوت الضرورى الملازمة الكسل وحب الراحة للطبع البشرى فكل فرد من أفراد هذا الاقليم مستعد لان يصرف ثلاثة ارباع زمنه فى التمتع بلذة البطالة والراحة بدون ان يعود عليه ضرر فى احتياجاته الاولية وأقواته المعاشية فلا يضره ضياع الاوقات

والغالب أيضا ان الاهالى الذين هم بهذه المثابة لا يكادون يخرجون عن هذه الحالة ما لم تغلب على طباعهم واحوالهم حالة أخرى تعادل قوة الاحتياجات الاولية كالتناسل والتوالد أو تشوقهم الحكومة الى ذلك أو تجبرهم عليه فان الكثرة تستجلب الحاجة فبهذا يزيد عددهم وينمو فى قليل من السنين ويصير ضعفين فيتضاعف مقدار زراعتهم بذلك فيكون للمليونين من الانفس مليونان من الفدادين وفى مدة مساوية لما ذكر يكون عدد الاهالى أربعة ملايين وهكذا الى ان يبلغ مقدار الاهالى عشرة ملايين بقدر ما تكفيه من الغذاء فتحس الامة احساسات قوية بصعوبة تحصيل غذائها لكثرة أهاليها فلا تكاد تحصل منه على الكفاية فكل شخص من الاهالى نقص له شئ من غذائه اضطر على ان يصرف جميع زمنه وجميع قواه فى تحصيل الغذاء والمؤنة ففى هذه الحالة يتجدد لاهالى هذا الاقليم صفة نشاط أخرى فيكون مقدار الشغل عندهم والعمل الكافى لهم صرف ما يستطيعونه من الكد والاجتهاد والقوة والنشاط ولا تزال تتزايد عندهم القوة النشاطية والانتفاع بالاراضى الزراعية ايا ما كانت خصوبتها

ترقى الى صغير الامر حتى * يرقيك الصغير الى الكبير

وهذه الحالة حالة تقدم للهيئة الاجتماعية محتاج اليها جميع أعضاء الجمعية ففى أثناء تقدم الاهالى بهذه المثابة يتجدد عندهم حق من الحقوق المدنية وهو مبدأ حق التملك

للاراضى وحوزها بوضع اليد عليها باحياء مواتها فمن هذا الوقت يصير للارض قيمة فى حد ذاتها زائدة عن قيمة العمل فالشاغل لارض يختص بها بدون ان يستولى عليها بالعمل بالتملك وفى هذه الحالة تضطر الاهالى الى الاستيلاء على جميع الاراضى القليلة المحصول التى كانت قبل ذلك عديمة الرغبة فيها فيصير صرف الهمة فى اصلاحها بالحراثة ثم لا تكتفى الاهالى بذلك بل ربما تدعو الضرورات الى اصلاح الاراضى العقيمة الجدبة وتقويم أودها بالحرث والخدمة واحياء مواتها بل كل من استولى على ارض بهذه الحالة أجهد نفسه فى اصلاحها لاستحصاله منها على البذر والتقاوى واجرة العمل والتسوية مدة احيائها وجبر الخسارة التى خسرها محييها

فحينئذ كل فرد من أفراد الجمعية محترف بحرفة الفلاحة والعمل فيها ومضطر لان يوجه نفسه للحرث والغرس ليتعيش بحرفته يدخل عند مالك الارض بوصف أجير عامل ويكلف نفسه ان يصرف جميع أوقاته فى خدمة الارض بدون راحة الا بقدر المسافات الضرورية لاكله وشربه ونومه وعبادته ونحو ذلك فبهذا تزداد نتائج الزراعة وتنمو يوما فيوما بكثرة العمل فالعامل الذى كان يعمل فى الزمن الاول مقدارا يسيرا ويقضى أوقاته فى البطالة يضطر الى ان يعمل فى الزمن بعينه مقادير جسيمة ويستحصل على كثير من المحصولات بقدر زيادة القوة البشرية وذلك ان كلا من العملة واصحاب الاملاك يجتهد فى البحث عن الوسائل والوسايط المقربة للعمل المسهلة له المقللة لأوقاته

فكن باحثا عما عناك فانما * دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

ويصير الاجتهاد فى ذلك بحيث ما يعمله العامل فى يوم يمكنه ان يعمل أضعافه فى اليوم الواحد ثلاث مرات او أربعا لان العامل قد تجرد فى هذه الحالة عن البطالة وتفرغ للعمل وتمرن عليه بالمداومة فكلما مارسه تجددت عنده معرفة تامة يجيد بها عمله ويتزايد الدرجات فى الكمال تحسن الزراعة وتتكامل البراعة فيها فيحسن العامل العمل ويتفنن فيه ويقسمه الى أقسام ويعرف الاوقات والفصول والساعات وما يخص انواع الزراعة وما يقويها من المصلحات فتعلو قيمة العامل بالتجربة والجودة وكذلك يقف على معرفة خصائص ما يستعين به من الآلات العنصرية المسهلة لصنعته كالهواء والماء والبخار فتكون هذه الاشياء المسهلة عنده أدوات عمل كأنها عوامل بدون أجرة وانما يحسن استعمالها أرباب المهارة والصناعة فاذا توفرت عند المزارعين هذه الوسايط المتكاملة النافعة حسنت بها نتائج الاعمال اليومية وعظمت بها ثمرات الاشتغال

فبهذه

فبهذه الطرق والوسائل ينطبع فى مرآة عقول الامه المتعيشة من الفلاحة صورة حركات الاشغال التقدمية ويتعودون على المبادرة بنشاط الاعمال الفلاحية فلا تزال تتجدد المنافع العمومية بالتدريج وتأخذ فى الزيادة بدون نهاية وبهذه المنافع الاهلية تكثر أموال الرعيه وسعادتها التعيشيه

ثم ان المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية المجتنى لفوائد هذه الاصلاحات الفلاحية الناتجة فى الغالب عن العمل واستعمال القوى الآلية والمحتكر لمحصولاتها الايراديه انما هو طائفة الملاك فهم من دون أهل الحرفة الزراعية هم متمتعون بأعظم مزية فأرباب الاراضى والمزارع هم المغتنمون لنتائجها العمومية والمحصلون على فوائدها حتى لا يكاد يكون لغيرهم شئ من محصولاتها له وقع فلا يعطون للاهالى الابقدر الخدمة والعمل وعلى حسب ما تسمح به نفوسهم فى مقابلة المشقة يعنى ان الملاك فى العادة تتمتع بالمتحصل من العمل ولا تدفع فى نظير العمل الجسيم الا المقدار اليسير الذى لا يكافئ العمل فما يصل الى العمال فى نظير عملهم فى المزارع أو الى أصحاب الآلات فى نظير اصطناعهم لها هو شئ قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد الى الملاك فان المالك يستوفى لنفسه اكثر محصول الارض فانه بعد تصفية حساب مصاريف الزراعة وجميع كلفها يأخذ محصولها بتمامه بوصف ايراد للارض وعلف للمواشى واجرة للآلات ولا يعطى لارباب الاعمال والاشغال منها الا قدرا يسيرا ولا ينظر الى كون بعض هؤلاء العمال هو الذى حسن الزراعة بشغله واخترع لها طرائق منتجة واستكشف استكشافات عظيمة بتنمية الزراعة وتكثير أشغالها فان حق التملك ووضع اليد على المزارع سوغ للملاك ولواضعى الايدى ان يتصرفوا فى عمليات املاكهم التصرف التام وان يعطوا للعمال بقدر ما يظنون انه من لياقتهم ويعتقد المالكون أنهم أرباب استحقاق عظيم بسبب التملك وانهم هم الاولى بالسعادة والغنى مما يتحصل من عمليات الزراعة وأن من عداهم من أهل المملكة لا يستحق من محصول الارض شيأ الا فى مقابلة خدمته ومنفعته المأمور باجرائها فى حق أرضهم فيترتب على هذا ان كل من يريد من الاهالى ان يتعيش من الخدمة التى هى العمل يصير مضطرا لأن يخدم بالقدر الذى يتيسر له أخذه من الملاك بحسب رضائهم ولو كان هذا القدر يسيرا جدا لا يساوى العمل لاسيما اذا وجد بالجهة كثير من الشغالين فانهم يتناقصون فى الاجرة ويتنافسون فى ذلك لمصلحة صاحب الارض مع أن الارض انما تحسن محصولاتها بالعمل فلا يمكن أن يكون ذلك التحسن والزيادة والخصب الا بالعمليات الفلاحية الصادرة من هؤلاء الاجرية الذين تناقصت أجرتهم وكما أن أرباب الاملاك يحتكرون جميع الاعمال

الزراعية من طائفة الفلاحة كذلك يحتكرون ثمرات جميع الصنائع لان الصنائع كلها تسعى وتنهض فى الاشغال والعمليات التى تستدعيها حاجة الفلاحة كالحدادة والنجارة وجميع صنائع أهل الحرف المتعلقة بأمور الفلاحة

فينتج من هذا كله أن زيدا من الناس اذا لم تساعده المقادير على أن يصير مالكا لقطعة أرض لايزال يقاسم مالك الارض فيما يتحصل من الثروة الزراعية ولكن تمتعه ناقص جدا فانه لا يأخذ من المحصول الزراعى الا القدر الذى يسمح به المالك فى مقابلة خدمته وفنه وصناعته وثمن الادوات والآلات والدواليب المهندمة للزراعة فاذا كان مالك الارض سخيا كريما مبسوط اليد كافأ المكافأة التامة ووسع على من ينتفع بفنه فقد جرت العادة أن الفلاح لايكافأ على قدر خدمته وحراثته لقاعدة مشهورة ان من يزرع يحصد يعنى ان المحصود للمالك وقد قال صلى الله عليه وسلم الزرع للزارع مع ان المعنى فيه ان الزرع لمن بذر والثمرة له وعليه أجرة مثل الارض لأن العامل يأخذ أجرة قليلة على عمله ففى خبر الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم عامل أهل خيبر بشطر مايخرج منها من ثمر أو زرع أى أعطاهم النصف فى نظير عملهم وفى رواية دفع الى يهود خيبر نخلها وأرضها والمراد بعملهم مساقاتهم ومزارعتهم فالواقع منه صلى الله عليه وسلم مزارعة تابعة للمساقاة والزرع المذكور فى الحديث كان شعيرا كما استظهره بعضهم ومثل الزرع المذكور غيره كملوخية وبامية وخوخ ومشمش فتصح المزارعة على ذلك تبعا للمساقاة والبذر فيها من المالك بخلاف ما اذا كان البذر من العامل فهى مخابرة وهى المسماة أيضا بالمشاطرة التى تقع فى مثل العنب والخوخ فيدفع المالك الارض للعامل ويزرعها العامل ببذر من عنده وكذا القمح بل وقوع المخابرة الآن مع انها غير جائزة موجودة بمصر أكثر من المزارعة فحديث الزرع للزارع لايدل على شئ من جواز استحواذ المالك على المحصولات وعدم مكافأة العامل ولايستند فى غبن الاجير الى أن المالك دفع رأس ماله فى مصرف الزراعة والتزم الانفاق عليها فهو الاحق بالاستحواذ على المحصولات الجسيمة وانه الاولى بربح أمواله العظيمة فهو الاصل فى التربيح وأن عملية الفلاح انما هى فرعية انتجها وحسنها راس المال فان هذه التعليلات محض مغالطة اذ فرض الكلام فى العامل بجر لعمل منتج لولاه لما ربحت الارض ربحا عظيما فوا كسة المالك له فى تقليل أجرته محض اجحاف به ووصف استغلال الاراضى والصرف على الزراعة من رأس مال المالك لا يقتضى كونه يستوعب جل المحصولات ويجحف بالاجير نظرا الى

ازدحام

ازدحام أهل الفلاحة وتنقيصهم للاجر وسومهم على بعضهم بالمزايدات المنقصة وهذا لا يثمر محبة الاجير للمالك (من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا) فان هذا فيه ايذاء بعضهم لبعض وهو ممنوع شرعا كما يدل عليه مارواه ابو هريرة رضي الله عنه فقد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله اخوانا المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره التقوى ههنا ويشير الى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه رواه مسلم وفي رواية ولا يسم على سومه ولا يخطب على خطبته وحيث كان هذا الحديث كثير الفوائد عظيم العوائد مشيرا الى حل المبادى والمقاصد حاويا بالكثير من الاحكام والآداب اشارة وصراحة لاسيما وأنه ينطبق انطباقا كليا على اعمال الفلاحة بينا معناه بطريق الاختصار فقوله صلى الله عليه وسلم لا تحاسدوا أى لا يحسد بعضكم بعضا أى لا يتمن زوال نعمة غيره لان الحسد حرام لقبحه عند المشرعين وغيرهم قال الشاعر

وأظلم أهل الارض من كان حاسدا * لمن بات فى نعمائه يتقلب

وليس من الحسد تمني الانسان مثل ما للغير لنفسه فان هذا هو الغبطة الممدوحة وقوله صلى الله عليه وسلم ولا تناجشوا أى لا ينجش بعضكم على بعض بأن يزيد فى المبيع ليخدع غيره وهو أيضا محرم اجماعا لانه غش وخداع وهما محرمان لحديث من غشنا فليس منا وفى رواية من يغش فليس منا ومعناه لا يعامل أحدكم صاحبه بالغش والمكر والخديعة فيدخل فى قوله ولا تناجشوا جميع أنواع المعاملات بالغش ونحوه كتدليس العيوب وكتمها وخلط الجيد بالردى قال الشاعر

ليس دنيا الا بدين وليس الـ * ـدين الا مكارم الاخلاق
انما المكر والخديعة فى النا * س هما من خصال أهل النفاق

ومن المعلوم ان الحسد والغش يتولد عنهما التباغض اذ يكونان من أسبابه فلذلك قال صلى الله عليه وسلم ولا تباغضوا أى لا يبغض بعضكم بعضا أى لا يتعاطى أسباب البغض أيا ما كانت كالمواكسة السابقة المذكورة بل ينبغى للناس أن يسعوا بما فيه ائتلاف القلوب بتعاطى أسبابه فقد امتن الله سبحانه وتعالى على عباده اذ ألف بين قلوبهم فقال واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وقال تعالى لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم فالانسان مكلف بتعاطى أسباب الالفة والمحبة واجتناب أسباب العداوة والبغضة ثم قال صلى الله عليه وسلم ولا تدابروا أى لا يدبر بعضكم عن بعض أى لا يعرض بعضكم

مطلب
تفسير قوله صلى الله عليه وسلم لا تحاسدوا ولا تناجشوا الخ

عما يجب للبعض الآخر عليه من الحقوق كالاعانة والنصر والتخاطب والتآلف وعدم الهجر فى الكلام الا لعذر شرعى كنحو تهمة وقصد تأديب ثم قال صلى الله عليه وسلم ولا يبيع بعضكم على بيع بعض بأن يقول بائع لمشترى سلعة فى زمن الخيار أفسخ هذا البيع وأنا أبيعك مثلها بأرخص من ثمنها أو يقول أنا أبيعك أجود منها بثمنها ومثله الشراء على الشراء بأن يقول مريد الشراء للبائع فى زمن الخيار افسخه وأنا أشتريه منك بأغلى فان هذا كله من باب الضرر ومثله السوم على السوم والخطبة فى الزواج على خطبة الغير ومثل ذلك كل ما كان فى معناه مما ينفر القلوب ويورث البغضاء وأغلب أهل الفلاحة والصناعة والتجارة لا يتحرزون عن ذلك لاسيما بعد استقرار البيع والايجار والتراضى عليه ويتعللون فى جواز القدوم على ذلك بالغبن وبعض العلماء لا يجوز القدوم عليه ولو كان مغبونا وبالجملة لا تجوز الزيادة فى ثمن البيع والسوم ولا على الايجار بعد الاستقرار بل تحرم وتجوز الزيادة قبل الاستقرار

ثم حث صلى الله عليه وسلم على حسن المعاشرة والملاطفة والتعاون فى الخير بقوله وكونوا عباد الله اخوانا يعنى يا عباد الله كلكم خلق الله قد أخرجكم من العدم لحكمة انتظام العالم وتكثير منافعه فاكتسبوا ما تصيرون به اخوانا فى المودة وقد أمركم بما تقدم ذكره وأنتم عبيده فحقكم أن تطيعوه وتتعاطوا أسباب ما تصيرون به اخوانا للتعاضد على اقامة دينه واظهار شعائره وانتظام ملكه وهذا انما يكون بائتلاف القلوب وتواطئ الكلمة كما يفيده قوله تعالى هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم الآية ثم ان اخوة العبودية التى هى التساوى فى الانسانية عامة فى حقوق أهل المملكة بعضهم على بعض التى هى حقوق العباد وهناك حقوق العبودية الخاصة التى هى الاخوة الاسلامية وهى اكتساب ما يصير به المسلمون اخوانا على الاطلاق من اداء حقوق بعضهم على بعض كرد السلام وابتدائه وتعليم الاحكام الشرعية ونحو ذلك من شعب الايمان فهذه هى التى أشار لها صلى الله عليه وسلم بقوله المسلم اخو المسلم يعنى أخوة دينية لانه ما يجمعهما دين واحد وهى أعظم من الاخوة الحقيقية وقد قال الله تعالى انما المؤمنون اخوة وفى الصحيحين مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وروى أبو داود المؤمن أخو المؤمن يكف عنه ضيعته ويحوطه من ورائه ورواية الترمذى ان أحدكم مرآة أخيه فان رأى به أذى فليمطه عنه أى يبعده عنه ولا مانع أن يعمم فى مكارم الاخلاق فجميع ما يجب على المؤمن لاخيه المؤمن منها يجب على أعضاء الوطن فى حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من الاخوة الوطنية فضلا عن

مطلب
تعميم ابناء الوطن فى مكارم الاخلاق بدون تفرقة ولا نظر للاختلاف فى الدين

الاخوة

الاخوة الدينية فيجب أدنا المن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص شرف الوطن واعظامه وغناءه وثروته لان الغنى انما يحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية وهى تكون بين أهل الوطن على السوية لانتفاعهم جميعا بمزية الاخوة الوطنية فمتى ارتفع من بين الجميع التظالم والتخاذل وكذب بعضهم على بعض والاحتقار ثبتت لهم المكارم والمآثر ودخلت فيما بينهم السعادة بكسب شعائرها ومآثرها فلذلك بين عليه الصلاة والسلام قوله المسلم أخو المسلم بقوله لا يظلمه أى لا يدخل عليه ضررا فى نحو نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله لان ذلك قطيعة محرمة تنافى الاخوة

مطلب
تسوية الذمى بالمسلم فى حرمة ظلمه

قال الامام ابن حجر فى شرحه على الاربعين النووية بل الظلم حرام حتى للذمى فالمسلم أولى انتهى وهذا يؤيد ما قلناه من أن أخوة الوطن لها حقوق لاسيما وانها يمكن أن تؤخذ من حقوق الجوار مما للجار على جاره خصوصا من يقول بأن أهل الحلة الواحدة كلهم جيران وقوله صلى الله عليه وسلم ولا يخذله أى لا يترك نصرته المشروعة لاسيما مع الاحتياج والاضطرار اليها وقوله ولا يكذبه أى لا يخبره بأمر على خلاف الواقع لانه غش وخيانة قال تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين وقد أجمع جميع الملل على قبحه وتحريمه الا لمصلحة قوية ضرورية ولا يحقره أى لا يستصغر شأنه ويضع قدره ولا يغدر عهده ولا ينقص أمانته باستخفانته

وبالجملة فيعامل أخاه بمضمون حديث لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه فالاحتقار ناشئ عن الكبر وهو مذموم لان المتكبر ينظر لنفسه بعين الكمال ولغيره بعين النقص فيحتقره ولا يراه أهلا لان يقوم بحقوقه قال ابن حجر وتخصيص ذلك بالمسلم لمزيد حرمته لا للاختصاص به من كل وجه لان الذمى يشاركه فى حرمة ظلمه وخذلانه بدفع نحو عدوه عنه والكذب عليه واحتقاره الا من حيث مغايرة الدين ثم قال صلى الله عليه وسلم التقوى ههنا ويشير الى صدره ثلاث مرات يعنى ان التقوى هى اجتناب عذاب الله تعالى بفعل المأمورات وترك المحظورات فى القلب الذى فى الصدر قال تعالى ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب وفى هذا اشارة الى ان العبرة بالقلوب كما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام الا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهى القلب فهو العارف بالشرائع والطرائق والحقائق واذا استقام القلب استقامت الجوارح لاسيما اللسان فانه يكف أذاه عن كل انسان وهنالك يستقيم الايمان فعلى الانسان أن يتمسك بالتقوى التى هى السبب الاقوى ويقف عند حد كلام النبوة ليتصف بالمروءة والفتوة

فلا يظلم احدا ولا يحقره ولا يكذبه ولا يخذله فقد قال صلى الله عليه وسلم أنزلوا الناس منازلهم وقال ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا ثم قال صلى الله عليه وسلم بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم يعني يكفي الانسان فى ان تكون أخلاقه موصوفة بالشر وان يكون سيئ المعاش والمعاد احتقار أخيه المسلم واحتقار من له حرمة من الناس لان الله عز وجل لم يحقر الانسان اذ أحسن تقويم خلقه وسخر ما فى السموات والارض كله لاجله فاحتقاره احتقار لما عظمه الله عز وجل وكرّمه قال تعالى ولقد كرمنا بنى آدم فازدراؤه من أعظم الذنوب والجرائم ثم قال صلى الله عليه وسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه يعنى انه يحرم على المسلم سفك دم أخيه وسلب ماله وهتك عرضه وأدلة تحريم هذه الثلاثة شهيرة من الكتاب والسنة واجماع الائمة وهى أصول قوام صورة الانسان لان الدم به حياة الانسان ومادة الحياة هى المال وبالعرض الذى هو والحسب قوام الصورة المعنوية وماسوى هذه الاصول الثلاثة متفرع عنها وراجع اليها فهذا الحديث يحث جميع الناس على مكارم الاخلاق وعلى التعاون فى التعيش والمعاملة وأكثر الناس معاملة هم أهل الزراعة فان أرباب الإملاك والاراضى يحتاجون الى التعاون فى زراعة أرضهم بأكثر الصنائع وقد قال صلى الله عليه وسلم استعينوا على كل صنعة بصالحى أهلها وكذلك أهالى الصناعات محتاجون لارباب الاملاك الارضية للتعيش من محصول أراضيهم فيجب عليهم جميعا المناصحة لبعضهم وتقوى الله فى صنعتهم ثم ان العمل الذى عليه مدار الفلاحة كما ان الفلاحة عليها مدار غيرها من الصنائع ينقسم الى قسمين منتج وغير منتج وهذا هو موضوع الفصل الثالث من هذا الباب

مطلب احتياج الزراعة لاكثر الصنائع وبالعكس

الفصل الثالث

(فى تقسيم الاعمال الى منتجة للاموال وغير منتجة لها أى استقلالية وغير استقلالية)

من المعلوم ان العمل والشغل مترادفان على معنى واحد عند أهل الصناعة والعامل والشغال كذلك فما يقال فى العمل والشغل يتصف به العامل والشغال ومن المحقق ان الافعال كلها لله سبحانه وتعالى وانما احوج عباده الى تحصيل أسباب الحاجة المتكاثرة ليظهر للخلق انه أراد استجلابها بوجه حلال وجعل الانسان أكثر أصناف الحيوانات احتياجا وجعل دونه فى الاحتياج سائر أصناف الحيوانات حيث اقتضت الحكمة الالهية أن تكون غنية بأصوافها وأوبارها وأشعارها عن اللباس والدثار وغنية بالارض والاوكار عن أن تتخذ بنيانا وأشرك الجميع فى مادة الاحتياج الى الغذاء لئلا

يشتركوا مع الالوهية فاذا ادّعى بعضهم الربوبية لنفسه كفرعون أولغيره كان احتياجه الى تكرار الغذا مشاهدا على كذبه كما قال الله تعالى ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل أى مضوا فهو يمضى مثلهم وليس باله كما زعموا وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام أى كغيرهما من الحيوانات المشتركة معهما فى ذلك ومن كان كذلك لا يكون آلها لاحتياجه الى الطعام والى خروج ما نشاء عنه من الفضلات فالفعل والتدبير انما هو لله سبحانه وتعالى فى تحصيل ما يحتاج اليه الآدمى وغيره من الغذاء والأدم والفواكه والاشربة كما قال تعالى انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا أى بالنبات فانبتنا فيها حبا أى كالحنطة والشعير وعنبا وقضبا أى تبنا للعلف وزيتونا ونخلا وحدائق أى بساتين غلبا أى عظاما لكثرة أشجارها وفاكهة أى ثمارا طيبة غير ما تقدم وأبا أى مرعى للدواب أو يابس الفواكه متاعا لكم ولانعامكم أى الابل والبقر والغنم فان الانواع المذكورة بعضها طعام وبعضها علف وابتدأ تعالى بالمن بانبات الحب لانه أنفع المنبت ولان الانسان اذا تأمل فى انبات الحبة الصغيرة استدل بذلك على عظيم قدرة الله تعالى لان الحبة ولو صغيرة جدا اذا دفنت فى الارض وحصل لها نداوة انتفخت ثم لا تنشق مع عموم الانتفاخ لها الا من أعلاها وأسفلها فيخرج من الاعلا الجزء الصاعد الممتد وهو الساق ثم يتشعب منها أغصان كثيرة الى الجانبين ثم يطلع الزهر غالبا ثم منه تصلح الثمرة وهى مشتملة على اجزاء غليظة كالقشر ولطيفة كاللب وفيه الدهن وأما الجزء الغائص من أسفل الحبة فيتفرع منه عروق تغوص فى الارض الشديدة الصلابة مع غاية لطفها ويوصل الله بها الاغذية من الطين الى الجزء الصاعد والاغصان ويوزعها الله فى كل جزء من أجزاء الاغصان فاذا تفكر الانسان فى هذا وأمثاله ذهبت غفلته وحدث للقلب خشية كما يحدث الله عند الماء النماء للزرع وعلم ان الفعل لله حقيقة ولغيره مجازا

وقد قسم أرباب الادارات والتدابير العمل الى قسمين لا ثالث لهما منتج للمال وغير منتج له لان العمل لا يخلوا اما أن تزيد قيمة مورده بالربح فهو المنتج واما أن لا تنشأ عنه ثمرة تربيح مالى تنسب اليه فهو غير المنتج وهذا يرجع الى الاستغلال وعدمه بالعمل وكما يقال للعمل منتج أو غير منتج يقال للعامل كذلك فالعمال صنفان مكتسبة ومرتزقة ويقال للعمل أيضا خدمة سواء كان جليلا أو حقيرا فبهذا المعنى يقال لمطلق العمل خدمة وانما العرف يخص الخادم بالمعنى المشهور المتعارف والقرينة بحسب الحال تدل على المعنى المراد ثم ان العامل فى أوسية أو دائرة العامل صناعية أو زراعية تزيد بعمله قيمة البضائع المصنوعة التى هى مورد عمله فله مدخل عظيم فى تربيح

مطلب (الفرق بين العامل والخادم)

صاحب المال فهذا العامل منتج للكسب والاستغلال بخلاف عمل الخادم عند السيد فانه ليس فيه فى حد ذاته للسيد ربح ولا مكسب مالى ومن المعلوم ان كلا من العامل والخادم يتعيش من محصل العمل أو محل الخدمة لا انه اذا نظرنا للحقيقة ونفس الامر نجد أن العامل المستأجر يأخذ من صاحب المصنع أجرة مقدمة على العمل ومع ذلك لا يتكلف على صاحب المصنع شيأ فان أجرته فى الغالب تنقص من الربح الزائد المتسبب عن عمله فهو يأخذه من ثمرة كده وعرق جبينه بخلاف ما يأخذه الخادم من سيده من الجامكية فى مقابلة خدمته فليس مأخوذا من مورد مالى صادر عن عمل الخادم والدليل على ذلك أن آحاد الناس من أرباب الفلاحة أو الصناعة قد يربح من عمل عماله وآثار مهارتهم شيأ يصير به رئيس جماعة فلاحية أو عريف فرقة صناعية فيشغل كثيرا من العملة والشغالين فى دائرة شغله ينمو ماله ويزيد غناه وتتكمل سعادته وكلما كثرت اتباعه فى هذا الخصوص كثرت ثروته وان السيد قد يكثر من الخدم والحشم فيكون ذلك سببا لتناقص ماله وانحطاط قدره وما ذاك الا أن الاول جميع من عنده من العمال يعملون عملا متجاريا بخلاف الثانى فان عمل خدمه وحشمه غير منتج للمال ومع ذلك فسيد الخدم يحكمهم بقدر استحقاقهم ونشاط خدمتهم وتأدية ما هو مطلوب منهم فهم آخذون لا معطون بخلاف عمال الاشغال الصناعية فأجرتهم تقدر على قدر مورد العمل والمتحصل منه من الارباح والفوائد هذا اذا كان بالمياومة واذا كان بالمقاولة والالتزام والتعهد فان رئيس الصناعة يعطى المهمات الجسيمة المتراكمة الاجزاء والمواد بقدر معلوم للعمال فى نظير الاجرة فاذا تخصصت على الزمن ربما تفرق عن المياومة بكثير فيربح المالك ربحا عظيما ويخسر العامل لانه يعطى نوعا للكثير وآخذ للقليل وجميع هذه المصنوعات والمشغولات توضع فى مخازنها الى وقت رواجها فتباع ويتحصل منها مقادير جسيمة بحيث تكفى لتشغيل مشغولات قدر التشغيلات الاولية التى بيعت مشغولاتها عند رواجها يعنى أن صاحب المال يربح جودة وسائل التشغيل وادواته فقد توفر رأس ماله وما اكتسبه من عمل العمال وهلم جرا الى غير نهاية بخلاف خدمة الخادم لسيده فلا ثمر له ثمرة باقية وليس لها مورد ولا محصول ولا بضاعة تباع ولا تشرى بل خدامات الخادم اعراض تنقضى بالفراغ من عملها بدون بقاء أثر ولا قيمة فلا تعطى بعد انقضائها ربحا يكفى صرفه لمدة أخرى بقدرها عند العود لمثلها ولو كانت لزومية وعليها مدار العمل فى الجمعية يعنى فى المملكة المتمدنة

فخدمة المقلدين للمناصب العاليه والوظائف السامية في أى دولة من الدول وكذلك خدمة الخدم المنتابين لسادتهم في أى بلد كان لا تنتج ربحا ماليا ولا قيمة مثرية للمخدوم محسوسة يعنى لا تنتج بنفسها استغلال الاموال التي هى منسوبة له وهذا لا يقدح في خدمها شيأ لان خدمة أرباب المناصب في الممالك عليها مدار العمل والارشاد بالتدبير والسعى في الاصلاح فانتاجها الحقيقى انتاج بالواسطة فهو انتاج الانتاج لا انتاج بالفعل والمباشرة وكلامنا في انتاج رؤس الاموال والسرمايات دون الانتاج الارشادى والا اذا نظرنا الى انتاج الادارة ومعونة الحكومات وجدنا صحة ما سلف نقله عن الخليفة المأمون من قوله ان اسباب المكاسب أربعة وعد منها الامارة وقال انما عدا ذلك فهو كل علينا والكل بفتح الكاف الحمل وقد قلنا ان مرجع استحصال الاموال لا يكون الا من الزراعة والصناعة والتجارة فهى محل الارباح والايراد واما غيرها فهو محل للمصارف لا تنابينا ان غير المنتج من الاعمال هو ما لا يبقى بعد انقضائه شئ من ثمرات العمل يروج ويكفى لعمل آخر فوظائف جميع الحكام الملكيه وضباط العسكرية البرية والبحرية وجميع الجنود كذلك وان كان عليها مدار حركة الانتاج بل هى القوة الباعثة له في الواقع ونفس الامر الا أنها لا تسمى في عرف المنافع العمومية بالمنتجة للاموال بنفسها وبعملها وان كانت لهم مرتبات سنوية جسيمة في نظير مأمورياتهم فهذه المرتبات عائدة اليهم من أموال غيرهم ولو أن خدمتهم للحكومات في غاية الشرف والمنفعة ومن أشد اللزوم للاهالى فلا تنتج ربحا يروج منه مقدار للمستقبل يساوى المصرف على خدمتهم سنة يعنى لا تربح خدمتهم للحكومة مالا ناضا يعطى لهم في السنة المقبلة فبهذا المعنى يقال انهم غير منتجين يعنى هم جهة مصرف لا جهة ايراد أى ليسوا جهة أرباح ويلحق بالمناصب الميريه المناصب القضائيه والدينية والعمومية كعمال الاوقاف ونحوها فان الموظفين بهذه المناصب المغتنمة غير منتجين بالمعنى السابق يعنى مناصبهم لا تجلب أرباحا ولا مكاسب ومثل هؤلاء أهل الآداب كالشعراء والمنشئين ومن ذلك أرباب فنون الطرب والملاهى والمصارعين كاهل الموسيقى والمغنين والمنشدين وما أشبه ذلك فجميع هذه الاعمال ليس لها قيمة مالية وكسب وتربيح كالاشغال المنتجة لذلك اذ لا تنتج شيأ يباع ويحصل منه لسنة أخرى مصاريف العمل الذى يعطى ربحا وهلم جرا فان اشغالهم جميعا واعمالهم أعراض تنتهى عقب فراغها فراغها فلعب اللاعب وانشاد المنشد وانغام المغنى وتوقيع الموسيقى ضربه على حسب المقامات كلها أعراض تنتهى بانتهاء عملها الا لا بها وليست مربحة واما عمل آلاتها وكتبها وتأليفها فهو منتج أموالا واما هى في حد ذاتها فلعبة

بغير المنتج فجميع أرباب الاعمال غير المنتجة وأرباب البطالة الذين لا عمل لهم كلهم على حد سوى فى كون مصارفهم صادرة عن محصولات الارض السنوية وعن عمليات الاهالى الصناعية فنفقتهم على غيرهم مع شرف البعض كشرف الولاة والقضاة وأمناء الاديان والانتفاع بخدمة البعض الآخر كارباب الطرب والملاهى وما أشبههم ثم ان المحصول الزراعى أو الصناعى ولو بلغ ما بلغ فى العظم والكثرة فهو محدود ومتناه ومقدر بالحساب فاذا أخذنا حساب السنة الماضية وعرفنا منه مقدار المنصرف فى استحقاقات ومرتبات غير المنتجين من الاشخاص قل عددهم أو كثر وكذلك مرتبهم وجعلنا الباقى على ذمة مصارف الاشخاص المنتجين فهذا القدر الباقى قليلا كان أو كثيرا يكون هو محصول السنة المقبلة لانه هو الذى يباع ويصير دخوله فى التشغيل للتربيح ومن هذا يتبين ان المتحصل من المزارع فى السنة هو نتيجة العمل المنتج يعنى ايراد المزارع فى السنة بعد استنزال اجرة الارض أى ما عليها من المال وما يتبع ذلك من التقاوى وعلف المواشى واجرة المهمات الآلية وغير ذلك فالصافى بعد هذا هو الربح وهو الذى يحصل منه تشغيل السنة المقبلة ومنه تدفع اجرة الاجير المنتج ويقاس على ذلك ادارة الصناعة كالفبريقة فان أغلب محصولها فى العادة هو فى مقابلة رأس المال والباقى يعد أرباحا بعد تنزيل المصارف فمن هذه الارباح التى هى ثمرة العمل المنتج تدفع اجرة ذلك العمل

وهذه الارباح أيضا معدة لتكوين الايراد الذى يخرج منه أرزاق الاشخاص المنتجين وغير المنتجين يعنى جميع أهالى البلدة مكتسبة ومرتزقة فمدار مؤنة الاهالى جميعهم على الاعمال المنتجة يعنى موارد الاموال فكل انسان أخرج من ماله شيأ وجعله رأس مال فى زراعة أو تجارة فلا يكون غرضه منه الا تربيح هذا المال فلا يصرف منه الا للعمال المنتجين الذين ينض هذا المال بعملهم فاذا صرف رأس المال على العمل أنتج مما صرفه جزأ بوصف الربح يعود على العمال فى نظير أجرتهم فربح الشغالة انما هو ناتج من عين عملهم لا من رأس مال المالك فاذا أراد المالك ان يستخدم خدما لعمل غير منتج وجعل لهم مرتبا فمصرف هذا المرتب خارج من أصل ماله فيدخل فى الحساب ضمن المال المبقى لنفقته فليس ما ينفق على الخدم من ربح عملهم كارباب العمل المنتجين فأرباب الاعمال غير المنتجة وأرباب البطالة يتعيشون جميعا من ايراد واحد له موردان الاول محصول الربح السنوى الوارد لصاحبه فى مقابلة مال أرضه أو ربح ماله والثانى المال الذى يخص العامل فى نظير عمله بقصد التعيش به الذى هو عبارة عن رأس مال العمل

فاذا وصل هذا القدوم من رئيس الدائرة الصناعية أو الزراعية الى العامل فانه يتعيش منه لنفسه فاذا ازاد عن مؤنته فلا مانع ان يتعيش منه ناس أخر منتجون أو غير منتجين كما اذا كان العمال أرباب أهمية فى العمل ولهم أهمية وشرف ورياسة فى صنائعهم فان مرتباتهم من دوائر العمل تكون جسيمة فيقتضى الاحوال المسعد لهم يستخدمون من الخدم والحشم من يليق بهم تقليد الكبار أرباب الاملاك وأغنياء التجار فيتعيش فى جانبهم أناس كما تعيشوا فى جانب غيرهم فقد عادت منهم المنفعة على غيرهم كما عادت عليهم من منفعة اعمالهم فى خدمة غيرهم وهؤلاء الاشخاص أصحاب النعمة الجديدة قد تعودوا المنافع منهم على أناس أخر كارباب حرف الافراح والاتراح والمستحقين للاعانات فيتعيش منهم طوائف كثيرة من أرباب الاعمال غير المنتجة وكذلك هؤلاء العملة المنتجون تنتفع منهم الحكومة بدفع العوائد التى هى فى الغالب يتحصل منها جزء عظيم يساعد على احتياجات الحكومة لصيانة البلاد والعباد ومع ان أرباب الدولة متقلدون بأشرف الاعمال الملكية وهم أصحاب الامر والنهى والنفوذ فعمليتهم كما قلنا ولو انها مهمة وأولية غير مالية لا يباع منفوعها ولا يشترى وانما هو قطب رحى عموم الانتاج

وقد أسلفنا ان العمال المنتجين يأخذون عملهم من جزء الارباح المعتبر رأس مال تعيشهم وأن العمال غير المنتجين يأخذون مرتباتهم من الارباح الزائدة عن العمليات التشغيلية ونقول هنا ان هذه الارباح التى يتعيش منها صاحب المال والعمال غير المنتجين لا يمسها أحد منهم الا بعد جعلها فى حركة التدبيرات النامة لانتاجها وتربيحها يعنى انها لا بد من ترويجها وتشغيلها على الطريقة السابقة فى السنين السابقة لتكون مضمونة فبهذا ينبغى أن تكون أجرة العامل مستحصلا عليها بالتمام فى مقابلة عمله وأن يكون استحقاقها بجميعها بعد العمل ولا يتصرف فى أدنى شئ منها بعمل غير منتج حتى لا تضيع هباء منثورا فاذا صرف حينئذ منها شيأ لا يكون الا بسير المقتضيات الاحوال الضرورية بل ينبغى ان لا يصرف الا ما دبره ووفره من أزمنة سابقة لاسيما ان كان ما دبره له ايراد وتربيح فانه يكفيه لمصارفه وطريقة الوفر عند أرباب الاعمال والصناعات المنتجة سهلة جدا لمواظبتهم غالبا على ذلك ولذلك تجد فى تعاديل فردة الرؤس والعوائد أن عوائد كل واحد منهم بقدر ميسرته وعلى حسب كميات وفره واقتصاده

مطلب
وفاء الاجير أجرة عمله عقب توفيته للعمل

مطلب
تعديل العوائد على قدر الميسرة

ومن هذا كله يفهم أن محصولات الاراضى وأرباح رؤس الاموال مورد ان أصليان يتعيش منهما أرباب الاعمال غير المنتجة وأن الوفر والتدبير يليق ويتأتى لكل

منهما لاهل الفلاحة والتجارة وأن طائفة الزراعين والتجار يمكنهم على حد سواء تعييش العمال المنتجين وغير المنتجين بل تعييش غير المنتجين من ربح أهل الزراعة والصناعة أكثر جسامة مما يعود على الحكومة منهم وهو أيضا أحق وأولى لعموم منفعته وتنقله من أيادى أهل الحكومة الى حاجة أناس كثيرين فان مرتبات الامير مثلا يتعيش منها غالبا أناس كثيرون من العلماء والصلحاء والفقراء والخدم والحشم وفاقا لقوله صلى الله عليه وسلم ما عظمت نعمة الله على عبد الا عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يتحمل تلك المؤنة فقد عرض تلك النعمة للزوال وقال صلى الله عليه وسلم ان لله أقواما اختصهم بالنعم لمنافع العباد يقرهم فيها ما بذلوها فاذا منعوها نزعها منهم وحولها الى غيرهم ومن الامراء جم غفير يتعلق الناس بأذيالهم ويتعيش من فضول أموالهم كثير من أرباب البطالة والفراغ أكثر ممن يتعيش من أرباب الفلاحة لان أرباب الفلاحة لا يتعيش منهم غالبا الا العمال أرباب الصناعة المنتجة ومع ان العادة تقضى بأن أغنياء التجار يستعملون رؤس أموالهم ليتعيش منها أناس كثيرون من أرباب الاعمال الشاقة كالاسفار ونحوها فهم فى ذلك كارباب الزراعة يبحثون عن الربح والفائدة الا ان أرباحهم يتعيش منها عادة كثير من الخدم والحشم وأرباب الحرف غير المنتجة فهم من هذا الوجه كالامراء يعيش فى جانبهم خلق كثير بدون تربيح للمنصرف من أرباحهم فقد حاز وافضيلتى الفلاحين والامراء

وهذا كله اذا اعتبرنا أن الامراء وأصحاب المناصب الملكية وغيرها لا يتشبثون بالزراعة والتجارة والا فأكثرهم فى البلاد الزراعية أو التجارية باسوة كبار الاهالى فلهم الدوائر العظيمة الرابحة والاملاك الاستغلالية فهم بهذا المعنى داخلون فى عصابة أهل الفلاحة والتجارة ومتعيش فى دوائرهم كثير من الناس يعنى من العمال المنتجين وغير المنتجين وأيضا ما يرد لهؤلاء من المرتبات المنصرفة من طرف الاعمال المنتجة يصرفون أكثره على الوظائف غير المنتجة فى نظير عوائد أملاكهم فيرد اليهم من الخزائن الملوكية مقادير مالية على قدر استعدادهم وأهمية مناصبهم ويصدر منهم أيضا الى تلك الخزائن مبالغ كثيرة أو قليلة على قدر أراضيهم وما عليها من العوائد

وبالجملة فالكلام على الانتاج وعدمه ومصادر الاموال ومواردها انما هو بالنظر للحيثيات فقد يجتمع فى الامير مثلا أن يكون أيضا له زيادة عن مزية امارته مزية الزراعة والتجارة لرأس مال اراده فيكون جامعا للمنافع العمومية ويكون منتجا من جهة وغير منتج من أخرى والله يرزق من يشاء بغير حساب

مطلب
التعيش من مرتبات الموظفين

ثم

ثم ان الاعمال بنوعيها منتجة وغير منتجة ممدوحة مطلقا لما فيهما من السعى كما ان البطالة مذمومة عند جميع الامم شرعا وعقلا فلنذكر ما قيل فى مدح العمل وذم البطالة فى الفصل الرابع من هذا الباب

الفصل الرابع

(فى مدح السعى والعمل وذم البطالة والكسل)

قد اسلفنا ان الاعمال هى أسباب السعادة والثروة ومنبع الاموال والغنى فالارض الزراعية انما هى مورد للاعمال مساعد وأن الارض المخصبة بدون العمل لا تنتج شيأ والارض المجدبة بكثرة العمل تخصب وتنتج النتائج الجمة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أفضل العمل أدومه وان قل وفى التوراة حرك يدك أفتح لك باب الرزق وقد كان الانبياء والسلف الصالح يعيشون من كسب أيديهم ويحترفون فقد قال الله تعالى فى حق داود عليه السلام وعلمناه صنعة لبوس لكم أى عمل الدروع من الحديد فقد علمه الله تعالى صنعة الحديد فصار يحكم منها الدروع فاستعان بها على أمره واشتغل صلى الله عليه وسلم قبل النبوة بالتجارة بالشام للسيدة خديجة رضى الله عنها وبعد النبوة كانت حرفته صلى الله عليه وسلم الجهاد فقد قال صلى الله عليه وسلم جعل رزقى تحت ظل رمحى وقال ان الله يحب العبد المحترف ويبغض الصحيح الفارغ وقال صلى الله عليه وسلم من بات كالا فى طلب الحلال أصبح مغفورا له والكال فى طلب الحلال الذى يتعب نفسه فى العمل لكسبه وقال عمر رضى الله عنه لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وقال رضى الله عنه انى لأرى الرجل فيعجبنى فأقول أله حرفة فان قالوا لا سقط من عينى

وكان ابراهيم بن أدهم على ورعه يسعى ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويؤدى الفرائض بالنهار ويصلى النوافل بالليل وكان أغلب الملوك والسلاطين على قدم الانبياء والاصفياء يتخذون لهم صنائع يتكسبون بها وينفقون منها توخيا للانفاق من الحلال وتنزها عن الاخذ من بيت المال وقال سعيد ابن المسيب رحمه الله لا خير فيمن لا يجمع المال من حله يخرج منه حقه ويصون به عرضه قال الشاعر

ولا تجمع الاموال الا لبذلها * كما لا يساق الدر الا الى النحر

وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنه فى قوله عز وجل ويزدكم قوة الى قوتكم أى مالا الى مالكم فلا مجد الا بالمال والآمال متعلقة بالاموال قال الشاعر

كل النداء اذا ناديت يخذلنى * الا ندائى اذا ناديت يامالى

والمال أصل السودد والرياسة اذبه تستجمع أسبابهما وقد انقاد الناس قديما وحديثا للغنى لان القلوب لا تستمال الا بالمال قال ابن المعتز

اذا كنت ذا ثروة من غنى * فأنت المسود فى العالم

وحسبك من نسب صورة * تخبر أنك من آدم

ولما وصل المعز بن تميم بن سعد بن منصور العبيدى الى الديار المصرية بعد ما وصل غلامه القائد جوهر وملك مصر واختط القاهرة وكان العبيديون ينتسبون الى فاطمة رضى الله تعالى عنها خرج الناس الى لقائه واجتمع به الاشراف فقال لهم من بينهم محمد ابن عبد الله بن طباطبا العلوى الى من ينتسب مولانا فقال لهم سنعقد لكم مجلسا ونسرد لكم نسبا فلما استقر فى قصره جمع الناس فى مجلس عام ونثر عليهم الدنانير والدراهم حتى عمهم وقال هذا حسبى ثم سل نصف سيفه وقال وهذا نسبى فقالوا جميعا سمعنا وأطعنا

اذا كنت فى حاجة مرسلا * وأنت بها هائم مغرم

فارسل حكيما ولا توصه * وذاك الحكيم هو الدرهم

وقال آخر

ذا كرته بهذا الوصال فقال لى * كم ذا تطيل من الكلام المؤلم

لما رأى الدينار أنشد قائلا * أين المفر من القضاء المبرم

وقيل درهمك وسيفك فازرع بهذا فيمن شكرك واحصد بهذا فيمن كفرك قال الشاعر

لم أر شيأ صادقا نفعه * للمرء كالدرهم والسيف

يقضى له الدرهم حاجاته * والسيف يحميه من الحيف

وقال آخر

ذرينى للغنى أسعى فانى * رأيت الناس شرهم الفقير

وأهونهم وأحقرهم عليهم * وان أمسى له حسب وخير

يباعده الخليل وتزدريه * حليلته وينهره الصغير

ومن بلغ الغنى وله جلال * يكاد فؤاد صاحبه يطير

قليل ذنبه والذنب جم * ولكن الغنى رب غفور

قيل لميمون بن مهران ان فينا اقواما يقولون نجلس فى بيوتنا وتأتينا أرزاقنا فقال هؤلاء حمقى ان كان لهم يقين مثل يقين ابراهيم خليل الرحمن فليفعلوا

لقد هاج الفراغ عليك شغلا * واسباب البلاء من الفراغ

وسئل الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ما تقول فى رجل قعد فى بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيأ حتى يأتينى رزقى قال هذا رجل جهل العلم أما سمعت قوله صلى الله عليه وسلم جعل رزقى تحت ظل رمحى يعنى الغنائم

نروح ونغدو لحاجتنا * وحاجة من عاش لا تنقضى

وقيل غبار العمل خير من زعفران البطالة قال الشاعر

قصر الناس بى ولو كنت ذا ما * ل جلبت الجميع بالمال حولى
ولقالوا أنت الكريم علينا * وتخطوا الى هواى وميلى
ولكات المعروف كيلا مليئا * يعجز الناس أن يكيلوا ككيلى

وقال غيره

خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة * ان الجلوس مع العيال قبيح
فالمال فيه مجلة ومهابة * والفقر فيه مذلة وفضوح

(غيره)

فلم أر بعد الدين خيرا من الغنى * ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر
ولم أر زين المال الا امتهانه * ومنفده فى أوجه الحمد والاجر

وكان ابو بكر رضى الله تعالى عنه اذا خرج فى تجارته أخذ بضائع لضعفاء قريش فيبيعها لهم ويشترى ولا يكلفهم شيأ

ليس التقى بمتق لالهه * حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما يجنى ويكسب أهله * ويطيب من لفظ الحديث كلامه

وحسب ترك العمل ذما أن النبى صلى الله عليه وسلم استعاذ من الكسل (وقال) على رضى الله عنه خلق التوانى والكسل فزوجوهما فنتج من بينهما الفاقة (وقال) رضى الله عنه الحركة ولود والسكون عاقر ولا ينشأ عن البطالة الا المفسدة فعلى المرء أن يشغل النفس التى هى عين فارغة بما يصلحه والا شغلته بما يفسده ولذلك قيل الحركة بركة والتوانى هلكة وكلب طائف خير من أسد رابض ومن لم يحترف لم يعتلف ومن شمر طالبا جاء الى بيته جالبا قال الشاعر

اذا هبت رياحك فاغتنمها * فان لكل خافقة سكون
اذا درت نياقك فاحتلبها * فما تدرى الفصيل لمن يكون
اذا ملكت يداك فلا تقصر * فان الدهر عادته يخون

وبالجملة فالامل مغناطيس العمل وخير الامل انتظار الحمد والشكر وحب الفخار

ودوام الذكر ولولا ذلك لما كان اجتهاد ولا استنباط ولا كسب ارتفاع غب انحطاط
ولا اختراع مخترع ولا إبداع مبتدع فهل يحسن بالعاقل أن يعمل فكره
الا فيما يخلد ذكره

نافث على الخيرات أهل العلا * فانما الدنيا أحاديث

فقد تولع العقلاء على اختلافهم بامعان الانظار واعمال الافكار فى أمور يظهر
للعامة أنها حقيره وهى عند أذكياء الخاصة خطيره

اذا لم يكن الا الاسنة مركبا * فلا رأى للمضطر الا ركوبها

فمن اخترع حكمة بذكائه وفكره كانت سببا لبقاء ذكره ومن هذا القبيل اردشير بن
بابك وهو أول ملوك الفرس الاخيره فانه أول من وضع النرد وضربها مثلا للقضاء
والقدر وان الانسان ليس له تصرف فى نفسه لا يملك لها ضرا ولا نفعا بل هو مصرف
على حكم القضاء والقدر ومعرض للنفع والضرر ووضعها على مثال الدنيا وأهلها ورتب
الرقعة اثنى عشر بيتا بعدد شهور السنة وجعل القطع ثلاثين قطعة بعدد أيام كل شهر
والدرج التى تكون لكل برج وجعلها مثلا للحظ الذى يناله العاجز بما يجرى له
الفلك والحرمان الذى يبتلى به الحازم بما جرى به عليه الفلك وتوصل الى ايصال تلك
العقول بفصين أنزلهما منزلة الليل والنهار وجعل لكل فص ستة أوجه لجهات
الانسان فوق وأسفل ووراء وامام ويمين وشمال يشير الى ان الانسان لا يعلم من
أين يأتيه الخير ولا الشر وأشار فى تقلبها الى تقلب القدر بالانسان فيكون مشروفا
ثم يصير شريفا ويكون فقيرا ثم يصير غنيا وبالعكس الى ما لانهاية له من التقلبات

الناس مثل زمانهم * حذو المثال على مثاله
ورجال دهرك مثل دهـ * ـرك فى تقلبه وحاله

مطلب
اول من وضع النرد

ولما افتخر الفرس بوضع النرد وكان ملك الهند يومئذ بلهيث وضع له الحكيم المسمى
صصة الشطرنج وجعلها مثلا على ان لا قدر وان الانسان قادر بسعيه واجتهاده
أن يبلغ المراتب العليه فان هو أهملها أصاره الخمول الى الحضيض ومما جعله دليلا
على ذلك ان البيذق ينال بحركته وسعيه منزلة الفرزان فى الرياسة وجعلها
مصورة تماثيل على صورة الناطق والصامت وجعلها درجات ومراتب ومثل
الشاه بالمدبر الرئيس وكذلك ما يليها من القطع وبين لاهل فارس ما خفى عنهم من
مكايد الحروب وكيفية ظفر الغالب وخذلان المغلوب فظهر للملك مكنون
سرها فقال له اقترح ما تشتهى فقال اشتهى أن تضع حبة بر فى البيت الاول
واثنتين فى البيت الثانى ولا تزال تضعفها الى آخر البيوت وما بلغ تعطينى اياه

مطلب
أول من وضع الشطرنج

فاستخف

فاستخف الملك عقله واستقل طلبه وقال كنت أظن رجاحة عقلك وانك تطلب شيأ نفيسا فقال أيها الملك انك لما صرفتنى الى التمنى لم يخطر ببالى غير ذلك ولا سبيل الى الرجوع عنه فأنعم له الملك بما سأل وأمر الحساب أن يحسبوا ذلك فلم يجدوا مايفى للحكيم بمراده وقد أحصى ماطلبه فوجدوه ألوف الالوف مكررا تكريرا جسيما لاتفى به أشوان الملك فاختراع الشطرنج حكمة جليلة تخلدت فى جميع البلدان وأقامت على شدة ذكاء مبتدعها البرهان

وأجل من هذا المستخرج للشطرنج من استخرج فن الطب ودونه وهو الحكيم اسقلبينوس بياء موحدة تحتية بعد اللام خلافا لمن جعله بالنون وهو من أهل اليونان وبعضهم يقول ان المستخرج للطب أهل مصر وأن المستخرج له هرمس المستخرج لسائر الصنائع وقيل المستخرج له المصريون غير هرمس بالهام من الله تعالى لجماعة ثم ازداد الامر فى ذلك بكثرة التجاريب وقوى وصار علما واسعا واحتج القائلون بذلك بأن امرأة كانت بمصر وكانت شديدة الحزن والهم مبتلاة بالغيظ والنكد ومع ذلك كانت ضعيفة المعدة وصدرها مملوء أخلاطا رديئة وكان حيضها محتبسا فاتفق انها أكلت عشبا مرارا كثيرة بشهوة منها له فذهب عنها جميع ما كان بها ورجعت الى صحتها وجميع من كان به شئ مثل ما كان بها واستعمله برئ به فاستعمل الناس التجربة على سائر الاشياء فالذى جمع هذه التجربات ودونها بمصر هو الواضع له سواء كان هرمس أو غيره ولامانع أن يكون هذا العلم مما تعدد واضعه ببلاد الدنيا حيث ان التجربة قد تعددت فيه وان أقوى التجاريب وأكثرها تجاريب اسقلبينوس وتلقاها عنه الحكماء الذين جاؤا بعده فى الزمن فعدوا أيضا من الواضعين له

مطلب وضع الطب

وقال بعضهم ان الله سبحانه وتعالى خلق صناعة الطب وألهمها الناس واحتج أهل هذا القول بأنه لايمكن فى مثل هذا العلم الجليل أن يدركه عقل الانسان فالواضع الله الذى خلق الداء والدواء وهذا القول أيضا يرجع الى الوحى والالهام وينبغى أن يكون الطب النبوى من ذلك باتفاق لمصداق آية وما ينطق عن الهوى وبالجملة فوضع الطب عظيم وتدوينه جسيم وفضل التأليف فيه عميم ولايستكشف شيأ من منافعه الاذولب سليم

ومن فروعه الفرع الذى حفظ اطفال النوع البشرى من الآفات والمهالك وهو فن تلقيح الجدرى بالمادة البقرية حيث انتشر فى المسالك والممالك وفضل استكشافه لحكماء الافرنجية المتأخرين وان كان معلوما قبل ذلك لبعض قرى مصر وقرى

السودان وعند الهنديين ولهم فيه طريقة يعملونها بالخيط والابرة بتلويث الخيط في بثرات أثداء البقرة ويغرزونها بين الجلد واللحم من كتفي الطفل ويبقى الخيط في الاكتاف وهي من أعظم الالطاف

فالوضع الاولي في سائر العلوم هو تصور قواعد أولية ابتكارية لاتزال تأخذ في الزيادة والاستكمال ويتفرع منها فروع تتسع على مدى الايام والليالي فيكون للعلم بهذا المعنى عدة من الواضعين وجملة من الافاضل الموسعين كالامام علي رضي الله تعالى عنه فانه قيد الالسنة بعلم النحو حيث أملى على أبي الاسود الدئلي أقسام الكلام وقال له تتبعه وزد فيه ماوقع لك مما يلائم المقام لتصونا بذلك من اللحن ماخالط اللسان العربي مما كاد يفسده من رطانة الاعجام فوضع أبو الاسود الدئلي قواعد النحو التي فهمها له ثم جاء بعد أبي الاسود سيبويه فوضع كتابه الذي كل من جاء بعده منه يغترف وبتقدمه عليه يعترف واذا أطلق في عرف النحاة لفظ الكتاب فاليه ينصرف ووضع الخليل بن أحمد علم العروض وجعل له ميزانا للشعر وصاغ له من التفاعيل أجزاء ثمانية صيرها لوزنه كالمثاقيل وهاهي أنوار تلك العلوم النافعة على جميع آفاق الدنيا ساطعه وهي ثمرات الاعمال الصادرة عن الابدال

مطلب اول من وضع اصول النحو

مطلب اول من وضع العروض

ومن الحكم من طلب جلب ومن جال نال ومن جسر أيسر ومن هاب خاب فقد فاز بالدرع قانصه وحاز الصيد قانصه والجراءة من أسباب الظفر وغلبة الاقران والشجاع يعرف بالاقدام ولو على الضرغام وبضده الجبان والمتواني الكسلان لاسيما الشاب القليل الحيله والملازم للحليله والمقتنع بالرذيله والراضي بالحشف وسوء الكيله فمن دام كسله خاب أمله ويقال الخيبة نتيجة مقدمتين الكسل والفشل وثمرة شجرتين الضجر والملل ويقال ان الحرمان شعاره الكسل ودثاره التسويف والعلل قال بعضهم

لاتصحب الكسلان في حالاته * كم صالح بفساد آخر يفسد

عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع في الرماد فيخمد

وقال بعضهم في الرد على من قال الكسل أحلى من العسل

ليس البطالة والكسل * بالجالبين لك العسل

فاعمل فان الله قد * حث المطيع على العمل

وفي كتب الادارة آخر طبقات الرعية طبقة البطالة الغوغاء وهم ممن ينبغي أن لايرحمهم الملك لانهم يغلون الطعام ويضيقون الطرق لاسيما ان كانوا من

الفسقة

الفسقة فهم أظلم الناس يأكلون رزق الله ولا يعملون لله فلا يصلحون للدنيا ولا للآخرة وكل أحد سواهم يعمل لنفسه وهم لا ينظرون لانفسهم ولا يعملون لدنياهم ولا عقباهم فمثل هؤلاء يسوغ للملك أن يخرجهم من البلدان رأى المصلحة فى ذلك أو يجعلهم مستعدين لنائبة أو حادثة يعملون فيها بخلاف طبقة العمال المحترفين فعلى الملك أن يشوقهم بالعطايا وشمول النظر والمسامحة حتى يتسابقوا الى الحرف البلدية كما انه ينبغى للملك ان يتلطف بأصحاب العاهات كالعميان والمجذومين فان منادى الشرع يقول اذا رأيتم أهل البلايا فاسئلوا الله العافية فيجرى عليهم قدر كفايتهم و يعين لهم موضعا على طرف البلدة لمصلحة الجميع

مطلب مواظبة قدماء مصر على العمل ونفورهم من البطالة والكسل وتصويرهم شخص الكسل بصور مختلفة مستبشعة

وقدماء المصريين من الازمان الخاليه والقرون الباليه يعانون الاعمال العجيبه ويجتهدون فى انجاز الاشغال الغريبه كالاهرام والمسلات العظيمه والتصاوير والتماثيل العجيبة الجسيمه فبهذا كانوا ينفرون من الفتور والكسل كمال النفور ويشخصون الكسل و يجعلونه على صورة بشعة توضع فى الميادين العامة لتكون عبرة لاهل المرور والعبور فيصورون الكسلان بهيئة شخص مقع اقعاء الكلاب عليه هيئة الحزن والاكتئاب مطأطئا الرأس الى الارض يجمع اليدين بعضهما مع بعض وبجانبه قضبان مكسوره تفيد هجره للاشغال ونفوره وتارة يصورونه على صورة امرأة مطلوقة الساعدين شعثاء غبراء ذات أطمار رثة مسطوحة على الارض متوسدة أحد ذراعيها او بيد الذراع الآخر منكاب مملوء من الرمل ومقلوب تستدل به على ما مضى من النهار من الساعات والدقائق ولها عند المصريين رسم آخر فيما غبر من الزمان وهى رسم الكسل على هيئة امرأة عليها علامة البطء والتوان كانها تروم أن تتبختر فى سيرها الممقوت وتجرثوبا من نسج العنكبوت متكئة على أريكة المجاعة والمخمصة تمضى جميع أوقاتها فى الدعة والاستراحة المقتنصه ففى عنفوان شبابها واخضرار وغض عوداهابها لا تميل الى حركه ولا تعطف على بركه وفى زمن الكهولة والهرم ترقد على فراش العدم والندم يشيرون بذلك الى أن الكسلان لعجزه دائما حزين اذا لم يفعل شيأ لمعاشه و يزيد حزنه وأسفه اذا احتاج الى تحصيل شئ لم يقدر على تحصيله و يقال مزرعة الكسلان كثيرة الشوك والسعدان تزدحم عليها الحشائش الطفيليه والاعشاب الفضوليه فلا يحصل له منها ما يفى بالقوت فيسطو على جيرانه ليكون كلا عليهم أو يتصف بوصف لص ممقوت قال بعضهم

يا نفس ذوقى لذة العمل * وواظبى العدل والاحسان فى مهل

فكل ذى عمل بالخير مغتبط * وفى بلاء وشؤم كل ذى كسل

وقال آخر

دعى نفسى التكاسل والتوانى * والا فاثبتى ثوب الهوان

فلم أر للكسالى الحظ يحيى * سوى ندم وحرمان الامانى

وقيل

وكم حياء وكم عجز وكم ندم * جم تولد للانسان من كسل

وما ألطف ما قيل فى الاشارة لمن يؤثر الغناء الممدود على الغنى المقصور

قال لى اللاحى أما حان أن * تترك لوما مستعبا قلت حان

قال فهل قلبك حان على * من بت مشغوفا به قلت حان

قال فحبوبك فى قتل من يهواه حان قوسه قلت حان

قال فقل لى ما الذى تشتهى * حان غناء أو غنى قلت حان

مع ما فيه من محسنات الجناس التام والمراجعة فصفة الكسل مثلبة خبيثة بل هى أم الخبائث فهى تحمل صاحبها على عدم اعمال الفكر والبدن وبعض الفضلاء يزدرى أرباب الرياسات الباطلة والمراتب العاطلة التى يشتريها أهلها ليصلوا بها الى درجات العظمة والكبرياء ليستروا بها كسلهم حتى لا يتبين للناس انهم أرباب بطالة والافاضل يعدون ذلك من النذالة والسفالة فان فضل الكسلان يدفن معه يدون أن تعود منه على نفسه أو غيره أدنى منفعه

وقد أشار الى الشغل والبطالة الحكيم لفنتينه (لافونتين) الفرنساوى فى حكاية على لسان العجماوات جعلها مكالمة بين الصرار والنملة وترجمها بعض الافندية[1] فقال

مطلب تمثيل المشتغل والكسلان بصرار ونملة

حكاية موضوعها صرار * أودى به الجوع والاضطرار

وكان قضى الصيف فى الغناء * وما سعى فى ذخرة الشتاء

وحين جاء زمن الثلوج * ومنع القوم من الخروج

شاهد بيته بلا مؤنه * فراح يوما يطلب المعونه

وقال للنملة أنت جارتى * مالى سواك فى قضاء حاجتى

هل تصنعين معى المعروفا * لاذقت من دهر الردى صروفا

وتقرضينى صواعا غله * وطبقا ومبردا وحله

فان أتى الصيف فقبل الصبح * أردها عليك غير الربح

قالت له النملة وهى تجرى * عذرك يا مسكين مثل عذرى

ماذا فعلت فى حصيد قد مضى * قال لها كان زمان وانقضى

[1] (handwritten marginal note, partly illegible)

قالت وما ادخرت فيه للشتا * قال لها مستهزئا منكتا
كنت أغنى للحمير القمص * قالت له يا صاحبي الآن ارقص
واعلم بأن السعي في الذخيره * يسد كل خلة وحيره
والدرهم الابيض وهو في يدي * ينفعني لدى النهار الاسود

ومع ميل طباع عامة الناس الى التكاسل والفتور رفقد تغير الاحوال والاوقات العصرية على حركة العمل حتى تصير طبيعية وينتج عنها تقدم الجمعيات عن هذا الانبأس ملة من الملل ولا دولة من الدول من ان تأخذ حظها من براعة العمل لاسيما اذا كان لها فيه سابقة نصيب وافر كديار مصر التي سبقت جميع الأمم بالمآثر الغريبة وكباقي الدول الاسلامية التي جددت فيما سلف انواع المعارف البشرية والمنافع العمومية والتقدمات المدنية ومن آثارها استنارت ارجاء جميع ممالك الدنيا ثم تنقلت من اهلها الى غيرها وتكاملت المزايا في ذلك الغير حتى أراد الله سبحانه وتعالى ان انوار المعارف الفرعية انتشرت في هذا العصر على آفاق اصولها باجتهاد المجتهدين واهتداء المهتدين واقتداء المقتدين والحصول على ما عجز عنه سائر السلف المتقدمين كما يفصح عن ذلك ما سطره بعض أهل الانشا حيث بين أسباب ذلك فيما طرزووشي اذ قال ان عصرنا هذا نشاهد فيه للناس بالتدريج آثارا عجيبة وهذا دليل على ان التأثيرات الطبيعية في قبضة التصرفات الانسانية لان الطبيعة هي الحاكمة للانسان بل هي المذللة له ومن هذا يظهر ان هذا العصر مبدأ للتقدمات التي تكون في المستقبل فاستعمال القوة البخارية برا وبحرا سهلت الاسفار والسياحات وفوائد سرعة المخابرات التلغرافية غنية عن البيان اذ بتلك القوة كان الانسان قادرا على تجهيز أشغاله الخاصة به والاستحصال على اجتماع الافكار ومبادلة المحصولات وذلك كرأس مال يترقى شيأ فشيأ ويعم أطراف الدنيا حتى انه في مدة يسيرة تلتئم الجمعيات البشرية وتزول الاختلافات الكلية ويتحد بعض الناس مع بعض بكمال الوفاق على وفق ما تقتضيه الاخوة الموافق للعقل والحكمة المرضي لرب العزة وتأخذ في العمران الاراضي الخالية وتصير معادن للخيرات ومنابع للثروات وقد بلغنا ان السياح الانكليزي (سير صامو يل بيكر) الشهير بالسياحة في القطعة الافريقية عين مأمورا لكشف على اقطارها المجهولة والوقوف على حالها وبمعيته من يلزم ليتوجهوا من طريق النيل ويرشدوا من فيها بالارشادات اللازمة ثم المقرب المسافات في هذا الاوان ثلاثة الاول قنال السويس المشرف على التمام الفاصل بين قطعتي آسيا وافريقيا تم بما بذلك تتصلان وتسهل تجارتهما وتجارة اوربا بعدما كان يتجشم في ذلك الطواف

من رأس العشم فبفتح القنال تنقص مسافة البحر الابيض نحو الثلثين ولقرب قطعة آسيا منه عن غيرها من الممالك الاورباوية تزيد حصتها فى الفوائد عما سواها الاريب اذانها احدثت طريق حديد الى أوربا كان بابا عظيما للتجارة وثروة الخزينة ووقع ذلك عند العالم الموقع فيلزم المبادرة الى انشاء ذلك على الوجه المساعد لنا فان منفعة هذا تزيد عن العادة ويجتمع منها رأس مال وتتسارع الناس فى الاستحصال على الرخصة من الحكومة فحينئذ لا ينبغى التأخر عن هذا وانما اللازم التأمينات الكافية لاجل منافع سكان المملكة والاسراع بمباشرة العمل

الثانى قنال (هوندوراس وهو فتح برزخ بناما) المتوسط بين قطعتى امريقا الجنوبية والشمالية الذى أصله شق صغير شكلت لفتحه قومبانية كبيرة فانه بواسطته تصير قطعتا امريقا الجنوبية والشمالية جزيرتين عظيمتين وتزول المشقة عن أصحاب السفن من بعدما كانوا يسافرون من البحر المحيط الغربى المسمى بالاطلسى الى الصين ولبابونيا والجزائر الاقيانوسية مع مكابدة اخطار الرياح العاصفة وطول المسافة مارين من رأس هورن المشهورين جميعه بالشعاب وذلك لاضطرارهم فاذن لا تلحقهم الآن تلك المشاق بواسطة ذلك القنال وتكون مسافتهم على النصف فى بحر معتدل ساكن الهواء على خط الاستواء

الثالث سكة الحديد الجسيمة التى حان منها التمام بشمال قطعة امريقا البالغة الآن مسافة امتدادها ثلاثة آلاف وستمائة وثلاثة وعشرين ميلا وهى فى أرض سهلة تامة المنفعة مبتدأة من نيورق اكبر مدن امريقا الى مدينة (سان نسيسقو) باياله قاليغورنيه الشهيرة بمعادن الذهب وكان قد رخص لقومبانيتين فى انشائها (لنقولن) رئيس جمهورية امريقا المتوفى حين محاربتها الداخلية سنة ١٨٦٢ ميلاديه وضرب لها ميعادا أربع عشرة سنة فجدتا كل الجد فيها حتى اكملتاها قبل تمام نصف المدة ومن بعد ذلك تقطع مسافة صحارى جهة امريقا الشمالية فى ستة ايام ولا يجهل محل فيها ولا تعطل جهة من الزراعة وسائر الفوائد وقد انشأت هاتان القومبانيتان نحو ألفى عربية كالدور مشتملة على بيوت واسرة من الحديد ولوقندات وكتبخانات وهى فى حال مرورها السريع يتداول فيها من الطريق ظروف أوراق الحوادث التلغرافية المعلقة على الاعمدة الخشب وتطبع فى المطابع اللاتى فيها وتنشر على الركاب وبهذا يكونون كأنهم فى مدن الممالك العظيمة فى الدنيا القديمة وبماذكر هانت امور الاسفار وتقاربت المسافات بين جميع الجهات وتواصلت الجمعيات وزالت الوحشات واطلع الناس على مالم يطلعوا عليه ووصلوا الى مالم يصلوا من قبل اليه فكان لا مانع من تواصل

اهم

امم البرية ومن تسمية هذا العصر عصر المدنية انتهى ما قاله فكل هذا أعان ويعين على تقدم وسائل المنافع العمومية الآتى تقسيمها فى الباب الثانى مع غاية البيان وعلى ذكر الوابورات قلت هذه الابيات

العقل فى الوابور حار * تبغى الجواب فلا يحير
فاذا أردت الاختبار * علما به فاسأل خبير
فلك بأوج اللج دار * ومن الحضيض له مدير
يجرى على عجل كار * فى رسم شكل مستدير
هو من عطارد لا يغار * فكأنه الفلك الاسير
قد اورث الشمس اصفرار * لما علا منه الصفير
قمر منازله البحار * نجم السماك له سمير
فى كفه الجوزا سوار * بهر الثريا اذ تشير
والمشترى حاز اليسار * فغدا بزهرته أسير
ملك له الوحى ائتمار * ابدا باجنحة يطير
وبراق اسرا فى القفار * يطوى الفيافى اذ يسير
ملك على الانهار سار * وعلى البحار له سرير
بالعز اكسبها الصغار * مع انه جرم صغير
قد نال من كسرى اعتبار * لبخار عنبره عبير
خاقان هند خوف عار * ما ها له لهب السعير
بركان نار حيث ثار * فورا وصار له هدير
اوسائح يهوى السفار * لمصالح الدنيا سفير
اوعاشق سلب القرار * أو يحسد الطرف القرير
فى الحب قد خلع العذار * ودموع مقلته غدير
صب وفى الاحشاء نار * شوقا الى القمر المنير
أوشاطر طلب الفرار * للامن من أمر خطير
أوباز صيد قد اغار * مغرى على الظبى الغرير
أوظبى قاع ذو نفار * يعدو اذا عم النفير
البرق سرعته استعار * والورق منه تستعير
ويرى الرياح بالاحتقار * فهبوبها معه حقير
طرف تسايره الدرار * ليلا فتجهل فى المسير

اللـيل يطوى والنهار * وبه ازدهى الزمن الاخير
ما الفعل ينسب للجار * بل صنع خلاق قدير
بقبال مصرله منار * يسمو بأنفاس الامير
ويصيت اسماعيل طار * فى الكون بالجود المطير
وبعدله لما أنار * فى الافق كالعلم الشهير
هذا عزيز ذو وقار * وللظهير العليا ظهير
وطويل باع فى العمار * يمتاز بالعمل الكثير
العدل قد شد الازار * توفيقه نعم الوزير
عش يا عزيز الانتصار * وللمصر دم اقوى نصير
بالجد كم شدت الجدار * ولانت بالعليا جدير
كاثر فكاس الانس دار * رب الخورنق والسدير

مطلب تقسيم المنافع العمومية وتعريفها بالمعنى العرفى الصناعى

الباب الثانى

فى تقسيم المنافع العمومية الى ثلاث مراتب اصلية وهى حركات الزراعة والتجارة والصناعة وفيه فصول

(الفصل الاول)

فى تعريف المنافع العمومية بالمعنى العرفى الصناعى ومنه يفهم الانقسام الى ماذكر

اعلم ان ماعبرنا عنه هنا بالمنافع العمومية يقال له فى اللغة الفرنساوية أندوستريا يعنى التقدم فى البراعة والمهارة ويعرف بأنه فن به يستولى الانسان على المادة الاولية التى خلقها الله تعالى لاجله مما لايمكن ان ينتفع بها على صورتها الاولية فيجهزها بهيئات جديدة بسببها يستدعيها الانتفاع وتدعو اليها الحاجة كتشغيل الصوف والقطن للباس الانسان وكيفيتهما فبهذا المعنى يقابل الاوندستريا وتكون عبارة عن تقديم التجارة والصناعة فيقال الملك الفلانى يشوق الزراعة والاوندستريا أى التجارة والصناعة يعنى يسعى فى تقديم المنافع العمومية وتطلق بمعنى آخر أعم من الاول فتعرف بأنها فن الاعمال والحركات المساعدة على تكثير الغنى والثروة وتحصيل السعادة البشرية فتعم التشغيلات الثلاثة الزراعية والتجارية والصناعية وتقدمها فتكون مجمع فضائل المنافع العمومية وكثرة التصرف والتوسيع فى دائرتها ثم ان براعة المنافع العمومية

بالمعنى العام متولدة من كون الانسان له اختيار وميل الى مافيه نفعه والى قضاء وطره والى تحصيل حوائجه المعاشية وانه محل لهذه الفضائل

وقد سبق فى الفصل الاول من الباب الاول بعض ما يتعلق بالفضيلة ونقول هنا ان الفضيلة صفة نفسية متمكنة فى نفس الانسان ينشأ عنها العمل الصالح ويبعثها ارتياح النفس اليها فبها تصل النفس الى اعلى درجات الكمال وتستعد الى الحصول على نيل المحمدة فبهذا تكون أيضا مستعدة لفعل الخير العام للجميع فحركة الفضيلة بهذا المعنى ليست حركة اختيار فليس صاحب الفضيلة من ينهمك بجميع حواسه على بذل كل همته فى المنفعة الاهلية لان وجود مثل هذا الانسان فى الدنيا مستحيل وانما الفاضل هو من يكون هواه مائلا بحسب الامكان الى المنافع العمومية واستحسانه لذلك فبهذا يكون اقرب من درجة الكمال بقدر ما يلزم ان يتجنب بالفضيلة عن المثالب وارتكاب الدنايا

مطلب تعريف الفضيلة

ومن اركان الفضيلة الشجاعة وقوة الجسم والعقل وهذه الصفات مهمة جدا فى الفضيلة فهى الوسائل التى تلزم لحفظ الانسان وتحسين حاله لان الشجاع يدفع الضيم عن نفسه ويذب عن دمه وعرضه وحريته وملكه بقدر استطاعته وبعمله وشغله يكتسب عيشته الهنية ويتمتع باللذات المباحة بالهدء والطمأنينة وتكون نفسه دائما متمتعة بالسلم والراحة بعيدة عن الغضب والانتقام فاذا أصيب بنكبة ولم يمكن تداركها بحزمه وتبصره تجلد عليها غاية التجلد والصبر ولهذا عد أرباب الآداب القوة والشجاعة من أعظم الاركان

مطلب بعض اركان الفضيلة

ثم الفضيلة ثلاثة أقسام شخصية ومنزلية واهلية فالفضائل الشخصية ما ينبغى ان يتصف بها كل انسان لتكون وسيلة لحفظه ومادة لصونه ومنها ينتج حفظ العائلة والجمعية المركبة من افراد الناس والفضائل المنزلية هى سلوك الطريقة النافعة فى العمل لجمعية العائلة المعتبرا قامتها فى منزل واحد كالاقتصاد فى المصارف وبر الوالدين وحسن العشرة مع الازواج وحسن تربية الاولاد ومحبة الاخوة بعضهم لبعض وأداء حقوق السيد لخادمه والخادم لسيده فجميع الفضائل الشخصية والمنزلية متلازمة ومتصادقة على حفظ النوع البشرى وتحسين حاله وهى مخلوقة مع الانسان من أصل الفطرة والفضائل الاهلية المدنية متكاثرة بتكاثر منافع الجمعية المدنية وراجعة الى اصل واحد وهو العدل العمومى والانصاف المشترك بين أعضاء الجمعية المستلزم جميع فضائل الجمعية

مطلب اقسام الفضيلة

ومن هذا يفهم ان الفضائل من حيث هى مقولة بالتواطؤ محدودة لا تقبل تغييرا

ولا تبديلا فالاقتصار فضيلة محققة ان حصل فيها الشطط قربت من البخل والشجاعة ان تجاوزت حدها استحالت الى المجازفة والكرم ان تجاوز حدّه عاد اسرافا والصبر ان زاد عن قانونه أضعف الشهامة والحلم اذا اشتد صار جبنا وانما قد يعترى هذه الفضائل بعض تكييف على حسب مقتضيات الاحوال فان قول الصدق فى بعض الاوقات قد يكون مضرًّا وتكون المداراة واجبة وكذلك ينبغى مع فلان ان لا يصنع الا العدل ومع انسان آخر قد يكون العدل محض ضرر وقد يكون الحلم فى هذا اليوم فضيلة ويكون فى غد مضرًّا فمراعاة الاوقات والاحوال واجبة فى الجمعية التأنسية ولله در القائل فى هذه المعانى

العز ما خضعت لهيبته العدى * وأقام بالفكر الملوك واقعدا
والمال ما وقاك ذمًّا أو بنى * عليك أو أبقى لقومك سوددا
والجود ما وصلت به رحما وما * أوليت ذا أمل أعدك مقصدا
واللؤم اكرام اللئيم لانه * كالذئب لم يرعدوة الاعدا
فاذا ظفرت من العدو بفرصة * فاقتله فقتك اليوم منجاة غدا
والحلم فى بعض المواطن ذلة * فاصفح وغالب واجملن وتأيدا
ما كل حلم مصلح بل طالما * غر السفيه الحلم عنه فافسدا
كل السيادة فى السخاء ولن ترى * ذا البخل يدعى فى العشيرة سيدا
لا تحسبن المجد رنة مطرب * وعناق غانية وبرداً يرتدى

فالفضائل عليها مدار سلوك الجمعية التأنسية ونجاح أعمالها وتنعيم أحوالها وضدها يضر بتقدم الجمعية فلا أضر على الجمعية من فساد الاخلاق فانه ينشأ عنه الكبر والدعوى وعدم الاستقامة لان الغنى المتكبر مثلا يذهل فى نشوة لذته عن أن المال خيال زائل فيجسر ويجترأ بالتكبر على غيره ويظن انه بعيد عن صروف الدهر فيقع فيها فالعاقل يقيد نعمته بقيد التواضع والانكسار ويدبرها بقانون الفضيلة لتدوم فبهذا يكون مستقيم الحال حيث الاستقامة قوام الفضائل وعليها مدارها وهى معدل حركة النفس وخلوص النية التى يحسن بها الاعمال فهى روابط جميع الفضائل المدنية وعبارة عن حسن السلوك فى التعامل واداء الحقوق للعباد بعضهم على بعض فلا يشينها الا هوى النفس فالعقل يقمع الهوى ويصده والخلق الحسن ينفر منه والانسان المتهاون بحقوق الجمعية المدنية لا يعتبر الا عديم الاستقامة وانه لا يعرف ما يجب له وما يجب عليه فى حق الجمعية فليست استقامة الانسان الا احترام حقوقه باحترام حقوق غيره والحصول على منافعه بالوفاء بمنافع غيره فاذا عرف هذا الحساب سهل عليه حسن

المعامله

المعاملة فالاستقامة فى الانسان علامة اتساع عقله واعتدال مزاجه لان المستقيم فى الغالب قد يفوّت منفعة عاجلة بقصد أن لا يهدم منفعة آجلة واما غير المستقيم فانه قد تفوته المنفعة العظمى الآجلة بحرصه على منفعة هينة عاجلة

فقد اتفقت الاخلاق والعوائد والشرائع والاحكام على ان مكارم الاخلاق منحصرة فى قوله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه وان هذا الحديث قاعدة عظيمة فى الدين لان الرجل الصالح المستقيم الحال لا يقتصر على الكف عن فعل الشر بل يرى ان الحقوق الواجبة عليه فعل الخير والمعروف فمن لم يصنع المعروف فى موضعه مع التمكن منه لا يعد صالحا فالاستقامة تنهى عن الشر والصلاح يأمر بالخير والاستقامة تمدح والمعروف يعظم والاستقامة عبارة عن عدم التعرض لفعل الشر والمعروف العمد الى فعل الخير والمعروف يستحق الشكر عليه وأما الاستقامة فقد لا يجب الشكر عليها لكونها فضيلة قاصرة والمعروف فضيلة متعدية فهو من الاعمال التى عليها مدار الجمعية المدنية

وكلما تقدمت براعة المنافع العمومية تقدمت الجمعية واقتضى الحال ميل النفوس الى التمتع بثمار المنافع الكاملة ودقائق المصنوعات الفاضلة فالميل الى التجمل والتزين ومواد الطنطنة والابهة يتولد منه غنى جميع الاقاليم التشغيلية لاتساع دوائر الاخذ والاعطاء وكمال الحرية فى ذلك فبهذا تتسع دوائر الزراعة والتجارة والصناعة باتساع الرخصة فى الاقاليم بالمعاونات والمساعدات من أرباب الحكومات المختلفة

مطلب
منشأ أولاد الغنى

ولما كانت الدولة الانكليزية قد أحست ان منبع ثروة أهاليها لا تنتج الامن التجارة والصناعة وان كلا منهما يحتاج الى الحرية التامة والى الاستجلاب والتوزيع للبضائع المختلفة واستحصال الاثمان وتكثير أموال المملكة بتوزيعها بين الاهالى براحة جميعهم ليكونوا مشتركين فى السعادة المالية فتحت هذه الدولة بلادا واسعة فى أقطار شاسعة فى الهند وبلاد أمريقا وجزائر البحر المحيط الاكبر لتقديم صناعتهم وتجارتهم بالاخذ والاعطاء ليعود ذلك كله بالفوائد الجمة على أهالى مملكتهم بالاصالة وعلى غيرها بالتبعية وكذلك غيرهم من ممالك اوروبا كالاسبانيين والبرتغال والفرنساوية والفلمنك وغيرهم ويقال لهذه الحركة التقدمية أندوستريا قولونيه يعنى تجارة خارجيه

مطلب
التجارة الخارجية

مطلب
أقسام حركات المنافع العمومية

ومن المعلوم ان فروع التجارة والصناعة والزراعة كثيرة متنوعة بقدر ما فى الاقاليم والممالك من طبيعة أرضها وأهلها فكل اقليم يوافقه بعض الفروع دون بعض ويروج فيه ما لا يروج فى غيره فالمنافع العمومية على اختلافها مبنية على

المعاوضات والمبادلات بما تقتضيه أصول حرية البلدان ومدار حركتها على ثلاثة أشياء ضرورية

الاول هو المواد والاجزاء الواقع عليها التشغيل كالقطن والصوف والحديد ونحوه من كل ما يصطنع والثانى الآلات والادوات التى يستعان بها على الصناعة وهذان الشيآن تحصيلهما أصعب من الثالث الذى هو عبارة عن أجرة الاعمال ومكافأة العمال لانه وان كان فى العادة يدفع نقدا او يعطى عدا الان المشغولات اذا كانت رائجة ناضة فاجرة العمل تعتبر صنفا فلا مانع أن يعطى الاجير من عمله وشغله لما قدمنا أن قيمة العمل مجسمة للمصنوعات والمشغولات لاسيما فى هذه الاوقات الاخيرة التى صارت فيها الزراعة والتجارة والصناعة مبنية على أصول ومحاسبات دقيقة فشتان بينها وبين ما كان يعمل فى قديم الزمان من اجراء المنافع العمومية فانها كانت ساذجة بسيطة لا تستدعى رأس مال كما فى أيامنا هذه فلم يتفكر المتقدمون فيما تفكر فيه المتأخرون من الدقائق اللطيفة وتنظيم حال التجارة وتطبيقها على أصول حسابية تكاد أن تكون منطقية ولا تزال آخذة فى الدقة والرواج الى غير نهاية بحسن ترتيب الحكومات العادلة واعطاء الحرية الفاضلة وعمل الميزانيات اللازمة وابعاد الاحتكار

مطلب تقدم المنافع العمومية الآن بالنسبة لما سبق

الفصل الثانى

فى حالة المنافع العمومية فى الازمان القديمة وأنها كانت بسيطة سهلة لا تحتاج الى كبير شئ

الذى يستبان من كلام المؤرخين والمخططين للبلاد أن الارض الخصبة فى مادة الزراعة كانت رأس مال الزارع يستثمرها ويستولى على فائدتها فان الحراثين والعملة فى القرى والبلاد كانوا املاكا لمالك الارض بالتبعية لها أو أرقاء بالشراء وكذلك المواشى والسباخ وآلات الحراثة كانت أيضا ملكا لرب الارض فكان العبيد والفلاحون المستعبدون يحرثون الارض ويسوونها ويبذرونها الى أن يحصدوها وينقلوا محصولها الى بيت سيدهم وكانت نظارة الفلاحة ومباشرة الزراعة منوطة بأكبر عبيد السيد أو عتقائه ممن يستنجبه منهم وليس لهذا المباشر ولو معتوقا مرتب خاص فى نظير عمله بل معيشته فى بيت سيده كالعبد وعليه مطعمه وملبسه فى نظير الانتفاع بخدمته فاذا جسر المعتوق وخرج من بيت سيده المتربى فيه لا يجد من يقوم بشؤنه فكانت الحرية فى تلك الاوقات مشؤمة على العتق وأمثالهم هذا ما يخص الزراعة من المنافع العمومية فى تلك الازمان

وأما

وأما الصناعات فكانت أيضا قاصرة على الامور اللزومية وموكولة لتشغيل الارقاء فكانوا يصطنعون ماتدعوا الحاجة اليه للملبس والمطعم وما أشبه ذلك مما تستدعيه الحاجة فقط وأما لوازم الزينة والتجمل فكانت تجلب من بعض ممالك أجنبية أكثر تمدنا من الممالك المجلوب اليها فكانوا يشترون المنسوجات الصناعية الساذجة من مصانع ليست كثيرة الآلات المتفننة الادوات وكانت تشغيلات الاقدمين قليلة وعملياتهم هينة فكانوا يستخرجون المعادن ويصطنعون الاسلحة وآلات الحرب المعروفة فى تلك الازمان وكانت هذه الاشغال أيضا وادارتها من وظائف العبيد والمماليك وكان التعامل بين الاهالى فى تلك الازمان بالرقيق فاذا اقتضى الحال للاقتراض لم يكن النقد المقترض دراهم ولا دنانير اذلم تكن النقود رؤس أموالهم بل يقترض بعضهم من بعض قدرا معينا من الاعيان والاصناف ويستعيرونها ويدفعون لصاحبها فى نظير قرضه أو عاريته قدرا معينا ولم يكن عندهم أخذ وإعطاء جسيم ولا تجارة مهمة الامع الاجانب فاذا توفرت عند انسان منهم بضاعة أو فرع من الفروع اللازمة لجهة من الجهات البرانية وأراد الربح شارك عليها تاجرا أجنبيا واشترط عليه شروطا ملائمة لعادة البلاد وجعل الربح بينه وبين شريكه العامل بان يعطيه جزأ من الربح قليلا أو كثيرا بحسب خطر السفر ومشاقه فكانت التجارة أيضا عندهم بسيطة كالزراعة والصناعة فاذا كانت منافعهم العمومية على هذه الكيفية فلا يتصور أن يعود على الحكومة منهم كبير ايراد

وفى الحقيقة كانت حكوماتهم أيضا بسيطة لا تحتاج الى كثرة المصارف لاسيما فى أوقات الصلح فكانت مناصب الحكام القضائية والملكية والعسكرية ليس لها مرتب ولا ماهية لاسيما عند الرومانيين واليونانيين فكانت دولتهم لا تحتاج الا الى قليل من الخراج نعم فى أوقات الحروب والاخطار اذا احتاجت الحكومة الى أمور ضرورية لتجهيز جيوش لحرب الاعداء استعانوا بأهل الوطن فكان يعينهم من الاهالى كل من يحترم أوطانه ويصدق فى معزته لبلاده ومحل ميلاده فيمدون الى الحكومة برسم تشريف الوطن ما يكفى للحاجة بدون الحاح من أهل الحكومة ولا لجاجة

مطلب
حروب رومية مع قرطاجنة

ومن المعلوم من التاريخ ان الدولة الرومانية كانت فى تلك الازمان مقارنة ومعاصرة للدولة القرطاجنية أى التونسية التى كانت اذ ذاك لها السلطنة العظمى فى الاقطار المغربية فكان كل من الدولتين منافسا للآخر وكانت العداوة الفاشية بينهما شديدة ولا تكاد الحروب تنقطع بينهما للمجاورة والمنافرة والمنافسة كما هو جار الآن بين بعض الدول المتأخرة وتسمى الحروب التى كانت بينهم بالحروب البونيقية أى المغربية

المشهور منها ثلاثة فالحرب البونيقى الاول كان قبل الميلاد بأربع وستين سنة ومائتين ومكث اثنتين وعشرين سنة أخذ فيه الرومان من القرطاجنيين جزيرتى صقلية وسردينية وصارت قرطاجنة تدفع لرومية خراجا مقررا وقد تعلم الرومانيون من القرطاجنيين فى هذا الحرب صناعة السفن البحرية الحربية ذات المجاذيف

وفى هذه الاوقات صدر أمر من مجلس رومية بأن يرتب للعساكر المشاة جامكية وكانوا قبل ذلك غير محكمين فبادر أعيان الاهالى ووجوه الناس باهدائهم لخزينة الجمهورية مقدارا جسيما من متاعهم للاعانة على مرتبات العساكر الوقتية فجمعوا ما عندهم من النحاس غير المشغول ووسقوا العربات من ذلك وبعثوا به الى الخزينة بوصف الاعانة الوطنية فكان يوم ارساله من أفخر الايام الموسمية واحتفل أناس كثيرون للتفرج على موكب هذه الهدية الوطنية العجيبة فمن هذا يفهم ان احتياجات تلك الايام كانت سهلة بسيطة كما أسلفناه ولم تكن كاللوازم فى أيامنا هذه وكذلك فى الحرب الثانى البونيقى الذى ابتدأه الرومانيون مع القرطاجنيين سنة ٢١٩ قبل الميلاد ومكث ثمان عشرة سنة

وكان سر عسكر قرطاجنة أنيبال وكان شجاعا باسلا هجم على رومية أشد هجوم وهزم جيوش الرومانيين فى الوقائع العظيمة وكاد يأخذ رومية ولكن دخل وقت الشتاء فانزوى أنيبال فى مدينة يقال لها قبوة ليقضى فيها فصل الشتاء مع جنده فتعود جنده على اللذات والشهوات وفترت هممهم بالانهماك على ذلك وكان فى أثناء هذه المدة قد اغتنم الرومانيون الفرصة بتجميع عساكرهم المشتتة فهجموا على جند القرطاجنيين ومع ذلك انهزم جندهم وفر أميرهم

ففى أثناء هذا الحرب والاحتياج للامدادات العسكرية والذخائر تضايق الرومانيون واضطرت الحكومة ان تجمع عساكر جديدة وأن تجهز سفنا حربية لتقاوم قوة القرطاجنيين وتتمكن من منازلتهم فاحتاجت رومة الى الاعانات الضرورية وتحيرت فى طريقة تحصيلها وكانت حكومتهم اذ ذاك منوطة برؤساء يقال لهم القناصل منقادين لمجلس الحكومة الذى بيده الحل والعقد والامر والنهى فالتمس هؤلاء الرؤساء من مجلس رومية ان يفعل كما جرت به العادة بأن يحمل الاهالى على ان يدفعوا بحسب اقتدارهم ما يكفى فى دفع مرتبات شهر للسفن البحرية من ماهيات وتعيينات ومع ان هذا الطلب هين ومقدار يسير فى حد ذاته لما علم به الاهالى اغبرت خواطرهم وتكدروا وتوقفوا فيه وقالوا نحن نعين الوطن باللائق والمناسب ونبذل ما عندنا من الاموال والرجال ولكن قد أخذت الدولة عبيدنا وفلاحينا الذين يباشرون الزراعات

ومن وقت دخولهم فى العساكر البرية والبحرية تعطلت الزراعة والفلاحة ولم يبق لنا الا أنفسنا وأراضينا فنحن قد تعطلنا بالكلية وتضعضع حالنا وضاعت أموالنا ولو كان عندنا شئ ما بخلنا به على أوطاننا فلما استشعر رؤساء الدولة وأمراؤها بأعذار أهل الفلاحة التمس أحد الرؤساء من مجلس رومية أن جميع أعضاء هذا المجلس يتطوعون لخزينة الحكومة بجميع ما عندهم من الذهب والفضة والنحاس ولا يبقوا منه شيأ الا ما فى أصابعهم من خواتم الذهب وما فى أصابع نسائهم وأولادهم من ذلك وانه لا مانع من ان لا يدعوا عندهم الا النقود اليسيرة للمصارف الضرورية ليقتدى بهم جميع الاهالى ولتكون هذه المكارم الوطنية معدودة فى مآثرهم ومأثورة فى مناقبهم فاجاب جميع الاعضاء الى هذا الالتماس الممدوح عن طيب نفس وانشراح خاطر ولم يتأخر منهم أحد عن ذلك وتفرق المجلس بالتواطؤ على التنجيز

فكل عضو من أعضاء المجلس شرع فى المسارعة والمسابقة ليفتخر بتقييد اسمه وعطيته بالدفاتر قبل غيره فتزاحموا جميعا على كتاب الخزينة أن يكتبوا ما تعهد كل منهم بدفعه على سبيل الاعانة واقتدى بأرباب المجلس من عداهم من أهالى المملكة الرومية فبهذه الاعانات تمكن الرومانيون من قهر أعدائهم وحماية مدنهم من جهة قرطاجنة فبواسطة اعانات الرومانيين ومكارم أخلاق أهاليهم ومفاداتهم أوطانهم ببذل الاموال والارواح شنوا الاغارة عليها بالجاش القوى والجيش الجرار فى الحرب الثالث الذى صار الشروع فيه من سنة مائة وتسع وأربعين قبل الميلاد فحاصر الرومانيون قرطاجنة وهجموا عليها برا وبحرا مدة ثلاث سنين فأخذوها عنوة وسلبوا أموالها وقتلوا من فيها من السكان وحرقوا المدينة فمن ذلك الوقت زالت دولة القرطاجنيين بزوال قرطاجنة التى كانت دائما قرينة رومية ومعاصرة لها فى الفخر

ولم يكن فى ذلك العهد ممالك قوية تعادل قوتى هاتين المملكتين حتى تعتبر الموازنة فما أحسن ادارة الممالك فى هذه الاعصر الجديدة وما بين ملوكها من المعاهدات والمشارطات واعتبار الميزان السياسى واعتماده لمحافظة الحقوق الملكية وحقوق الدول والملل بعضها على بعض فان هذا حصن حصين لحفظ ذات الممالك بقطع النظر عن حفظ تيجان الملوك فالمملكة الضعيفة فى هذا العهد مأمونة الدوام ما لم يلم بها أحوال بوليتيقية أهلية بها تخرج عن حدود المشارطات فمحض القوة فى احدى ممالك هذا العصر لا يسوغ لها تغلبا على غيرها بدون وجه لمنع الآخرين ذلك بعقد المشارطات القوية وهذا أيضا مما يعد من التقدمات العصرية فى النظامات الملكية ولو تمدنت الممالك الاسلامية المنافرة سياستها لسياسة الدول المتمدنة كممالك التتار

ودخلت فى النظام العمومى اصانت أوطانها من اغارة من جاورها بالتعلل بخشونتها والاستيلاء عليها القصد بتمدينها وتحسين حالها ففى الازمان السابقة كانت الشهرة فى الدنيا المدينة رومية ومدينة قرطاجنة لقوة الدولتين ولم يساوها تين المدينتين مدينة أخرى

ويقال لو لم تكن رومية موجودة لكانت قرطاجنة أول مدن الدنيا ولولا وجود الاسكندرية بموقعها العجيب لكانت قرطاجنة ثانى مدينة من مدن الدنيا فانها كانت حسنة الوضع جيدة الموقع لوجودها بين بوغاز جبل طارق بالاندلس و بوغاز القسطنطينية وبهذا كانت اذذاك مركز التجارة وكان أهلها سبعمائة ألف نفس أرباب زراعة وصناعة وفنون كثيرة وكان يغلب عليهم التقدم فى الزراعة والملاحة لان هذه الامة القرطاجنية كانت محتاجة الى الاسفار ونقل البضائع من بلادها وجلب ماليس عندها من الخارج الى الداخل وكانت مولعة بالفتوحات وتوسيع دائرة ملكها فقد استولت على سائر مدن افريقية وسخرت من أوروبا جزيرة سردينية وجزيرتى مايورقه ومينورقه وغيرهما من بلاد الاندلس ومن فرانسا وكان لها المحالفات والمعاهدات مع ملوك البلاد التى بينها و بينهم معاملات نخربها الرومانيون لما أعيتهم وأتعبتهم فكان تدميرها وخرابها مما يعاب به عليهم

ثم بنى الرومانيون مدينة فى آثارها بعد مدة من تدميرها وسموها قرطاجنة باسم الاولى ولم تشتهر المدينة الثانية الا فى زمن القيصر أغسطوس حتى صارت ثانى مدينة فى العظم بعد رومية وبقيت الى صدر الاسلام ثم هدمت حتى لم يبق لها الآن أثر وانما بنيت بالقرب من محلها مدينة تونس فانظر الى حال الامم القديمة فان دولة الرومانيين مع تقدمها فى الفتوحات العظيمة لم يكن عندها تقدم فى المنافع العمومية وانما كانت ادارتها بسيطة وكان عندها نوع من الرفق بالملة الرومانية وأهل الوطن الحقيقى يعنى من له مزية عنوان الرومانى وكانت أقرب الى الصدق فى تأدية الحقوق لرعاياها لاسيما عقب الحروب

مطلب حرب رومية مع مقدونيا

فقد ذكر المؤرخون انه كان لرومية حرب مع مملكة مقدونيا فى بلاد روم ايلى فبعثت بولص أميلوس أحد قوادها الى مقدونيا لقتال برشاوس ملك هذه البلاد فهزمه القائد الرومانى واغتنم أمواله وعاد الى رومية بالغنائم العظيمة فلما تبين لحكومة رومية ان هذه الغنائم تقوم بمصارف الدولة وتكفى فى مصالحها رفعت جميع المطالب المقررة على الاهالى الى وقت الحاجة

وبالجملة فقد كان القدماء من الممالك والدول لا يعرفون اقتراض الحكومة من

الاهالى

الاهالى أو غيرهم بالفوائض والارباح كالجارى الآن اعتمادا على ما يحصل من الاموال والعوائد بل هذه الطريقة الاختراعية من مستحدثات الدول المتأخرة الاروباوية وانما كانت طرق المتقدمين أنهم اذا اقتضت الضرورة للمال فان رؤساء الحكومة كعمال الاقاليم يعقدون مع أغنياء الاهالى عقد القرض والسلفة فى حالة ما اذا خلت خزينة الدولة عن الدراهم بالكلية ولم يكن عقد القرض باسم الحكومة بل هو اتفاق شخصى بين الحكام والمقرضين لاعتماد الحكام وأمانتهم وكانوا يعينون للدفع ميعادا ويحددون له أجلا مسمى فكانت امانة الحكام المقترضين ومكارم أخلاق الاغنياء المقرضين هى المسهلة لقضاء حوائج الدولة بحيث لم تكن فى أوقات الاخطار عرضة لان تقع فى الحيرة والمضايقة

فقد احتاجت دولة الرومانيين بعد مضى سنوات من الاعانة التطوعية الى الدراهم لتتميم فتوحهم لقرطاجنة وكانوا فى خطب شديد يخشون من عساكر أنيبال أمير القرطاجنيين فانه طالما أزعجهم وهددهم حتى كاد يفتح مدنهم ويسترعيهم ففى تلك الاوقات الخطرة اضطر جميع حكامهم أن يقترضوا من بعض أغنياء الاهالى مقادير جسيمة من الاموال فعاقدوهم على أن يدفعوها لهم على ثلاثة أقساط متساوية فى ست سنين فجعلوا لكل سنتين قسطا والتزم الحكام بالاقساط فوفوا منها قسطين فى أثناء الحرب وتصادف أن القسط الثالث حل أجله ولم يكن فى الخزينة الرومانية ولا عند الحكام ما يفى به فحضر المقرضون وطلبوه من الحكام فعجزوا عن دفعه فحضروا معهم لمجلس رومية وطلبوا دينهم فاعترف المجلس بجميع الديون مع عجز الخزينة عن دفعها اذ ذاك فحصل التراضى بين المجلس والدائنين على ان يأخذ أرباب الديون من أملاك الحكومة وأراضيها التى يمكن بيعها بقدر ما بقى بديونهم ينتفعون بغلتها ومحصولها وقوموها لهم بقيمة المثل واشترطت لهم الحكومة انه عند يسار الخزينة كل من أراد أن يتنازل عن الارض التى أعطيت له يرخص له أن يطالب دينه نقدا بقدر الثمن الذى أخذه كبيع الوفاء فاستلم أرباب الديون الاراضى وفرحوا بها وبادروا باستغلالها وهذه معدلة من الحكومة ومكرمة من ارباب الديون من الاهالى الرومانية ومع عدها فى المآثر الجميلة لا تساوى مكارم الاخلاق العربية التى كان يفعلها المياسير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف

مطلب غزوة تبوك التى يقال لها غزوة العسرة

ولنذكر هنا غزوة تبوك التى يقال لها غزوة العسرة ليظهر بها كيفية الاعانات الاسلامية وسبب غزوة تبوك التى هى أرض بين الشام والمدينة المنورة أن متنصرة العرب كتبت الى هرقل ملك الروم بأن النبى صلى الله عليه وسلم هلك واصابت أصحابه

سنون أهلكت أموالهم فبعث رجلا من عظمائهم وجهز معه أربعين ألفا يحارب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغه صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وانهم قدموا مقدماتهم الى البلقاء وكان صلى الله عليه وسلم فلما يخرج فى غزوة الا كنى عنها وورّى بغيرها الا ما كان من غزوة تبوك لبعد المشقة وشدة الزمان بالحر وكثرة العدو وليأخذ الناس أهبتهم فأمر الناس بالجهاز وبعث الى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم وحض أهل الغنى على النفقة والحمل فى سبيل الله وأكد عليهم فى طلب ذلك

وكانت آخر غزواته صلى الله عليه وسلم فانفق عثمان بن عفان رضى الله عنه نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها حيث جهز عشرة آلاف مجاهد أنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الابل وهى تسعمائة بعير وغير الخيل وهى مائة فرس وجهز الزاد وما يتعلق به حتى ما تربط به الاسقية وجاء أيضا رضى الله عنه بألف دينار فصبها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها بيديه الشريفتين ويقول ماضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم ويقول غفر لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وكان أول من جاء بالنفقة قبل عثمان أبو بكر الصديق رضى الله عنه جاء بجميع ماله وهو أربعة آلاف درهم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أبقيت لاهلك شيأ قال أبقيت لهم الله ورسوله وجاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه بنصف ماله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أبقيت لاهلك شيأ فقال النصف الثانى وجاء عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه بمائة أوقية من الفضة ولهذا قيل ان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما كانا خزانتين من خزائن الله فى الارض ينفقان فى طاعة الله تعالى

فقد كان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه تاجرا كثير الاموال بعد ان كان فقيرا باع مرة أرضا له بأربعين ألف دينار وتصدق بها كلها وتصدق مرة أخرى بتسعمائة جمل بأحمالها قدمت من الشام وأعان فى سبيل الله بخمسمائة فرس عربية وأوصى لكل رجل بقى من أهل بدر بأربعمائة دينار وكانوا يومئذ مائة رجل وقسمت تركته بعد موته على ستة عشر سهما وكان كل سهم ثمانمائة ألف دينار وعينه عمر رضى الله عنه فى جملة ستة يصلحون للخلافة من بعده فقام هو بأمر البيعة لعثمان وزوى الامر عن نفسه

ومن هنا يعلم ان تجارة العرب فى الزمن القديم كانت رابحة عظيمة ثم جاء العباس رضى الله عنه بمال كثير وكذا طلحة رضى الله عنه وبعثت النساء رضى الله عنهن

بكل مايقدرون عليه من حاملين وتصدق عاصم بن عدى رضى الله عنه بسبعين وسقا من تمر

ولما ارتحل صلى الله عليه وسلم عن ثنية الوداع التى بها المعسكر وهم ثلاثون ألفا متوجها الى تبوك عقد الالوية والرايات فدفع لواءه الاعظم لابى بكر الصديق رضى الله عنه ورايته صلى الله عليه وسلم العظمى للزبير رضى الله عنه وساروا حتى نزلوا الى تبوك فوجدوا عينها قليلة الماء فاغترف رسول الله صلى الله عليه وسلم غرفة من مائها فمضمض بها فاه ثم بصقه ففارت عينها حتى امتلأت وأقام صلى الله عليه وسلم أياما وأتاه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطى الجزية وأتاه أهل جربا وأذرح بالذال المعجمة والراء والحاء المهملة بلدتان بالشام فأعطوا الجزية أيضا ولم يقع فى هذه الغزوة قتال ولكن فتحوا فى هذا السفر دومة الجندل حيث بعث صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد من تبوك فى أربعمائة وعشرين فارسا الى ملكها أكيدر وكان نصرانيا فخرج خالد من تبوك وانصرف صلى الله عليه وسلم منها الى المدينة فصالحه أكيدر على ألفى بعير وثمانمائة فرس وأربعمائة درع فرضى خالد بالصلح ففتح له باب الحصن الذى كان على هذه القرية وانطلق بأكيدر وأخيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان صلى الله عليه وسلم بالمدينة فلما قدم بهما صالحه صلى الله عليه وسلم على اعطاء الجزية وخلى سبيله وسبيل أخيه فمن هذا يفهم ان عثمان بن عفان رضى الله عنه جهز ثلث الجيش فى هذه الغزوة

وبالجملة فمآثر الصحابة رضى الله عنهم فى مكارم الاخلاق لاتحصى ولا تحصر فبالنسبة اليهم رضى الله عنهم لايقال ان سبب ذلك البساطة فى الاخلاق وعدم كثرة المعاملات والاخذ والعطاء فانا نقول ان أهل آسيا فى تلك الازمان كانت التجارة عندهم رابحة أياما كان نوعها فكان للعرب كل سنة رحلتان رحلة الشتاء والصيف ومن المعلوم ان الاسفار من وسائل التقدم ودليل عليه

مطلب
اعانة السياحات على تقديم المنافع العموميه

الفصل الثالث

فى ان الاسفار والسياحات مما يعين على تقدم المنافع العموميه

قد أسلفنا فى الفصل الاول من الباب الثانى أن دوائر الزراعة والتجارة والصناعة تتسع باتساع الرخصة فى الاقاليم بالمعاونات والمساعدات من أرباب الحكومات وان

دولة الانكليز فتحت بلاد الهند وغيرها للتحصيل على اتساع تجارتها وكذلك تحيل غيرهم من الدول على ذلك كما قيل

ومن طلب النجوم أطال صبرا * على بعد المسافة والمنال
وتمر حاجة المحتاج نجما * اذا ما كان فيها ذا احتيال

فهمة هؤلاء الامم تميل الى الجد والكد والكدح والانتصاب لسائر الاهوال في تحصيل المعالي والاموال والترقي الى منازل العز وكسب المجد والاقبال وتتوصل الى ذلك بالحركة والنقلة والسياحة والرحلة والاقدام على ركوب الاخطار لنيل الاماني وبلوغ الاوطار ومن الكلم النوابغ والحكم السوابغ صعود الآكام وهبوط الغيطان خير من القعود بين الحيطان ولبعضهم

أما ترينى على بغى العلاء لاعبـاء الامور رجو لا دائم النصب
فما استوى شرف الاعلى كلف * ولا صفا ذهب الاعلى لهب

فتجشم المشاق عند خاطب المعالي حلو المذاق

مطلب تفسير سورة قريش على حسب الطاقة

فالطريقة الموسعة لدوائر المعيشة قديمة عمومية قضت بسلوك طريقها في الازل الحكمة الالهية فقد سخر الله سبحانه وتعالى لقريش بالحجاز من وسائط الكم والكيف ما يحملهم على إيلاف رحلة الشتاء والصيف فقال تعالى في كتابه العزيز لايلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وتفسير هذه الآية والله أعلم بمراده ان قوله تعالى لايلاف قريش اعجبوا لايلاف قريش لانهم يتمادون في غيهم وجهلهم والله يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم وينظم أسباب معايشهم أي اعجبوا من حلم الله وكرمه عليهم ونظيره في اللغة قولهم لزيد وما صنعنا به أي اعجب لزيد وما صنعنا به من الاكرام والايلاف الالزام يعني اعجبوا الالزام قريش ومعموله عام يعني إيلاف قريش كل مؤانسة وموافقة بينهم من مقامهم وسيرهم وجميع أحوالهم ولفظ قريش مأخوذ من القرش وهو الكسب لانهم كانوا كاسبين بتجارتهم وضربهم في البلاد ومن التقرش وهو التجمع لجمعهم المال بالتجارة أو للاجتماع بعد التفرق في البلاد ثم بعد أن عمم تعالى الايلاف الاول الذى هو نعمة عامة خص ايلاف الرحلتين بالذكر بسبب انه قوام معاشهم

فقد امتن سبحانه وتعالى عليهم بنعمتين وهما الايلاف العام والايلاف الخاص الذى هو تعويدهم على رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام قال المفسرون كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء الى اليمن لان اليمن أدفأ وبالصيف

الى الشام وذكر عطاء عن ابن عباس ان السبب فى ذلك هو ان قريشا كانوا اذا أصاب واحدا منهم مخمصة خرج هو وعياله الى موضع وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا الى ان جاء هاشم بن عبد مناف وكان سيد قومه وكان له ابن يقال له أسد وكان له ترب من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه فشكا اليه الضر والمجاعة فدخل أسد على أمه يبكى فأرسلت الى أولئك العيال بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياما ثم أتى ترب أسد اليه مرة أخرى وشكى اليه من الجوع فقام هاشم خطيبا فى قريش فقال انكم أجدبتم جدبا تقلون فيه وتذلون وأنتم أهل حرم الله وأشراف ولد آدم والناس لكم تبع قالوا نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف فجمع كل بنى أب على الرحلتين فى الشتا الى اليمن وفى الصيف الى الشام للتجارات فما ربح الغنى قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم فجاء الاسلام وهم على ذلك فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش قال الشاعر فيهم

الخالطين فقيرهم بغنيهم * حتى يكون فقيرهم كالكافى

فنعمة الله عليهم بايلافهم وتأنيسهم بجمعهم قبيلة واحدة فى مكان واحد أمكن فى النعمة من ان يكون الاجتماع من قبائل شتى ونبه تعالى بقوله ايلافهم على ان من شرط السفر المؤانسة والالفة لان السفر أحوج الى مكارم الاخلاق من الاقامة

ثم لما كان هذا الايلاف انعاما من الله تعالى عليهم وأنه يستحق أن يقابل بالشكر والعبودية اتبعه سبحانه وتعالى بطلب العبودية فقال فليعبدوا رب هذا البيت ومعنى فليعبدوا أى فليتذللوا ويخضعوا للمعبود على غاية ما يكون ليشمل التوحيد والعبادات المتعلقة بالجوارح والمعنى ليتركوا ما هم عليه من عبادة الاوثان ويعبدوا رب هذا البيت أى الحرم وهو الله سبحانه وتعالى وقوله الذى أطعمهم من جوع أى رزقهم بالطعام فى السفر والمقام وقوله وآمنهم من خوف أى حماهم حيث جعلهم أهل حرم آمن فكانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد ولا يغير عليهم أحد لا فى سفرهم ولا فى حضرهم كما يشير اليه قوله تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا وكذا أطعم الله تعالى قريشا وآمنهم انعاما منه تعالى واجابة لدعوة ابراهيم عليه السلام فى قوله رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات فكانت رحلة الشتاء والصيف بها معيشتهم ومعيشتهم وثروتهم هذا ما يتعلق بقريش

مطلب سياحة العرب مطلقا فى الارض قديما

وأما العرب على الاطلاق فكانوا من الازمان القديمة يسيحون فى الارض سوقة وملوكا حتى بلغوا أقصى المغرب وبلغوا من حدود المشرق سمرقند وبلغوا بابه

الابواب ودخلوا بلاد الهند ولكن كانوا يغيرون على غير بلادهم ولم يستقروا فيها حتى يصير واملوكها بل فى الغالب كان يقتصر على ملك أبيه واذا غلبه عليه غيره رحل الى البلاد البعيدة ليستنجد على خصمه بملك اجنبى ذى قوة و بأس كما وقع لامرئ القيس الكندى حيث ذهب الى قيصر الروم ليستنجد به ومر فى مسيره اليه على حماة وشيزر كما يشير الى ذلك فى قصيدة مطلعها * سما لك شوق بعدما كان أقصرا * يقول فيها

تقطع أسباب اللبانة والهوى * عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه * وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما * نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

فكان كلامه فالا على نفسه حيث مات بقرب أنقره ودفن فى سفح جبل يقال له عسيب وقد أنشد فيه حال مرضه يخاطب حامة فقال

أجارتنا ان الهموم تنوب * وانى مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا انا مقيمان ههنا * وكل غريب للغريب نسيب

مطلب
ثبوت فضل العرب على غيرهم بالتواتر فى أغلب الخصال الحميدة

وقد ثبت بالعقل والنقل تواترا ان العرب أكثر الامم شجاعة ومروءة وشهامة ولسانهم أتم الالسنة بيانا وتميزا للمعانى جمعا وفرقا يجمع المعانى الكثيرة فى اللفظ القليل اذا شاء المتكلم الجمع والتمييز بين كل لفظتين مشتبهتين بلفظ آخر مختصر الى غير ذلك وهذا من خصائص اللسان العربى فالعقل قاض بفضل العرب ولو انهم كانوا قبل الاسلام لا يشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة كالطب والحساب والمنطق ونحو ذلك وانما كان علمهم ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب وما حفظوه من انسابهم وايامهم من التواريخ أو ما احتاجوا اليه فى دنياهم ومعاشهم من الانواء أو النجوم أو الحروب فلما جاء الاسلام ونقلهم من حالة الجاهلية التى أحاطت بهم زالت الريون عن قلوبهم واستنار باطنهم بفطرة جديده وفطنة نيرة سديده فاجتمع لهم الكمال التام والخير العام بالقوة المتجددة فيهم ودرجة الفضل العظيم فلذلك كان بقاؤهم نورا فى الاسلام وفناؤهم فسادا فيه (وقد روى) عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا زلت العرب زل الاسلام فكيف وهم الذين فتحوا بلاد الدنيا وأعزوها بالاسلام ومدنوها بالعلوم وان اتسع فيها غيرهم فلا بأس من كونهم بواسطة النظامات الملوكية العامة يقتبسون معارف الاعصر الجديدة ويزيدون عليها فصيت تنعمات العرب قديما قد بقيت مخلدة الذكر فى جميع تواريخ أهل الدنيا لاسيما أهل اليمن

مطلب
الكلام على مدينة سبا وما يتعلق بها

وقد أطنب المؤرخون فى عظم مدينة سبا التى تسمى مأرب وبينها وبين صنعاء مسيرة

ثلاثة أيام فهى بين مملكة اليمن ومملكة المسكت وبسطوا الكلام على ما كانت عليه من الثروة والغنى وكثرة الخيرات المعدنية والنباتية وأن ملكها آل الى بلقيس التى قال الله تعالى فى حقها ولها عرش عظيم قال تعالى فى حق أهل سبا لقد كان لسبا فى مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور قال المفسرون المراد بالجنتين جماعتان من الجنان ولاتصال بعضها ببعض جعلها جنة وقوله تعالى كلوا من رزق ربكم اشارة الى تكميل النعم عليهم وقوله واشكروا له بيان أيضا لكمال النعمة فان الشكر لا يطلب الا على النعمة المعتبرة ثم لما بين تعالى حالهم فى مساكنهم وبساتينهم وأكلهم أتم بيان النعمة حيث بين انه لا غائلة عليهم ولا تبعة فى الدنيا فقال بلدة طيبة أى طاهرة عن المؤذيات ثم قال ورب غفور يعنى ان نعمتهم كاملة حيث كانت لذة حالية خالية عن العقوبات الأخروية فلا يترتب على تعاطيها عقاب من جانبه تعالى

وأما ما كان من جانبهم فقد بينه تعالى بقوله فأعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم الآية فبين سبحانه وتعالى أنه انتقم منهم بظلمهم بالاعراض تصديقا لقوله تعالى انا من المجرمين منتقمون فأرسل عليهم للانتقام منهم سيلا غرق أموالهم وخرب دورهم فهذا كله ظاهر الدلالة على غنى اليمن وثروة أهاليها ورفاهيتهم وتنعمهم فى زمن سيدنا سليمان عليه السلام وتقدمهم فى الزراعة والتجارة والعمارة

مطلب استكشاف الحكومة المصرية محل مدينة سبا

وفى سنة ستين ومائتين وألف من الهجرة استكشف من ارسل من طرف الحكومة المصرية محل مدينة سبا المسماة مارب ووجد رسومها وأطلالها بالحفر فوجد ما يدل على عظمها ثم قال تعالى وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة الى ان قال تعالى فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق المراد بالقرى المباركة فيها قرى الشام فانها هى البقعة المباركة ومعنى فجعلناهم أحاديث اى فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلا يقال تفرقوا أيدى سبا وعلى ذكر قرى الشام ناسب ان نذكر هنا أهل سورية وهم أهل الشام فى قديم الزمان حيث سبقوا كثيرا من الامم فى المنافع العمومية وفى الاسفار البحرية والامة التى اشتهرت منهم بذلك هى اهل صور وصيدا وبيروت فكانوا يسمون بالفنيكيين وسيأتى بيانهم فى الفصل الرابع وممن اشتهر أيضا بالاسفار البحرية الهنود وأما العرب فانما كانوا يشتغلون بالتجارة فى البر بالاخذ والعطاء مع أهل الشام أو مع أهل اليمن فيما كانت تأتى به أهل سواحل الشام أو الهنود من بلادهم فكانوا ينقلونه من البر الى جميع مواطنهم أو ينقلون بضائع مواطنهم الى تلك البلاد للمعاوضات الى ان ظهر الاسلام واستولى على البحور والبرور فتغيرت أحوال

التبريات فى العلوم والمعارف

مطلب
سفره صلى الله عليه وسلم الى الشام فى تجارته لخديجة رضى الله عنها وما حصل فى ذلك من خوارق العادات

وقد سافر الى الشام النبى صلى الله عليه وسلم فى تجارته لخديجة رضى الله عنها بتجارة الى مدينة بصرى باقليم حوران وسبب ذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لما بلغ خمسا وعشرين سنة قال له عمه أبو طالب ليرشده الى التجارة والكسب أنا رجل كثير العيال قليل المال وقد اشتد الزمان وهذه عير قومك تخرج الى الشام للتجارة وقد حضر أوانها وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى تجارتها فلو ذهبت اليها وقلت لها فى ذلك لعلها تقبل فبلغ خديجة ذلك فأرسلت اليه صلى الله عليه وسلم فى هذا الشان وقالت له أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك لانك الحبيب القريب فقال له أبو طالب هذا رزق ساقه الله اليك فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجارة خديجة رضى الله تعالى عنها وأرفقت معه غلامها ميسرة ليعينه فساروا حتى دخلوا الشام فنزلوا ببصرة عند صومعة بحيرا الراهب التى بجانب المدينة

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد نزل تحت شجرة رعرعت بنزوله تحتها فخرج من الصومعة نسطورا الراهب وبيده صحيفة ينظر فيها مرة وينظر فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم مرة اخرى فاجتمع عليه القوم فقال لهم يا قوم والذى رفع السماء بغير عمد ما نزل نبى ركب هو أحب الى منكم وانى لاجد فى هذه الصحيفة ان النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين وخاتم النبيين من أطاعه نجا ومن عصاه غوى ثم أقبل على النبى صلى الله عليه وسلم وقال انى لارى فيك شيأ ما رأيته فى أحد من الناس انى لاحسبك النبى الذى يخرج من تهامة ثم باع النبى صلى الله عليه وسلم تجارته وربح ضعف ما كانوا يربحون

ثم رجع صلى الله عليه وسلم الى مكة وخبر خديجة بربح التجارة فسرت بذلك وكان صلى الله عليه وسلم قد ظهرت منه خوارق عادات ارهاصا للنبوة كتظليل الغمامة فأخبرها ميسرة بهذه العجائب وبما قال نسطورا الراهب فاضعفت له صلى الله عليه وسلم ضعف ما سمت له وكانت رضى الله عنها امرأة عاقلة شريفة فى قومها مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير وكانت كثيرة المال فكان رجال قومها يحرصون على زواجها ولكن شرفها الله تعالى بزواج اشرف العالمين عقب التجارة الرابحة

مطلب
الحكمة فى رعى الانبياء للغنم قبل النبوة

فما أحسن الاسفار التى أفادت المال وعادت على العامل وصاحب رأس المال بتحسين الاحوال ونتج عنها نتائج جليلة أعقبت أهل البيت الطاهرين أبناء فاطمة الزهرا بنت خديجة الكبرى سيدة نساء العالمين وهى أول من آمن به على الاطلاق ويقال انه صلى الله عليه وسلم سافر لخديجة قبل هذه السفرة سفرتين الى اليمن وثبت أيضا

انه

انه أجر نفسه قبل النبوة لرعى الغنم وكذا ثبت فى حق غيره من الانبيا كموسى قيل ان حكمة ذلك ان راعى الغنم التى هى أضعف البهائم يسكن فى قلبه الرقة واللطف فاذا انتقل من ذلك الى رعاية الخلق كان قد هذب قبل ذلك وأما رعى موسى عليه السلام لشعيب فانه حصل أيضا عقب السفر من مدينة عين شمس بمصر الى مدين حين قتل القبطى ونصر الاسرائيلى وهم أهل مصر بقتله فقال له مؤمن من آل فرعون ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين فخرج بطلب بلاد مدين بدون زاد ولا راحلة وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له فى طريقه طعام الا ورق الشجر حتى ورد ماء مدين فكان ما قال الله تعالى فى كتابه ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان أى تحبسان أغنامهما الان على الماء من كان أقوى منهما فلا تتمكنان من السقى مع كراهة المزاحمة على الماء وخوف اختلاط أغنامهما بأغنام غيرهما ومع التحفظ أيضا بالاختلاط بالرجال قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء أى ننتظر ما يبقى من القوم من الماء بعد صدورهم عنه وانصرافهم وقوله وأبونا شيخ كبير كناية عن الضعف ودلالة على انه لو كان قويا لحضر ولو حضر لم يتأخر السقى فعند ذلك سقى لهما موسى قبل صدور الرعاء وعادتا الى أبيهما قبل الوقت المعتاد وكان قد سأل عليه السلام القوم أن يسمحوا فسمحوا

وقيل ان القوم لما زاحمهم موسى عليه السلام تعمدوا القاء حجر عظيم لا يقله ولا يرفعه الا جماعة كثيرون على رأس البئر فرفعه بالقوة على ضعفه من الجوع وسقى غنمهما قال الله تعالى فسقى لهما ثم تولى الى الظل لانه سقى لهما فى الشمس والحر وفيه دلالة على كمال قوة موسى عليه السلام وعلى ان أحوال أهل البادية غير أحوال أهل الحضر يعنى ان ما يعد عيبا فى الحضر قد لا يعد عيبا فى البادية فلهذا ساغ لنبى الله شعيب أن يرضى لابنتيه بسقى الماشية بدون أن يقدح ذلك فى حقه بشئ حيث لا مفسدة فى ذلك لان الدين لا يأباه فى البدو ولا فى الحضر ومروءة أهل البدو لا تأباه لا سيما اذا كانت الحالة حالة ضرورة لان الظاهر انه لم يكن لشعيب عليه السلام معين سواهما

ولما كان موسى عليه السلام قد مكث مدة الطريق لم يذق طعاما الا بقل الارض قال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير أى انى لاى شئ أنزلت الى من خير قليل أو كثير غث أو سمين لفقير أى سائل وطالب فجاءته احداهما تمشى على استحياء أى مستحيية قد استترت بكم قميصها ماشية على بعد مائلة عن الرجال قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا وذلك ان البنتين لما رجعتا الى أبيهما قبل الناس قال ما اعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقد فهمتا من حاله انه سقى أغنامهما تقربا الى الله

مطلب
سفر موسى عليه السلام الى مدين

تعالى فوصفتاه بالصلاح فقال شعيب لاحداهما اذهبي فادعيه لي فارسلها شعيب الى موسى مع انها شابة وهو شاب لانه عليه السلام كان قد علم بالوحى أو من حسن التربية طهارتها وبراءتها فكان يعتمد عليها فذهب معها موسى عليه السلام مع الاحتياط والتورع وامتثل دعوة أبيها للتبرك برؤية ذلك الشيخ لا لطلب الاجرة وروى أنها لما قالت ليجزيك أجر ما سقيت لنا كره ذلك

مطلب
اجتماع موسى بشعيب وما جرى بينهما

ولما قدم اليه الطعام امتنع وقال انا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ على المعروف ثمنا حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فجلس موسى عليه السلام فأكل بعد أن قص عليه قصته فذكر نسبه الى يعقوب وحكى جميع أمره من لدن ولادته وأمر القبائل والمراضع والقذف فى اليم وقتل القبطى وانهم يطلبونه ليقتلوه فلذلك قال الله تعالى فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين أى لا سلطان لفرعون بأرضنا فلسنا فى مملكته فقد أسكن روع موسى عليه السلام وان كان فرعون لقوته وبطشه وكثرة جنوده يمكنه أن يتسلط على أرض مدين اذا قصد ذلك الا ان شعيبا يعلم انه لا سبيل لفرعون على هذه الارض وان الله سبحانه وتعالى حماه عنها وحماها منه فقالت ابنته الصغيرة وكانت آنست منه القوة برفع الحجر عن رأس البئر واستسقائه بالدلو العظيم وعهدت فيه الامانة حيث فى السير معها أخرها الى خلفه يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين فرغب فيه شعيب فكانت ابنته من أفرس الناس حين تفرست الامانة فى سيدنا موسى عليه السلام قال شعيب انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على ان تأجرنى ثمانى حجج يعنى على ان تكون لى أجيرا ترعى لى ثمانى سنين فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين قال ذلك بينى وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل

مطلب
تزوج موسى بابنة شعيب

فتزوج موسى صفورا وهى الصغرى منهما وطلب عصا فقال له ادخل بيتى أى الذى يأوى فيه فخذ عصاك وكان فيها عصى كثيرة فدخل موسى البيت وأخذ من العصى عصا حمراء فقال له شعيب هذه عصا الانبياء انتقلت من آدم الى شيث ومنه الى ادريس والى نوح وهود وصالح وابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب وكلهم توكأ عليها فلا تخرجها من يدك ثم اوصاه وحذره من أهل مدين وقال انهم قوم حسدة واذا رأوك قد كفيتنى امر غنمى حسدونى عليك فدلوك على وادى كذا وكذا وهو كثير المرعى وانما فيه حية عظيمة تبتلع الغنم فان دلوك عليه فلا تمر به فانى أخاف عليك وعلى غنمى فخرج موسى بالغنم وكانت يومئذ أربعين رأسا وقال فى نفسه ان من اعظم الجهاد قتل هذه

الحيـة وتوجـه بالغنم الى ذلك الوادى فلما قاربه أقبلت الحية الى الغنم فقتلها موسى ورعى غنمه الى آخر النهار وعاد الى شعيب وأعلمه الخبر ففرح بقتلها وفرح أهـل مدين وعظموا موسى وأجلوه وقام موسى بغنم شعيب يرعاها ويسقيها حتى انقضت المدة التى بينهما وبلغت الغنم أربعمائة رأس وعزم موسى على المسير

مطلب
ثمرة الشفقة على خلق الله

وقد ورد أنه لما رعى الغنم لم يضرب واحدة منهن بعصاه انما كان يهش بها فقط وكان لا يجيعها ولا يؤذيها بعطش وجاء بها مرة الى نهر ليسقيها فوجد فيها شاة عرجاء لا تقدر على الوصول الى الماء فحملها ونزل بها فسقاها فلما رأى الحق منه قوة شفقتـه على غنمه بعثـه نبيا وكليما راعيا لبنى اسرائيل وناجاه بالتوراة وغيرها كما يأتى فمن رحم رعيته وشفق عليهم اصطفاه من بين الخلق ومن لم يكن عنده شفقة ورحمة على خلق الله لا يرقى المراقى العلية المسعدة

ولما أراد موسى الانصراف بكى شعيب وقال ياموسى انى قد كبرت وضعفت فلا تضيعنى مع كبر سنى وكثرة حسادى أتترك غنمى شاردة لا راعى لها قال موسى انها لا تحتاج الى راع وقد طالت غيبتى عن أهلى فقال شعيب أنى أكره ان أمنعك وأوصاه على ابنتـه وأوصاها أن لا تخالفه وسار موسى عليه السلام بأهله يريد مصر حتى بلغ جانب وادى طوى فى عشية شديدة البرد فأنزل موسى أهله وضرب خيمته على حافة الوادى وأدخل أهـله فيها وهطلت السماء بالمطر وكانت امرأته حاملا فجاءها الطلق فجمع حطبا وقدح الزناد فلم يور فرماه وخرج من الخيمـة فرأى نارا فقال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جـذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى انى أنا الله رب العالمين وأمره بخلع نعليه بقوله تعالى فلما أتاها نودى ياموسى انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى الآية فاكتسب موسى عليـه السلام النبوة فى العود الى مصر كما اكتسب الزوجة الصالحة فى الورود منها الى مدين فمن الله سبحانه وتعالى عليـه فى الاسفار بمراتب الاخيار والابرار وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم فيالها أسفارا الهامية أسفرت عن أسفار التوراة التى بينت للناس جميع التواريخ من أيام الخليقة الى زمن موسى كما بينت لامته الاحكام والشرائع وبشرت برسالة خاتم الانبياء والمرسلين فلا شك أنه قد ترتب عليها ما لا يحصى ولا يحصر من المنافع مما كانت البلاد الشامية له من أعظم المنابع

الفصل الرابع

في أن الصوريين وهم أهل سواحل بر الشام قدموا في سالف الازمان التجارة والعلوم البحرية على وجه نافع

أهل سواحل الشام في القديم والحديث هم أغنى أهل بلاد سورية وكانوا يسمون في قديم الزمان الفنيكيين وكانوا على سواحل البحر الابيض الشامي وكانت أعظم مدنهم مدينة صور التي كانت تسمى في سالف الازمان ملكة البحار ويليها مدينة صيدا في شمالها ثم مدينة بيروت ولكون أرض السواحل كانت عقيمة لايخرج منها مايكفي لمعيشة سكانها اضطروا الى تعليم الصنائع النافعة لان الضرورة هي الاصل الاصيل لاستفادة المعارف فقد استفادوا بامعان أفكارهم وتكرار تجاريبهم ووقوع أمور اتفاقية بالمصادفة معرفة كثير من المنافع انضمت الى الصنائع

وقد عرفوا من الازمنة الخالية أن ركوب البحر يوصلهم الى التجارات وأعانهم على ذلك كونهم سواحلية وبمجاورة جبل لبنان الكثير الغابات والاخشاب فاستسهلوا ركوب البحر المالح مع مايعهدون فيه من الاخطار ببلوغ الاوطار مع ان السفر كما في الحديث النبوي قطعة من العذاب الا أن البركات مع الحركات

وفي التوراة مكتوب ابن آدم أحدث سفرا أحدث لك رزقا قال الشاعر

بلاد الله واسعة الفضاء * ورزق الله في الدنيا فسيح

فقل للقاعدين على هوان * اذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

قال الامام الشافعي رضي الله عنه

تغرب عن الاوطان في طلب العلا * وسافر ففي الاسفار خمس فوائد

تفرج هم واكتساب معيشة * وعلم وآداب وصحبة ماجد

ولم يكن لهم دليل في البحر الا نجمة القطب لان البصلة التي هي بيت الابرة لم تكن تعرف عند الاقدمين وانما صار استكشافها في الاعصر الجديدة يعني في آخر القرن السابع من الهجرة استكشف صناعتها وخاصيتها العرب فهي من اختراعاتهم المفيدة لعموم الناس وليست من اختراعات الافرنج ولا اطلع عليها العرب عند أهل الصين اذ كانت عندهم معلومة من أزمان قديمة وهي حق مشتمل على ابرة ممغنطة بالمغناطيس تتجه دائما صوب الشمال يهتدي بها الملاحون صوب مقصودهم كما يهتدون بالنجم الذي أنعم الله به على عباده قال تعالى وبالنجم هم يهتدون بعد قوله وهو الذي سخر البحر الى آخره والاهتداء بالنجم الذي هو الثريا والفرقدان وبنات نعش عام في البر والبحر ولو أنه ذكر بعرض البحر وكما يهتدي المسافر بالنجم في البحر والبر في الاسفار يهتدي به أيضا في تحري القبلة اذا عميت عليه وكذلك بيت الابرة مما تتحرى به القبلة

فاختراع

مطلب
ان اختراع العرب لبيت الابرة من المنافع العمومية المتأخرة التى لا يعرفها المتقدمون

فاختراع العرب للبصلة من المنافع العمومية المتأخرة التى كان لا يعرفها المتقدمون ومع ذلك فاهتدوا كغيرهم بالنجم ووصلوا الى الاقطار القاصية كالصور بين الذين نحن بصددهم وذلك أنه لما ظهر الاسلام واستولى العرب بالفتوحات على ممالك الدنيا برا وبحرا تأهلوا لقبول التمدن الذى كانت آثاره لم تزل موجودة فى الدنيا عقب انقراض دولة الروم فتصدوا للاسفار البحرية واظهروا الحروب وفازوا بظفر الفتوح وكانوا كالرومانيين فى مبدا أمرهم فركبوا السفن وجندوا الجنود وشنوا الغارات واستداموا فى الازمان والاماكن على تجشم الاخطار واقتحام البحار للتمتع بالتجارة واخترعوا بيت الابرة التى أعانت على الاسفار فكانت تجارتهم فى القرن الثالث فى الاقطار المشرقية تنمو وتزيد فى البحر المتوسط وقد لاحت اعلام الخلفاء على بحر الهند فتصدى تجار العرب للتجارة فى جميع البلاد فامتدت تجارتهم الى جبل الطارق ومثلهم تجار الفرس وجسمت معاملتهم التجارية فى الهند والصين وصار لهم مراكز تجارية فى تلك الاقاليم حتى ان من العرب من أقام فى جزيرة سيلان وفى المدن الهندية والصينية وانتشروا فى أماكن عديدة وفى عهد الدولة العباسية تهذبت العلوم وحسن التمدن وأسست القصبات الجديدة على نهر الدجلة وانتظم أمر التجارة وصارت المراكب الغريبة الخفيفة تجول فى البلدان وتسير الى جزائر الهند وبوغاز ملقة فكانت تجارتهم فى كل جهة وكل مكان وكانت المراكب الكبيرة تتوجه الى جهة سيراف فى بحر العجم وكثرت السياحات العربية فى سائر البلاد البرية فارتفع شأن التجارة عند العرب حتى كانت أعظم شئ يشتغل به فى اصلاح المعاش وتأسس فى أمور التجارة اصول فى ايام الخلافة المشرقية والمغربية وعقدت المعاهدات مع الدول الاجنبية الاوروباوية فى شأن الملاحة ببلادهم لحسن استقامة أهل الاسلام فى المدن الاجنبية لاسيما فى الممالك التى على البحر واستمر الامر على ذلك حتى حصل حرب أهل الصليب فاضعف ذلك فلما انتهت الحروب الجسيمة بين الاسلام والافرنج عادت التجارة بين الطرفين على حالها ومن المعلوم أن التجارة فى أيام الخلفاء أعلت أحوال الصنائع كلها عند العرب وصار جلب المصنوعات العربية من مصانعها الى اطراف الدنيا جميعها

مطلب
ان صناعة الساعات المصنوعات النفيسة التى سبق بها العرب غيرهم

ومن المصنوعات النفيسة التى سبق بها العرب غيرهم صناعات الساعات كالساعة التى اهداها الرشيد الى كرلوس الاكبر ملك الافرنج فكانت اذ ذاك من نوادر العصر وأما المصنوعات النفيسة المكملة الصنعة المخترعة للعرب فقد بقيت شهرتها الى الآن كالاقمشة الموصلية والسيوف الدمشقية وهذا غير اختراع مالا يحصى من العلوم

والفنون ثم كابهم جواد الاختراعات وخبا منهم زناد الابتداعات وصاروا كما قيل

رب قوم رتعوا فى نعمة * زمنا والعيش ريان غدق
سكت الدهر زمانا عنهم * ثم أبكاهم دما حين نطق

مطلب
اشتمال كتب الفقه الاسلامية على بعض المنافع العمومية

ومن امعن النظر فى كتب الفقه الاسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية حيث بوّبوا للمعاملات الشرعية أبوابا متنوعة للاحكام التجارية كالشركة والمضاربة والقرض والمخابرة والعارية والصلح وغير ذلك ولا شك ان قوانين المعاملات الاورباوية استنبطت منها كالسفتجة التى عليها مبنى معاملات اورباولم تزل كتب الاحكام الشرعية الى الآن تتلى وتطبق على الحوادث والنوازل علما لا عملا كما ينبغى وانما لمخالطات تجار الغرب ومعاملتهم مع أهل الشرق انعشت نوعا همم هؤلاء المشارقة وجددت فيهم وازع الحركة التجارية وترتب على ذلك نوع انتظام حيث ترتب الآن فى المدن الاسلامية مجالس تجارية مختلطة لفصل الدعاوى والمرافعات بين الاهالى والاجانب بقوانين فى الغالب اروبية مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق وتوفيقها على الوقت والحال مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاة الامور المستيقظين ولكل مجتهد نصيب لا سيما فى هذه الازمان التى تكاملت فيها الاسباب وتطبقت على المسببات فشتان بين هذا العهد وعهد الصوريين الذين زاولوا فى التجارة الاخطار وركوب البحار فاقتحموا المشاق فى تلك الازمان فاتسعت تجارتهم على وجه عجيب حتى عمرت بلادهم بالمنافع العمومية بل خرج منها قبائل عمرت جزيرتى قبرس ورودس وجزيرتى صقليه وسردانيا ووصلوا أيضا الى بلاد الاندلس بل دخلوا البحر المحيط الغربى فصارت مدينة قادس مركز تجارتهم وكانوا يستخرجون من مملكة اسبانيا المكاسب العظيمة والمغانم الجسيمة لكثرة معادنها فنالوا أغراضهم بمنافع بحرى العرب والعجم حتى انفردوا فى تلك الاعصر بفوائد التجارات وكانوا مختصين بمنافع البحرين المذكورين يمنعون من سواهم من اجراء التجارة فيهما كما انفرد أهل الهند زمنا طويلا بالانتفاع بهما وبجلب منافع الهند النفيسة الى سواحل بلاد العرب ولما كثرت عند الصوريين الفضة واستثقلوا حملها فى بعض الاسفار اتخذوا منها هلوبا لسفنهم بدلا عن الرصاص لكون حملها فى السفن لمنفعتين

وبالجملة فبكثرة الاسفار والتجارات انتفعوا بمنافع غيرهم ونفائسهم وكانوا يبالغون فى كتم أسفارهم البحريه وعدم تعريف الطرق والمسالك مخافة أن يزاحمهم غيرهم فى اكتساب هذه المنافع فكانوا دائما يجتهدون فى أن وطنهم يختص بالتجارة والملاحة

ويجعلون ذلك من الحقوق الخصوصية والمزايا الاحتكارية التى لا رخصة فيها للاغراب وليس هذا التحكير كان خاصا بدولة الصوريين بل كان اصلا لجميع الدول السالفة كل فيما يخصه ويظن أن له الحق فى اولوية الانتفاع به واغا دولة الصوريين كانت فى تلك الازمان ملكة البحار خبيرة بالمسالك والممالك فكانت مستحوذة بالفعل على التجارات وكان غيرها من الامم اذ ذاك معرفتهم بمسالك البحر قليلة جدا فكانوا يحرصون على أن لا يدلوا أحدا عليها

فقد حكى بعض المؤرخين ان الصوريين كانوا يسافرون الى جزائر بحر الانكليز المسماة جزائر القزدير لاستخراج معادن القزدير والرصاص منها وأن أحد الصوريين ذهب فى سفرة الى تلك الجزائر القزديرية التى لم تكن معلومة الا للصوريين دون غيرهم فلمح أن وراء سفينته سفينة أخرى رومانية تزود هذه السكة وتتعرفها فاختار الصورى أن يقذف سفينته على رصيف هناك لتغرق ويهلك أهلها وتغرق السفينة الاخرى بجانبها ففعل ذلك حتى لا تقفو السفينة الاجنبية أثره فأتلف سفينة نفسه وغيره واجتهد فى أن ينجو بنفسه فنجا وذهب الى أهل صور فى نحو قطيرة فكافوه على ذلك مكافأة عظيمة وجبروا خسارته وأغدقوا عليه بالانعام وأكرموه غاية الاكرام جزاء لما صنعه لمصلحة الوطن الصورى فبعد أن كان لسان حاله ينشد بحسرة

اذا نحن أبناسالمين بأنفس * كرام رجت أمر الخاب رجاؤها
فأنفسنا خير الغنائم انها * تؤوب وفيها ماؤها وحياؤها

عاد ينشد بمسرة

كم فرجة مطوية * لك بين أبناء النوائب
ومسرة قد أقبلت * من حيث تنتظر المصائب

فكان أهالى السواحل الشامية لهم فى الوطن محبة مستولية على الطباع مستدعية لشدة الحرص على ثروته وشفاء الاطماع

ومن أخبار حب الوطن وأبنائه من أهل الشام لا سيما للانبياء عليهم الصلاة والسلام أن يوسف عليه السلام وصى بأن يحمل تابوته الى مقابر آبائه ومما يؤثر عن الصوريين ما ذكره المؤرخون أن الملك نخوس بن ابسمتكوس أمر جماعة من الصوريين البحريين أن يكشفوا له حدود أفريقة بأسرها فساروا من بحر القلزم ثلاث سنين حتى طافوا حول أفريقة واستكشفوا أطرافها وعادوا فى آخر السنة الثالثة من البحر الابيض الشامى ودخلوا مصر من مصب النيل وكان ذلك قبل ميلاد عيسى بنحو ثمانية قرون وهو من أعجب ما وقع من الصوريين حيث استكشفوا

سواحل أفريقة ولابد أنهم مروا برأس عشم الخير خصوصا فى زمان كان سير السفن فيه فى وسط تلك البحار يكاد أن يكون مستحيلا مع أنه لم يستكشفه البورتغاليون الا فى آخر القرن التاسع من الهجرة وسموه رأس عشم الخير تفاؤلا والا فهو رأس التلاقيح ومع استكشافهم له فلم يمروا عليه فى سياحاتهم البحرية الابعد خمس عشرة سنة

ولما أرسل البورتغاليون أناسا من أهاليهم فى هذا الاقليم للاقامة به ولاد خاله فى أملاكهم الخارجية أخذه منهم الانكليز واستولوا عليه فمن ذلك الوقت صار هذا الاقليم نافعا للانكليز فى سلوك طريق الهند ذهابا وايابا وأهله ما بين سود وبيض على التناصف فى قبضة الانكليز فقد أسسوا على هذا الراس مدينة انكليزية تسمى مدينة الكاب وهى أبعد مدينة افريقية جهة الجنوب ترسى عليها جميع السفن الذاهبة الى الهند والحاضرة منه

ومن سياحة الصوريين فى أفريقة بأمر ملك مصر يستنتج نتيجتان عظيمتان يستدل منهما على تقدم دولتين عظيمتين وهما دولة مصر الآمرة بهذه السياحة العظيمة وهى مشروع جسيم فى الاعانة على المنافع العمومية لا يخطر الا بخاطر دولة متمدنة محبة للتقدم العجيب ودولة مأمورة ذات ملاحة وسياحة بحرية ذات سفن عظيمة تقتحم اخطار البحار وتبحث عن المنافع العامة فى شاسع الاقطار وكل يدل على أن هاتين الدولتين كان عندهما فى تقديم المنافع اعمال الافكار إن فى ذلك لعبرة لاولى الابصار

مطلب
ان الصوريين هم أول من استكشف الصباغة باللون الاحمر الارجوانى

ثم ان الصوريين هم اول من استكشف الصباغة باللون الاحمر الارجوانى الذى كانت تتخذ الامراء من مصنوعاته الحلل والثياب والمضارب والقباب وكان استخراجهم لهذا اللون المجهول عندهم من الصدفة والاتفاق وذلك ان بعض رعاتهم رأى كلبا جائعا كسر محارة من صدف البحر فأكلها فتلون حنكه باللون الاحمر الارجوانى فأعجبهم ذلك اللون البهيج فاستخرجوا من المحار هذه الصبغة وصبغوا بها الاقمشة حتى أتقنوا صبغتها فصار هذا اللون بعد مدة زينة للملوك فى ذلك العهد لاسيما ملوك مصر وكثيرا ما تكون الاتفاقيات سببا فى اختراع الصنائع وتكثير المنافع ومن جملة ما اخترعه الصوريون مما أورثهم الشهرة فن الكتابة حيث اخترعوا حروف الهجاء المستخرج منها الحروف الافرنكية

مطلب
فى أن أول من نقل حروف الهجا من الصوريين اليونان

وأول من نقل حروف الهجاء من الصوريين اليونان ومن كتابة اليونان القديمة استخرج اللاطينيون حروفهم الهجائية ومنهم استخرج جميع أهالى اوروبا حروفهم

فهذه

فهذه الحروف القليلة وصلت الامم الى معرفة العلوم فكانت آلات لجميعها فهى فى الحقيقة تعد من مآثر الصوريين وهذا اما الهام ربانى لبعض أنبيائهم على ان الواضع هو الله سبحانه وتعالى فان كانت هذه الحروف الصورية من وضع البشر فالافعال كلها لله والله خلقكم وما تعملون وعلى كل حال فهى آثار نافعة

تلك آثارنا تدل علينا * فانظروا بعدنا الى الآثار

(وقال آخر)

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به * ولا يكون له فى الارض آثار

وهذا القول ينبغى أن يكون بالنسبة لحروف الهجاء التى تأسس عليها خط أمم أوربا والا فالكتابة قديمة بدليل صحف شيث ونحوها بل هى داخلة فى تعليم آدم الاسماء ومما يدل على ذلك الحروف الابجدية التى لها خواص واسرار الهيه فلا شك فى قدمها وانها ليست من محض وضع البشر فان هذا لا يسلمه العقل السليم وعلى كل حال فان كانت الكتابة المخصوصة من اختراع الصوريين وانهم أول من كتب بالقلم فى بلادهم وبين أممهم وانتقل منهم الى اليونان فلهم فضل لا ينكر فان الكتابة فى حد ذاتها من الفضائل الاولية وفضل الكتاب دائما متداول على ألسنة ذوى الالباب قالوا الكتاب سياسة الملك وعماده وأركان السلطان وأطواده باقلامهم تبسط الارزاق وتبيض الآمال وبها تصان المعاقل اذا عجزت عن صونها الرجال وقالوا الكاتب مالك الملك يصرفه بقلم الانشاء كيف يشاء وقالوا وأن فى الصناعات صنعة مربوبة لكانت الكتابة رب الكل صناعة وقالوا الكتاب قطب الادب وفلك الحكمة ولسان ناطق بالفضل وميزان يدل على رجاحة العقل وبالكتابة والكتاب قامت الرياسة والسياسة واليهم ألقى تدبير الاعنة والازمة وعليهم يعتمد فى حصر الاموال وانتظام شتات الاحوال وما مدحوا باحسن من قول القائل

مطلب فى أن الكتابة من الفضائل الاولية

قوم اذا أخذوا الاقلام من قصب * ثم استمدوا بها ماء المنيات

نالوا بها من أعاديهم وان بعدوا * مالم ينال بحد المشرفيات

ومن قول الآخر

قوم اذا خافوا عداوة بينهم * سفكوا الدما بأسنة الاقلام

ولضربة من كاتب بلسانه * أمضى وانفذ من رقيق حسام

(مفرد فى المعنى)

له يراع سعيد فى تقلبه * ان خط خطا أطاعته المقادير

وقال ابن المقفع الملوك أحوج الى الكتاب من الكتاب الى الملوك ومن فضل الكتابة أن

مطلب المفاخرة بين القلم والسيف

صاحب السيف يزاحم الكاتب فى قلمه ولا يزاحمه الكاتب فى سيفه ورسالة المفاخرة بين السيف والقلم مشهورة ومنها الابن الرومى فى تفضيل القلم على السيف

ان يخدم القلم السيف الذى خضعت * له الرقاب ودانت خوفه الامم

فالموت والموت لا شئ يعادله * مازال يتبع مايجرى به القلم

ومن موجز البلاغات فى المكاتبات ما كتبه يزيد بن عبد الملك الى مروان بن محمد وقد بلغه تلكؤه عليه فى بيعته أما بعد فانى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فما تدرى ايهما أحرى فاذا أتاك كتابى فاعتمد على أيهما شئت ويقرب منه ما كتبه بعض الملوك الى قرا أرسلان وقد بغى عليه الذى نعلم به قرا أرسلان انا نحن نزلنا بغداد صباحا فساء صباح المنذرين فامرنا أهلها بالدخول تحت طاعتنا والخروج عن معصيتنا فأبوا فحق عليها القول فدمرناها تدميرا فان كنت ممن يدخل تحت طاعتنا ويخرج عن معصيتنا فروح وريحان وجنة نعيم وان كنت الا كالحافر لقتله بظلفه والجادع لمارن أنفه بكفه فسوف نلحقك بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا فرجع لوقته

ومع كثرة معارف الصوريين واتساع تجاراتهم برا وبحرا فكانوا عبدة أوثان وأهل بدع وأوهام فمن بدعهم الفاسدة أنهم كانوا يقربون الآدميين قربانا لآلهتهم وهذه العادة وان كانت بشعة فى حد ذاتها وواقعة فى كثير من أقاليم الارض عند الامم المتبربرة الا أنها أقبح عند الصوريين لتمدنهم

ويقال ان مملكة صيدا كانت دار ملك الفنيكيين يعنى أهل السواحل الشاميه ثم نشأت مدينة صور المذكورة وصارت عامرة جدا وهى التى كانت منبعا للمنافع العموميه وقد ذهب منها جماعة الى بلاد المغرب فأسسوا مدينة قرطاجنه وعمروها وجعلوها مملكة عظيمة قبل الميلاد بثمانمائة وتسعين سنة

وسبب مهاجرة الصوريين الى بلاد المغرب أنه كان فى سواحل الشام على بلاد الصوريين ملك ظلوم غشوم يسمى بغماليون كان من الجبابرة وكان له أخت تسمى ديدون متزوجة بأمير يقال له سيشه فقتله ذلك الملك لقصد سلب أمواله فجمعت ديدون ما عند زوجها من الاموال وجميع مافى خزائنه وفرت الى أفريقه بالمغرب وأسست هنالك مدينة قرطاجنه فعمرت هذه المدينة حتى فاقت فى الغنى والثروة والبطش والقوة مملكة الصوريين وصارت فيما بعد مقارنة لرومية دار سلطنة الرومانيين وفيما بعد اشتدت العداوة بين المملكتين كما تقدم ذكره فى الفصل الثانى من الباب الثانى من هذا الكتاب

ثم انتهى أمر الصوريين بعد العز والطنطنة أن صاروا رعايا للعجم واليونان والرومانيين الى أن صار فتح العرب بلادهم بالاسلام بفتوح الشام وقد أسلفنا فى أثناء الكلام على الصوريين بعض شئ فى حق تقدم العرب بما ناسب المقام

الباب الثالث

فى تطبيق أقسام المنافع العموميه فى الازمان الاوليه على مصر المحميه وانها كانت من التمدن والتقدم بمكانة عليه وفيه فصول

الفصل الاول

فى تقدم مصر وغناها فى عدة ازمان سابقه وأدوار متناسقه وحيازتها للمنافع العمومية بوجه اجمالى

المتبادلا آراء أرباب العقول الذكيه ان أعظم البلاد الساحلية قابلية للتقدم فى المنافع العموميه هو الديار المصريه وأنه لم يتقدم على ساحل البحر الابيض مثل بلاد مصر فيما يخص الزراعة والصناعة وأنها كانت أشغالها وعملياتها متقدمة تقدما عظيما وأن حركة المنافع العمومية فيها كانت على غاية ما يمكن من النشاط والاتقان فان صعيدها الاعلى الذى هو الوجه القبلى مع اتساع أراضيه لا يبعد من النيل الا مسافة أميال وأقاليمها بالوجه البحرى يقسمها النيل الى عدة فروع ففى كلا الوجهين يمكن بمساعدة اليد الصناعية والعملية توصيل متاعها ومحصولها من بعض المدن الكبيرة الى بعض كما يمكن نقلها الى القرى والكفور من قرية الى أخرى ومن ضيعة الى أخرى أو الى مدينة وهكذا وهذا بأقل المصارف ويسير الكلفة برا وبحرا

ومن المعلوم أن نيل مصر واسع جدا يسهل فيه سير السفن فى داخل البلاد بعضها مع بعض فالظاهر أنه اقوى سبب فى كون الديار المصرية اكتسبت قبل غيرها من الممالك فى الازمان الخالية صفة الثروة والغنى وتقدمت فى المنافع العموميه وتمكنت فى منقبة التمدنيه كما دلت عليه التواريخ فكان تمدنها تمدنا رفيعا متسع الدائرة فيما يخص الصنائع مستوفيا للغنى مستوعبا للمتانه وعلو المكانه كما يشهد لذلك ما يوجد فى صعيد مصر من المبانى التى لم تزل قائمة على ساقها الى الآن فليس أعدل من شهادة مدينة طيوه ذات المائة باب فان رسومها القديمة وآثارها الجسيمة مما يعجب منه أولو الالباب وقد توصل السواحون الى الوقوف على ما فيها تحت الارض من المدافن والقبور وقرؤا تاريخ بنائها الازلى فوجدوها قد مر عليها خمسة وعشرون

قرناقبل الميلاد ولم تغيرها العصور والدهور وقد استخرج في هذه الايام بالنبش في معبد
قديم بمملكة نابولي احدى ممالك ايطاليا ستة أعمدة من المصنوعات المصرية المنحوتة
من الصوان الاحمر منها أربعة كل طول العمود أربعة أمتار وثلث متر وقطر محيطه
اثنا عشر سنتيمترا ويعلم من ارتفاعها وتناسب سمكها وبريق لونها أن صنعها بهذه المثابة
كان في عصر موجود به فن نحت الاحجار بمصر وان مصر اذ ذاك كان لها التقدم
في هذه الصناعة من أحقاب خالية وأما العمودان الآخران فصغيران ولكل
منهما قاعدة من نوع الطبخ المذهب وكامل غريب الشكل وقد بيعت هذه الاعمدة
في باريس بأربعين ألف فرنك في المزاد ولاشك ان استخراج هذه الاعمدة كان من
محاجر مصر ونقلها الى بلاد الرومان ووضعها في معابدها القديمة ثم استخراجها الآن
بعد مرور نحو الالف سنة وهي على حالة حسنة وبيعها بهذا المبلغ يدل على كمال
صناعتها وقوة مادتها فمثل هذه الاعمدة الغريبه والمباني العجيبه الحسنة النقش
المختلفة الالوان البهجة المكتوبة بالاقلام القديمة المصريه تنطق بلسان حالها بتقدم
مملكة مصر في درجة التمدن ولكن لا يفصح لسان مقالها عن حقيقة الحوادث
الداخليه التي أوجبت هذه الرموز التصويريه نهاية الحال ان ماهو منقوش عليها
من التاريخ لبنائها يفيد قوة ملك مصر الذي حصلت هذه المباني في أيام سلطنته وان
في أيامه كانت المعارف بالآلات والادوات عجيبة وهذا كله يدل على شوكة هذه الدولة
وتقدمها في الصناعة والمهارة ويستفاد أيضا من هذه الكتابات القديمة أن هذا الملك
العظيم سار بجيش جرار عدة مرات الى أقاصي الممالك وانتصر فيها النصرات
العظيمه وفتح الفتوحات الجسيمه وبلغ مناه وشفى غليله من عداه وزاد فخارا على
فخاره واتسعت دائرة علو قدره واعتباره وهذه الحروب كانت كما يفهم من النقوش
والرسوم مع سلطان عظيم صاحب شوكة قويه وارتفاع شأن معلوم وهو سلطان بابل
العراق الذي لا يوازيه في القوة والشوكة من ملوك ذلك العصر الا ملك مصر الذي
كان بينه وبين ذلك الملك الشقاق والوفاق فان في ذلك الزمن المعهود كان أشهر مدن
الدنيا مدينتين متسابقتين في ميدان الفخار ومتنافستين في كسب الاعتبار وهما
مصر وبابل

مطلب استكشاف اعمدة مصرية بمعبد قديم في نابولي

مطلب المعاصرة بين سلطنتي مصر والعراق في القديم

وقد دل أقدم التواريخ على انهما كانتا دون غيرهما سلطنتين عظيمتين ودولتين
بالحدود متجاورتين تميزهما الحدود الطبيعية كالبحر المالح والنيل وأن غيرهما من
الممالك ليس من هذا القبيل فكان لمصر مملكة المغرب مخلده ولبابل مملكة الشرق
مؤبده وبين مملكتي الشرق والغرب تارة الصلح وتارة الحرب وجميع من كان من

الامراء

الامراء والملوك فعنوان الملوكية والحكومة فانما كان بالنيابة والفرعية عن هذه الجرثومة وكانتا من أجل الممالك المعتبرة بما اشتهرتا به من عجائب السحر وغرائب السحرة وناهيك بمن تعلم السحر من هاروت وماروت وحسبك ما جمعه فرعون لموسى من المدائن من كل سحار عليم لنصرة الطاغوت وبهذا كان لهم الولاء التام على من جاورهما من الملوك والحكام وكان بين المملكتين كمال الالتئام ووثوق العهد الذى لا يعتريه نقض ولا ابرام وبقى هذا الوصف الجليل الى أيام حرب تروادة كما ذكره أميروس الشاعر فقد نص على انه كان فى أيامه بينهما الصلح الكامل ثم استبان مما ذكره المؤرخون انه عرض لهما فى آخر القرن الثامن قبل الميلاد ما طرأ على الممالك من التمزيق فضعفت مملكة مصر وتمزقت مملكة العراق فسبحان مقسم الارزاق ومالك الآفاق

مطلب تأسيس مدينة بابل ومدينة نينوى

ومن المعلوم أن الذى أسس بابل هو النمروذ الذى هو ابن حفيد سيدنا نوح عليه السلام كما هو نص التوراة وأما مؤرخو اليونان والرومان فقد نسبوا تأسيس مدينة بابل الى سميراميس زوجة نينوس أحد عساكر ملك بابل المسماة هذه الملكة بعبر فى التواريخ المشرقية وبيان ذلك أن مملكة بابل كان يجاورها فى قديم الزمان مملكة أثور يعنى بلاد الكردستان وكان دار مملكة الكردستان مدينة نينوى يعنى مدينة سيدنا يونس عليه السلام بناها الملك أثور ثم حسنها الملك نينوس فكانت مدينة عظيمة فى طول ثمانية فراسخ ونصف لا يطوف السائر حولها بمحيطها الا فى نحو ثلاثين ساعة وكان ارتفاع سورها الخارج عنها مائة قدم واتساع جدار الاسوار عريض بحيث يسير فوقه ثلاث عجلات بعضها فى جانب بعض ولو مع غاية السرعة وكانت مدينة حصينة وفى داخلها خمسة عشر برجا ارتفاع البرج مائتا قدم ولما تزوجت سميراميس نينوس ملك مدينة نينوى التى كانت اذ ذاك تحت كل من مملكة العراق ومملكة الكردستان اللتين صارتا كالمملكة الواحدة ألبسها التاج وسلمها البلاد حيث كانت وهى فى عصمة زوجها الاول قد اشتهرت بأفعال الشجعان فى واقعتين من الوقعات العظيمة وكانت قوتها العسكرية نحو مليون من النفوس فصاروا فى نصرتها فلما مات نينوس أعقب منها ولدا قاصرا يقال له نيناس فتقلدت المملكة وكانت أمه سميراميس وصية عليه فصار بيدها زمام الملك وأرادت إحراز الشهرة والصيت وكسب الفخار المخلد فبنت مدينة بابل وزينتها بأنواع الزينة على مثال مدينة نينوى وبقدر اتساعها وبنت أسوارها بالآجر والقراميد وجعلت مونة البناء بمادة قطرية صلبة قفرية وجعلتها عريضة الاسوار بحيث يجرى بها ست عجلات متلاصقة تسير متوازية مع بعضها على حذاء واحد مع غاية

السرعة ويقال انها حفرت حولها خنادق عميقة وجعلت فوق الخنادق مائة قنطرة من النحاس كل قنطرة توصل الى بابل وعملت فوق بيوت المدينة بساتين معلقة جميلة الشكل تجرى بها المياه فى الغدران والجداول وتصل اليها من براج عجيبة بتدبير عجيب وجعلت فى المدينة الميادين الوسيعه والرحبات الفسيحه المغروسة بالاشجار من جميع الاقطار والجهات بحيث يمكن المسير فى المدينة من باب الى آخر من أبواب القناطر بدون أن يكون للشمس سلطنة على أحد ولا عظيم سلاطة للمطر لالتفاف الاشجار بعضها ببعض وتعريشها وكانت بابل على نهر الفرات على قول أغلب المؤرخين ونينوى على نهر الدجلة

فيفهم من هذا أن بانى بابل هى الملكة سميراميس وهو مخالف لكلام التوراة من أن البانى لها هو النمروذ مع ما بين زمانيهما من القرون العديده والدهور المديده ولعل هذه الملكة بنت مدينة على أطلال بابل وكانت قد خربت بمر الدهور وكر العصور أو بنت أخرى فى غير محلها وسمتها بهذا الاسم محاكاة للنمروذ وكان تحت يد هذه الملكة فى مملكة العراق من سواحل الشام وفلسطين الى نهر السند ببلاد الهند حتى ان عساكرها طردت عساكر مصر من تلك الجهات المشرقية التى كانت متغلبة عليها اذ ذاك وكانت كلما انتصرت بقوة شجاعتها زادت مطامعها فى الفتوحات ولشجاعتها وخفة حركتها سميت سميراميس يعنى الحمامة لانها تتردد لفتوح البلاد بل صار اسمها كاسماء الاجناس على كل ملكة اشتهرت بالشجاعة واقتحام الاخطار فى البلاد البعيدة لقصد الفتوح ولذلك يقال لكاترينه الثانية ملكة الموسقو سميراميس الشمال يعنى الجهات الشمالية ويقال أيضا لمرجريطه ملكة الدانيمرقه سميراميس الشمال أيضا لانها جمعت الممالك الثلاثه وهى مملكة أسوج ومملكة نروج ومملكة دانيمرقه وقد قلنا فيما سبق ان تلك الملكة كانت تحكم العراق والكردستان وما يتبعهما من الممالك الواسعة بالوصاية على ولدها نيناس لكونه قاصرا

وفى مدة وصايتها بنت أيضا فى بابل هيكل الشمس الذى داخله متخذ من الذهب وبنت أيضا عدة مدائن أخر وأرادت أن تتوغل فى بلاد الهند فسارت بجيش كبير فانتصر عليها ملك الهند وفرت مدبرة الى بلادها وكان ولدها قد بلغ رشده وتأهل لأن يحكم ممالكه بنفسه فتقلد زمام المملكة واستبد برأيه فأحبت أن تجذبه اليها وتدنو منه باستمالته اليها بجمالها وتشويقه الى وصالها فراودته عن نفسه حتى يصير الحكم فى يدها اذا استولت على قلبه فاستعاذ من الفجور وأبى الا النفور لاسيما وانه استشعر بأنها قتلت والده بالسم فسلك سبيل الانتقام وأذاق حمامته كاس الحمام

وكان

وكان ذلك قبل ميلاد عيسى بثلاثة عشر وألف ومائتين

وكان الملك نيناس قليل الطمع فى الفتوح فقنع بما تحت يده عن الطريف بالبلاد وانزوى فى قصره متنعما بأهل بيته بعيدا عن العباد ولم تعلم وقائع غريبة حصلت فى مملكة العراق وكردستان فى خلال ثمانمائة سنة حتى تسلطن عليها الملك سردنبال سنة سبعمائة وسبعة وستين قبل الميلاد فانهمك هذا الملك على اللذات والشهوات وأغار عليه أهل أذربيجان وحاصروه أشد المحاصرة فمن شدة المضايقة أحرق نفسه ونساءه فاستبد أهل أذربيجان بالحكم وخلعوا طاعة بابل ثم دخل أهل أذربيجان وبابل تحت مملكة العجم وكان حكماء البابليين يتقنون رصد الكواكب لكثرة الصحو وقلة الغيوم بهذه البلاد فصار لهم كمال الوقوف على العلوم الفلكية وهم الذين اخترعوا المزاول وتشبثوا بعلم التنجيم وزعموا معرفة حوادث الازمنة المستقبلة من أنواء النجوم وولع الناس بتقليدهم وتصديق أوهامهم الفاسدة التى يبطلها الشرع ويكذبها العقل فهل هذه الاشياء تعد من كبوات الاجياد وهفوات الامجاد أومن بدع الجاهلية الاولى الظاهرة الفساد وضلالات أهل الكساد والظاهر أن هذه الامة أضلتها الكواكب ضلالا مبينا حتى عبدوا الشمس وكانوا يعرفون الاله الحق يقينا فالتنجيم فن مذموم ولكن لا بأس بعلم النجوم فقد كانت العرب أشد عناية بمعرفة النجوم وقد قيل لاعرابى ما علمك بالنجوم قال من ذا الذى لا يعلم أجذاع بيته وقيل لاعرابية أتعرفين النجوم فقالت سبحان الله أما نعرف أشباحا وقوفا علينا كل ليلة

وبالجملة فكانت الفنون والعلوم والصنائع ببلاد العراق فى غاية التقدم وكان فيهم سوق التمدن نافقا فكانوا يتنافسون ويتفاخرون فى المطاعم والمشارب والزينة والزخرفة واشتد انهماكهم على اللذات والشهوات خصوصا لما تولى عليهم كيروش ملك العجم ففسدت أخلاقهم وانحل نظامهم وأما مصر المقارنة لبابل فقد تنزهت ملوكها عن مثل هذه الرذائل

فقد أجمع المؤرخون على ان مصر دون غيرها من الممالك عظم تمدنها وبلغ أهلها درجة عليا فى الفنون والمنافع العمومية فكيف لا وأن آثار التمدن وأماراته وعلاماته مكثت بمصر نحو ثلاثة وأربعين قرنا يشاهدها الوارد والمتردد ويعجب من حسنها الوافد والمتفرج مع تنوعها كل التنوع فجميع المبانى التى تدل على عظم ملوكها وسلاطينها هى من أقوى دلائل العظمة الملوكية وبراهينها فانظر الى آثار منف وأبنيتها وعجائبها وأصنامها ودفائنها مما يحكيه المؤرخون عنها وانها

مطلب
تسلطن الملك نيناس وأخذه زمام المملكة من امه

مطلب
تسلطن سردانبال على العراق وأحرق نفسه ونساءه

مطلب
دخول اذربيجان والعراق تحت مملكة الفرس

مطلب
ما تسبب عن تولية كيروش ملك العجم مملكة العراق

مطلب
ما كانت عليه مدينة منف فى الزمن القديم

كانت ثلاثين ميلا بيوتا متصلة وفيها بيت فرعون وهو قطعة واحدة من الحجر وسقفه وفرشه وحيطانه من الحجر الاخضر وكان لها سبعون بابا وهي مدينة المملكة المصرية وكانت منزل الملوك من القبط الاولى والعمالق ومسكن الفراعنة وما زال الملك بها الى أن ملك الروم اليونان ديار مصر فانتقل كرسي المملكة منها الى الاسكندرية ومع ذلك لم تزل عامرة الى أن جاء الاسلام ثم خربت وفيها كانت الانهار تجرى من تحت سرير الملك وكانت أربعة أنهار

ويقال ان ملوك الدنيا لو اجتمعوا واتفقوا على أن يصنعوا مثلها لما أمكنهم ذلك وكان فرعون اذا أراد الركوب من منف الى عين شمس صنع صاحب المرقب علامة فاذا رأى صاحب عين شمس تلك الاشارة تأهب لاستقباله وكذا يصنع اذا أراد الركوب من عين شمس الى منف لان كلا من المدينتين كان تخت المملكة ويقال انه كان بمنف قبة فيها صور ملوك الدنيا

مطلب دخول المأمون العباسي مصر

ولما دخل المأمون مصر في سنة سبع عشرة ومائتين وقد رأى مدينة منف أنشد الابيات الآتية

سألت أطلال مصر * عن عين شمس ومنف
فما أحارت جوابا * ولا أجابت بحرف
وفي السكوت جواب * لذي الفطانة يكفي

مطلب أساس التمدن

وهل علامات التمدن ودلائل العظم الا ثلاثة أشياء وهي حسن الادارة الملكية والسياسة العسكرية ومعرفة الالوهية فهذه الثلاثة أساس تمدن الممالك العدلية على العموم والمصريون من قديم الزمان كانوا منقادين للحكم الملوكي فكانوا مطيعين لملكهم وكان الملك منقادا أيضا لقوانين المملكة وأصولها فكانت حركاته وسكناته على طبق القوانين وكانت حكام مصر تذكر الملوك دائما بالحقوق والواجبات وتحثهم على التمسك بالفضائل الملوكية وتلعن من يصرفهم عنها من بطانة السوء وأهل النفاق وكانت الملوك في تلك الاوقات يشتغلون بمطالعة الحكم والآداب والمواعظ والتواريخ وكل ما يرشد الى العدل والاستقامة وكانت مصر منقسمة الى عمالات على كل عمالة حاكم وأراضيها مملوكة لثلاث طوائف منقسمة بينهم قسم للملك وقسم لامناء الدين وقسم للعساكر المحاربين وأما باقي الطوائف فكانت معايشهم من أعمالهم وصنائعهم فهذا التقسيم قوى شوكة أمناء الدين وجعلهم مختصين بممارسة العلوم وبتقنين القوانين الملكية وبنفوذ الكلمة في الحكومة

مطلب سياسة مصر في القديم

مطلب توزيع اراضي مصر على طوائف ثلاثة

مطلب السياسة العسكرية بمصر في القديم

وكانت مصر كثيرة الجنود والعساكر ولهم أصول تحملهم على الشجاعة فكان

العسكرى الذى يظهر الجلادة فى الحروب يعطى علامة الشرف والافتخار والذى يجبن عن الحرب أو يفر من الزحف يعاقب بوسمه بعلامة العيب والعار والافتضاح بحيث تكون السمة ظاهرة على بدنه تلو ثمو تدنسه بين أهل وطنه والظاهر أن اقطاع الاراضى للعساكر بين كانت سببا فى كثرة أموالهم ورفاهيتهم فترتب عليها فيما بعد فتور همتهم فى الحروب وترتب على ذلك أيضا بتداول الازمان عدم القدرة على مقاومة كل من كان يهجم على مصر من الامم الآن هذا لا يمنع من ان الادارة العسكرية كانت متقدمة عندهم بدليل ان الملك سيزوستريس جيش جيشا عظيما القصد سلب بلاد العراق والعجم والهند وفتوحها فسار اليها من طريق الشام فاستولى على بلاد فلسطين وفتح العراق والعجم والهند وبنى ببلاد العجم مدينة شلمينار التى سميت فيما بعد مدينة اصطخر وما ذاك الا بقوة عساكره وضبطهم وربطهم وأما الديانة عند المصريين فكانت أيضا مرتبة اذ كان أمناء دينهم يعتقدون ألوهية الذات العلية وكان لهم اسرار عجيبة فكانوا لا يظهرونها الا القليل من الناس وكانت العامة يعبدون الاوثان ومنشأ عبادتها عندهم انهم كانوا يؤلهون كل من اخترع أمرا غريبا من قانون أو علم أو فن فكانوا متقدمين فى الهندسة والمساحة والآلات الهندسية كعلم الجغرافيا والنجوم وكانت كتابتهم بالقلم القديم البربائى الذى كان يعرفه حكماؤهم وأمناء أديانهم فكان كالرموز بينهم فكانت علومهم سرية مخفية عن العوام حتى لما ظهرت الحروف الهجائية وانتشرت عندهم كما انتشرت فى الممالك لم تزل صحف العلوم المصرية ترسم بالقلم القديم البربائى

ومن اختراعاتهم العجيبة آلة الحراثة التى انتفع بها جنس البشر عموما حيث تقدمت الفلاحة وبه تولد التمدن بين جميع الناس مع اختراع السواقى والنواعير الهاما لهم من اللطيف الخبير فانها أساس لآلات السقى بأحسن تدبير وكانت الدولة المصرية تعرف قيمة العدل والانصاف وأنه الاصل فى سعادة الممالك فاتخبت من مدنها الثلاثة التى هى عين شمس ومنف وطيوه قضاة لتدبير أحوال المملكة وجعلتهم ارباب المشورة القضائية وكانوا ثلاثين قاضيا فكانت محكمتهم نافذة الحكم على غاية من الاحترام وكانت مصارفها على طرف الحكومة الملوكية وكان الملك يأخذ عليهم العهد أن لا يطاوعوه اذا أمرهم بشئ خارج عن الحد وكانت مذاكرة المجلس فى المصالح والقضايا والآراء تكتب بالقلم والمناقشات والمحاورات والمرافعات كذلك لئلا يختفى الحق بالفصاحة واللسن لما فى البيان من السحر وكان للحق صورة مجسمة فاذا ظهر الحق لاحد الخصمين رفع الرئيس الصورة بيده وأذن للحق ان يضع يده عليها اشارة الى أن القاضى

مطلب
ترتيب مجالس القضاة فى القديم

في الحقيقة ونفس الامر انما هو الحق فهو الحاكم الحقيقي

وكان في احكام المصريين عقاب الزناة شديدا جدا لكونه من الكبائر المضرة للامة فكانوا يجلدون الرجل ألف جلدة ويجدعون أنف المرأة وان من قدر على تخليص المقتول من القاتل بدون حق ولم يخلصه فجزاؤه القتل وانه لا تسلط للدائن على ذات المدين بل وفاء الدين محله اموال المدين لا شخصه وكانت قوانينهم تميل الى الحث على العمل وقطع عرق البطالة والغش والتدليس وغير ذلك من الموبقات وذلك انه يجب في آخر كل سنة التفحص عن احوال الاهالي فردا فردا فيسأل كل انسان عن مواد تعيشه ومن اين اكتسبها وكل من ظهر انه تعيش من وجه حرام فجزاؤه القتل وهذا القانون من وضع الملك امسيس فمن هذا يفهم تقدمهم في التمدن وأن ممالكهم في الأزمان السالفة كانت عادلة محترسة مستنيرة بالمعارف

مطلب المعاقبة على الذنوب عند قدماء المصريين

مطلب الفحص عن وجه التعيش

وقد دلت التواريخ أن دواوين حكومتها كان في غاية اللطف والتهذيب واستقامة الاخلاق والآداب وحفظ ناموس العرض والادب والحياء وكان على غاية من حفظ الرسوم الملوكية المعتبره والعوائد السلطانية المقرره وقد قامت البراهين والدلائل على استمرار أبهة التمدن على تعاقب القرون الكثيرة في أيام الملوك الاوائل ومما يعضد ما قاله المؤرخون واستكشفه الحكماء الراسخون قصة يوسف عليه السلام فان مضمونها الفصل القول أحد من الحسام كما سنبينه في الفصل الثاني من الباب الثالث من ذكر هذه القصة الصديقية التي يستنتج منها في هذا المعنى معارف تصورية وتصديقية

الفصل الثاني

في تأييد تقدم مصر وامتيازها بالمعارف في الزمن القديم أخذا من قصة القائل اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم

كان يعقوب عليه السلام قد ولد في زمن جده ابراهيم ونبئ في زمانه أيضا وتزوج زوجتين اختين احداهما بعد الاخرى فولدت له الثانية يوسف عليه السلام وبنيامين وماتت في نفاس بنيامين وكانت الاولى ولدت منه ستة أولاد ثم تزوج بعد الثانية التي ماتت زوجة أخرى ورزق منها أربعة فكان اولاد يعقوب اثنى عشر وهم الاسباط وكان أحب اولاده اليه يوسف فحسده اخوته فاحتالوا عليه فقالوا يا يوسف أما تشتاق ان تخرج معنا فنلعب ونتصيد فقال بلى قالوا فسل أباك أن يرسلك معنا فاستأذنه فاذن له فلما خرجوا الى الصحراء أظهروا له ما في أنفسهم من العداوة فتفطن لما عزموا عليه فأخذه أخوه روبيل الذي هو ابن خالته أيضا فضرب به الارض وجلس على صدره

مطلب حسد اخوة يوسف لاخيهم وما ترتب على ذلك

ليقتله وقال ليوسف قل لرؤياك تخلصك وكان قد رأى وهو ابن سبع سنين الشمس والقمر والنجوم ساجدين له فصاح على أخيه الآخر يهوذا وقال حل بينى وبين من يريد قتلى فقال يهوذا ألقوه فى غيابة الجب فنزعوا قميصه لالقائه فقال ردوه على أستر به عورتى ويكون كفنا لى فى مماتى فلما ألقوه استقرت قدماه على حجر مرتفع من الماء وذبح اخوته جديا فلطخوا به القميص وقالوا أكله الذئب ومكث فى الجب ثلاثة أيام واخوته يرعون حوله ويهوذا يأتيه بالقوت فلما جاءت السيارة الذين حضروا من مدين الى مصر بالتجارة وكانت بضائعهم من الصمغ لتصبير الاموات فجعلت تستقى من الجب بدون التفات تعلق يوسف بالحبل فأخرجوه فجاء اخوة يوسف فقالوا هذا عبد أبق منا فباعوه منهم بعشرين درهم وحلة ونعلين فحملوه الى مصر وجاؤا به الى مدينة منف فوقفوه للبيع فتزايد الناس فى ثمنه فاشتراه قطفير وكان أمين ملكهم وخازنه وقال لامرأته زليخا اكرمى مثواه وكان يوسف عليه السلام حسن الخلق والخلق كامل الفطنة عظيم القيافه يتوسم فيه الخير من رآه أحبه حتى ظهرت منه أمارات الامانة والصدق فامتاز فى بيت العزيز بكمال التميز فراودته امرأة العزيز عن نفسه فعصم منها فترتب على ذلك سجنه وأحبه أيضا من كان معه فى السجن كصاحب طعام الملك وصاحب شرابه وعبر لهما رؤياهما وبقى مسجونا الى حين منام الملك فعفا عنه بعد سجنه بضع سنين فلما أخرجه من السجن فوض اليه أمر مصر وجعله أمينا حفيظا على خزائن ملكه

ولما تقلد يوسف عليه السلام منصبه وأراد أن يذهب الى ديوانه حلق رأسه وتجمل بالثياب النفيسة وأخذ طراز الرتبة وعنوانها وعقد له موكب جليل وحين تمكنه من منصبه مر على أقاليم المملكة المتعلقة بامارته وزوجه فرعون مصر بزوج من أعظم العائلات وهى ابنة ملك عين شمس فامتلأت الخزائن من الاقوات فى زمن الرخاء لتنفع فى زمن القحط وصار تدبيرها وادارتها على أحسن حال وأتم منوال

مطلب تدبير يوسف لغلال مصر وحفظ الحب فى سنبله

ومن أعجب ما صنعه طريقة حفظ البر فى سنبله فقد دام وبقى بهذه الوسيلة محفوظا من آفات الانفساد حتى ان بعض الفراعنة أمر بحفظ القمح بذلك بعد عهد يوسف بمائتى سنة ولما حفظ يوسف الاقوات فى أيامه وباعها فى زمن القحط كان بيعها بأغلى ما يكون من القيم فكان يبيع مكيال البر بمكيال من الدر فاشترى أهل مصر بأموالهم وحليهم ومواشيهم وعقارهم وعبيدهم ثم بأولادهم ثم برقابهم وكان يوسف عليه السلام لا يشبع فى تلك الايام ويقول أخاف أن أنسى الجائع وبلغ القحط الى كنعان فارسل يعقوب ولده للميرة وقال يا بنى قد بلغنى أن بمصر ملكا صالحا فانطلقوا اليه فاقرؤه منى

السلام فمضوا فدخلوا على يوسف فعرفهم وأنكروه فقال من أين أنتم فقالوا من أرض كنعان ولنا شيخ يقال له يعقوب وهو يقرئك السلام فبكى وعصر عينيه وقال لعلكم جواسيس فقالوا لا والله قال فكم أنتم قالوا أحد عشر وكنا اثنى عشر فأكل احدنا الذئب فقال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ثم درج بضاعتهم فى رحالهم فعادوا الى أبيهم فقالوا انا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل فقال يعقوب هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل ثم حمله احتياجه الى الطعام على أن أرسله معهم فلما دخلوا على يوسف أجلس كل اثنين على مائدة فبقى بنيامين شقيق يوسف وحيدا يبكى وقال لو كان أخى حيا لاجلسنى معه فاعتنقه يوسف وقال أنا أخوك ثم احتال عليه فوضع الصاع فى رحله فلما لم يقدروا على خلاصه أقام ورجعوا الى يعقوب يقولون ان ابنك سرق فتلقاهم بصبر جميل ثم قال لبنيه اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه فلما عادوا اليه ببضاعة مزجاة وقفوا موقف الذل وقالوا تصدق علينا فقال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وكشف الحجاب عن نفسه فعرفوه فقالوا أئنك لانت يوسف فقال أنا يوسف وهذا أخى فقالوا تالله لقد آثرك الله علينا أى اختارك وفضلك وكان قد فضل عليهم بالحسن والعقل والحلم والصبر وغير ذلك وان كنا لخاطئين أى لمذنبين آثمين فى أمرك قال لا تثريب عليكم اليوم أى لا أعيركم بما صنعتم ثم سألهم عن أبيه فقالوا اذهبت عيناه فأعطاهم قميصه وقال اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا فلما خرجوا من مصر حمل القميص يهوذا وقال أنا حملت قميص الدم وها أنا أحمل قميص البشارة فخرج حافيا حاسرا يعدو فقال يعقوب لمن حضر من أهله وولد ولده انى لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون أى لولا أن تنكروا على لاخبرتكم انه حى فلما ان جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ثم خرج يريد مصر فى نحو سبعين من أهله وخرج يوسف لتلقيه فلما التقيا قال يعقوب السلام عليك يا مذهب الاحزان فقال يوسف بكيت يا أبى حتى ذهب بصرك أما علمت ان القيامة تجمعنى واياك فقال يا بنى خشيت ان يسلب دينك فلا نجتمع وأقام يعقوب عند يوسف أربعا وعشرين سنة فى أهنأ عيش فلما حضرته الوفاة أوصى الى يوسف ان يحمله الى الشام حتى يدفنه عند أبيه اسحق ففعل ثم ان يوسف عليه السلام رأى ان أمره قد تم فقال توفنى مسلما والحقنى بالصالحين وأوصى الى يهوذا فهذا ما آل القصة التى قصها الله سبحانه وتعالى فى سورة يوسف بفصيح العبارات البالغة حد الاعجاز وبليغ المعانى المفيدة لبديع النكات مع مراعاة الحال لما يقتضيه مقام البسط أو الايجاز ولذلك قال سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام نحن نقص عليك أحسن القصص وذلك لما فيه من العبر والنكت والعجائب فان من الفوائد

مطلب تعرف اخوة يوسف

مطلب ذهاب البشير بقميص يوسف الى أبيه

مطلب
سبب نزول سورة يوسف عليه السلام

مطلب
استنباط علو درجة مصر من قصة يوسف

التى فى هذه القصة انه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدره تعالى وأنه اذا قضى للانسان بخير ومكرمة فلو اجتمع عليه العالم لم يقدروا على دفعه (وقد روى) ان سبب نزول ذلك ان علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فأنزل الله تعالى الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون الآيات وذكر فيها انه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها ويقدروا على تحصيل المعرفة بها والتقدير انا أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف فى حال كونه قرآنا عربيا فسمى بعض القرآن قرآنا لان القرآن يقع على البعض والكل ومن قصته هذه يفهم علو درجة مصر التى قضى الله سبحانه وتعالى بانتقاله اليها لعلو مرتبته فيها حتى انه عليه السلام لما قدم أبوه وسأله عما صنع به اخوته قال سائنى عما فعل بى ربى وأخذ بيده وطاف به فى خزائنه فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح وخزائن القراطيس وكان يوسف يركب فى كل شهر ركبة يمر بها على عماله ويدور فيه فينصف المظلوم من الظالم ولا يركب الا فى عدد كثير من الجند والالوية ومعه ألف سياف ولم يكن معه حكم مصر كله بل بعضه لانه على ما يقال ان طيوة بصعيد مصر كانت مملكة مستبدة عليها ملك آخر يدل على ذلك آية رب قد آتيتنى من الملك أى بعض ملك مصر كما أشار له بعض المفسرين فالبلدة التى خزائنها وعساكرها بهذه المثابة لا تكون الا عظيمة الشوكة والثروة والتنظيم والتعظيم وهو عين التمدن وان تأملت حق التأمل فى مبدإ أمر يوسف عليه السلام من اقتصار العزيز على سجنه وصبره عليه فى السجن وعدم المبادرة عليه بالانتقام مع أنه مملوك للعزيز خازن فرعون مصر علمت أن الدولة المصرية لم تكن أمة خشنية تستعجل بالقتل لغلام مستقيم فطن بل كانت أمورها تجرى على منهج الاستقامة

ويستدل بهذا أيضا على أن قوانين معاملة الخدم والرقيق كانت عادلة لا يسوغ فيها للسيد الذى أساء عبده كل الاساءة أن ينتصف منه لنفسه كما يحب ويختار فهذا يفيد أن الملة كانت متمدنة وأما سجن يوسف عليه السلام مع صاحب طعام الملك وصاحب شرابه فيدل على أن فرعون كان له كبراء أصحاب مناصب لقصره كما فى الدول المتمدنة وأنهما اتهما بالخيانة الملوكية يعنى بارادة سم الملك وأن فرعون غضب عليهما حين اتهمهما وأمر بسجنهما لحين تحقيق دعواهما فلما تبين له ان أحدهما مذنب بما يوجب القتل قتله وان الآخر برىء فرج عنه فعاد الى منصبه كما أن يوسف أيضا لما علمت براءته ارتقى الى ما ارتقى اليه من العزازة

فمنه يعلم أنه كان بمصر اذ ذاك أحكام عادلة وقوانين مرتبة وحدود مشروعة خالية

عن الاغراض والنفسانيات وهى نتيجة التمدن التام وقد دلت التواريخ الاثرية على أنه كان لفرعون يوسف كل سنة عيد عظيم لمولده وأن هذا العيد كان يعمل فى ميعاده فى القصر الملوكى بأكمل ما يكون من الاحتفال الكامل والرسوم الجليلة فهذا يدل أيضا على جودة التمدن وطول مدته فى مصر قديما حتى ان رسوم المملكة كان يحافظ عليها و يتمسك بها بدون تسامح ولا تساهل فان يوسف عليه السلام لما مات يعقوب وحزن عليه حزن بنى اسرائيل اجتنب أن يمثل بين يدى فرعون واحترس كل الاحتراس أن يدخل فى ديوانه بزى الحزن ولم يستطع أن يخالف الرسوم المعهودة فكانت رسوم ديوان فرعون وآدابه وأخلاقه معلومة علم يقين دل عليه التوراة فهى مبنية على النقل المتواتر والسماع المستفيض فلا يشك فيها ومن المعلوم انه لا يتصف بهذه الآداب الرسمية الا الجمعية المتقدمة فى المعارف فلا شك ان جميع ما كان فى الدول المتأخرة المتمدنة من حسن الاخلاق والعوائد كان موجودا نظيره عند دولة مصر القديمة فى أيام زهوها فليس التمدن من خصوصيات الازمان الاخيرة وانما ذوقيات التمدن مختلفة بما يلايم طباع الوقت ويطابق مقتضى الحال فلا يبعد على مصر فى هذا العصر أن تستجلب السعاده وتكتسب من القوة الملية الحسنى وزياده وتتحصل من من وسائل الغنى على مقاصد الافادة والاستفاده لان بنية اجسام أهل هذه الازمان هى عين بنية أهل الزمان الذى مضى وفات والقرائح واحدة ووسائل هذا العصر الاخير متسعة ومتنوعة فلا شك انها مساعدة على اكتساب المنفعة لمن يريد حقيقتها وأعظم وسائلها رخصة الاخذ والاعطاء داخلا وخارجا وكمال الاتحاد مع الممالك الاجنبية فى المعاهدات التجاريه العائدة بالمنافع العامة على الوطنيه كما فعل ملك مصر ابسميتكوس الاول ابن نخوس ملك مصر من جلب الاجانب فى مملكته كما سيأتى فى الفصل الثالث من الباب الثالث

مطلب كيفية عيد فرعون السنوى ودلالته على التمدن

الفصل الثالث

فى أن أعظم وسائل تقدم الوطن فى المنافع العمومية رخصة المعاملة مع أهالى الممالك الاجنبية واعتبارهم فى الوطن كالاهلية

من المعلوم ان ممن أسس فى مملكة مصر السعادة والسيادة والامنيه وحفظ حقوق الرعيه هو الملك رمسيس الذى اشتهر باسم سيزستريس وهو الذى شيد فى مصر القصور الشامخه والهياكل السامية المنافسة للاطواد الراسخه واتخذ ما يلزم للوطن من من الجسور والقناطر والخلجان ورفع الاراضى المنخفضة المعرضة للغرق عند زيادة

النيل

النيل واستبدال المدن المنخفضة من محالها ببنائها على الربى العالية لسلامة البلاد والعباد ولم يفارق الدنيا حتى ترك مصر على غاية من الثروة والغنى والسعادة والهنا وكل انسان شاكر لفعاله وعلى تداول الازمان لازال التاريخ يثنى على شمائله وجميل خصاله الا أنه هو ومن قبله وأكثر من بعده من الملوك لم يحصل منهم كما حصل من الملك ابسامبطيقوس الاول من مساعدة التجارة داخلا وخارجا فان سعادة الاهالى انما هى بالاخذ والاعطاء والتنقلات الملكية

مطلب
مساعدة الملك ابسامبطيقوس ملك مصر للتجارة داخلا وخارجا

فكان هذا الملك فى الحقيقة فخر الدولة المصرية فى الازمان الجاهلية ومصباح تاريخها اعتنى بتاريخه مؤرخو اليونان لانه أول ملك مصرى قربهم الى بلاده واستمال قلوبهم بتوظيفهم برياسة أجناده وخالف عوائد أسلافه وعامل يونان آسيا واوروبا بأخص استعطافه وأقطعهم الاقطاعات من الاراضى المصريه وسوى فى الحقوق بينهم وبين الجنود الوطنيه وجعلهم من المقربين فى المعيه وأعطاهم جملة من الغلمان المصريين لتعلم اللغة الاغريقيه ليكونوا مترجمين بينهم وبين المصريين ففى أيامه انتشرت معرفة اللغة اليونانية وبواسطتها كثرت التجارات والمعاملات والمخالطات وتأسس بالقطر المصرى العمائر التجاريه فكانت هذه أول مرة تكلم فيها اليونان بلسانهم فى غير بلادهم ولما رأى ما رأى من صداقتهم ومساعدتهم وسع لهم فى المعاش وأغدق عليهم غاية الاغداق وسواهم بجنده فكانت منفعتهم جسيمة

مطلب
فتح الملك أماسيس ثغور مصر للاجانب واحسان مثواهم لاسعاد رعيته بالثروة والغنى

وممن فتح لليونان ثغور مصر وأبوابها من ملوكها الملك أمسوس ويقال له أماسيس فانه كان قوى الفطانة جيد القريحه حسن التدبير لم تسعد مصر فى أيام غيره كسعادتها فى أيامه الهنيه ولم تخصب بالنيل بخصبها فى أيام دولته العدليه حتى قيل ولوانه من المبالغات التاريخيه ان مدن مصر وقراها بلغت فى عهده عشرين ألف مدينة وقريه وكلها غنية مثريه وجل أسباب ثروتها التجارات العظيمة لاسيما مع اليونانيين فانهم اذ ذاك كانوا أرباب التجارة والصناعة واتسعت دائرتهم فى ذلك من مخالطة المصريين فقد شملتهم أنظار هذا الملك الخصوصيه حيث أحسن مثواهم ورخص لهم الاستيطان بالديار المصريه بمدينة نقراطيس التى يقال ان محلها الآن فوة وقيل غيرها

وكانت هذه المدينة دون غيرها مخصوصة بان يرسى عليها سفن الدول الاجنبية وقد أباح هذا الملك للغرباء أن يتمسكوا فى مصر بأصول دياناتهم وأنعم عليهم بأراض مخصوصة ليبنوا فيها معابدهم وهياكلهم ومذابحهم ومحاريبهم على اختلاف مللهم وأديانهم ومذاهبهم وعقد مع دولة أثينا أى مدينة حكماء اليونان معاهدات وعقد أيضا معاهدات أخرى مع دول أخرى كدولة القيروان بالمغرب وكان له مخاطبات ومراسلات متواترة

مع الملوك الاجانب كملك جزيرة صيصام احدى جزائر الروم الكبيرة فان التاريخ قد حفظ نصيحته لملك الجزيرة المذكورة ومضمونها الاتأمن صروف الزمان وتفكر فى نوائب الحدثان واعص النفس فى اتباع هواها وخالفها ولا تبلغها مناها فلما قرأ ملك صيصام البطاقه عزم أن يزهد فى الدنيا حسب الطاقه وكان باصبعه خاتم جوهر نفيس عظيم القيمة لا يؤثر عليه من زينة الدنيا شيأ ولكن وقعت بقلبه موعظة الملك اماسيس أعظم موقع فنزعه من اصبعه وألقاه فى اليم وعزم على ترك الزينة وصمم ولكن لما كان جد هذا الملك قائما والسعد له خادما رد الله عليه هذا الخاتم فى بطن حوت سعى به اليه صياد من البحر قادم ففهم من ذلك أن الاشياء بخوت وسعود وأن خاتم الملك وان زهد فيه فهو اليه مردود وتاج السعادة على مفرقه معقود

مطلب نصيحة الملك أماسيس لملك جزيرة صيصام

مطلب مساعدة البخت للانسان وما قيل فى البخت والحظ

قال الشاعر

البخت افضل ما يؤتى الفتى فاذا * ما فاته البخت لا ينفك يتضع
يكفيك فى البخت تيسير الامور وان * يكون ما لبس ترضى عنك يندفع

والحظ أجدى لصاحبه من الحجى وأهدى فى طرق مأربه من نجوم الدجى ومن لطائف المطبوع فى هذا الباب قول محمد بن شرف القيروانى

اذا صحب الفتى جد وسعد * تحامته المكاره والخطوب
ووافاه الحبيب بغير وعد * طفيليا وقاد له الرقيب

ويقال اذا أقبل سعد المرء فالاقدار تسعده والاوطار تساعده واذا أدبر فالايام تعاديه والنحوس تراوحه وتغاديه قال عبد العزيز بن نباتة

الا فاخش ما ترجو وجدك هابط * ولا تخش ما تخشى وجدك رافع
فلا نافع الامع النحس ضائر * ولا ضائر الامع السعد نافع

واعلم ان كمال العقل وسوء الحظ كالعلة والمعلول لا ينفك احدهما عن الآخر كما ان قلة العقل وكمال الحظ متلازمان ويصحبهما الجهل والحمق قال ابن المعتز

وحلاوة الدنيا لجاهلها * ومرارة الدنيا لمن عقلا

وقال ابو الطيب

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله * واخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

وقال القاضى الفاضل

ما ضر جهل الجاهليـ * ـن ولا انتفعت انا بحذقى
وزيادتى فى الحذق فهـ * ـى زيادة فى نقص رزقى

وقال شمس الدين الحكيم ابن دانيال

قد عقلنا والعقل أي وثاق * وصبرنا والصبر مر المذاق
كل من كان فاضلا كان مثلي * فاضلا عند قسمة الارزاق

وقال ابو تمام

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد * ولا المجد في كف امرئ والدراهم

ومن عدم تعليل الحظ قول ابي الطيب

هو الحظ حتى تفضل العين أختها * وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

وعلى هذا فيجب على العاقل التسليم في جميع الامور وتلقي المقادير بالرضا والقبول كما قال

تبارك من أجرى الامور بحكمة * كما شاء لا ظلما أراد ولا هضما
فما للشئ غير ما الله شاءه * فان شئت طب نفسا وان شئت مت غما

فاذا علمت أن قسمة الحظوظ في سابق الازل لحكمة يعلمها لا تبديل ولا تغيير في ذلك وسلمت الامر لمولاك الفاعل المختار المتصرف في ملكه كيف يشاء بالاختيار فلا عتاب ولا ملامه قال من عرف الله ازال التهمه وقال كل فعله لحكمه وان ارزاق العباد قسمه تحصل بالتقدير لا بالهمه كما قيل

مثل الرزق الذي تطلبه * مثل الظل الذي يمشي معك
انت لا تدركه متبعا * فاذا وليت عنه تبعك

وقال آخر

هون عليك وكن بربك واثقا * فأخو التوكل شأنه التهوين
طرح الاذى عن نفسه في رزقه * لما تيقن انه مضمون

ومما يناسب ذلك ما يحكى عن عروة بن أذينة انه وفد على هشام بن عبد الملك فشكى اليه حاجته فقال له ألست القائل

لقد علمت وما الاسراف من خلقي * ان الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى اليه فيعييني تطلبه * ولو قعدت أتاني ليس يعييني

وقد جئت من الحجاز الى الشام في طلب الرزق فقال يا أمير المؤمنين لقد وعظت فأبلغت وخرج فركب ناقته وكر الى الحجاز راجعا فلما كان من الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال في نفسه رجل من قريش قال حكمة ووفد علي فجبهته ورددته خائبا فلما أصبح وجه اليه بألفي دينار فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة واعطاه المال فقال أبلغ أمير المؤمنين مني السلام وقل له كيف رأيت قولي سعيت فأكديت فرجعت فأتاني رزقي في منزلي ولا يتعجب من بليغ نصيحة أماسيس ووعظه فانه كان بينه وبين سولون

حكيم أثينا مراسلات لاقتباس الحكمة اليونانية والمعارف التى تكسب الفضائل فاقتبس من حكمه وفضائله وقوانينه ماتميز به عن غيره من الملوك السابقين

وكان سولون المذكور فى مملكة أثينا من ذوى البيوت اكتسب من السياحة فى البلاد ماصيره فريد زمانه فى الحكمة والتدبير والسياسة وكان ممن دخل مصر من الفلاسفة فعاد الى مملكة أثينا فوجدها مختلة النظام منحلة الاحكام فالتمسوا أن يجعلوه ملكا عليهم وكانوا جمهورية فلم يرض أن يلبس التاج الملوكى ويتسلطن على بلاده وانما اقتصر على تنظيم الجمهورية وأنشأ سولون قوانين داخلية منها أن من ثبت عليه من الاهالى انه لم يشتغل بحرفة ولا صنعة بعد المرافعة معه ثلاث مرات وهو مصر على البطالة فانه يفضح على رؤس الاشهاد وكذلك كل ولد اشتغل بصنعة وسلك مسلك التبذير فى أمواله فانه يفضح على رؤس الاشهاد أيضا وان الولد الذى لا يقوم بمؤنة أبويه العاجزين عن الكسب فانه يعاقب بذلك العقاب ولا يعاقب بهذه العقوبة الوالد اذا بخل بالانفاق على ولده

مطلب مناقب سولون الحكيم اليونانى وقوانينه

ومن قوانينه انه لا يجب على المرأة عند الزواج أن تجهز زوجها بأكثر من ثلاثة أثواب وبمتاع قليل الثمن لان تكليفها أكثر من ذلك ربما عاد بالفاقة على أهل الزوجة وأن من اجتمع من الرجال بالنساء المتبرجات وعاشرهن لا يسوغ أن يكون من أعضاء مشورة الجمهورية أبدا لانه لا يؤتمن على مصلحة الاهالى وأن من ثبت عليه من أرباب المشورة السكر فانه يعاقب بالقتل وأن المدين لا يجوز حبسه وان من لم يكن له ذرية فله أن يوصى بجميع أمواله قبيل وفاته وأن من مات فى الحرب وله ذرية فان الوصى على ذريته الحكومة فهى الكافلة والمسؤلة عن أفعالهم والمطالبة بتربيتهم واصلاح أحوالهم وشؤنهم وانه يجب الاقتصاد فى المصارف التى تنفق فى الجنائز والاحتفالات الدينية بقدر الامكان وأن تدخل الغرباء البلاد اليونانية ولكن لا يسوغ تداخلهم فى مناصب الحكومة

فلما كان سولون معدودا من المشرعين والمقننين اقتبس منه أماسيس بعض قوانين وقد تقدم فى الفصل الاول من هذا الباب الثالث أن أماسيس أوجب التفحص عن معيشة الانسان وكسبه من الحلال وأنه كان يحكم بالقتل على من يكتسب من الحرام فلا شك انه التمس ذلك من مخالطة اليونان فالمخالطة مغناطيس المنافع فهى تساوى حركة العمل فى ذلك وكلاهما لا يستغنى عن الحرية والرخصة ومنبع الجميع وكسب المعارف العموميه والمحبة الوطنيه التى يترتب عليها اجتماع القلوب والتعاون فى إبلاغ الوطن المطلوب فمخالطة الاغراب لاسيما اذا كانوا من

أولى

أولى الالباب تجلب للاوطان من المنافع العموميـة العجب العجاب ولو كانت مترتبـة عن ظواهر التغلب والاغتصاب فربما صحت الاجسام بالعلل ولذضرب لك المثل فى فتوح اسكندر لمصر فى الايام الاول فقد ترتب على فتوحه فى تلك الايام اعادة قديم بهجة مصر بعد ان دمرها حكم الاعجام حيث واسى أهلها وراعى عوائدهم وأباح عقائدهم وساسهم بأحسن ما يمكن من السياسة والعدل فى الاحكام

الفصل الرابع

فيما ترتب على فتوح اسكندر الرومى للديار المصريه من اتساع دائرة المنافع العموميه الناتجة عن مقدمات الحزم والكياسه وشرطيات أشكال العدل فى التدبير والسياسه

من المقرر عند أرباب العقول أن أقوى شئ فى حفظ البلاد وراحة العباد وتوسيع دائرة المنافع العموميـه وتأسيس قواعد تمدن الوطنيه انما هو مراعاة عوائد الاهالى واباحة تمسكهم بعقائدهم وعدم منعهم حسب الامكان عما لا يستطيعون مفارقته من مألوفاتهم المأذونة والمحافظة على ارضاء خواطرهم ولو للفاتح المتغلب والمغير المغتصب فان اسكندر الرومى بحسن سياسته وكمال كياسته تغلب على بلاد العجم التى أسسها كيروش وسلفه بعد ثلاث حروب عظيمة ففتح هذه البلاد الواسعة الاطراف والاكناف باستقامة تدبيره وحسن سلوكه مع أهاليها وتطييب خواطرهم وحفظ عوائدهم وشرائعهم حتى صار فتوحه للبلاد المشرقيـة زمنا تؤرخ به الوقائع والحوادث فلم يكن فتوحه كفتوح سلفه من اليونان ولا غيرهم من أهل العراق والكردستان ولا كفتوح العجم اذ كانوا جميعا يدمرون البلاد ويهلكون الامم واما اسكندر فكان كلما فتح مملكة أسس فيها وجدد وبنى وشيد ووطأ ومهد ومدن المدائن وأكثر الاموال فى الخزائن وأوجد وسائل العمران وأحيا قلوب أهالى البلدان وكان من تقدمه من أصحاب الخروج والفتوحات اذا فتح مدينة أو مملكة عرض أهلها المخالفين له فى الاحكام والعقائد للمهلكة فأغضب جميع الاهالى بسوء سلوكه فسلك اسكندر مسلكا غير ما سلكه الفاتحون قبله من سلاطين ذلك العصر وملوكه فكان يرخص فى كل اقليم فتحه ابقاء الاهالى على عوائدهم القديمه وربما وافقهم على التمسك باتباعها فى عمل خاصة نفسه ولو لم تكن بحسب رايه مستقيمه وذلك لمجرد ايناس نفوسهم وتوطينهم على حب حكومته وتأنيسهم فكان مشايخ قواده وأمرائه يشعرون عليه بنسخ دين ما يفتحه من البلاد وعدم

مطلب
سلوك اسكندر فى البلاد المفتتحة له مسلكا يباين مسلك الفاتحين

ابقائه فلا يسمع مقالهم حتى ان تمادى به على ذلك أغضب أبطالهم فلم يبطل شيأ فيما فتحه من البلدان من أحكام الشرائع والاديان وقصد بذلك تحيز أغراضه الصلحيه وايجاد الوحدة لسلطنته الفتوحيه فجعل أجناس الامم فى جميع الاقطار المفتوحه ممتزجة كأمة واحدة أو كجسد واحد وجعل حرية التمسك بالشرائع روحه وصمم على أن تكون أمم سلطنته كعشيرة واحده ودائرة مملكه وطنا مركزيا وجميع الاهالى خطوطا شعاعية منبعثة من المركز الى المحيط ولم تساعده المقادير حيث الأمل طويل والعمر قصير

مطلب
تمزيج اسكندر للامم المختلفة والتاليف لسائر من تحت حكمه من الملل

ولنذكر نبذة موجزة من تاريخه فنقول هو اسكندر بن فليبش المقدونى تولى أبوه على مقدونيا جهة اقليم روم ايلى فرتب المملكة ونظمها ثم عزم على تحصيل مقاصد مهمة من أعظمها ترتيب العساكر والقوانين واخترع كيفية فى صف العساكر يقال لها الكردوس على هيئة المثلث فكانت مرهبة فى ذلك الوقت كارهاب شكل القلعة المربع الذى عليه العمل فى الحروب فى هذا العهد وجعل الكردوس نحو سبعة آلاف نفر وقسمها الى ستة عشر صفا بعضها وراء بعض وأسلحهم بحراب طوال جدا حتى ان حراب الصف الاخير كانت تصل الى الصف الاول فصار وابهذه الهيئة مهيبين لا يستطيع العدو أن يظفر بهم

مطلب
نسب اسكندر وولاية ابيه ومارتبه أبوه فى العسكرية

وكان يعامل العساكر بالرفق واللين ويدعوهم بالاصحاب ويعلمهم قواعد الحرب والقتال وكان حسن سياسته بقدر كمال شجاعته وقوة ذكائه وفطنته فتوصل بذلك كله للاستيلاء على جميع اليونان فأحبه الجميع وأطاعوه فأداه طمعه فى الفخار وحب الاشتهار الى أمر عظيم لا يمكن لغيره الاقدام عليه وهو أنه قصد محاربة العجم ظنا منه انه يظفر بمملكتهم وطلب من جميع امم اليونان أن يكونوا معه فى ذلك فتلقوا ذلك بالقبول وجدوه على هذا المقصد الحسن وقلدنفسه رياسة الجيوش الحربيه

مطلب
قصد فليبش حرب العجم وحمل أمم اليونان على المساعدة

وكان قد استشار الكهنة فى ذلك على حسب عادة اليونان فأجابوه بكلام متشابه واقوال مبهمة محتملة لمعان متعددة حيث قالوا البس الثور التاج والاكليل ودنا أجله فهو ذبيح عما قليل فحمل ذلك على ملك العجم فبينما هو يصنع عرس الزواج بنته اذ قتله بعض الامراء فمات لوقته وكان قد رزق ابنه اسكندر الذى شب فى حياته وأينع نضير غصنه فى حدائق العز وروضاته فعزم على أن يعلمه العلوم والمعارف فرأى انه لا ينجب الا اذا أعطاه لاعظم حكماء زمانه فلم يجد أفضل من أرسطاطاليس فكتب له جوابا مضمونه قد رزقنى الله بولد فحمدته واثنيت عليه لاسيما انه أعطانى اياه فى زمنك فالمرجو أن تجتهد فى تعليمه وحسن تربيته ليكون أهلا لان يخلفنى على مقدونيا فامتثل الحكيم أمره

مطلب
قتل فليبش فى عرس ابنته

مطلب
تربية ارسطاطاليس لاسكندر

فهذب أخلاق اسكندر وجعله اهلا للامرة فكان اسكندر فى أيام شبوبيته تلوح على وجهه بشائر الخير العميم مع ما تعلمه من أبيه ومن استاذه من أنواع التعليم فقد أخذ عن معلمه ماله دخل فى رياضة ذهنه وتنوير عقله بأنوار معرفة الاخلاق والآداب ومآثر التواريخ التى هى مرآة أفعال الملوك الماضين ينظر فيها المتأخر حسنات أو سيئات السابقين

مطلب
ثمرة التاريخ للملوك

قال بعض المؤرخين لو فرضنا ان التاريخ غير نافع للآحاد فلا يستغنى عنه أحد من ملوك الدنيا الذين ولاهم الله رقاب العباد فانهم يطلعون فيه على ما سولته الانفس والشهوات واقتضته المنافع بحسب الاحوال والاوقات وينظرون فيه وقائع الازمنة والامكنه والاحوال الظنية والمتيقنه والآراء الصائبه والاهواء الكاذبه وهل التاريخ الا أفعالهم السياسيه وأشغالهم الرياسيه فرجع أمورهم اليه ومدار عملهم عليه فانه مشتمل على التجاريب وهى لازمة لهم فى حزمهم واجراء أحكامهم على وجه مصيب فاذا رأوا فى التاريخ ما يمدح تبعوه أو ما يذم هجروه واجتنبوه فبذلك أضافوا اليه تجاريبهم المستفاده وانتفعوا بالاصل والزياده فينبغى لهم أن يتشبثوا بذلك ويتركوا ما اعتادوا عليه من سلوك أقرب المسالك من الاقتصار على الامور الوقتيه التى تستنتج من أحوال الرعيه أو تستمد عنها مفاخرهم الذاتية الهوائيه فيقعون فى الحيره لعدم استنارة البصيره فاذا استعانوا بالتاريخ أصلحوا عقولهم بالتجاريب ولم يقعوا فى مضار الحوادث الماضية ولم يأخذوا منها بنصيب واذا اطلعوا فى الوقائع التاريخيه على ما وقع لغيرهم من العيوب الخفيه التى يمدح عليها الملوك فى حال حياتهم من أهل النفاق وتبقى ملونة لصحفهم التاريخية التى تسير بها الركبان فى جميع الآفاق اتعظوا بذلك واعتبروا كل الاعتبار فاذا تملق اليهم المتملقون وتذكروا ما اغتر به فى مثل ذلك السابقون خجلوا من فرحهم بباطل المديح ورجعوا فى العمل للرأى الرجيح وأيقنوا أن الفخر الحقيقى لا تستحقه الملوك الا بالفضائل المأثورة للخلف وأن عاقبة الفعل السيئ الندم والاسف فقد تنزهت نفس اسكندر عن ذلك وقد كان مولعا بمطالعة تاريخ نصرة تروادة اليونانيه التى جمع حربها جميع أمراء الممالك فكان جل رغبته وميله للمفاخر العسكريه لما شاهده من هذا التاريخ من الثناء على فحول الرجال من الامة اليونانيه وطالما شوهد تنفسه الصعداء غير مرة حين أخبر أن أباه فليبش انتصر فى الوقائع قائلا لبعض أخصائه ها هو أبى قد تغلب على جميع البلدان بسيفه وما أبقى لسيفى شيأ أما وبينما كان يتحدث ذات يوم مع سفراء ملك العجم فسألهم عن زينة بلادهم

ولا زخارفها وتنعماتها بل سألهم عن المسافات بين البلاد وقوة الدولة وكيفية سياستها
وتدبيرها وسلوك ملكها فتعجبوا غاية العجب وقال بعضهم لبعض ان هذا الامير لعظيم
وأما ملكنا فهو أمير غنى فقط وكان يتراءى فى طبيعة اسكندر فى حال صغره الشجاعة
وحب الرياسة والتدبير وشدة الميل للتلذذ بذوق اقتحام العظائم حتى انه امتاز واشتهر
غير مرة فى الحرب تحت لواء أبيه فى حداثة سنه

ولما مات أبوه كان ابن عشرين سنة فخلفه على المملكة وكان جديرا بالقائه الرعب
والهيبة فى قلوب الأمم وكان يظن بعض ممالك اليونان الذين كانوا تحت طاعة أبيه أنهم
يغتنمون الفرصة بالخروج على اسكندر فأشهروا السلاح فانتصر عليهم جميعا فى غزواته
التى كان رئيسها بنفسه فلما رجع الى مقدونيا استعد لفتح بلاد آسيا وأبى ان يتزوج خوفا
من ضياع الزمن فى وليمة العرس ومن ضياع الاموال فى الافراح بل أغدق بما عنده من
الاموال على كبار عسكره برسم الانعام فقال له بعض الامراء ما أعددت للانفاق على
نفسك وعسكرك قال أعددت لذلك كله قوة الرجاء فأبقى فى مملكته ثلاثة عشر ألف
رجل للمحافظة واستصحب معه خمسة وثلاثين ألف مقاتل لكنهم أبطال تحت طاعة
شيوخ مجربين ثم توجه الى آسيا وليس معه من المال الا نحو سبعين مثقالا من الذهب
ومن الذخيرة أهبة شهر واحد وثوقا بقوته وطالع سعده وضعف أعدائه وطالع نحسهم

مطلب توجه اسكندر لحرب بلاد آسيا باهبة يسيرة

وكانت بلاد آسيا تحت طاعة العجم يحكمون على جميع ممالكها وكانت قد أشرفت على
الخراب لاتساع سلطنتها وسوء تدبيرها واستعبادها للأمم وظلم ملوكها حتى ان أولات
أقاليمها كادوا يكونون ملوكا مستقلين لبعدهم عن مركز السلطنة الذى كان اذ ذاك
منبعا للفتن والاختلال وكان داراهو ملك الملوك يحكم بلاد آسيا الشرقية ويحكم من
بلاد أفريقية مملكة مصر ففتح اسكندر البلاد التى كانت تحت ملوك العجم جميعها حتى
وصل الى الشام وفتحها وعقب فتوح بلاد الشام انطلق الى مصر وكانت دولة العجم
مبغوضة للمصريين لازدراء العجم بدين أهل مصر وتشديدهم عليهم فى تركه فتلقى
المصريون اسكندر بالترحيب ورغبوا فى حكومته لينقذهم من أعداء دينهم ثم قصد
استمالة قلوبهم اليه واستعطافهم لمحبته واقبالهم بالقلب والقالب عليه فاغتفر لهم أن
يتمسكوا بشرائعهم وعوائدهم وأسس بمصر مدينة اسكندرية التى صارت من أعظم
مدائن الدنيا وأزهاها وأبهاها بالعلوم النافعه والتجارات الساطعه لان الابنية
الجسيمه من المنافع العمومية العظيمه التى تمنح بانيها من العز والفخار بقدر
ما تكسبه الغزوات المخربة من الكراهة والنفار

مطلب فتوح اسكندر لبلاد العجم وانطلاقه الى مصر عقب ذلك

ثم كانت وفاة اسكندر بعد أفعاله العجيبة بمدينة بابل قبل الميلاد بثلثمائة وثلاث

مطلب وفاة اسكندر فى عنفوان شبابه بدون ان يعهد الى أحد فى السلطنة

وعشرين سنة وعمره ثلاث وثلاثون سنة ولم يرض ان يعين وارثا بعده بل قال قد أبقيت وراثة السلطنة للاحق بها وأخبر أنه سيسفك الدم فى جنازته فكانت الحروب الداخلية وانفصال الممالك عن اتصالها عاقبة فتوحاته بعد انقضاء حياته فكل واحد من أمراء جيوشه أخذ مملكة جسيمه فلما تقاسم امراؤه سلطنته سموا بملوك الطوائف ولم تعد فتوحاته من النوافل بل ترتب عليها مزايا جسيمة للتمدن والمنافع العمومية حيث بقيت الاجتماعات والعلاقات السياسيه مدة عشرة قرون بين أهالى المشرق والمغرب وذلك لان قطعة آسيا قبل فتوح اسكندر كانت مغلوقة الابواب عن قطعة أوروبا لما بينهما من العداوة فن عهد هذا الفاتح فتحت أبوابها للتجارات فبواسطة ذلك انتشرت العلوم والمعارف فى المدن لاستفادة بعضها من بعض وكذلك ترتب على فتوحاته تجدد عائلات الملوكيه فى البلاد اليونانيه شيدت ممالكها فى البلاد فكانت من الدول القويه وحسب اسكندر أنه خلفه على مصر الملوك البطالسة فهم الذين أعلوا درجتها وأعادوا بهجتها حتى صارت مصر فى عهدهم على هيئة جليله وصورة استعداد جميله وعاد اليها فخرها القديم فى تلك الحال الراهنه وكان قد انعدم باستيلاء الاعجام وتغلبهم على ملك الفراعنه فتحققت ثمرة فتوح اسكندر وبدا صلاحها فى مصر ومضافاتها وظهرت نتايج عقل ذلك الفاتح المقدونى فى عهد البطالسة بالاصاله وبعدهم بالتبعية وكان أولهم بطليموس اللاغوسى وكان يعرف أهمية مصر ورفعة قدرها وامتيازها بين الممالك فأول ما تقلد ملكها أحسن التدبير والسياسه واهتم بالمدافعة عنها ممن يريد الهجوم عليها فكان لا يغلبه غالب وسبب ذلك منعة ميناتها التى يصعب الدنو منها وميل المصريين اليه لعدله وتحببه اليهم لان ميل الرعايا لملوكهم هو الحرز الحريز والحصن الحقيق لحفظ الملوك والممالك

مطلب
ظهور نتائج فتوح اسكندر لمصر فى عهد البطالسة ومن بعدهم

وقد تفرغ هذا الملك بعد النصرة على أعدائه فى الخارج الى تنظيم المملكة فشرع فى تتميم مبانى اسكندريه لتصير من أعظم مدائن الدنيا فبنى ضريح اسكندر الاكبر وكان قد أحضر معه جثته من بابل الى الاسكندريه فبنى له هيكلا عظيما ويغلب على ظن أرباب المعارف ان قبر اسكندر بقرب المحل المسمى بنبى الله دانيال أو هو هو وكذلك أنشأ منارة الاسكندريه الشهيرة بجوار الميناء البحريه لمنافع التجارات والاسفار البحريه وفوائد المعاملات الاهلية والاجنبيه التى هى احدى عجائب الدنيا قال فيها بعض الشعرا

مطلب
مدفن اسكندر ومنارة اسكندرية المعدودة من عجائب الدنيا

وسامية الارجاء تهدي أخا السرى * ضياء اذا ما حندس الليل أظلما

لبست بها بردا من الانس صافيا * فكان بتذكار الاحبة معلما
وقد ظللتني من ذراها بقبة * ألاحظ فيها من صحابي أنجما
تخيل ان البحر تحتي غمامة * وأني قد خيمت في كبد السما

ومن أنفع ما أنشأه بطليموس في الاسكندرية المدرسة العظيمة المتصلة بقصره فقد جمع فيها جميع العلوم المألوفة في ذلك الزمان من فلسفة ورياضيات وطبيعيات والهيات وعلوم طبيه وجلب اليها علماء اليونان وغيرهم فصارت اسكندرية في قليل من الزمان مركزا للمعارف جميعها وأنشأ في هذه المدرسة الوسيعة كتبخانة ملوكية جمع فيها نفائس الكتب القديمه وجلب اليها الناسخين والمصححين والمجلدين والمذهبين
وكان يستعير الكتب الجليلة من محالها فينسخها ويرسل المنسوخ لاربابه ويبقي الاصل في خزائنه فكثرت الكتب النافعة من جميع الفنون والعلوم في هذه الكتبخانه وكان له العناية الكاملة بالفنون البحريه وبناء السفن لتكثير الاسفار والترغيب في ركوب البحار فكأنه أراد محاكاة الصوريين حيث صاروا أصحاب تجارة الدنيا بأجمعها بحسن موقع مدينتهم للتجارة وبابتداع سفنهم البحرية حيث أطاعتهم الامواج وخضع لسفنهم البحر العجاج ولم يكترثوا بالعواصف والقواصف وجربوا البحار وأعماقها وجسوا قرارها وعرفوا مخاضها واغراقها ورصدوا النجوم بالبعد عن البر وفي بحبوحة البحر وجمعوا الامم الاجنبية التي فصلت بينهم البرور والبحور ونظموهم في سلك نضيد كأنهم عقود في نحور فكانوا في الصنائع والفنون عطارديه وأرباب صبر وتجلد على الحركات العمليه وحازوا النظافة في المسكن والملبس والمطعم وكانوا مع ذلك أرباب قناعة واقتصاد فيما خولهم به المولى المنعم وكانت حكومتهم ذات ضبط وربط وتدقيق وحسن ملاحظة وتفتيش وتحقيق لايدخلون بين الاهالي الشحناء والشقاق ولايحيدون عن سبيل الوفاق بل هم دائما اخوان صفاء ورفاق وهم أشد الامم تمسكا بهذه الخصال كما أنهم أهل صداقة وامانة وكمال عندهم الراحة للامم الاجنبيه بل يعتبرونهم كالاهالي الوطنيه فبهذا أينعت عندهم أزهار التجارة النافعة والمعاملة مع سائر الامم البربريه وقد تنزهوا عن العداوة والحسد وتمسكوا بالاقتصاد والكد وأكرموا أرباب الفنون وحافظوا على الامانة في سر التجارة المصون ولم يحتكروا التجارة ولا الصناعة ولاتركوا البشاشة والترحيب لارباب البراعه فلهذا كانت شوكتهم قويه ومملكتهم مثريه غنيه فسير ملك مصر السالف الذكر على سنن الصوريين عاد فن الملاحة على مصر بالثروة لكثرة المعاملات التجاريه مع البلاد الدانية والقاصيه والامم الاجنبيه كأهل بلخ وهمدان

مطلب
كتبخانة اسكندريه

مطلب
تقديم الملاحه والاسفار البحرية في عهد بطليموس الاول

والهند

والهند والسودان والحبشه والقيروان وبثروة الاهالى أثرت الحكومة المصرية وقويت شوكتها وعظم سلطانها وارتفع شانها وانتشرت الاعلام الملوكية على هذه السفن فكانت محترمة الناموس عند جميع الملل والدول وعظمت قوة مصر البرية والبحرية فكانت فى أيامه يمكنها الاستحضار على مائتى ألف من العساكر المشاة وأربعين ألفا من الفرسان وعلى ثلثمائة من الافيال الحربيه وعلى ألفى عربة مسلحة بالمناشير والمناجل وكان فى خزينة المهمات المصرية ثلثمائة ألف طقم مجهزة من الزرد وكان بالترسانات نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة مابين كبيرة وصغيرة وكان مايبقى من الخزينة موفرا فى كل سنة من الايراد بعد الصرف الوافى نحو مائة ألف كيس فكان الوفر يتراكم على ممر السنين وتداول الايام فكانت المملكة غنيه وعلى حالة فى ثروة تلك الازمان مرضيه وكانت التجارة الاهلية والقادمة الى الاسكندرية تحت حماية السفن الملوكية فصارت الاسكندرية بذلك عامرة بالسكان المحبين للملكهم بترخيصه لهم فى التجارة والارباح وحسن معاملته مع الاجانب فكانت التجارة تكتسب كل يوم النمو والزياده

مطلب
ذخائر خزائن مصر فى أيام بطليموس الاول

وكان هذا الملك يجلب دائما الاهالى من أوطانهم للاستيطان فى الاسكندرية حتى انه رغب طوائف اليهود بالدخول اليها حتى تكاثروا فيها وعمروا فيها خطة كبيرة تسمى حارة اليهود ومع ذلك لم يهجر مدينة منف بل جعلها دار المملكة الرسميه فلما تولى بعده بطليموس الثانى محب أخيه قبل الهجرة بسبع وتسعمائه كانت مدته أيضا خيرا من مدة أبيه فصرف همته فى تقديم العلوم والمعارف والتجارات فكانت مصر فى أيامه أعمر بلاد الدنيا لان أباه كان قد أضاف الى مصر بلادا كثيرة كمملكة القيروان وسواحل الشام وبلاد العرب المجاور لمصر وجزيرة قبرص وجزائر بحر الروم وأغلب مينات أناطلى الجنوبيه ومينات سواحل روم ايلى فقنع الملك بهذا الميراث المعظم والتفت الى العمليات الجسيمة التى تعود على مصر وعلى ممالك الدنيا بالمنافع العظيمة فاعتنى باستكشاف طرق البحار بالاسفار لمعرفة المسالك والممالك فاستكشف بلاد افريقية وثغور بحر عمان وفارس وأرسل من يستكشف منبع النيل فوصل قبطانه الى جزيرة مروة بقرب شندى وهى جزيرة أتبره وأرسل قائدا آخر الى تلك الجهات فوصل فوق ما هنالك وانعطف الى جهة المغرب فبهاتين السياحتين اتسعت دائرة المعاملات التجارية وكثرت المخالطة بين الديار المصرية والسودانية وتقدمت المعارف الجغرافيه وعلمت فى مصر احوال البلاد والعباد واجتهد هذا الملك فى تأييد المعاملات التجارية بين مصر والممالك الهندية والشرقية وأرسل سفنه أيضا لاستكشاف سواحل

مطلب
جلب بطليموس اليهود الى اسكندريه وتأسيسه لهم حارة خصوصية

الحبشة وأمر رؤساءها ان تبقى فيما تستكشفه محطات عسكريه ومراكز تجاريه وكان مسيرها من مينا القصير فكان بندر القصير موردا ومصدرا للتجارات السودانية والعربية والعجمية والهندية وكانت اسكندرية مركز العموم ومحط رحال التجار كما هو معلوم ولم تنتقل عنها فضيلتها الاولية فى أيام حكومة البطالسه فكانت قطب دائرة الدنيا بدون أن يسوغ لمدينة أخرى ان تكون لها منافسه

ثم بتداول الازمان ضاقت دائرة تجارتها ومحيط صناعتها فى الاعصر الاخيرة ومع ذلك فلم تزل منابع للمنافع النسبية غزيره لاسيما بعد فتوح الاسلام فقد عوض الله تعالى مصر دون غيرها فى صدر الاسلام وبعده تجارة لن تبور واكتسبت تقدما آخر أعلى من الاول وبقى القرون العديدة واخذت منه مدن الدنيا بحظ موفور وناهيك بتقدم التمدن أيام خلفاء بغداد ونقل الخلافة بمصر فى أيام الفاطميين فانه انسحب أثره على جميع البلاد فان يكن التمدن قد قصر فى مصر وانحط عن قدره الاصيل فانما كان ذلك فى أيام المماليك الذين أساؤا فى تدبيرها وسعوا فى خرابها وتدميرها بما جبلوا عليه من العسف والتعدى وعدلهم عن الجادة بسلوك ما ليس يجدى حتى أنقذتهم منها شوكة آل عثمان وغارت دولة الغورى بمصر واطمأنت قلوب أهلها بسلامة السلطان سليم خان وقتله للسلطان طومان ومع ذلك فصارت مصر مترددة متحيره لتداول أيدى الولاة العثمانيين المختلفين فى درجات العدل المعتبرة مع بقاء نفوذ أوجاقات الشراكسة أهل الحمية والعصبيه ولم يكن لاكثرهم أدنى حظ فى قصد التمدنيه فاستبدلوا الربح بالخسران وآثروا التدمير على العمران وحل الخوف فى أيامهم محل الامان فانحل نظامهم واختلت أحكامهم فطمعت دولة الفرنساويه فى أن تجعل حكومة مصر ملحقة مضافة الى مملكتهم بالجر على وجه الاضافه وتغلبت عليها وأرادت بها ما أرادت وأراد الله خلافه فعادت كما كانت الى دار الخلافه ولكن كان لحكم المماليك قوة نفوذ غالبه وأظفار اسود ناشبه تتمثل بالرعيه ولا ترعى حقوق الدولة العليه ولا واجب الانسانيه حتى آن الاوان وسخر الله سبحانه وتعالى لخلاصها من أيديهم بفتكهم أول أمير عجيب خرج من قوله وثانى فحول امراء مقدونيا محمد الاسم على الشان كما أشار لذلك بعض شعراء الفرنساويه بما معناه

فعلك الخير بعده حسن ذكر * مستمر على مدى كل دهر

فاغتنم حوزمشتهى نيل مصير * فلقد شابه دماسيف نصر

وغدا فى جماله يتقى رغدا * فاتقاء نفعه كل قطر

فانه بقريحته العجيبه أوصل مصر الى درجة مهيبه ثم لما آلت المملكة المصريه

مطلب ضيق دائرة المنافع المصرية فى الادوار الاخيرة

مطلب استيلاء السلطان سليم خان على مصر

مطلب تغلب الفرنساوية على مصر

مطلب استخلاص المرحوم محمد على مصر من قبضة المماليك

الى

الى الحكومة الاسماعيليه بعد فترة تضعضع فيها الاساس اجتهد فى أن يكسوها من المجد والفخار أعظم لباس وأن يصونها داخلا وخارجا من الشدة والباس حتى تكون هى المصرونامها هم الناس ولا يتم مثل هذا التقدم بدون انجذاب قلوب الاهالى صوب مركزا التمدن والتنظيم وتوجه نفوسهم بالطوع والاختيار الى الوفاء بحقوق هذا الوطن العظيم بمعنى أنه اذا تشبثت الحكومة المصرية بكليات المصالح الوطنيه ساعدها الاهالى كل على قدر حاله بايجاد المصالح الخيرية الجزئيه بحسب ما يقتضيه الوقت والحال فبهذه الوسائل يحصل على المنافع العمومية فى أطراف مصر واكنافها بجميع المحال فالقوة الوطنيه والنخوة الاهليه مما ينتج اظهار شعائر الاسلام ويبتهج به دين خير الانام والفضل فى ذلك للمؤسس الاول الجليل ولمن يقفوا اثره من كل وارث نبيل وسيأتى ان ما فعله المؤسس الاول هو ما بنى عليه من بعده لاسيما ما حصل من التجديدات فى هذه الايام مما يكاد أن يعجز عنه البشر فالاعمال الاخيرة شواهد وها هى نصب عين كل مناظر ومشاهد

الباب الرابع

فى التشبث بعود المنافع العمومية الى مصر حسب الامكان فى عهد محيى مصر جنتمكان وفيه فصول

الفصل الاول

فى مناقب جنتمكان محمد الاسم على الشان وانه نادرة عصره ومحيى مآثر مصره والمقابلة بينه وبين عدة من مشاهير ملوك الاعصر القريبه

كان المرحوم محمد على سليم القلب صادق اللهجة أمينا فى تصرفه حكيما فى أعماله كريما الى الغاية حريصا على عمار البلاد وفيا فى معاشرته محرصا على ودعشيرته وجنوده ورعيته متحببا اليهم وان كان فى بعض المواطن سريع الغضب فقد كان قريب الرضا حليف الحلم صفوحا عن الجانى مقداما على اقتحام الاهوال صبورا على الشدائد وتنقل الاحوال شديد الحرص على شرف نفسه وصون ناموسه قوى الفطنة سريع الادراك يجول فكره فى الامور البعيدة بصيرا فى الحساب الهوائى العقلى عجيب البداهة غريب الروية تعلم القراءة والكتابة فى أقرب وقت وعمره خمس وأربعون سنة اذ ذاك جبر ما فاته فى زمن الصغر وتداركا لما يزيد فى مجده فى زمن الكبر فرغب فى مطالعة التواريخ ولاسيما تواريخ الفاتحين كتاريخ اسكندر الاكبر المقدونى وتاريخ بطرس الاكبر ايمبراطور

الروس أى الموسكو وتاريخ نابليون الاكبر وغير ذلك من التواريخ المترجمة الى التركية مع المواظبة على الاطلاع على ما فى الكازيتات الافرنجية التى كانت تترجم له وكان صاحب فراسة اذا تكلم أمامه أحد بلغة أجنبية فهم من النظر الى حركاته واشاراته مقصده يستشير العقلاء والعلماء فى حل أموره وكان نشيطا يحب الحركة ويكره الكسل والبطالة قليل النوم سريع اليقظة يستيقظ غالبا عند الفجر يسمع بنفسه العرضحالات التى تعرض له يوميا عند الصباح ويعطى عنها جوابا ثم يذهب لمناظرة العمارات الميرية التى كان مغرما بها وكان متدينا الى حد الاعتدال بدون حمية عصبية ولا تشديد فكان يغتفر لأهل الملل والدول فى بلاده التمسك بعقائدهم وعوائدهم مما أباحته فى حقهم الشريعة المطهرة وهو أول من أعطى للعيسوية الداخلين فى الخدامات الميرية لمنافعهم الاقتضائيه مزايا المراتب المدنيه وكان يؤثر الفعل على القول بمعنى أنه اذا أراد ترتيب لائحة مهمه فيها منفعة للامه شرع فيها بقصد التجريب وأجراها شيأ فشيأ على طريق الاصلاح والتهذيب فاذا سلكت فى الرعيه وصارت قابلة لعوامل المفعوليه كساها ثوب الترتيب والانتظام وأخرجها من القوة الى الفعل فى ضمن قانون الاصول والاحكام لما أنه كما يقال أحسن المقال ماصدق بحسن الفعال وكان مولعا ببناء العمائر وانشاء الاغراس وتمهيد الطرق واصلاح المزارع واتقان الصنائع والاعمال يرغب فى توسيع دائرة التجاره ويستميل عقول الاهالى ليجذبهم الى ما فيه كسب البراعة والمهاره

وبالجملة فكان وحيد زمانه فى جميع أوصافه وفريد أوانه فى عدله وانصافه لاسيما بعد ان صفا له الوقت عقب توليته على مصر فانه مكث قبل ذلك نحو خمس سنين وهو يقاسى ما يقاسى من الشدائد ويعانى من أخصامه جميع أنواع المكائد حتى عزم على رجوعه الى وطنه الاولى بدون صلة وعائد لكن لوفور سعده ونعبه وكده وسبق القدر بوصوله الى تمام عزه ومجده صرف النظر عن العوده ونال من واهب العطايا ماهيأه له من تبوئ بحبوحة الملك وأعده ولاشك أنه عرف داء مصر وعلاجها فى أثناء هذه المده ولابد أيضا انه كان نوى لها تحسين الحال والمآل ان بلغه الله الآمال وأمده ولا يخفى أن من قصد الاستيلاء على مملكة لايخلو عن أحد أمرين اما ان يكون كالصياد يقتنص مصيده بكل مكيده أو كالملتقط لليتيم المفارق أبويه لينقذه من التهلكة ويجعله وليده فالامر الثانى هو الممدوح وهو مقصد حميد لاولى الفضائل من أصحاب الفتوح فانه مقصد سنى ومطلب هنى فاستقامة الامور لهذا الامير الكبير وما حصل له فى الاستيلاء على مصر من التسخير والتيسير يدل على حسن النية

مطلب
كون قاصد التغلب اما كالصائد أو كالملتقط للتربية وكسب الاجر

وصفاء

وصفاء الطوية فكانما أرشده الى بلوغ هذه المنزله مصداق حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له فكان دأبه فى العناية بشؤون تقديم مصر الاخلاص وحسن النيه فأعماله صارت على ذلك مبنيه وقد خلصت نيته فهبت صوبه نسمات القبول وأصاب بشرف النفس وعلو الهمة واخلاص العمل ادراك المأمول (قال) عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه ومرجع هذا الحديث ان الامور بمقاصدها وهو معنى قوله تعالى يريدون وجه الله فالمدار على الاخلاص فى العمل * وعن أبى موسى الاشعرى قال يارسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأى ذلك فى سبيل الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله عزوجل يعنى فالعمدة على النية لقوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات وقوله صلى الله عليه وسلم ليس للعامل من عمله الا ما نواه فتحت هاتين الكلمتين من كنوز العلم ما لا يوقف له على غاية ولذا قال الشافعى رضى الله عنه حديث الاعمال بالنيات يدخل فى نصف العلم وذلك ان للدين ظاهرا وباطنا والنية متعلقة بالباطن والعمل هو الظاهر وايضا فالنية عبودية القلب والعمل عبودية الجوارح (وقال) بعض الائمة حديث الاعمال بالنيات ثلث الدين ووجهه ان الدين قول وعمل ونية * وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وفى حديث آخر تصعد الملائكة بالاعمال فينادى الملك ألق تلك الصحيفة فتقول الملائكة ربنا قال خيرا حفظناه عليه فيقول الله تبارك وتعالى لم يرد به وجهى وينادى الملك اكتب لفلان كذا وكذا فتقول الملائكة يارب انه لم يعمله فيقول الله عزوجل انه نواه (وقال) الثورى كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل فكان بعضهم يقول دلونى على عمل لا أزال به عاملا لله فيقال له انو الخير فانك لا تزال عاملا وان لم تعمل فالنية تعمل وان عدم العمل والناس فى النيات على ثلاث طبقات الطبقة الاولى من ينوى بالعمل وجه الله عزوجل والطبقة الثانية من ينوى العمل لله تعالى ويشوبه بقصد الخلق تعالا أصلا والطبقة الثالثة ما يكون الباعث على العمل الرياء فالاخلاص فى الطبقة الاولى والتجرد من الثواب فى الثانية والحرمة فى الثالثة

وقد كان السلف لا يعملون شيأ الا ان تتقدمه النية الخالصة ومع ذلك فقد نص العلماء أن من حج بنية التجارة كان له ثواب بقدر قصده الحج فكذلك الفاتح لمملكة اذا نوى

مطلب
انما الاعمال بالنيات

اصلاح حالها وتربية أهلها وتهذيب أخلاقهم واسعادهم وتنعيم بالهم وتحسين أحوالهم برفع الظلم عنهم كما يقضى به حسن الظن فى حق المرحوم محمد على وكما هو الواقع فهو مثاب قطعا ولو داخل قصده منفعة دنيوية مما لا يفارق الملوك من حب المحمدة فى غالب الاحيان ولو لم يكن من أفعاله الخيرية الا تخليص الحرمين الشريفين والاقطار الحجازية من عبد الله بن سعود شيخ الوهابية لكفاه فان ابن سعود المذكور اتعب الحجاج بقطع الطرقات وأزعج عباد الله تعالى فغزاه جند محمد على جنتمكان وهزمه بعد حروب طويلة وأرسله الى الاستانة فأمرت الدولة العلية بضرب عنقه ليكون عبرة للناظرين وكذلك حروبه فى موره فانها من أجل الافعال المبروره حيث ان أروام تلك الجهة هجموا على الاسلام فى الجوامع والمساجد فقتلوا منهم الجم الغفير ولم يرحموا الشيخ الكبير ولا الطفل الصغير وفتكوا بالجميع فتكا ذريعا بطريقة فظيعه تأباها النفوس الابيه وتنفر منها الطبيعه وطالما قبضوا على سفن الاسلام وقتلوا من فيها وأذاقوه كأس الحمام وكثيرا ما عذبوا المقتولين بالتمزيق والتحريق وأضرموا نار الفتنة فى جزائر البحر الابيض بين كل فريق وحرضوا جزائر كريد ورودس وساقس وغيرها على العصيان وما خلا من فتنتهم فى الاروام الرعايا بلد ولا مكان ولم يقتصروا فى الجبروت والطغيان على مخالفة الشريعة العيسوية بل هتكوا حرمة النواميس الطبيعيه فأرسل اليهم محمد على باشا عمارته البحرية لقمعهم وادخالهم تحت الطاعه فحاربهم نجله الاكبر جنتمكان فدمرهم وشتت شملهم ثم استقلوا ببلادهم وفارقوا الجماعه ولم ينتج من هذا الحرب نتيجة تعود على مصر بالمنفعة اللهم الا ان اكتسبت عدة من أرباب الامتياز الوافر من أعيان الاعيان الاكابر من أهالى تلك البلاد الروميه ممن هاجر الى الديار المصريه وبها أقام وأدى بها الخدمة الصادقة ونال علو الرتبة والمقام ومن هذا الجنس الرومى من تناسل بالقطر وعد من أبناء الوطن العظام وان كان فى غزوة البلاد اليونانية فائدة أخرى جليه فما هى الا تمرين الرجال العسكرية المصرية على الحروب وممارستهم للغزو والجهاد وتعودهم على اقتحام الخطوب تحت قيادة أحد رؤساء الجنود المعدودين الذى لا يزال صيت صولته الجهادى باقيا الى يوم الدين وكذلك فتح محمد الاسم على الشان لغير هذه البلاد من البلدان كفتحه للاقطار السودانيه مما وسع دائرة المنافع الوطنيه وحروبه مع والى عكا معلومه وجولان جنوده فى الشام وغير الشام مفهومه ولم تكن تلك من محض العبث ولا من ذميم تعدى الحدود اذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود والدليل على حسن النية ان هذه الحسنة التى على صورة الجنيه انتجت أصل

ووراثة مصر التى ترتب عليها رفع الاصر ولولا بقاؤه تحت ولاء الدولة العليه ومراعاة حفظ الحالة الراهنـه على ماهى عليه من الراجحيه والمرجوحيـه لجال فى الفتوحات الخارجة مجال اسكندر الاكبر وحسن حالة التمدن وجد فى جادة العمران وفعل مافعله اسكندر حيث اتحدا فى البلد فكان لامانع أن يتحدا فى المظهر ممن سعد مملكة مقدونيا وتخليد فخارها أنها موطن أميرين جليلين بقى ذكرهما فى الخافقين أحدهما من بيت الملك رأس اليونان وقادهـم وفتح بهم سائر البلدان فانتصر بالتدبير والاعوان وتغلب بذكاء العقل وتجاريب الشجعان والثانى من بيت مجهل ونسل أمثل ساعفته المقادير واستعان بحسن العقل والتدبير ولم يكن له بعد مولاه غير عقله نصير فنعم المولى ونعم النصير ألهم جموع أبناء جنسـه المجردين عن الانتظام اقتحام العقبات وحسن الاقدام والاحجام واستسهال الصعب لنيل المرام

مطلب
كون مقدونيا موطن اميرين جليلين اسكندر ومحمد على

لاستسهلن الصعب أو أدرك المنى * فما انقادت الآمال الالصابر

فلما هزم بهـم جيوش المماليك بسائر الجهات وأذهب دولة سناجقهـم وتحققت الحقائق وزالت الشبهات خلع على حزبه المراتب السنيه وجعلهم حكاما فى أقطار مصر وحصلت بهم الامنيه ورباهم كما ربى الاستاذ الطلبه ونال بهم قصده ومأربه فلو كان الاسكندر بهـذه المثابه لم يصب من العزم أصابه ولا بلغ نصيب محمد على ولا نصابه وعلى كل حال فقد حل الثانى محل الاول فكأنما ذلك وثق بهذا وعليه فى تتميم المقاصد عوّل كما قلت فى تاريخ بداية القدماء وهداية الحكماء فى هذا المعنى من ضمن قصيدة

لمصريه شأن شريف زهت به * وعـز منيف قـد أظلت ظلاله
أتاح لها المولى مليكا قد انتمى * اليها ومن أقصى البلاد ارتحاله
محمـد أفعال على مكارم * بديع صفات لاتعد فضاله
يقول أناس طالع السعد حظه * وما السعد الاعقـله وعقاله
دفاتر تاريخ السلاطين سطرت * مناقبهم فاستجمعتها خصاله
وما مثلها مقـدونيا اذ سمت به * وقد كان فيها اصله وفصاله
منازل منها اسكندر فاتح الورى * اذا لم يكن عـم الامير فخاله
يضاهيـه فى أوصافه الغر نجله * اذا ماتصـدى نحو شأو يناله

وفى هذا البيت الاخير اشارة الى جنتمكان ابراهيم باشا كالاشارة اليه فى قصيدة أخرى فى الرحلة بقولى

من كان مثل أميرنا فقرينه * اسكندرا وكسرى أنوشروان

في كفه سيفان سيف عناية * والثهم ابراهيم سيف ثاني
بطل مكارمه الجليلة قلدت * هام الزمان مكلل التيجان

ولما كان محمد على يحس من نفسه بان عزماته اسكندريه كان متولعا بقراءة تاريخ اسكندر ومنكبا عليه وشبيه الشئ كما يقال منجذب اليه وفي الحقيقة فكان بينهما من جميل الصفات والشمائل ماشهدت به الشواهد ودلت عليه الدلائل فلو استولى أميرنا على مصر وفيها بقايا من حكماء الاعصر المصريه القديمه لحكموا بما يعتقده قدماؤهم في أيام الجاهلية الذميمه من تناسخ الارواح بعد الموت وانعاشها لاجسام أخرى وان روح اسكندر انتقلت بعده الى شبيهه فهو بها أحرى وأما نحن معاشر أهل السنة فنقول ان تشريك اثنين وتسويتهما في الصفات الفاضله والمعاني الكامله هو محض فضل من الله ومنة وربك يخلق مايشاء ويختار وهذا القياس الفارق بينه وبين اسكندر يجرى أيضا في قياسه باصحاب الخروج والفتوحات المملكين فقد أعانتهم ممالكهم وجنودهم وقوادهم على كسب العز والتمكين

مطلب فتوح السلطان سليمان

وقد كان عصر السلطان سليمان الثاني اعظم الاعصار اذ هو الذى قدم الدولة العثمانيه الى اوج الفخار فافتتح الفتوحات العظيمه وأعلى كلمة الله ورفع المنار وباشر الغزو بنفسه في ثلاث عشرة غزوه وانتصر في جميعها بقوة التدبير وتنظيم الجيوش وأى قوه وبنى الابنية العجيبه وفعل كثيرا من الافعال الخيرية الغريبه وأنشأ الدونمنا العثمانيه وكان كهفا وملاذا لاكثر ملوك البلاد القاصية والدانيه وكان في أيامه باوربا اثنان

مطلب الملك شرلكان قرال اسبانيا والنمسا

من الملوك العظام الاول شرلكان الذى كان متوليا على النمسا بلقب ايمبراطور وكان يسمى كرلوس الخامس يعني خامس كرلوس من الايمبراطره المسمين بهذا الاسم وكان متوليا أيضا على اسبانيا بلقب ملك اسبانيا وكان يسمى بالنسبة لمملكتها كرلوس الاول يعني أنه أول ملك تولى عليها باسم كرلوس والملك الثاني من الملوك العظام هو فرنسيس الاول ملك فرانسا وكان يلقب بابي العلوم لانه كان يحب العلوم والمعارف كما كان مولعا بالعمائر العظيمة فقد أسس بفرانسا مدرسة ملكيه وكتبخانة وبنى كثيرا من السرايات والقصور وأدخل في ديوانه الرفاهية وآداب التمدن وتهذيب الاخلاق ومع كثرة مصارفه وما كان ينفقه في المنافع والمنازه من خزينته الخصوصية فقد ترك فيها الحو أربعمائة ألف دينار غير مالم يقبضه من خزينة المملكة من مرتب التاج الملوكي السنوى وهو ربع مرتب السنه وكان بينه وبين شرلكان امبراطور النمسا السالف الذكر منافسات ومشاجرات أدت الى تواتر الحروب بينهما ومع أن دائرة الهزيمة كانت دائما على شرلكان الا ان فرنسيس انهزم في واقعة

ووقع

ووقع فى قبضة خصمه وهو شرلكان وأخذه أسيرا الى اسبانيا فاستنصر الملك فرنسيس المذكور بمولانا السلطان سليمان وكتب اليه كتابا مؤرخا فى سنة تسعمائة واثنين وثلاثين يشكو من تغلب أعدائه على مملكته ويستصرخ به ويستغيث فأجابه بعد صدر الكلام بقوله ان الكتاب الذى أعرضته الى الاستانة الملوكية مع رسولك المستحق لامانتك أفاد ان العدو حاكم فى مملكتك وانك صرت الآن أسيرا وتلتمس من طرفى فك أسرك فجميع ذلك عرض على أقدام سرير سلطنتى العلية التى هى ملجأ العالم وقد أحاط علمى الشريف بجميع شرح كلامك ولا غرابة فى أيامنا هذه اذا انهزمت الملوك ووقعت فى الاسر فشجع قلبك ولا تترك نفسك تجبن ففى مثل هذه الاحوال المار أيناسلافنا المجيدين وأجدادنا الاكرمين لم يتأخروا عن الدخول فى قتال الاعداء وفتوح البلاد فانا مقتف لاثرهم فطالما فتحت فى هذا العهد كثيرا من الولايات والحصون القويه التى لا يدنو منها أحد وقد حرمت على نفسى النوم وجعلت سيفى لا يفارق جانبى والله يسهل علينا اتمام الخير وغير ذلك فاسأل رسولك عن جميع ماجرى مما استقر عليه الحال واقنع بما يخبرك به من المقال فانه واقع لا محالة ثم بعد رد الجواب أرسل مولانا السلطان سليمان عمارة بحرية وأمر عليها خير الدين باشا بنجدة بها ملك فرانسا

مطلب
بعث السلطان سليمان عمارة بحرية الى فرانسا لنجدة ملكها

ولما وصلت الى مرسيليا انضمت الى عمارة الملك فرنسيس وساعدته على أخذ بعض البلاد ونصرته على أعدائه ثم عادت الى القسطنطينيه وكان خير الدين باشا من أعظم قباطين الدنيا وكان قد فتح أخوه بلاد الجزائر فى أيام السلطان سليم ونزعها من يد شيخ العرب سالم بن تيمى وكان حاكما عليها ثم تقدم أخو خير الدين باشا المذكور فى توسيع الفتوحات فارعب كرلوس الخامس حتى خاف بطشه وخشى أن يتغلب على أملاك اسبانيا التى بأفريقة فبعث اليه جيشا عظيما جرارا واستشهد هذا الامير الخطير عند هذه المدينة فخلفه أخوه خير الدين باشا المذكور على حكومة جزائر الغرب المذكوره ودخل فى حماية السلطان سليم وقرر على نفسه خراجا للدولة العلية فلما تولى السلطان سليمان جعله قبطان باشا على جميع الدونتما العثمانيه فحصن بلاد الجزائر بالاستحكامات اللازمة

مطلب
سفر السلطان سليمان بجيشه من جهة البر الى اوربا وعوده منصورا

وفى شهر رجب سنة احدى وأربعين وتسعمائة أرسل خير الدين باشا الى غزوة الجزائر البحرية الملحقة باسبانيا وغيرها من الجهات البرية كايطاليا وتوجه السلطان بجيشه من جهات البر وأرسل بطريق البحر لطفى باشا وخير الدين باشا بنحو خمسمائة غراب مشحونة بعساكر البحر وأمرها أن تسير وتنزل فى معسكره المنصور فنزلت فى ثلاث

وأربعين وتسعمائة فقتلت فى البر والسواحل كثيرا من الاعداء واغتنمت غنائم عظيمة وافتتحت فى جزائر ذلك البحر اثنين وثلاثين حصنا حصينا من ممالك ايطاليا وغيرها واقتلعتها من اساسها وغنمت جيوش المسلمين من الاموال والسبايا مالا يحصى وعاد السلطان مع سائر عساكره المجهزة برا وبحرا

وكان فى سنة احدى وأربعين تقدم خير الدين باشا الى اسوار مدينة تونس وكان ملكها مولاى حسن من بنى حفص وكان فى مدة ولايته قد قتل أربعة وعشرين من اخوته مشتغلا بلذاته وشهواته غير ملتفت الى تحصين بلاده فافتتحها خير الدين باشا وطرده من البلاد غير أن هذا الفتوح لم يمكث الا مدة قليلة حيث أن مولاى حسن التجا الى كرلوس الخامس فجيش على تونس واسترجعها بالحرب لدولة بنى حفص ثم فى أيام السلطان سليم بن السلطان سليمان صار فتحها بالدولة العثمانية وبقيت فى أيديهم

مطلب
اخذ خير الدين باشا لتونس من يد مولاى حسن من بنى حفص ورجوعها اليهم ثم تمام اخذها أيام السلطان سليم

وفى تلك الايام كانت الهيبة العثمانية عظيمة مرعبة ملوك اوربا مع وجود فرنسيس الاول ملك فرانسا وشرلكان ايمبراطور النيمسا وملك اسبانيا وفى أيام هذين القرالين اتسعت دائرة بلاد اوروبا فى الفنون والمعارف وأخذت فى كمال التقدم ومن ذلك العهد لازالت اوروبا آخذة فى تقدم الجمعيات التمدنية الى أن أبلغها درجة الكمال عصر لويز الرابع عشر وكان ذلك بهمة هذا القرال الذى تاريخه لا ينبغى أن يهمل لما بينه وبين جنتمكان محمد على من الشبه الاكمل الامثل عشر فى المفصل والمجمل

مطلب
ابلاغ عصر لويز الرابع عشر اوروبا درجة الكمال

فلنذكر منه نبذة وجيزة فنقول تولى هذا الملك على تخت فرانسا من سنة ألف وثلاثة وخمسين الى سنة ١٠٧٢ من الهجرة وكان عمره اذ ذاك خمس سنوات ومكث الى بلوغ رشده تحت ولاية امه فنابت بنفسها عنه فى المملكة وقلدت الوزارة للكردينال مازارين فكانت مدة مملكته اثنتين وسبعين سنة فلما تم عمر الملك اثنتين وعشرين سنة باشر احكام مملكته بنفسه وكان يميل الى المجد والشوكة فلا زال مستوزرا مازارين فلما دنت وفاة هذا الوزير وأحس بدنو أجله وكان معهودا منه الصداقة لوطنه وملكه أوصى الملك أن يستوزر بعده كولبرت وكان من كبار الرجال الفرنساوية فعمل الملك بوصيته وكان كولبرت حسن التدبير كامل الاستقامة فبذل جهده فى تنظيم المالية وترتيب القوانين العدلية النافعة وجعل من الاصول مكافأة أرباب المعارف وتشويق أرباب الصنائع من الاهالى والاجانب وجدد فى المملكة الفرنساوية عمارة سفن حربية وأسس مدارس العلوم والفنون واعتنى بالعلوم المستظرفة كالرسم والنقش وجعل لها مكاتب خصوصية وجدد من المنافع العمومية ما صير مملكته مهابا عند الدول

الاجنبية

الاجنبيه وأبطل أسباب الظلم والجور فى داخل البلاد وأقام قسطاس العدل والانصاف لراحة العباد وتحولت أحوال الاقاليم فى الداخل بالعمليات النافعه وتحسنت الاحكام والقوانين وصارت رياض المنافع يانعه

وفى أثناء ذلك استنار فكر الملك وصار قابلا لملاحظة السياسة بنفسه ولانتخاب رؤساء مملكته من كل رئيس نافع لابناء جنسه وكما أن الوزير كولبرت متقلد بالوزارة الملكيه كان المارشال تورين متقلدا برياسة العسكريه وكان هذا الامير من فحول رجال عصره نافذ الكلمة فى الجيوش الفرنساويه فى نهيه وأمره حليف الصبر والحلم فى حالتى الحرب والسلم لم يعهد عليه غضب مخل ولا حقد ولا حسد بل كان يتحبب لكل أحد مع ما كان عليه من الانفراد بالفضائل والمعارف والغرائب واللطائف وكان اذا وجد من غيره عيبا ستره وخللا سده وجبره وكان مقداما على الحروب جلدا عند الخطوب يحسن مكايد تدارك الاعدا ولا يحمل أحدا من العسكر على أن يخطو خطوة سدى فقد قضى زمانه فى خدمة الاوطان وحاز من المجد العسكرى أبهى عنوان

ولما مات أمر الملك بدفنه فى القبور الملوكيه وتشرف بعد انقضاء حياته بهذه المزيه وكتب على قبره من الشعر ما معناه قد دفن تورين فى مقابر الملوك وامتاز بهذه الحظوة بسلوكه فى الحروب أقوم سلوك وقد أذن لويز الرابع عشر بذلك ليتوج بعد الموت بتاج المجازاه اذ كان هذا البطل قد أحسن رياسة الغزاه وليفيد ما يأتى بعده من القرون الآتيه انه لا فرق فى الدرجة بين من بيده قضيب المملكه والقائد الذى يصون بحسن تدبيره الوطن من التهلكه

مطلب
وزارة كولبرت على الملكية ووزارة تورين على العسكريه

فجميع ما كان من الغزوات الفرنساويه والانتصار فيها على الاخصام الاجنبيه كان من حسن تدبير تورين واما كولبرت رئيس الوزراء فانه قد جدد المنافع العموميه ووسع دائرة التجارة الفرنساويه بكثرة الاخذ والاعطاء فى الهند وأفريقه وجعل فى هذه الممالك الاجنبيه قبانيات فرنساويه وسهل التجارة الداخليه بفتح مسالك فى الانهر بحيث صارت مسلوكة للسفن وكذلك فتح طريقا بين البحرين يعنى المحيط الغربى والبحر الابيض وهو خليج لنغدوق وقد كان تصور فتحه فرنسيس الاول ملك فرانسا ولم يشرع فيه ففعله كولبرت فى أيام لويز الرابع عشر وأنشأ المصانع والمعامل والورشات والكرخانات المتنوعة بتنوع المشغولات حتى سلب من البنادقة الاختصاص بصنعة المرايا والتجارة فيها دون غيرهم ومن الفلمنك صنعة الملابس والمفروشات ومن بلاد الدولة العلية الاختصاص بصنعة البسط والسجاجيد الجيدة ورتب المصالح البحرية

مطلب
تجديد كولبرت المنافع العمومية وجلب خصائص المصنوعات الاجنبية ومحاسنها لوطنه

من ترسانات ودواوين عوائد وحسن الزراعة والفلاحه وا كتسب الملك من أيام وزارته الصادقة فى العمل فلاحه ونقح الاحكام والقوانين وهو المؤسس لمدارس العلوم الكبيرة الملوكيه ولمدارس الرسم لاسيما مدرسة رومية التى هى بحسن الرسم معهوده ولم تزل باقية الى الآن على طرف الفرنساوية ومرصود الهادرا هم معدوده ورتب مكاتب النحت والنقش والمبانى وحسن مدينة باريس بتشييد الارصفة على نهر الصين وزينها بالميادين العمومية الفسيحه وقوى علم النجوم بالرصدخانة الملوكى وجدد فيها الحسبة والضبط والربط الداخلية وأدخل حسن التربية فى الجيوش العسكرية وسوى بالعمارات بالسواحل المينات المأمونه وبنى عليها قلاع الثغور المصونه وجدد لنفع الملة بتمامها قشلة لعساكر السقط على أتم أسلوب وأكمل نمط وعقد لمملكة فرانسا على غيرهم من الدول عقود المعاهدات والمحالفات النافعة وجعل الروابط والعلاقات بينهم وبين حلفائهم متواثقة متمانعة وأكثر من الفتوحات الفاخرة التى وسعت لعموم الوطن محيط الدائره وقدرثى ولتير الفيلسوف الشاعر لويز الرابع عشر بذكر بعض المآثر فقال ما معناه لم يتول قبله ملك من تلك العصابه ولا ساواه غيره فى تربية الرعية بهذه المشابه فالفخار شعاره والجدد ثاره وكان أحظى الملوك باكتساب الطاعة من رعاياه والانقياد كما كان أعظمهم فى الهيبة عند الاخدان والاضداد وربما كان دونهم فى ميل الرعية اليه ومحبتهم له بانعطاف القلوب عليه فطالما رأيناه تنقلب عليه صروف الزمان وتتلاعب به حوادث الحدثان وهو عند النصرة يظهر الفخار ويتجلد عند الهزيمة ولا يظهر بمظهر الذل والانكسار فقد أرهب عنده عشرين أمة عليه تعصبت وعلى قتاله تحالفت وتحزبت وبالجملة فهو أعظم الملوك فى حياته كما كان عظيم العبرة عند مماته انتهى

مطلب رثاء ولتير الشاعر لويز الرابع عشر

وكان فى عصر هذا الملك من مشاهير الرجال جماعات كثيرون فى كل فن فكان الملك فى أعلى درجات الفخار بالجمعيات العظيمة المؤلفة من هؤلاء المشاهير أرباب القرائح الكامله والعقول الراجحة الفاضله وقد استعان بجميعهم وعرف لكل منهم فضله وقلده من الوظائف بقدر استحقاقه فهو ومع هذه الجمعيات العظيمة التى ساعدت مظاهر سعده مخلد الذكر عند من جاء من بعده وفى بحر مدة حكمه تولى على الدولة العثمانية ستة من السلاطين فقد تولى لويز الرابع عشر على دولة فرانسا وكان اذ ذاك متوليا على الدولة العثمانية السلطان ابراهيم ابن السلطان أحمد خان الاول فخلفه ابنه السلطان محمد الرابع سنة ثمانية وخمسين وألف ومات فى سنة تسعة وتسعين ومائة

مطلب فيمن كان من السلاطين العثمانية فى عصر لويز الرابع عشر

وخلفه ابنه فى هذه السنة السلطان سليمان الثانى و يقال له الثالث ثم توفى فى أوائل شعبان سنة ألف ومائة واثنتين من الهجرة

ثم تولى فى هذه السنة السلطان أحمد الثانى ابن السلطان ابراهيم خان وتوفى فى سنة ألف ومائة وواحد من الهجرة ثم خلفه فى هذه السنة السلطان مصطفى خان الثانى ابن السلطان محمد الرابع وتوفى فى أوائل سنة ألف ومائة وخمسة عشر ثم تولى السلطان أحمد الثالث ابن السلطان محمد الرابع سنة خمسة عشر ومائة وألف من الهجرة وفى أيامه توفى لويز الرابع عشر فقد عمر لويز المذكور وعمر اطو يلا بقدر عمر خمسة من الملوك العثمانية فكان طول عمره مما أعانه على كثرة مشروعاته وانجازها جميعها

مطلب
مساعدة كبار الوزراء ارباب القرائح لملوكهم على التمدين

فقد علم من هذا مساعدة كبار الملوك على مقاصدهم برجال مجربين يكادان تنسب الافعال العظيمة اليهم كمساعدة خير الدين باشا وأمثاله لمولانا السلطان سليمان وكمساعدة الوزير مازارين ورئيس الوزرا كولبرت وكالمرشال تورين وغيرهم من مشاهير الابطال الذين لا يحصون عددا فلو حظى المرحوم محمد على فى أوائل توليته بأمثال هؤلاء الفحول المتصفين بالسياسة والرياسة وذكاء العقول لكان أعظم أبطال الدنيا ومع ذلك فله الفضل الذى كان أن يختص به فى كونه أعمل قريحته فى تربية رجاله الذين جاؤا معه الى الديار المصرية أو الذين انتخبهم أو رباهم فأحسن تربيتهم فى هذه الديار وببركة يمنه وحسن نيته الخيرية سلكوا معه سبيل الفخار ونالوا بتربيته كمال الشهرة والاعتبار فهو بهذه الملاحظة بالنسبة لتلك الازمان حاز قصب لسبق فى ميدان الملوك السابقين فهو جدير بأن يعد من عظماء ملوك الدنيا بيقين وحسبه أنه أحسن تربية نجله الاكبر ابراهيم باشا تربية عسكريه حتى شهد له بالفضل الحربى جميع أمراء جيوش الدول الاوروباويه وأيقنوا جميعا أنه من كبار قواد الجنود الذين اشتهروا فى القديم والحديث وأنه أول أمير من أمراء الجنود فى الدول الاسلامية من القرون الاخيره وأما فى السياسة الملكية فكان من كبار المدبرين وادارته الخصوصية أعدل شاهد على أنه لو طال عمره بعد توليته لكان من أعظم المعمرين وقد اقتضت حكمة الحكيم أن وضع فى اسمعيل سر ابراهيم وأنه حين آل سرير الملك اليه أجرى الله تعالى كمال خير التمدن على يديه وما تجدد فى عهده من المحاسن الجمه شاهد عدل على ان مولاه وضع فيه سر أبيه وجده وهى نعمة عظيمة وأى نعمه

الفصل الثانى

فى أن منافع مصر العموميه قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العليه وتسلطنت على قلبه وأخذت بمجامع لبه

لاشك ان الموى اليه أدرك بقريحته الصحيحه وفطنته الرجيحه أن المملكة المصرية السعيده وسائل الثروة فيها والسعاده هى عين وسائل الصيانة والجاده وانه ينبغى أن يعض عليها بالنواجذ وأن لا يفتح لشواردها سبل ولا منافذ ومن المعلوم أن منبع سعادة مصر بالاصالة الزراعة فلا يسوغ لها ان تتوقع الثروة الا من المحصولات الزراعية دون غيرها فليس من بلاد الدنيا بلد يسهل استخراج غزارة محصولاتها كالاراضى النيليه كما أنه ليس من أقاليم الدنيا ما هو أقرب للتلف كمصر اذ أراضيها أشد عرضة للفساد بفساد النيل فهى تابعة له وجودا وعدما فاذا أغمض النيل عينه عنها سنة من السنين وحجب عنها فيضانه الممزوج بالطينة المخصبة كانت السنة عقيمة ومجدبه كما اذا أغرقها بمائه الزائد عن الحاجة واللزوم فان السنة الغرقية كسنة الشراقى تورث الهموم وحسبك فى الخصب وضده ما ذكر فى سورة يوسف الصديق من ذكر سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف فالآية قد أجادت فى وصف مصر على وجه التحقيق وقوله فما حصدتم فذروه فى سنبله يرشد الى الاحتياط والاحتراس لجميع ملوك مصر وسائر من فيها من الناس فلهذا كان حكماء ملوك مصر يحتاطون فى سنى الخصب فلا يخرجون الزائد لغيرها من البلاد ويعتنون كل الاعتناء بحفظ مجرى النيل وتنظيم القناطر والجسور والترع والخلجان لمصلحة الرى فى كل طريق وسبيل فلذلك ترى من مبانى الفراعنة ما عظم نفعه من المصالح الخيريه لحفظ المزارع والمنافع النيليه فبهذا أبدوا اسعدهم وخلدوا ذكرهم لمن بعدهم واقتدى بهم غيرهم من الملوك

مطلب
كون الفلاحة هى منبع ثروة مصر الحقيقى وتحفظ حكماء الملوك على شؤنها

وعند فتوح الاسلام سلك الخلفاء والسلاطين والولاة بقدر استطاعتهم فى هذا السلوك وانما لما صارت مملكة مصر فى قبضة الكولمان وصار لهم عليها الرياسه واختلت أحوالهم وضعفت عندهم السياسه ولم يبق لهم من شهامة الحكام الا مجرد احسان ركوب الخيل والفروسية بدون فراسه أهملوا عمليات النيل فخسروا من نيل الثروة وكسب السعادة خسرانا مبينا وهجم عليهم الفرنساوية فلم يجدوا لهم من النظام المعنوى ولا الحسى منجدا ولا معينا فتبدد شملهم بالكليه وصارت مصر فى يد الفرنساوية تعد اقليما من اقاليم الجمهوريه ولم تعد للدولة العلية الابعد التى واللتيا فزحف عليها الممالك وبالهمة المحمدية العلية لم يلبثوا بها مليا ثم شوطن هذا الامر وتوطيد السرير أدرك انه لم يستول من الاراضى الا على موات ولم يسترع الا أحياء

ضعاف الهمة وهم فى الحقيقة لاختلال الهيئة الاجتماعية فى حيز الاموات
ولعل هذا البطل الهمام المؤسس فهم بقوة فطنته ما أجاب به عن سؤال عمر بن الخطاب
بعد الفتوح ملك مصر المقوقس وذلك ان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كتب
الى عمرو بن العاص ان يسأل المقوقس عن مصر من أين تأتى عمارتها وخرابها فسأله
عمرو فقال له المقوقس عمارتها وخرابها من وجوه خمسه الاول ان يستخرج خراجها
فى ابان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم الثانى ان يرفع خراجها فى ابان واحد عند
فراغ اهلها من عصر كرومهم الثالث ان يحفر فى كل سنة خلجانها الرابع أن تسد ترعها
وجسورها الخامس ان لا يقبل مطل اهلها فاذا فعل هذا فيها عمرت وان فعل فيها بخلافه
خربت انتهى

فكان المماليك المستولون عليها لا ينظرون الى عمارتها وانما يأخذون ما بدا لهم
وراج فى كل عام حتى صارت يبابا وازدادت خرابا فقد كان أهملها المماليك نحو
خمسين سنة بدون عملية نيليه فكانت الاراضى تفسد فى كل عام فى كثير من الاقاليم
حتى هجمت جيوش رمال البرارى على وادى النيل الصالح للزراعة فتكون من الرمال
على شواطئ النيل تلال واكوام ولو بقى حكم ابراهيم بك ومراد بك عشرين من
الاعوام لفسدت جميع أراضى مصر الزراعيه

مطلب
رأى نابليون فى تحسين أراضى مصر واستغلالها وتكثير أهاليها

قال نابليون حين تأمله فى أراضى مصر لو حكمت هذه الديار بحكومة منتظمة مضاهية
لحكومة فرانسا وايطاليا وانكلتيره والنيمسا لزادت مزارعها وأهاليها ثلاثة أضعاف
ما كانت عليه فى أيام المماليك فان المزارع تجلب من سواحل أفريقه ومن جزيرة
العرب خلقا كثيرين يتجعون اليها للميرة لما فيها من الخيرات انتهى فقد سخر الله
تعالى لها محمد على لاحياء مواتها وقد قال صلى الله عليه وسلم من أحيا أرضا ميتة فهى له
وليس لعرق ظالم حق يعنى من عمر أرضا فقد ملكها بالاحياء والتعمير وليس لمن غرس
عرق شجرة ظلما حق فيما غرسه وورد أيضا من احيا ارضا ميتة فله فيها أجر وما أكلته
العافية منها فهو صدقة والمراد بالعافية كل طالب رزق من آدمى أو غيره وصفة الاحياء

مطلب
ماخطر فى بال محمد على من الملحوظات الستة لاحياء مافى مصر من الموات و لتشبث باسباب الاحياء

التى علق به الموات شرعا ما يعد مثله العرف عمارة للمحيى فيختلف ذلك بحسب الغرض
منه الان احياء الديار المصريه هى حياة عموميه ملوكيه فلعله خطر فى خاطر ولى
النعم الملحوظات الآتيه

الاولى أنه لم يكن للنيل فى هذه الايام الا فرعان فرع رشيد وفرع دمياط وأنه يجب عمل
أقفال وسدود لهذين الفرعين بطريقة تقتضى ان لا ينصب من ماء النيل فى البحر
الابيض الا ما لا يمكن تركه فبهذه الوسيلة يكون ماء النيل الناقص جسيما ويمتد على كثير

من الاراضى زيادة عما هو عليه فبهذا تتسع الارض الصالحة للزراعة أو للسكنى أزيد من الحالة الراهنة

الثانية اذا صار الاعتناء بتطهير الترع والخلجان كما ينبغى وصار الاجتهاد فى تكثيرها بقدر اللزوم تمكث المياه على الاراضى جزأ عظيما من السنة فيتسع وادى النيل ومجراه ويمتد فيروى الاراضى الصالحة للزراعة فمن هذه الاراضى القابلة للغرس الواحات الخارجة وجزء عظيم مبدؤه من برية الفرما وسائر البحيرة ومريوط وما حوالى اسكندرية فان جميع تلك الاراضى كانت فى الازمان القديمة عامرة بالزراعة ليست من ما ثر النيل محرومة

الثالثة قد صح بوجه الحدس والتخمين ان بواسطة الطريقة السابقة المستحسنة جدا اذا أجريت بالضبط والمواظبة وحسن الهندسة الصادرة عن فكرة سليمة الناتجة عن حكومة منظومة تزيد فى مزارع مصر العامره ما ينيف عن تسعمائة فرسخ مربع

الرابعة الظاهر أن النيل فى الاعصر السابقة سبق مروره بالفيوم بالارض المسماة هنالك بحر بلاماء وجرى من الفيوم الى بحيرات النطرون وكان يخرج منها فينصب فى البحر المالح من المحل الذى خلف قلعة العرب والظاهر أيضا ان بركة قيرون المسماة بحيرة موريس التى هى كذلك بالفيوم سدت هذا الفرع وصارت بحيرة

الخامسة من المعلوم مما سبق أن خصب مصر وغيرها متسبب عن النيل وعن غيرها الزراعى متسبب عن اختلاف الفصول والامطار فبهذا كانت مصر مستعدة لكسب السعادة أكثر من غيرها بشرط انتظام حكومتها واجتهاد أهاليها لان اختلال حكومتها يخل بمزارعها بخلاف اختلال غيرها من الحكومات فلا يؤثر شيأ فى جريان الفصول والامطار فينتج من هذا ان مصر اذا توفرت فيها شروط انتظام الحكومة واصلاح النيل وسهولة وسائل المنافع العموميه ودفع المضار النيليه كثر خيرها وبرها واذا اختلت فسدت مزارعها فاختلال مصر فى السنين الماضية أضر بها كثيرا مع انه يمكن ان تكون أرض مصر ومزارعها مستوية الخصوبة فى جميع اجزاء الاقاليم بخصوبة واحدة اذا صار تعهدها على الوجه السالف الذكر بخلاف ما اذا أهملت جسورها على عملها المعتاد وتركت الترع بدون تطهير فان ذلك يوجب تلف الاقليم بتمامه ويجعله صحراء لا ينتفع بها فتأخير العمليات عن مواعيدها موجب للتلف فان الزراعة والحصد مبنيان على ازمان فيضان النيل وكميات مياهه وبفوات العمليات تفوت مواعيد الزراعة والحصادة

السادسة اذا صار الشروع فى عملية قناطر عظيمة تسد فرع دمياط ورشيد فى المحل المسمى

بطن البقرة وعمل لها أبواب ورباحات ومصارف فان بواسطة ذلك يحصل تحويل النيل للمحلات التى لا يصل اليها بدون ذلك فمصلحة الرى تصير كاملة ويصير ماء النيل عند الفيضان ضعفين بحجز مياهه ومنع الاسراف فيها بانصبابها فى البحر هذا ما تصورته لفكره الجليله المحمديه العليه لاسيما مما أرادت اجراءه فيما بعد ببناء القناطر الخيريه وبالجملة فكان ميل جنتمكان متوجها كلية الى بذل مجهوده وقوة نشاطه لاحياء عملية الرى والزراعة وعن ذلك نتج احياء مصر وأهلها واستنشقت فى أيامه رائحة الراحة لانه لما كان الرى مضمونا بهذه العمليات صارت الاراضى المصرية التى هى عناصر ارزاق الاهالى ذات أثمان غالية لكونها تؤدى محصولاتها بغاية من السهولة بشرط ترتيب المياه والاقتصاد فيها فكانت الحكومة المصرية دائما متشبثة بتحسين مصلحة الرى والاحتراس من الغرق والتشريق فقد سلك جنتمكان فى ذلك مسلكا حسنا اذ فى أقرب زمن اكتسب من مالية الاراضى أضعاف ايرادها الاول بقدر ست مرات قبل أن يتفرغ لتكثير العمليات النافعة وانما تأخرت أعمال الرى الجسيمة التى هى أهم من غيرها فى حد ذاتها وبالنسبة للاهالى ولتكثير ايراد المملكة لان غيرها كان فى ذلك الوقت أهم منها وهو ايجاد العساكر وتكثيرهم والاحتياج اليهم لتصميم ملكه والامن على نفسه وحماية الوطن فكانت بالنسبة الى الباشا المرحوم جميع المنافع العمومية الملكية عرضيه وتابعة للعسكرية التى بها تصميم كرسى الديار المصريه فلم يلتفت لرواج الزراعة البلدية الا التفاتا ثانويا ولم يصرف عليها فى أوائل حكمه الامقادير غير جسيمة بالنسبة لما صرفه على تاسيس العسكرية ومع قلة الايرادات اذ ذاك فكان يحسن تدبيره ويقنن ايراده على قدر مصرفه فلهذا لم تكن تحسينات الترع والجسور فى مبادى أحكامه متسعة بل كان يقتصر فيها على الضرورى منها

مطلب
صرف همة محمد على فى مبدا أمره لتنظيم العدة العسكريه وايثاره لها على كثير من المنافع العموميه

ومن المعلوم ان النيل لا يقاس به غيره من أنهار الدنيا فانه يستدعى للاقتصاد فيه تدقيقا مستمرا وتأملا متكررا فلا ينبغى ان يقاس بالانهار الواسعة البوغازات فان لها عند مصبها ما يسمونه حاجزا وهو السيف الذى يرسب من الطين وغيره من الاشياء المتجمعة فى البوغاز وهذا الحاجز يصادم مياه النهر عند انصبابها فى البحر فيجعل مجرى المياه وانصبابها بطيأ وأما النيل فان بوغازه عريض عرضا ذريعا مخصوصا به فى أيام فيضانه وفى مائه من الطين الذى يتحول معه من بلاد الحبشة جزء عظيم فيتكون منه عند بوغاز رشيد حاجز كبير جدا يعوق السفن المارة من النيل الى البحر عن الدخول فيه أو يجعل دخولها خطرا وليس لمصر الا طريق واحد من النيل الى هذا البحر تنقل منه محصولاتها فلما كان فى أوائل حكومة المرحوم محمد على طريق رشيد هى دون غيرها

مطلب
عدم قياس النيل بغيره من الانهار

الموصلة لنقل المحصولات لمن يسافر الى البلاد الاجنبية اضطر فى سنة اربع وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة أن يفتح ترعة بين النيل والاسكندرية وكان فى قديم الزمان ترعة تسمى بالخليج الاشرفى باقية الاثر وكانت توصل مياه النيل الى صهريج اسكندرية وقت الزيادة فكان يمكن توسيعها والسفر فيها الا أن جنتمكان محمد على عمد الى انشاء ترعة جديدة سماها المحمودية فكانت من أعظم الترع التى أنشأها على كثرتها فقد فتح كثيرا من الترع والخلجان الا انها متفرقة فى جهات عديدة ونافعة فى مواقعها ولم يعمل صورة رى واحدة عمومية بحيث يجمع المهندسون لرسم ميزانية مصرية مؤلفة من مجموع الترع والجسور اللازمة لمشغوليته بما هو أهم من ذلك مدة طويلة فى مبادى أمره وفى أثناء ولايته وانما بعد مدة طويلة اتسعت آراؤه فى العمليات وعرف الاسباب والمسببات واكتسب التجارب وتفرغ للعمليات النافعة وكان قد جاء أوانها وتوفرت وسائلها ونفقاتها وذلك أن النيل فى الحقيقة مما تكون قلب مصر وقالبها وهو الموجد للرطوبة الضرورية للقطر اذ لا يستغنى القطر عنها فالنيل نائب عن الامطار المرطبة فى البلاد الاخرى وزيادة على ذلك هو الجاذب للطمى الذى هو عنصر الخصوبة وأصل النماء والبركة حتى استظهر بعض الطبائعيين أن جميع وادى النيل متولد من الطمى ويؤيد هذا القول ما ذكره الاقدمون من ان الوجه البحرى متولد من تراكم الطمى الطينى الراسب من فيضان النيل السنوى وان شكل ساحل البحر الذى على هيئة نصف دائرة علامة قوية على صحة هذه الدعوى

وعلى كل حال فمن المحقق ان النيل كل سنة يحصل منه تغييرات وتبديلات وتحويلات يترتب عليها ثلاث مضرات ينبغى التأمل فيها لتداركها

الاولى ان تراكم الارساب الطينية يتسبب عنه ارتفاع ارض وادى النيل بقدر لا يصله الرى فتضيق كميات الاراضى الزراعية التى يصل اليها الماء عند الزيادة

الثانية ان النيل حين يفيض يحفر الارض ويجر الحصباء فينفذ فى خلال القيوف فيسقطها فيحدث من ذلك كل سنة انخفاضات جسيمة فيتسع فرش النهر ومجراه وبقدر ذلك تتناقص تسوية ميزانية النهر وينحط سطحه فيتولد عن هذا أن الاراضى التى كانت تغرق سابقا بالماء مدة الزيادة صارت بعيدة الآن عن النيل بمسافة بحيث لا يصعد اليها الماء فبهذا صارت يابسة ولو فى زمان الزيادة وهذه الحالة ملازمة للحالة الاولى

الثالثة أن النيل من حيث انه غير محبوس يجور على البحر عند بوغازه فيصادم ماؤه ماء البحر عند مده ويجور البحر المالح أيضا على الاراضى المستجدة التى يضيق عنها انطلاق الرى فيتلفها وسيأتى فيما بعد معالجة هذه العلل الثلاثة المضرة بوادى النيل وبيان

مطلب
انشاء ترعة المحمودية لتسهيل النقل

مطلب
تفرغ محمد على للعمليات النافعة لثروة مصر عند الاوان

مطلب
زعم بعض الحكماء ان أرض مصر حادثة من الطمى

مطلب
الالتباه للمضار الثلاث النيلية التى يجب التحفظ منها

مطلب
مضار البحر عند مصب النيل

مقصر

مضرة البحر المالح للاراضى الزراعية أنه فى شهرى برموده وبشنس يكون ماء النيل قليل المياه منخفضا فيصعد البحر المالح نحو ثلاثة فراسخ فوق دمياط ورشيد فيرسب منه رسوب كالربوات من المياه المالحة فى السهول المنخفضة الزراعية فيتكون من ذلك البرك المالحة فمن ذلك بحيرة المنزلة وغيرها من البحيرات التى كانت مزارع وزالت ثم يأخذ النيل فى الزيادة فى الصيف ويحصل الوفاء فى الخريف فيبقى النيل مستمرا على زيادته مدة أيام ثم يأخذ فى النقص شيأ فشيأ حتى اذا دخل فصل الشتاء كان ماؤه منخفضا جدا ولكن لاتزال المياه موجودة فى الترع الكبيرة ففى هذه الحالة يدخل فصل الزراعة فاذا انقضى فصل الخريف يبست جميع الترع ونضب ماؤها ماعدا عدة ترع مستثناة يسقى منها بالراحة أو بالالات ففى هذا الفصل تسقى الزروع والغروس فى أكثر محال الديار المصرية بالتوابيت والسواقى الا أن طريقة السقى على هذا الوجه ضعيفة شاقة كثيرة المصاريف ومع ذلك كله لاينتفع منها الا القليل من المزارع لاسيما القريبة من النهر

مطلب
مضار البحر المالح عند مصب النيل

فبواسطة السقى الدائم يحصل من مزارع الديار المصرية ثلاث محصولات أو أربع فى كل سنة ولكن أغلب أراضى مصر ملق غير رواتب فلا تسقى بتلك الطريقة بل يعمها الماء وقت الرى حسب العادة فلا تزرع الامرة واحدة ولا تؤدى الا محصولا واحدا فى السنة فقد لوحظ بالقانون الهندسى أنه اذا صار تعميم النيل بترتيب مساقى مرتبة على فصول السنة وتوفيق السقى على مزاج القطر وما يناسب من أصناف الزراعة فانه يترتب على هذا ايجاد عدة محصولات للمزارع فى السنة

مطلب
تكثير عدد المحصولات بجعل الارض رواتب

فاذا تأمل أهل الزراعة الى أسباب تكثير المحصولات وتعددها وماتستدعيه من القوى غير المعتادة والاعمال المدبرة فان هذه القوى تساوى القوى الطبيعية فى تنمية المحصولات فقد لاحظ جنتمكان محمد على باشا انه ينبغى قبل كل شئ ابطال الاسباب الطبيعية الموجبة فى أكثر الاوقات لتنقيص أراضى الزراعة على التدريج وأنه لايدرك مرامه فى الثروة والغنى الا بالانتصار عليها وهزمها اذ هى أعدى عدو للبلاد كما انتصر فى وقائعه الحربية

مطلب
ازالة الموانع الطبيعية الموجبة لتقليل أراضى الزراعة

الاول من هذه الاسباب ارتفاع وادى النيل المانع لرى عدة محلات والحاجز لعمومها بالماء

الثانى تلف القيوف المسبب عنه توسيع فرش النيل وانحطاط ميزانية مائه

الثالث جور مياه البحر المالح وامتدادها على الارض الزراعية وسلبها منها على التدريج مقادير واسعة فهذه ينبغى معالجتها وقتيا بما يليق بها من الاصلاحات

تسبيخها وتسميدها وتوصيل المياه اليها ولولم تنتج بهذه المعالجات قدرعدة المحصولات السنوية الاآن فائدتها تنسيب الزراعة على أسلوب واحد بحيث ان الماء يصلها فلا تهمل الى حد حصول التداركات الموفية بالغرض وأسهل طريق فى منع تلك الاسباب المضرة وازالة ضررها دفعة واحدة فى آن واحد مع الاقتصاد فى المصارف هو أن يحصر النيل بسدود لائقة يعنى أن يعمل له بالهندمة والهندسة فرش محصور محدود لايمكن معه اتلاف القيوف فالجزء الزائد من ميزانية النهر الذى يطفو على السدود زمن الفيضان يصير تصريفه بالتوزيع على الاراضى والحيضان كما كان جاريا قبل عمل السد فيحصل الطمى كالعادة

فهذه العملية تجعل فرش النيل محصورا وتزيد فى سرعة جريان ماء النهر عند مصبه فيتجدد من هذه القوة فائدة عظيمة لان ماء النيل يزاحم حينئذ مياه البحر الملاطمة له ويغلب عليها فيصدها ويرد امتدادها وانتشارها بما فيه من السرعة والقوة ويطردها طردا عنيفا كما فعل ذلك فى بعض أنهر أوروبا التى بهذه المثابة وهذا المعنى هو الباعث للمرحوم على عمل الجسور العظيمة وعلى عمل القناطر الخيرية التى هى من أعظم المنافع العمومية المصرية كما يذكر فى الفصل الثالث من الباب الرابع

الفصل الثالث

فيما دبره المرحوم محمد على من اصول المنافع العمومية الجسيمه والوصول بها الى الحصول على التقدمات العميمه فى زمن يسير عما لو أنجزه من الملوك جم غفير لعدة من العمل الكثير وحسن التدبير

الغرض التكلم على رى الاراضى وسقيها بما يخص العادة والامور الهندسية التى هى أيضا من تدبير الحكمة الالهية والافلو نظرنا لمحض الحكمة الالهية لقلنا كما قال الغزالى رحمه الله تعالى فى احياء علوم الدين ان الرغيف لايستدير ويوضع بين يدى الآكل حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا اولهم ميكائيل عليه السلام وهو الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة ثم الملائكة التى تزجر السحاب والشمس والقمر والافلاك ودواب الارض وآخر ذلك الخباز انتهى ويقاس على ذلك كل فرع من فروع المعاش فالعمل هو الذى عليه المدار وهو القوة الاولية فى ابراز المنافع الاهلية كما سبق فى الفصل الثانى من الباب الاول فان ما يأتى فى العمليات النيلية لخصب أرض مصر يؤيد ما ذكر فى ذلك الفصل ومن المعلوم أن مصلحة الرى التى هى عبارة عن عمل الترع والجسور والقناطر من أهم مصالح الحكومة لان هذه المصلحة النيلية لها مدخل عظيم فى غنى

الاهالى وسعادتهم كان لها تأثيرا عظيما فى تكثير ايراد المملكة المصرية لان النيل هو رأس مال البلاد والاقاليم كما قال بعضهم

لمصرنا من نيلها ثروة * فالرزق من اصبعه يجرى
يقول من أبصره أحمرا * قوموا انظروا الذهب المصرى

فاذا كان النيل فى يد مدبر نشط أحسن التصرف فيه فانه يربح ربحا عظيما بخلاف ما اذا كان فى يد انسان مهمل أو جبان أو فاتر همة أو جاهل لايدرك العواقب فانه يتلفه بسوء تصرفه فيكسد رأس ماله الذى هو النيل وتذوق مصر عذاب القحط الوبيل لانها بدون الرى ليست الا بلاقع فعماريتها بقدر حسن التصرف فى مياهها النيلية فالنيل بالنسبة اليها كالدم لجسم الانسان فقوة البدن بقدر ما فيه من الدماء كما قال بعضهم

ان الدماء قوام * لكل جسم صحيح
وجرة النيل فيها * قوام جسم وروح

مطلب ما يترتب على انتظام مصلحة الرى

فمصلحة الرى العمومى هى عملية الاقتصاد فى النيل وتدبير مياهه فقد كانت مصر فى أيام الفراعنة ذات قناطر وجسور حسنة التدبير والتقدير حتى ان الماء كان يجرى تحت منازلها بمقدار منافعها فيحبسونه حيث شاؤا ويرسلونه حيث شاؤا وذلك معنى قوله تعالى فيما حكى عن فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ولم يكن يومئذ ملك اعظم من ملك مصر

فاذا انتظمت العمليات باصول واسعة فان أرض مصر الزراعية تزيد وتمتد وتكثر وسائل ثروتها وتمدنها وتعظم شوكتها وقوتها المملكية وأما اذا بقيت قليلة الترع والجسور عديمة الانتظام والتطهير والاصلاح والترميم فانه ينحط قدرها ويظهر الفقر والمسكنة على أهلها ويضعف تمدنها فلابد من صورة تنظيمية وأصول اجتماعية مستوفية للمذاهب المائية وقوة اجرائيه ومثل هذا لا يكون من وظيفة الآحاد والافراد ولا من محض وظيفة القرى والبنادر والبلاد سواء كان بالاجتماع أو الانفراد بل هذه وظيفة القوة الحاكمة العمومية التى هى من المولى تبارك وتعالى كالوصى على مصر وعلى جميع الرعية فنفوذ الحكومة هو الذى يتعهد اصلاح هذه الدرة اليتيمة وليس فى ممالك الدنيا مملكة لصاحبها النفوذ الحقيقى على الزراعة والفلاحة الا صاحب مصر فانه لايجد فى اهمالها فلاحة وبقدر نفوذه على ادارة الزراعة يكون له النفوذ على الاهالى وأما غير مصر من البلاد التى ريها بالمطر فليس للحكومة عليها ولا على قلوب أهاليها كبير تسلط

ولما كان رى مصر دائما صناعيا مدبرا كان لابد فيه من حسن الادارة المائية والضبط والربط فى تطهير الترع وبناء الجسور والقناطر فان كانت الحكومة المتولية على مصر سيئة التدبير أو قليلة العدل أو ضعيفة القوة فانها تقتصر على تدبير بعض الاقاليم دون بعض أو بعض الاملاك الخصوصية على قدر منفعتها وتجحف بالمصلحة العمومية فلا تخلو الاقاليم فى داخلها من المشاجرات بين الاهالى واذا فتحت الحكومة ترعة عظيمة خصوصية أو أهملت ترعة من الترع وجعلتها عرضة للتلف ترتب على ذلك ان الرى لا يكون الا فى أماكن قليلة فتتناقص كمية الاراضى الزراعية عن أصولها الاتساعية وهذا الخلل انما يترتب على عدم الحكومة المركزية فان حكومة المماليك الاختلالية لما تجردت عن القوة المركزية ووحدة الحكومة تجردت بالضرورة عن صورة الرى العمومية المصرية

فقد كانت حكومة المماليك مؤلفة من عدة سناجق تتوزع بينهم اقاليم مصر وكل سنجق يقطع لكشافة القرى والنواحى وكان كل سنجق منفصلا عن غيره بادارته وسياسته لا يتبع الا هوى نفسه ولا يطيع الا ما يسوله له عقله من وسائل التخريب وان كان مستقيما للصدفة والاتفاق فالغالب عليه التكاسل وعدم النشاط فكان فى أيامهم لكل قسم وكل قرية ترع وجسور خصوصية لا ينتفع من السقى منها الا أهاليها ولم يكن بينهم روابط عمومية فكان أصحاب الاراضى والمزارعون لها المجاورون شطوط المياه يحتكرون الرى والسقى ويختلسون من المياه ماهو قريب منهم ويمنعون الاراضى البعيدة من ذلك مع كونها الها حق فى مشاركتهم فى المياه عند الفيضان فكان ينشأ من هذا الامر ما يدعليه من عداوة قرية لاخرى وربما ترتب على ذلك القتال وسفك الدماء فلهذه الحوادث الجارية فى أيام حكمهم تقهقرت العمليات الهندسية الموروثة عن الفراعنة والرومانيين ومن بعدهم من الخلفاء والسلاطين ممن كانت دولة مصر فى أيامهم منظومة كأيام احمد بن طولون فانه لما تولى الامير أحمد على مصر تسلمها من أحمد المدبر وقد تلاشى أمرها وانحط خراجها فاهتم ابن طولون فى عمارة جسورها وبناء قناطرها وحفر خلجانها وسد ترعها فاستقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه ووصل خراج مصر مع وجود الرخاء أربعة آلاف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار يعنى أربعة ملايين دينار وثلث مليون تقريبا وهذا غير ما يحصل من المكوس وكان ملكا شجاعا صاحب جيوش وسخاء كثير الاموال والخزائن مستقلا بمملكة مصر يستوفى خراجها وكانت مصر فى أيامه عامرة آهلة كثيرة المحصول لرفقه برعيته وتكثير ثروتهم وقوتهم وعدم ظلمه وجوره عليهم وما كان تحصيل الاموال الكثيرة جدا منها الا بسبب

مطلب
حالة الرى فى عهد حكومة المماليك

عمارتها فكانت كالروض البهي في زهرتها ونضارتها
فقد بني مدينة شرقي مدينة الفسطاط وسماها القطائع وكانت مدينة جليلة بنيت قبل القاهرة وكانت ميلا في ميل أولها من كوم الجارح الى الصليبة وعرضها من قناطر السباع الى جبل المقطم فلما فرغ من بنائها اسكن بها جنده وكان قريبا من المائة ألف ثم ابتدأ بناء جامعه الذي بلغت النفقة عليه مبلغا جسيما ورأى أحمد بن طولون الصناع يبنون في الجامع ويتأخرون الى دخول الليل وكان في شهر رمضان فقال متى يشتري هؤلاء الضعفاء إفطار العيال هم وأولادهم اصرفوهم بعد العصر فصارت سنة غالبة الى اليوم بمصر قيل لم يكن بمصر بقعة أعظم من البقعة التي بني فيها هذا الجامع وكانت تسمى جبل يشكر وهو مشهور باجابة الدعاء فيه وبني أيضا بجوار هذا الجامع مارستانا وصرف عليه ستين ألف دينار والظاهر انه أول مارستان بمصر وجعل به خزنة الشراب والادوية وكان يجلس على بابه كل يوم جمعة طبيبان برسم مناظرة الضعفاء وأرصد عليه الاوقاف الكثيرة الدارة وقد أصلح أيضا مقياس مصر وصرف عليه ألف دينار فاين حسن عدله وتدبيره من ظلم المماليك الكيلمان في الاعصر الاخيرة وتدميرهم للبلاد فدار العمار على العدل وبضدها تتميز الاشياء كما قيل

عليك بالعدل ان أوليت مملكة * واحذر من الظلم فيها غاية الحذر
فالملك يبقى مع الكفر الذميم ولا * يبقى مع الجور في بدو ولا حضر

فلذلك في مدة أحكامهم صارت مصر تفقد كل يوم عناصر حياتها على التدريج باختلال الانتظام فكانت مصر محتاجة الى تنظمها في وحدة حكومة مركزية فأدركت مرامها بنادرة العصور وهي الذات المحمدية العليه ولولا ان رزقت بالمرحوم محمد علي باشا الدرست رسومها بالكليه فقد أسعدهم الله سبحانه بسيادته وكان انقاذه لهم من قبضة الظلمة سببا لسعادتهم وسعادته فانه اهتم باصلاح الترع القديمة بالترميم وجدد ما اقتضته الضرورة من الترع والجسور والقناطر ما عاد على الزراعة بالتحسين والتقديم

مطلب
تسخير المولى تبارك وتعالى محمد على لاحياء عمارية مصر

وقد أسلفنا الكلام على ترعة المحموديه وعلى منفعتها العموميه ولا يسعنا هنا سرد جميع العمليات المائيه التي صارت في أيام حكومته العدليه وانما نذكر بعضا منها فنقول ان من جملة أعماله عمل الجسر الاعظم الممتد بطول النيل على الساحلين مبدوءه من جبل السلسلة في الصعيد وانتهاؤه الى بحر اسكندرية وهو محيط بالوجه البحري فهذا الجسر سد عظيم يحفظ بقاء مياه النيل في فرشه ومجراه فاذا ارتفع الماء عند الفيضان حفظته الجسور من انتشاره وتغريقه للبلاد كما

ان هذه الجسور تحفظ أيضا مياه النيل فى زمن الرى مدة طويلة على الارض حتى يرسب طينها النافع وتحصل فائدة الطمى وقد صار عمل هذا الجسر الاعظم الحافظ للمياه فى ظرف سنة واحدة بدون اتعاب للاهالى اذ كل بلد أعانت فى عمله بقدر ما يخص بلدها منه وهذا كله غير القناطر والجسور الخصوصية المنشأة فى الاقاليم البحرية والقبلية لاسيما بالجهات البحرية فانها اخصبت جدا وتكاثرت فيها زراعة الاصناف وعلى الخصوص زراعة الاقطان اذ صارت ضامنة الرى أياما كانت زيادة النيل بخلاف الصعيد فانه لم يصل الى هذه الدرجة القصوى اذ لم تغفل عنه عين المرحوم طرفة عين وان لم يجتهد فى اصلاح الصعيد بمثل ذلك الاجتهاد مع أن أغلب ملوك مصر فى الازمان القديمة كانت همتهم فى تحسين الصعيد وتمدينه حتى قيل ان الاقاليم القبلية كانت سابقة التمدن قبل الاقاليم البحرية قيل ولعل سبب تراخى اعتنائه به كمال الاعتناء أن الصعيد لا يصلح لزراعة الاصناف كالوجه البحرى لاسيما زراعة القطن وان كان الصعيد ينجح فيه زراعة الكتان والافيون وغير ذلك بل والقطن على قلة حتى ان زراعته فى بلاد النوبة التابعة لمصر ناجحة وانما تحتاج لعزيمة الحكومة فكمال الاهتمام فى المصالح النيلية مبقية لعناية حكومة الذرية المتولية العزازة

ومن أحوال الصعيد الآن أن السنين التى فيها زيادة النيل متوسطة لابد أن يبقى فيها منه جزء بدون رى وانما أكثر مزارع مديريتى أسيوط وجرجا ضامنة فى هذه الحالة للرى والظاهر أن هذا الوصف فى تلك الجهة حاصل من قديم الزمان

مطلب تصوير الاراضى للرشيد واستحسانه منها اقليم الاسيوطيه

فقد ذكر بعض المؤرخين أن الدنيا كلها لما صورت للرشيد لم يستحسن منها الا كورة أسيوط لان من مساحتها ثلاثين ألف فدان فى استواء الارض لو وقع فيها قليل الماء لانتشر فى جميعها لا يشرق منها شئ يزرع بها الكتان والقمح والقرطم وسائر أنواع الغلات فلا يكون على وجه الارض بساط أعجب منه وبها مناسج الارمنى والدبيقى والمثلث وسائر أنواع الملبوس الذى لا يخلو منه ملك اسلامى ولا جاهلى وبها الخس والسفرجل الذى يزيد على كل بلد فى كثرته وبهائه والليمون الذى يحمل الى سائر الآفاق وبمدينة أخميم من عمل الاسيوطية الطراز الصوف الشفاف والمطارف والمطرز والمعلم الابيض والملوكى ويحمل منه الى أقصى البلاد والى سائر الآفاق يبلغ الثوب منه عشرين دينارا والمطرز مثله فهذا يدل على حسن الزراعة والصناعة بتلك الجهات انتهى فانظر ما حكاه المؤرخون فى شان أسيوط واخميم فانه يتراءى استبعاده مع ان الواقع أن قطرهما الى الآن قابل لمثل ذلك ولعله يعود الامر



كما كان وفى قريب من الزمان

وقد كان تصميم جنتمكان على أن يعمل ترعة عظمى محاذية للنيل على استقامة الصحراء وتكون فوهتها من عند جبل السلسلة فلم يتم مرامه الا أنه صار عمل بعض ترع فوق البلينة أصلحت كثيرا من المحال بتلك الجهة حتى صارت حيضان تلك الجهات تروى من بعضها فى أيام أخذ النيل فى النقص ومع صرف المرحوم المشار اليه همته العلية فى مصلحة الرى فى الاقاليم البحرية فلم يأخذ الرى فيها حده الاكمل بسبب تعذر تطهير الترع فى مواعيدها كل سنة مع اتساع الدوائر الزراعية اتساعا وافرا فى الاقاليم البحرية ولا تكمل مصلحة الرى الا بايجاد القناطر الخيرية على فرعى النيل المفترقين من شلقان اللذين أحدهما شرقى وهو فرع دمياط والثانى غربى وهو فرع رشيد وذلك أن هذين الفرعين يتكون منهما مثلث وهو الجزيرة المسماة أيضا الدلتة ومنهما تروى عدة مديريات وهى مديرية القليوبية والشرقية والدقهلية والمنوفية والغربية الآن انتفاع هذه المديريات منهما لا تكون تامة الا فى زمن فيضان النيل وأما فى أيام التحاريق فان مياههما تنصب فى البحر المالح ولا تعود منها على الزراعة أدنى منفعة فانصبابها فى البحر المالح محض خسارة على الزراعة فاستصوب المرحوم قنطرتهما من أمام شلقان الى بر المناشى بقنطرتين احداهما على البحر الشرقى والثانية على البحر الغربى بعيون كثيرة وأن تكون القنطرتان على استقامة واحدة من البرين يعنى من بر شلقان الى بر المناشى وأن يبنى على رأس الجزيرة رصيف يكون ابتداؤه من الشط الغربى من فرع دمياط وانتهاؤه الى الشط الشرقى من فرع رشيد وفائدة هذا الرصيف منع المياه من ان تقطع رأس الجزيرة فتغرق المنوفية والغربية وأن يكون هذا الرصيف عاليا جدا بحيث لا يرتفع اليه الماء عند الفيضان وان يعمل لعيون هذه القناطر الخيرية بوابات محكمة تقفل وتفتح بحسب الاقتضاء لحبس المياه وارسالها وأن يعمل أيضا لمساعدة القناطر الخيرية ثلاث ترع كبيرة رياحات تكون فوهاتها من فوق تلك القناطر الخيرية احدى هذه الترع يكون معدا لرى القليوبية والشرقية والدقهلية بالراحة وفوهتها من الشط الشرقى قبلى شلقان والترعة الثانية تكون فوهتها من وسط رأس الجزيرة يعنى من منتصف الرصيف وتكون معدة لرى المنوفية والغربية والترعة الثالثة تكون فوهاتها من فوق القناطر الخيرية ببر المناشى وتكون معدة لرى مديرية البحيرة وأن يعمل لهذه الترع الثلاثة التى هى عبارة عن فروع خارجة من بحر دمياط ورشيد قناطر وعيون على حسب ميزانية الارض وأن يعمل لها بوابات تقفل وتفتح على حسب الاقتضاء

مطلب
كمال مصلحة الرى باتمام القناطر الخيريه

مطلب
لزوم الرياحات للقناطر الخيرية والمديريات المنتفعة بها

فاذا تمت على هذا الوجه ترتب عليها انه فى وقت فيضان النيل تفتح القناطر الخيرية وقناطر الثلاث ترع المسماة بالرياحات لتصريف مازاد من مياه النيل عن لزوم الرى فى البحر المالح وحبسه بقدر اللزوم بقفلها بقصد السقى و بجعل سفر المراكب ممكنا وفى أيام التحاريق تقفل بوابات القناطر الخيرية قفلا محكما بحيث ترتفع المياه أمام القناطر المذكورة بقدر عدة أمتار فتنصب بالضرورة فى الرياحات الثلاثة المستمدة الماء منها فى هذه المدة وكذلك تقفل أبواب قناطر الرياحات فى أيام التحاريق بحيث تفيض مياهها على الاراضى التى أمامها ولا يترك منها الا القدر الزائد ليتوزع على الاراضى والحيضان من حوض الى آخر

و بهذا القفل فى القناطر الخيرية وفى الرياحات يمكن السفر فى السفن فى هذه الجهة فى النيل وقت التحاريق فالقناطر الخيرية والرصيف والرياحات هى المقصد الذى به تتم مصلحة الرى فى المديريات الستة السالفة الذكر وقد تم منها فى أيام المرحوم جنتمكان القناطر الخيرية والرصيف ولم يتم عمل الرياحات بل الذى صار اعماله جزء من رياح القليوبية وجزء من رياح المنوفية وجزء من رياح البحيرة فجزء رياح القليوبية تلف الآن بالكلية وجزء رياح المنوفية يستعمل الآن استعمالا غير المقصود منه فان مصلحة رى المنوفية أحوجت الى استعماله بتوصيله المياه الى الترع القديمة وأما جزء رياح البحيرة فلم يزل الى الآن باقيا لكن بدون ثمرة بل بوابات القناطر الخيرية التى بها منفعة القناطر لم يتم منها الى الآن الا بعضها لا جميعها والبعض الذى صار عمله لم يكن محكم القفل والفتح بالسهولة فلا يكون الانتفاع منه الا بالصعوبة فلو تم عمل البوابات كالغرض المطلوب منها فى الفتح والقفل بغاية السهولة وتمت الرياحات الثلاثة المذكورة وقناطرها الثلاثة حكم المرغوب لحصلت الثمرات العظيمة للمديريات المذكورة وتوفرت المياه التى تسقى بالراحة وتوفرت أيضا جميع السواقى والتوابيت واكتسبت الاهالى المكاسب العظيمة من الزراعات مع قلة المصاريف حيث أنها لاتخسر مياه النيل التى لا ينصب منها فى المالح الا القدر الزائد عن اللزوم فلا شك أنها اذا تمت القناطر الخيرية على الوجه الاكمل بموجب تصميمات الحكومة فى الحالة الراهنة فانها تكون من أعظم مايوجب كمال الافتخار للجد والحفيد والموجود منها الآن فهو من آثار ما ترجو هرى العقل الفريد اذ أنوار عقله السواطع هى أشعة المنافع

قد بلغ النيل كل نفع * من فيض تلك اليد الكريمه
وصار ذا غلة ورزق * فهذه نعمة جسيمه

وقد

وقد ذكرنا عناية جنتمكان باصلاح مصب النيل وقد اعتنى أيضا رحمه الله بالبحث عن استكشاف منبعه اقتداء بمشاهير قدماء ملوك مصر وملوك العجم واسكندر والبطالسة وقياصرة الروم وعقلاء خلفاء مصر ونبلاء سلاطينها وملوكها بعد الفتح فأرسل فى ظرف أربع سنوات ثلاث ارساليات متوالية وكانت فى سنة ١٢٥٧ الارسالية الثانية تحت رياسة سليم بك قبودان ودرنوبك مهندس وهى أنفع الارساليات فسارت هذه الارسالية من الخرطوم فى النيل المسمى هنالك بالبحر الابيض مسافة خمسمائة فرسخ حتى وصلت الى جزيرة تسمى جزيرة جانكير بعشر ع كندكرو وعندها رمال وصخور متكاثرة كالشلالات تمنع السير عن النيل منعا كليا فاقتصر القبودان المذكور على أخذ الاستعلامات اللازمة مما يعلم من أهالى تلك الجهة فاستبان من ذلك ان منبع النيل بقرب دائرة الاستواء على ثلاثين مرحلة فوق جزيرة جانكير المذكورة فتكون المسافة بين جانكير ومنبع النيل نحو مائة وخمسين فرسخا تقريبا وبهذا الاستكشاف سهل لسياحى الانكليز تمام استكشافه بعين ارسالية جنتمكان الذى كان لم يزل طرفه للبحث عن احراز المكارم يقظان

مطلب ارسالية المرحوم محمد على لاستكشاف منبع النيل

ملك أسهر عينا لم تزل * همها تشريد هم الراقدين

مارو ى الراوون بل ماسطروا * مثل ماخطت له أيدى السنين

(غيره)

أصبحت دونهم ملوك الارض منفردا * بلا شبيه اذ الاملاك أشباه

مشمر او بنو الاسلام فى شغل * عن بذر غرس لهم أثمار عقباه

فقد أنفق على مصلحة النيل النفقات الخارجة عن حد العادة كما قيل

لوان فيض النيل فائض نيله * لم تفتقر مصر الى مقياس

فقد اشترى وسائل التمدن ومقاصد المآثر العاليه ومقدمات التقدم بالاثمان الغاليه

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله * ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل

ومن لم يذل النفس فى طلب العلا * يسيرا يعش دهرا طويلا أخا ذل

فلله اليد الطولى التى نقلت صورة الاهالى من صورة الى أخرى ومن هيولى الى هيولى فقد أوجد عزم محمد على بالتوفيقات الصمدانيه من الامة المصريه أطباء ألباء وأرباب هندسة عاليه وترجمة ساميه وأرباب ادارة ملكيه وضباط عسكريه وأرباب صنائع وتجارات وكان هذا للمدارس والمكاتب من أفضل النتائج وأجل الثمرات

مطلب انشاء المدارس المصرية

فقد انشا من أول الامر مدرستى قصر العينى والدرسخانه فكانت أولاهما كالتجهيزية والمبتديان وكانت الثانية كالخصوصية يخرج منها المستخدمون باى دوان ثم جدد مدرسة الطب والمهندسخانه بعد تجديد عساكر النظام فكان يخرج منهما الاطباء والمهندسون للمصالح الملكية والعسكرية من المهرة العظام ثم جدد مدارس الجهادية من بيادة وسوارى وطوبجية ليخرج منها الضباط الفخام وكذلك جدد مدرسة العمليات لتعود بالنفع على الفنون والصنائع من سائر أنواع المنافع ومدرسة للالسن الاهلية والاجنبية لمعرفة اللغات واستفادة ترجمة الكتب الاجنبية ونتج عنها تكثير المعلومات واحرزت ديار مصر منها الفوائد الجمه والمعارف المهمه وجدد مدارس ومكاتب عديده للمبتديان والتجهيزية على صورة جديده واجتنى ثمرات الجميع على وجه منتظم رفيع

فقد أرشد الملة القاصرة الى المنافع المفيده حتى صارت الملة المصرية رشيده فتعلمت المبادى والمقاصد وتمكنت من معرفة فوائد الانحاء المراصد ولم يكتف بتوسيع دائرة التعليم والتعلم فى بلاده بل أرسل الى فرانسا عدة ارساليات لتعليم العلوم والصنائع واستخراج الفنون من معادنها التى يمراده فتكفل باستخراج المنافع من معادنها وباستنباط عيون المعارف من مواطنها ومع ذلك فقد أنشأ كما سبق مدرسة للالسن فى الاكثر لقصد ترجمة الكتب الغريبه فكانت للوفاء بجل مقصده مجيبه وترجم فيها كثير من العلوم المتنوعه ودخل رجالها فى الخدامات الميرية وعادت منهم على البلاد المنفعه وقد نتج عن انشاء مدرسة الطب مشورة صحيه تدير عموم الصحة الاهليه كما نتج عنها عدة اسبتاليات نفعها عميم حيث ترتبت فى جميع الاقاليم ومدرسة الولادة تعد من أعظم المآثر كما أن مصلحة تلقيح الجدرى وقت النفوس من الاخطار وترتب عليها الصون من التشويه وتنمية الاهالى وتكثير العمار وأما تجديده لترتيب العساكر الجهاديه بريةً وبحريه على صورة جميله وهيئة جليله فقد عجز عنها على هذا الوجه قبله ملوك الاسلام وانصاغت هذه التنظيمات لهذا الهمام المقدام واقتدى به بعد ذلك سواه ولكن لم يصلوا فى زمنه الى درجة ما أحسن ترتيبه وسواه لاسيما سفنه البحريه فكانت بحسن النظام حريه فقد رتبها قبل حرب موره حيث استدعتها الضروره وذلك لانه لما طلب منه ديوان القسطنطينية الاعانة بالقوة فى غزوة موره التى هى أعجب غزوة مشهوره لم يبعث هذا الديوان سفنه الحربيه ولا عمارته العثمانيه لنقل العساكر المصريه والذخيرة الى جزيرة موره ولم يكن اذ ذاك عند المرحوم محمد على بعصر الاسفينتان كل سفينة منهما ذات ثلاثين مدفعا لم يكمل

شغلهما الجهز ثلاثة وثلاثين سفينة حربية كاملة الآلة والعدة فى أقرب مدة ومائة سفينة من سفن العادة لنقل المهمات
وقد تكامل هذا العدد فى واقعة ناوارين وتلف أكثره باحراق المتعصبين فشرع فى عمارة سفن أخرى أعظم منها بشرائها من البلاد الاجنبية الاوروباويه ثم شرع فى عمل ترسانة الاسكندريه سنة ألف ومائتين وسبعة وثلاثين التى لم تكن دون ترسانة طولون ببلاد الفرنساويه
فقد رتب بهذه الترسانة مصانع ومعامل متنوعه ومخازن مهمات ومفاتل أحبال وأنشأ بهذه الترسانة أيضا كثيرا من السفن الحربية التى كل سفينة منها من ذوات المائة مدفع وغير ذلك من السفن حتى صارت دونانمة عظيمة واستخدم فيها الاهالى وكذلك كان الشغالون وأرباب الصنائع فيهما من الاهالى المصرية وكان جميع المستخدمين بالدونانمة والترسانة على الطراز العسكرى فكان أهلها يرقون الى الرتب العسكرية على حسب معارفهم
فتعلم أبناء الاوطان جودة صناعة السفن فبهذه الطريقة صارت اثمان السفن هينة جدا على الحكومة وبطل شراؤها من الاجانب وكانت همة جنتمكان فى هذه المادة السفينة الحربية كهمة سلطان الموسقو بطرس الاكبر فى الاجتهاد والاعتناء بهذه المادة اذ كان دائما مواظبا على مناظرة الاشغال بالترسانة والاقامة فيها الساعات العديدة من النهار ولو أن ملك الموسقو كان قد تعلم عمارة السفن بنفسه الا أن محمد على رخص لمهندس السفن سيريزى بك الرخصة التامة فى حسن ادارتها فكان مهندسها ينفذ اغراض سيده كما يحب ويختار كانه هو فلا يعيب الاصل ما رآه الوكيل حسنا ولا ينقض عليه ما أبرمه فكان تنازل المرحوم لهذا الحد فى التفويض يوازى تنازل بطرس الاكبر فى كونه تعلم صنعة السفن بنفسه وعلمها الاهل وطنه ولم يتكبر فى ذلك وكان ابنه جنتمكان ابراهيم باشا يبادر بتسهيل التشغيل مبادرة زائدة ويقوى عزيمة المهندس والشغالين ويترقب اتمام السفن الحربية فى أقرب وقت ويكرم المهندس الاكرام الكلى ويمضى النهار بتمامه فى الترسانه بجانب الاشغال وكان جنتمكان محمد على يديم النظر فى السفن عند صناعتها ويتصور الغرض منها وكلما شارفت الاتمام ازداد فرحا وسرورا واذا نزلت سفينة فى البحر لم يتمالك نفسه مع ما كان عليه من كمال الهيبة وحفظ ناموس الوقار أن يظهر امارة السرور فلهذا كملت عنده دونانما ملوكية على طبق مرامه وطقمها بالمدافع والعساكر ونظمها على نسق نظام العساكر البرية وأنشا مدرسة بحرية بثغر سكندريه ليخرج منها من الضباط ما تحتاج اليه هذه

الدونمنا وترجم العلوم البحريه وصار لها كتب كافية كسائر العلوم الاخرى كما قيل

اذا شئت أن تلقى عدوك راغما * وتقتله هما وتحرقه غما
فسام العلى وازدد من الفضل انه * من ازداد علما زاد حاسده هما

وأيضا كان من جملة الارسالية الاولى عدة من الافندية المبعوثين الى باريس تعلموا العلوم البحريه وسافروا الى أمريقه والهند وغير ذلك من البلاد وتمكنوا من العلوم البحريه فلما حضر واقلدهم وظيفة قبودانية السفن وكان لهذه الدونما قبودان من الباشاوات وكان معه بوسون بك الفرنساوى بوظيفة رياسة رجال البحريه فكان بمنزلة رئيس الرجال سليمان باشا فى الجهاديه البريه

ثم ان المرحوم ابراهيم باشا لما غزا مورة وحضر منها جدد الالايات السوارى وبيان ذلك ان جنتمكان محمد على كان قبل غزو مورة يعتقد أن فرسان المماليك أعظم فرسان الدنيا حيث شاهد ذلك منهم فى الحروب المتكررة معه وأن تعليم فروسيتهم على أجود ما يكون وكان يظن أن حركات الخيالة الاوروباويه كلا شئ بالنسبة لحركة المماليك فكانت فرسانه جارين على طريقة الكوليمان وكذلك المرحوم ابراهيم باشا كان يعتقد ذلك فلقد ظهر للمرحوم ابراهيم باشا فى حرب مورة أن تعليم السوارى على طرز اوروبا أكمل وألزم لما شاهده من سوارى الفرنساويه هناك فرتب الالايات السوارى بجميع أنواعها على طراز فرانسا من شرنجيه ودراغون وغير ذلك فبهذا صار انشاء مدرسة السوارى فى الجيزة ليتعلم بها الفروسية النظاميه والمسايفه والرسم وغير ذلك ليخرج منها الضباط العظام وكان عدد تلامذتها ثلاثمائة وستين نفرا وكان عدد تلامذة مدرسة الطوبجية بطره أربعمائة تلميذ وعدد تلامذة مكتب الرجال فى الخانقاه نحو مائتى تلميذ وكان لا يقبل فى مكتب الرجال أى أركان حربية الا الترك والمماليك ثم انضم اليهم أبناء العرب وكانوا لا يحرزون عند الامتحان رتبة الضباط فالمرحوم ابراهيم باشا أبطل هذه الطريقة فى حق أولاد العرب وفى حق أبناء السودان وسواهم بغيرهم

وبالجملة فكان المرحوم محمد على لا تكل همته ولا تفتر عزيمته ولا يرتاح بدنه وعقله بل دائما مشغول بما يخص التمدن والتفكر فى التجديدات وجديد المشروعات ولا يبالى بالمصارف والتكاليف للحرص على تقديم وطنه المنيف واخراج الرعايا من ورطة التخشن العنيف

المال يجلب سيدا والقوم ملتنيد * ولا أطيل وهذا جملة الخبر

اذ لولاه لما وصلت مصر الى هذه الدرجة من التقدم والرفاهيه بعد أن مكثت عدة

قرون فى الذل والمسكنه وكانت حبال منافعها واهنه
فقد تجدد فى أيامه من الامور المقربة للتمدن اشارة الاخبار ووابورات البخار والدواليب البخارية وقد عمل تجربة فى كفر مجر لسكة الحديد وكان صمم فيها على الانشاء والتجديد فتنجز بعضها على وجه هين ثم تكاملت الآن بالاصل والفرع على وجه فى درجة الكمال بين

زيادة النيل نقص عند فيضهما * فما النا نتقاضى منة الديم

فلو لم يكن للمرحوم محمد على من المحاسن الا تجديد المخالطات المصريه مع الدول الاجنبيه بعد أن ضعفت الامة المصريه بانقطاعها المدد المديده والسنين العديده لكفاه ذلك فقد أذهب عنها داء الوحشة والانفراد وآنسها بوصال أبناء الممالك الاخرى والبلاد لنشر المنافع العموميه واكتساب السبق فى ميدان التقدميه فما أحسنت بنتيجة الدواء الشافى والعلاج المعافى الا فى هذه الايام الاخيرة التى ضاعفت الادوية الحسية والمعنوية النظرية والعمليه بطرق من النجامة جليه وأضعفت داء الجهالة المعديه فكل اصنيعها متشكر ومقر باحسانها غير متنكر

ولدينا تضاعفت نعم الله * وجلت عن كل عد وحصر
عرف الحق أهل مصر وكانوا * قبله بين منكر ومقر
وحصلنا بالحمد والاجر والنصر * وطيب الثنا وحسن الذكر
قد بلغنا بالصبر كل مراد * وبلوغ المراد عقبى الصبر
ليس مثرى الرجال من ملك الما * ل ولكنما اخو اللب مثرى

وما أحسن هذا البيت الاخير الذى هو من الحكم اللطيفه ومن جوامع الكلم المنيفه

وقد كان المرحوم محمد على من وقت حيازته واستيلائه على السودان التى استولى عليها بسيفه سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف مشغول البال باستكشاف معادنها واستخراجها فلذلك سافر اليها بنفسه ليمتحن معادنها ويلطف أهلها ويشوقهم الى اكتساب التمدن والتقدم كما فعل بمصر وتفصيل ذلك فى الفصل الرابع من هذا الباب

الفصل الرابع

فى سفر جنتمكان محمد على الجليل الشان الى جبال فازغلو ببلاد السودان

لاستكشاف المعادن الذهبيه والكشف عنها بحضوره واعمال الطرق التجريبيه لما مهد محمد على فى مصر الزراعه والتجارة والصناعه التى هى المنافع العموميه وكثرت ثروة مصر بالاخذ والعطاء وحظى أهلها بطيب العيش والرفاهيه وذاقوا ثمرة العدل والاحسان والفضل والامتنان وكان أواخر عصر المرحوم محمد على بالنسبة اليهم ما كان يسمى عصر الذهب عند أمة اليونان فى أوائل تلك الازمان حيث عوض الله سبحانه وتعالى أهل مصر فى مقابلة ما ذاقوه من الشدائد فى أول الامر ذوقهم طعم الهناء والراحة التامة فى آخره وذلك مصداق قوله تعالى فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا وكان المرحوم لا يزال يصرف وقته فى تكميل المنافع العموميه للديار المصريه وكانت الاقطار السودانية التى تحت حكومته تجر قديما وحديثا لا سيما فى الذهب وشهيرة بما فيها من المعادن المشبعه صرف همته العليه الى توسيع استخراج المعادن بتلك الجهه لان معدن الذهب من أشرف نعم الله على عباده اذ به قوام الدنيا ونظام أحوال الخلق فان حاجات الناس اليه كثيرة وكلها تقضى بالنقدين ويباع بهما ويشرى كل شئ بخلاف غيرهما من المعادن فانه لا يرغب فيه كل أحد رغبته فى النقدين حيث هما كالقاضيين لمصالح لكل من اقتناهما ولذلك قال الله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم لان المقصود منهما تداولهما بين الناس لقضاء الحوائج فمن كنزهما فقد أبطل الحكمة التى خلقا لها وكان كمن حبس قاضى البلد ومنعه أن يقضى بين الناس فالذهب والفضة كما يجلبان المنافع يجلبان المضار

مطلب امهات المعادن المستخرجة فى هذا العهد

وأمهات معادن الذهب المستخرجة فى هذا العهد هى معادن بلاد الامريقه تخرج من جوف الارض أو من تنظيف الرمال الذهبية وفى بلاد افريقه التبر فرع عظيم فى تجارة السودان وليس فى بلاد أوروبا الا معادن سيبرين ببلاد الموسقو ومعادن بلاد المجر فى مملكة النمسا وفى آسيا معادن الذهب ورماله وأما معادن الفضة الشهيرة فى بلاد أمريقه باقليم برو وغيره وهى التى تعطى كمية عظيمة من الفضة المتعامل بها فى أيدى التجار ففى بلاد مقسيقا أزيد من ثلاثة آلاف معدن مستخرج وكذلك معادن بلاد برو بأمريقه فانها مثريه جدا ومعادن قاليفورنا المشهورة بالذهب المشبع التى استكشفت سنة خمسة وستين ومائتين وألف وهى فى جمهورية مقسيقا فبلاد افريقه لها شبه بأمريقه فلهذا أرسل المرحوم محمد على باشا عدة مرات من يلزم من المعدنجيه لتجريب معادنها فلم يقف منهم على حقائق تامة فى شأن ذلك فشك فى مهارتهم وفى اجتهادهم وقد كان حكمدار بلاد السودان أرسل اليه عدة فلزات من الذهب على سبيل الغنيمة

مطلب معادن الفضة فى امريقه

مطلب مشابهة افريقه لامريقه وظن انها يستكشف منها معادن النقدين بالبحث فيها

فكاد

فكاد يطير بها فرحا فأرسل فى نحو سنة مائتين وألف كلا من موسيو روسيجير وموسيو بريانى الكيماوى فالاول كان قد ذهب الى المعادن قبل الثانى بكثير فشرع فى التجربة ورجع الى الخرطوم فوجد موسيو بريانى قد أقام بها ينتظر الفصل المناسب فكتب موسيو روسيجير من الخرطوم الى المرحوم محمد على ما مضمونه ان النفر الذى يشتغل فى المعدن باليومية يستخرج ذهبا بعشرة فرنكات كل يوم يعنى بأربعين قرشا ميريا وكان ذلك فى مدة ولاية خورشيد باشا الحكمدارية السودان وأخبر المعدنجى الحكمدار بذلك فلم يصدق ذلك الحكمدار المذكور وأما المعية السنية فأخذت كلام المعدنجى المذكور قضية مسلمة واعتقد ذلك أيضا المرحوم محمد على وتباشر بأنه اذا صار استخراج المعادن على هذه الكيفية يصير أغنى الملوك وانتقلت الرغبة فى الزراعة التى بها غذاء أهل مصر والتى هى كاللبن لرضاعهم الى الرغبة فى المعادن فصار مطمح النظر من النيل أنه وسيلة المسير فيه لاستخراج الذهب وجلبه وكان هذا الغرض هو المقصد منه بالاصالة

مطلب ارسال محمد على معدنجية بالسودان لاستكشاف المعادن

ثم لما اعتدل الوقت اللائقة السفر الى المعادن خرج موسيو روسيجير وموسيو بريانى من الخرطوم ومعهما من الخفر ألف من عساكر الجهادية تحت رياسة ميرالاى مصطفى بك وصاروا جميعا حتى وصلوا الى فازغلو وشرعوا فى استخراج المعدن والبحث عنه فوجد حفائر حفرتها العبيد قبل ذلك وبجوانبها قصاع من الخشب فكل واحد من المعدنجية أخذ قصعة وعمل صنعة التنظيف للرمل الخارج من الحفرة فلم يظهر لاحد منهم ربح بل ما بقى من بعد التصفية انما هو فلزات مشوبة بالحديد والتراب ثم كرروا التجربة فلم تنتج أزيد من ذلك فان موسيو بريانى أخذ قنطارين من الرمل وصفاهما فلم يخرج منهما سوى حبة ونصف من الذهب وكذلك موسيو روسيجير ثم توجهوا الى جهة سنجه وهى أبعد محل فتحه المرحوم اسمعيل باشا ومشهور بكثرة الذهب فكثوا فيه ليلة بواد يسمى خور البابا كان العبيد قد حفروا فيه حفائر لاستخراج الذهب ثم ذهبوا الى محل يقال له زنبو حوله غابات عظيمة ووديان وسفوح منخفضة ووصلوا الى وادى يسمى وادى توماتو جارى المياه فوجدوا فيه حفائر وقصاعا معدة لتنظيف الذهب وتنقيته فكانت نتيجة التجربة كالسابقة فاقتضى الحال أن يمروا بغابات غير مسلوكة فوصلوا الى جبل ابوغولجى ونزلوا بهذه الجهة المشهورة بمعادنها الذهبية فأرسلوا بطلب شيخ السودان هناك ليستعلموا منه عن ذلك فأبى الحضور فرجعوا من طريقهم بوادى ابوغولجى نفسه فكان يابسا لاماء فيه بكثرة وانما كانوا يجدون فى طريقهم فى الحفر بعض مياه وبعض حفائر حفرها العبيد وعلى حكايتهم أن هذه المعادن التى بهذا الوادى كثيرة الذهب ثم بعد ذلك بسير مسافة ساعة صوب الغرب وجدوا واديا آخر عالى الحوافى الصخرية فلم يقفوا عنده

مطلب نتيجة تجربة معادن فازغلو

مطلب تجربة جهات سنجه وزنبو وتوماتو

مطلب تجربة معادن ابوغولجى

وبينماهم سائرون فى أباطحه قبض موسيو بوريانى قبضة من الرمل فوجد بها أربع
فلزات من الذهب كل فلز ثمنها وزن حبة فساروا من واد الى آخر حتى وصلوا تجاه جبلى
سنجه وغوبزه وبسفحهما بنو شنغول وسنجه ولهم مساكن لطيفة مقببة يقال لها
توكول وعدتها تنيف عن ألفى بيت وعرض جبل سنجه فى الدرجة العاشرة والعشرين
دقيقة شمالا ولا يزرع سودانها الا قليلا من الذرة والدخان حول مساكنهم فلما رأوا
العسكر قربوا من مساكنهم ولوا هاربين فدخل العسكر مساكنهم فوجدوا بها الآلات
والادوات المستعملة لتنظيف الرمل واستخراج الذهب منه فبعث رؤساء العسكر
لطلبهم فلم يحضروا ولا حضر المندوبون فى طلبهم ولا ظهر عنهم خبر ولا بان لهم أثر
فاحترس العرضى كل الاحتراس وضربت الخيام فى محال عالية من الوادى خوفا من
الهجوم فظهر على حين غفلة فوق الجبل وعلى البعد عدة من العبيد حتى دنوا من
العرضى وصاروا يرمون العساكر بسهامهم وحرابهم وكان العسكر قد سكنوا بمساكنهم
فهجم عليهم العسكر فهربوا ثم عادوا وصاروا يحاربون الى الليل

ولما عسكر الليل أحاطوا بالعسكر من كل جانب ولم يتشتت شملهم الا بضرب النيران فلما
أصبح الصباح صعدوا على ذروة الجبل وفوقوا نبالهم وسهامهم على العسكر كالامطار
ومع هذه الحروب الخطرة فكان مع المعدنجية مائة نفر يخفرونهم فاشتغلوا فى وقت
الحرب بتجربة النهر الخارج من هذا الجبل فتحصل موسيو بوريانى على فلزات ذهبية
خرجت بالتنظيف عدة مرات ووضعها فى زجاجة ليمتحنها فيما بعد ولا زال العبيد
ينقضون على العسكر حتى تركوا جبل سنجه بدون تميم التجربة فاقتفى السودان أثرهم
الى جهة وادى بولغيديه فأخذوا قنطارين من دقيق رمل هذا الوادى وغسلوهما
وحسبوا زمن شغلهما فكلما خرج منهما وضع فى الزجاجة ووجدوا أن الذخائر كادت
تنفد منهم فرجعوا من طريق سنار وقد جربوا تجاريب كثيرة فى طريقهم وكلما تحصلوا
عليه من الفلزات وضعوه فى الزجاج وسدوا عليه وكانوا يجدون فى عودتهم كثيرا من
المعادن المحفورة التى حفرها العبيد ولم يجد العسكر فى طريقهم بيوتا ولا مساكن
مسكونة بأحد لان العبيد لخوفهم من العساكر كانوا يهرعون منها فلذلك لم يقف
المعدنجية على حقيقة الحال ولم يمكنهم أن يذهبوا الى المحلات المشهورة لحصول الذهب
بجبل دول لفقد الذخيرة وقد وجدوا على شطوط نهر هادى عدة آبار مستديرة عميقة يبلغ
عددها نحو ستمائة بئر عمق البئر الواحدة أربعة وعشرون قدما وقطرها نحو أربعة أقدام
وفى قاع كل بئر مماشى يتوصل اليها بواسطة سلالم صغيرة

وهذا النهر كثير الذهب جدا فقد عثر موسيو بوريانى على الذهب فى ثلاث صوانات

مطلب
عرض جبل سنجه

مطلب
هجوم أهل سنجه على العسكر

مطلب
تجربة وادى بولغيديه

مطلب
رجوع المعدنجية من تلك الجهات

أحدها

أخذها من هذا النهر وكذلك موسيو روسيجير وجد به قطعا من الاحجار مشتملة على الذهب

فباستكشاف معادن هذا النهر اطمأنت قلوب أهل العرضي وفرحوا به فرحا شديدا حتى نهض العساكر على الانتضاض بهذا النهر اعتمادا على حكاية أهل الجهة وجمعوا ما عثروا عليه من التجزيم عادوا الى مدينة الخرطوم التي خرجوا منها من نحو ستة أشهر فلم يجدوا الحكمدار فيها حيث كان قد توجه لقتال الحبشة المغيرين على الاطراف فأخذوا في تحليل ما تحصلوا عليه فوجدوا العينات مختلفة الريع وذلك ان موسيو بورياني عمل التجربة التنظيفية بطريقة التحليل بالزئبق فكانت النتيجة في احدى التجربيات بالنسبة الى اقليم كاميل ان يحصل قنطار الرمل الاعلى ثلاث حبات من الذهب فالرجل الذي معه اثنان مساعدان لنقل الماء والتراب اذا كان ينظف كل يوم عشرة قناطير من الرمل الى اثني عشر فلا يجمع الاسبعة قروش مصرى من الذهب وبالنسبة الى رمال اقليم فاسنغار ولا يحصل الاعلى ثلاثة قروش ونصف من الذهب في اليوم الواحد فكتب بهذه التجربة خطابا وأرسله مع العينة الى الحكمدار خورشد باشا فارسل الحكمدار المذكور ذلك بصحبة موسيو بورياني الى المعية السنية وكان ذلك في سنة أربع وخمسين ومائتين وألف

وأما تجربة موسيو روسيجير فكانت نتيجتها بخلاف ذلك فان الاحجار المعدنية الذهبية يتحصل منها اثنان في المائة يعني ان صافي المائة درهم مثلا درهمان وأما الذهب الصفائحي الذي يوجد في المعادن كالعروق فانه يتحصل في كل ألف قنطار من مائة وستين الى مائة وثمانين صفيحة من الذهب يعني من ثمانمائة وخمسة وثلاثين درهما الى ألف ومائة وستة وثلاثين درهما من الذهب وقيمة الدرهم ثمانية وثلاثون قرشا وقد تحقق عند هذا المهندس أن الشخص الواحد ينظف كل يوم ثلثمائة وخمسين أقة من الرمل فيتحصل منها ذهب قيمته من ثمانين قرشا الى مائة قرش فكان هذا المعدل يزيد عن معدل موسيو بورياني عشرين مرة فلما اطلع المرحوم محمد على على المعدلين ووجد الفرق بينهما جسيما لم يتمالك نفسه من الغضب على موسيو بورياني لانه كان يميل بالطبع لما فيه الارجحية في الريع فبهذا مال الى تقرير موسيو روسيجير فلاجل الوقوف على الحقيقة صمم على السفر الى بلاد السودان لتصير التجربة أمامه مع تقدمه في السن وشيخوخته وطبيعة اقليم الاقطار السودانية وتعب الاسفار الشاقة بها الا أنه كان ملحوظا بالعناية الربانية ومحفوظا بالتوفيقات الصمدانية كما قيل

ان حل فالشرف التليد أنيسه * أوسار فالظفر الطريف قرينه

مطلب
تصميم المرحوم محمد على على السفر الى بلاد السودان

فالدهر خاذل من أراد عناده * أبدا ورزاق العباد معنه

وأمر موسيو وريانى بالذهاب قبله بعدة أيام فأراد أن يتخلص من ذلك وقال ان طريقة التحليل بالزئبق التى سلكها موسيو روسيجير وعنا يمكن أن ينال بها أكثر من طريقة التصفية التى عليها العمل عند السودان فكأنه سلم ان طريقة صاحبه مربحة وكان قوله ذلك لمحض الاعتذار عن الخروج من الورطة ثم قال أيضا ان الرمل لا مانع من أن يعطى كل يوم للشغال نحو أربعين قرشا ومع أنه قال ذلك لمجرد المسايرة الا أن المرحوم محمد على أخذه بالقبول وفرح به

مطلب
استصحاب المرحوم محمد على فى سفره جمعا من أرباب الخبرة فى المعادن وغيرها

وكان للمرحوم محمد على طلب من فرانساه مهندسا شهيرا بعلم المعادن وهو موسيو ليفبره كان سبق استخدامه فى مدينة المعادن المصرية وكان موسيو بوريانى قد سافر الى السودان امتثالا للأمر العالى وبعده بثلاثة أيام ركب المرحوم محمد على البحر وصحبته خير الدين بك قبودان السفن وعدة أشخاص منهم موسيو ليفبره المعدنجى ودارنو بك المهندس ولمبير بك المهندس وأحمد افندى يوسف الجشنجى فسافر بالسلامة بالنيل حتى دخل السودان

مطلب
دخول المرحوم محمد على الخرطوم وما حصل من الاحتفال به وارساله المعدنجية الى عدة جهات واقامته بالخرطوم لاستقبال الوافدين عليه

اركب النيل ما استطعت فغيه * راحة للفتى وغاية بغيه
كم تفرجت حين سافرت فيه * فى بلاد وكم ظفرت بمنيه

فلما دخل مدينة الخرطوم كان يوما مشهودا لحضور جميع من هنالك للتشريف فلاطفهم جميعا ودعوا له بخير وفرحوا به غاية الفرح وأثنوا عليه بجميل الثناء ومكارم أخلاقه كما قيل

كل الامور تبيد عنك وتنقضى * الا الثناء فانه لك باقى
لو أننى خيرت كل فضيلة * ما اخترت غير مكارم الاخلاق

مطلب
سفر المرحوم محمد على من الخرطوم الى جهة سنار

ثم أمر موسيو ليفبره المعدنجى أن يتوجه الى جبال موره وسكادى وهى على ثمان فراسخ فى الجنوب الغربى من سنار ليجرب معادن الفضة ومعادن النحاس التى هى على ضفة النيل باقليم روسيرى وأرسل خلفهم كلا من موسيو بوريانى ودرنو بك وأما حضرته العلية فقد بقى فى الخرطوم ليستقبل رؤساء بلاد السودان الوافدين عليه من جميع الجهات على اختلافها وكلهم وعدوه بالمساعدة على مشروعه وأن يعينوه بستين ألف نفس للشغل اذا اقتضى الحال هذا القدر ثم سافر الى جهة سنار ونزل باقليم روسيرى

مطلب
ارشاد المرحوم محمد على أهل السودان الى وسائل الزراعة وغيرها

وحضر اليه ملوك سنار وفازغلو وصار يستعلم منهم عن المعادن ومحل وجودها وعن أحوال زراعة البلاد وما يناسبها وأرشد رؤساء السودان الى طرق جديدة فى الزراعة وفى الصنائع والفنون التى لا يعرفونها وأمرهم بالحصول عليها واستعمالها لتصل

نوبة التقدم للنوبه باكتساب وسائل المنافع المحبوبة المجلوبه ويتوب الخيط الابيض من فجر الفنون عن الخيط الاسود من فجور الجنون وليكونوا من أهل التبصره وتكون عندهم آية النهار مبصره ثم حضر المعدنجي ليفيده من جبل موبه وأخبره أنه لم يجد أثر المعدن الفضة ولا معدن النحاس فى المحل الذى حكى عنه موسيو روسيجير فنفر من الاقامة بهذه الجهة لعدم الحصول على مقصده ولكن

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه * وليس عليه أن يساعده الدهر

مطلب
مسير المرحوم محمد على الى اقليم فازغلو

فرفع معسكره ونهض الى اقليم فازغلو وكان أحمد باشا قد تولى حكمدارا عوضا عن خورشيد باشا وكان قد بعثه محمد على الى محاربة جبال رجريج وكانوا عاصين فنوى أن ينتظر عودة الحكمدار بعد وصوله ففى ظرف ثلاثة أيام وصل المرحوم محمد على الى قرية

مطلب
وصول المرحوم محمد على الى قرية فاموكو واستحسانه اياها وامره ببناء قصر فيها على اسمه

فاموكو تجاه فازغلو وهى على ميمنة البحر الازرق فضرب خيامه بها وأعجبه حسنها وظرافتها فأمر ببناء قصر فيها على اسمه ليذكر سفره بها وعين حالا درنود بك لهذه المأمور به فهندسه البك المذكور وبنيت حوله الدور حتى صار بلدة شهيرة هنالك سميت بمحمد على وهى من الاثر الجليل الجلى الا انها صارت محل التغريب ينشد فيها المنفى الغريب

يا عين ان بعد الحبيب وداره * ونأت مرابعه وشط مزاره
فلقد ظفرت من الزمان بطائل * ان لم تريه فهذه آثاره

ولما عاد أحمد باشا من غزوه كان فصل المطر قد دنا والذخائر كادت تنفد وكان المرحوم محمد على توجه الى اقليم فاشنغارو وكان قد بعث حين توجهه احد مماليكه ليأخذ الرمل من وادى قراده فاستخرج المعدنجية من هذا الرمل نحو ثلاثة فلزات من الذهب اليسير القيمة القليل الجودة

مطلب
وصول المرحوم محمد على الى فاشنغارو

ولما نزل المرحوم محمد على فى فاشنغارو ضرب مخيمه تحت شجرة تين والعسكر حوله ولم يبق معه من المأكولات الا البقسماط واليسير من الارز فسئمت نفوس الجميع من قلة الزاد والحط والترحال بهذه الحالة ولام كل الناس موسيو بوريانى على تأميل الباشا المذكور وتجسيمه له فى ربح المعادن الذهبية فجمع الباشا

مطلب
جمع المعدنجيه وعمل تجربة عمومية

المذكور المعدنجية والمهندسين ليأخذ رأيهم فقرروا جميعا على عمل تجربة جديده بطريقة أخرى مفيده وهى أن يجمع الرمل من جميع المحلات بمقادير متناسبة ويعلم كمية ما يخرج منها فخرجت النتيجة بهذه التجربة مثل السابق فى قلة الربح ولكن قد استكشف موسيو بوريانى فى بئر من آبار وادى قراده فى عمق اثنين وعشرين قدما طبقة معدنية يتراءى انها كثيرة الذهب ليمتحنها مع التأنى وقبل أن

برحل موسيو ليفيبره المعدنجى من الخرطوم كان عثر أيضا على رطلين من الزئبق فى مخازن الجبكنداريه فأحب موسيو بوريانى ان يعمل امتحانه لما أخذه بطريقة التحليل الزئبقى فبهذه الامتحان تحصل على حصول كثير من الذهب بطريقة هذا التحليل فسكت عن ذلك وصار منهمكا على اتباع هذه الطريقة فى التجربة فلم يشعر اذ وجد فى قرار القرازة جرما معدنيا ذهبيا مخلوطا بغيره ولم يعرف سبب هذا الغش فأخبر غيطانى بك وموسيو لمبير بك بذلك وهم أخبروا المرحوم محمد على فموسيو بوريانى اتهم بعض أخصامه انهم أرادوا أن يفسدوا عليه تجربته وأراد باخباره من ذكر البحث عن صاحب الفعلة فادعى أحمد افندى الجشنى ان موسيو بوريانى المذكور هو الذى خلط الذهب بالزئبق عمدا لعدم نجاح تجربته وأخبر بذلك أمام الباشا وصدق عليه الحاضرون ففى اليوم الثانى استعمل موسيو بوريانى طريقة الغسل بالقصاع فغسل ما أنقنطار من الرمل مأخوذا من فرش الوادى بجبال قرايده فاستخرج منها تسعا وأربعين حبة من الذهب

فهذه التجربة الكبيرة ظهر منها اشباع معدن وادى فاشنغار والذى جرب عينته موسيو روسيجير سابقا فوجد بين طريقة موسيو بوريانى وموسيو روسيجير فرق جسيم فبهذا الاختلاف الفاحش ضاق صدر الباشا المرحوم وفترت همته حتى كاد أن يصرف النظر عن قضية استخراج المعادن ولكن عاد الى تجلده وصبره وأمر بعقد جمعية تستخرج مقدار قيم مجاميع الاشغال التى حصلت كلها فبادرت الجمعية باستخراج ذلك فنتج انه لا يتحصل من عملية الصانع الواحد من الذهب الا قيمة ثلاثة قروش كل يوم

ففى هذا الوقت سقطت قيمة المعادن الذهبية من أعين الجميع وقبل اعتبارها تغير خاطر المرحوم محمد على من ذلك وداخله اليأس من رواج معادن السودان ولو كان موسيو روسيجير حاضرا معه لسلا موعلله بالامانى الكاذبة

مطلب يأس المرحوم محمد على من استخراج معادن الذهب بالسودان فى نفسه وعوده الى مصر

وأما موسيو بوريانى فقد كان حاضرا وأخبر بالصدق ولم يدلس ولكن لكونه كان يهابه سيده كثيرا فلم يستطع أن يذب عن نفسه فصرب عنه المرحوم محمد على صفحا وأنعم على جميع المهندسين والمعدنجية عند ارتحاله من السودان بركوبة ورخت مذهب وما استثنانا من هذا الانعام ولاغض عنه البصر ويئس من وجود الذهب المشبع من بلاد السودان ولكن لم يظهر له الحقد ولا صرف عنه النظر بل أمر الجمعية أن تمكث وتبحث مع غاية الدقة عن الطريقة اللازمة لاستخراج هذه المعادن فكان العسكر المحافظون على أهل هذه الغزوة العلمية يعتقدون أن سيدهم ابقى هؤلاء

المهندسين رسما فقط وأن أشغال هؤلاء المهندسين ليست الاصورية فكانوا لا يساعدونهم على أشغالهم ولا يصرفون همتهم فى اعطاء ما يلزم لتميم التجربة وكان قد تعين لادارة المعدن خير الدين باشا فكان بسىء السلوك لانه كان مكرها على الاقامة بتلك البلاد وترك وطنه فبهذا كان يعتقد أن الافرنج المعدنجية هم السبب فى طول غربته فكان يتباهر بتقريعهم وتوبيخهم

ثم ان موسيو ليفبره أصابته حمى شديدة وكان قد وعده المرحوم محمد على أن يعطيه بعد تمام الاشغال رتبة ميرالاى فكان على غاية من الاجتهاد فمات بالحمى وقبل موته صرح بأن تقرير الجمعية بعدم ربح المعادن فى السودان ليس بقطعى ولا ينبنى عليه حكم وأنه لا ينبغى ان يقطع الرجاء بالكلية من ربح هذه المعادن لاسيما وأن موسيو بورياني قرر تقريرا شفاهيا يؤيد رأى ليفبره السابق وعبارته ليس من أرباب الجمعية بمن له تمام هو معتمد فى قوله فيما يخص قيمة ما يحصل من الرمال من الذهب حيث جمعنا لا معرفة له تامة باستخراج المعادن فلسنا متبصرين فى هذا الفن بل الظاهر أنه لو صارت الادارة على صورة حسنة مستقيمة وصدق المتمنون فى تجاريبهم وصار الاجتهاد فى الاستخراج على وجه مرضى فلا بد أن تظهر نتائج عظيمة خصوصا اذا كان المأمور بذلك من المعدنجية المتبصرين فى هذا العلم وله سابقة عمليات صحيحة وأما سفرنا هذا فلم يكن الا محض مناظرة واطلاع على نفس المحال المعدنية بالبلاد السودانية مجردا عن راحة الفكر والبدن وقوله فى محل لان العرضى كان دائما معرضة لاغارة السودان الهمل وكان بدون أهبة ولا ذخيرة وكانت عساكر الاتراك المحافظين على المعدنجية أشد عليهم عداوة من السودان

مطلب
موت رئيس المعدنجية وافادته قبل موته ان تقرير الجمعية بعدم ربح استخراج المعادن لا يعول عليه

فبهذا لم يمكن الوقوف على حقيقة الحال من الاهالى وكانت التجاريب تعمل بالخوف والعجلة وكانت الامراض أيضا من جملة الموانع ومع ذلك فقد صح بتجربة موسيو بورياني التى استمرت نحو ثلاث سنوات أن بعملية استخراج المعادن بالعبيد يعطى قنطار الرمل نحو خمس حبات من الذهب مع قبول الزيادة عن ذلك لو وجدت المعرفة والصداقة ومع هذا كله فنقول ان ذهب السودان لا ينكر وان الاقطار السودانية التابعة للحكومة المصرية وان كانت دون أقاليم أمريقه بكثير فهى كمصر ان لم تسعفها المعادن المتطرقة فمعادن الزراعة فيها محققة ولولا التغافل والتكاسل من بعض الحكام واتصاف بعض آخر بالجهل التام لكانت ايراداتها ومحصولاتها على أكمل نظام فان خصوبة أرضها عجيبة وحيواناتها نجيبة وأخشابها جيدة ومعادنها متعددة فالموالد الثلاثة فيها على غاية من الكمال ولا نظر الى ما يعتقده عامة الناس

مطلب
ان معادن الذهب بالسودان لا تنكر وان الزراعة تفلح فيها ان اعتنى بها وان خيراتها كثيرة

من أن أ كثرها رملى . فقد يوجد من الاهالى من يترافع مع أخصامه فى ملكية ألوف من الفدادين لنفسه ويريد نزعها من يد أبناء جنسه وفى أيام حكمدارية حضرة لطيف باشا أعطى ألف فدان لاحد السناجق وهو دمورزاغا من البولو فلم تبرح مدة يسيرة أن صارت من المعمور وصح فيها جميع البقول والغلال لاسيما زرع الحنطة الذى فى تلك البلاد له بال وهنالك أراض بمديرية دنقله لايعلوها النيل الا فى زمن الفيضان الغزير وليست داخلة فى دفتر حكيامات الاقليم وقد التمس زراعتها فى سنة من السنين بعض الاهالى بدفع العشور فزرعها من صنف الذرة فأدت محصولا فوق الاربعين ألف أردب فدفع الى شونة الميرى عشرها فصلا وصنفا من الذرة وفى هذه السنة فشكا الاهالى المزارعون بكساد محصولاتهم فأبى مدير تلك الجهة المتولى فى ذلك الوقت أن يعطيها بعد ذلك لاحد وأحب أحد البكباشات المستخدم بتلك الجهة أن يتعاهدها فى كل سنة بقيمة مكافئة لعشرها السنوى فلم يساعد على ذلك وأمثال هذه الاراضى كثيرة جدا والاراضى منبتة للنباتات الناتجة بنفسها بدون عمل مع قبول أهلها للتمدن الحقيقى لدقة أذهانهم فان أكثرهم قبائل عربية لاسيما الجعليين والشاقيه وغيرهم فان اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعيه شغل رغبة واجتهاد ولهم همة عظيمة فى حسن التعلم والتعليم حتى ان البلدة اذا كان بها عالم شهير يرحل اليه من البلاد الاجنبية المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير فيعينه أهل بلدته على ذلك بتوزيع المجاورين على البيوت بحسب الاستطاعة فكل انسان من الاهالى يخص الواحد أو الاثنين فيقيمون بشؤنهم مدة التعلم والتعليم

مطلب
استعداد أهالى السودان للمعارف والكمالات ووجود التعاون عندهم على طلب العلم

ولقد رأيت فى طريقى ببلاد الشاقيه بمديرية دنقله حرم سنجق يدعى الملك الازيرق تسمى السيدة أمونة تقرأ القرآن الشريف ومؤسسة مكتبين أحدهما للغلمان والثانى للبنات كل منهما لقراءة القرآن وحفظ المتون تنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن بوجهه وغزله وتشغيله ولا ترضى ان يشوبه شئ من مال زوجها وبجانب المكتبين خلوات لمن يختلى من العباد والزهاد الحاضرين من أقصى البلاد لاداء فريضة الحج الشريف ومنزلها كالتكية للفقراء وابناء السبيل والقاصدين بيت الله الحرام وامثال ذلك كثير هنالك فى ظل الحكومة المصرية

ومما يدل على حسن مقاصد المرحوم محمد على أنه فى عودته من البلاد السودانية استصحب معه عدة غلمان من أبناء وجوه السودان الى مصر وأدخلهم فى المدارس المصرية ليتعلموا مبادى العلوم ثم نقلهم الى مكتب الزراعة ثم الى مدرسة الالسن وكان القصد من ذلك أن يذوقوا طعم المعارف التمدنية لينشروها فى بلادهم وقد شاهدت

بعضهم

بعضهم مستخدما بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب ويغلب على الظن انه بواسطة
تنظيمات سعادة شاهين باشا الاخيرة المؤسسة على حب تقدم الجهة المدنية وهمة
سعادة جعفر باشا صاحب الانظار التمدنية يمكن ايصال التقدمات العصرية بعناية
الحكومة المصرية في اطراف واكناف تلك البلاد التي هي الآن لم تخل قراها عن نوع
التقدم في الحضارة مع مساعدة الوارد والمتردد اليها في هذه الايام لقصد الزيارة
أو التجارة فانها اقرب للتمدن من أقاليم أمريقه بكثير وجميع أهلها ماعدا بعض الجبالى
لسانهم عربي فصيح حيث ان جلهم من نسل العرب المتجمعة القبائل قديما يحفظون
احسابهم وانسابهم وفيهم كمال الاستعداد وذكاء الفطنة وانما يحتاجون في حصول
المطلوب الى اطمئنان النفوس وتأليف القلوب من حكام ارباب صداقة وعفاف
وعدل وانصاف لاتحملهم المطامع الدنيوية على محض الالتفات الى الامور الدنية
بل توجد القابلية أيضا في الاهالي المتأصلين

ويدل على هذا ما حكى للخليفة ابي جعفر المنصور مما جرى بين عبد الله بن مروان
ابن محمد وبين ملك النوبة مما ذكره المؤرخون في حق الملك المذكور مع انه كان من ملوك
السودان المتأصلين والجنس القطين اذ لم تكن القبائل العربية اتجهت الى السودان
ولا تسلط على هذا الاقليم ملك من اهل الاسلام ولا من العربان وهو ان أبا جعفر
المنصور حضره ليلة عبد الله بن علي وصالح بن علي في نفر معهما فقال عبد الله بن علي
يا أمير المؤمنين ان عبد الله بن مروان بن محمد لما هرب الى بلاد النوبة جرى بينه وبين
ملكها كلام فيه أعجوبة سقط عني حفظه فان رأى امير المؤمنين ان يرسل اليه بحضرتنا
ويسأله عما ذهب عنا وكان في الحبس فأرسل اليه ابو جعفر فلما دخل قال له يا عبد الله قال
لبيك يا امير المؤمنين قال أخبرني بحديثك وحديث ملك النوبة قال يا امير المؤمنين
هربت بمن تبعني بأثاث سلم لي الى بلاد النوبة فلما دخلت بلادهم فرشت ذلك الاثاث فجاء
أهل النوبة ينظرون الى متعجبين مني الى أن بلغ ملك النوبة حضوري فجاء ومعه ثلاثة
نفر فاذا رجل طوال آدم أقنى مسنون الوجه أي مجلسه فلما قرب مني قعد على الارض
وترك البساط قلت ما يمنعك ان تجلس على أثاثنا هذا قال اني ملك وحق لكل ملك ان
يتواضع لعظمة الله اذ ارفعه الله قال ثم نظر الي فقال لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم
فقلت عبيدنا وأتباعنا يفعلون ذلك بالجهل منهم قال فلم تلبسون الديباج والحرير وتحلون
بالذهب وهو محرم عليكم فقلت زال عنا الملك وانقطعت المادة واستنصرنا بقوم من
الاعاجم كان هذا زيهم فكره هذا الخلاف عليهم فأطرق يقلب يده ويقول عبيدنا واتباعنا
وأعاجم دخلوا في ديننا يكرر الكلام على نفسه ثم نظر الي فقال ليس ذلك كما تقول

لاستكشاف المعادن الذهبيه والكشف عنها بحضوره واعمال الطرق التجربيه لما
مهد محمد على فى مصر الزراعه والتجارة والصناعه التى هى المنافع العموميه وكثرت
ثروة مصر بالاخذ والعطاء وحظى أهلها بطيب العيش والرفاهيه وذاقوا ثمرة العدل
والاحسان والفضل والامتنان وكان أواخر عصر المرحوم محمد على بالنسبة اليهم
ما كان يسمى عصر الذهب عند أمة اليونان فى أوائل تلك الازمان حيث عوض
الله سبحانه وتعالى أهل مصر فى مقابلة ما ذاقوه من الشدائد فى أول الامر ذوقهم طعم
الهناء والراحة التامة فى آخره وذلك مصداق قوله تعالى فان مع العسر يسرا ان مع
العسر يسرا وكان المرحوم لايزال يصرف وقته فى تكميل المنافع العموميه للديار
المصريه وكانت الاقطار السودانية التى تحت حكومته تخبر قديما وحديثا لاسيما
فى الذهب وشهيرة بما فيها من المعادن المشبعه صرف همته العليه الى توسيع استخراج
المعادن بتلك الجهه لان معدن الذهب من أشرف نعم الله على عباده اذ به قوام الدنيا
ونظام أحوال الخلق فان حاجات الناس اليه كثيرة وكلها تقضى بالنقدين ويباع بهما
ويشرى كل شئ بخلاف غيرهما من المعادن فانه لا يرغب فيه كل أحد رغبته فى النقدين
حيث هما كالقاضيين لمصالح لكل من اقتناهما ولذلك قال الله عز وجل والذين يكنزون
الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم لان المقصود منهما
تداولهما بين الناس لقضاء الحوائج فمن كنزهما فقد أبطل الحكمة التى خلقا لها وكان
كمن حبس قاضى البلد ومنعه أن يقضى بين الناس فالذهب والفضة كما يجلبان
المنافع يجلبان المضار

مطلب امهات المعادن المستخرجة فى هذا العهد

وأمهات معادن الذهب المستخرجة فى هذا العهد هى معادن بلاد الامريقه تخرج من
جوف الارض أو من تنظيف الرمال الذهبية وفى بلاد افريقه التبر فرع عظيم فى تجارة
السودان وليس فى بلاد أوروبا الا معادن سيبرين ببلاد الموسقو ومعادن بلاد المجر
فى مملكة النمسا وفى آسيا معادن الذهب ورماله وأما معادن الفضة الشهيرة فى بلاد

مطلب معادن الفضة فى امريقه

أمريقه باقليم برو وغيره وهى التى تعطى كمية عظيمة من الفضة المتعامل بها فى أيدى
التجار ففى بلاد مقسيقا أزيد من ثلاثة آلاف معدن مستخرج وكذلك معادن بلاد برو
بأمريقه فانها مثريه جدا ومعادن قاليفورنا المشهورة بالذهب المشبع التى استكشفت
سنة خمسة وستين ومائتين وألف وهى فى جمهورية مقسيقا فبلاد افريقه لها شبه

مطلب مشابهة افريقه لامريقه وظن انها يستكشف منها معادن النقدين بالبحث فيها

بأمريقه فلهذا أرسل المرحوم محمد على باشا عدة مرات من يلزم من المعدنجيه لتجريب
معادنها فلم يقف منهم على حقائق تامة فى شأن ذلك فشك فى مهارتهم وفى اجتهادهم
وقد كان حكمدار بلاد السودان أرسل اليه عدة قلزات من الذهب على سبيل الغنيمة

فكاد

فكاد يطير بها فرحا فأرسل فى نحو سنة ماتتين وألف كلا من موسيو روسيجير وموسيو بريانى الكيماوى فالاول كان قد ذهب الى المعادن قبل الثانى بكثير فشرع فى التجربة ورجع الى الخرطوم فوجد موسيو بريانى قد أقام بها ينتظر الفصل المناسب فكتب موسيو روسيجير من الخرطوم الى المرحوم محمد على ما مضمونه ان النفر الذى يشتغل فى المعدن باليومية يستخرج ذهبا بعشرة فرنكات كل يوم يعنى بأربعين قرشا ميريا وكان ذلك فى مدة ولاية خورشيد باشا الحكمدارية السودان وأخبر المعدنجى الحكمدار بذلك فلم يصدق ذلك الحكمدار المذكور وأما المعية السنية فأخذت كلام المعدنجى المذكور قضية مسلمة واعتقد ذلك أيضا المرحوم محمد على وتباشر بأنه اذا صار استخراج المعادن على هذه الكيفية يصير أغنى الملوك وانتقلت الرغبة فى الزراعة التى بها غذاء أهل مصر والتى هى كاللبن لرضاعهم الى الرغبة فى المعادن فصار مطمح النظر من النيل أنه وسيلة المسير فيه لاستخراج الذهب وجلبه وكانما هذا الغرض هو المقصد منه بالاصالة

مطلب
ارسال محمد على معدنجية بالسودان لاستكشاف المعادن

ثم لما اعتدل الوقت للباقة السفر الى المعادن خرج موسيو روسيجير وموسيو بوريانى من الخرطوم ومعهما من النفر ألف من عساكر الجهادية تحت رياسة ميرالاى مصطفى بك وصاروا جميعا حتى وصلوا الى فازغلو وشرعوا فى استخراج المعدن والبحث عنه فوجد حفائر حفرتها العبيد قبل ذلك وبجوانبها قصاع من الخشب فكل واحد من المعدنجية أخذ قصعة وعمل صنعة التنظيف للرمل الخارج من الحفرة فلم يظهر لاحد منهم ربح بل ما تبقى من بعد التصفية انما هو فلزات مشوبة بالحديد والتراب ثم كرروا التجربة فلم تنتج أزيد من ذلك فان موسيو بوريانى أخذ قنطارين من الرمل وصفاهما فلم يخرج منهما سوى حبة ونصف من الذهب وكذلك موسيو روسيجير ثم توجهوا الى جهة سنجه وهى أبعد محل فتحه المرحوم اسمعيل باشا ومشهور بكثرة الذهب فمكثوا فيه ليلة بواد يسمى خور البابا كان العبيد قد حفروا فيه حفائر لاستخراج الذهب ثم ذهبوا الى محل يقال له زنبو حوله غابات عظيمة ووديان وسفوح منخفضة ووصلوا الى وادى يسمى وادى توماتو جارى الماء فوجدوا فيه حفائر وقصاعا معدة لتنظيف الذهب وتنقيته فكانت نتيجة التجربة كالسابقة فاقتضى الحال أن يمروا بغابات غير مسلوكة فوصلوا الى جبل ابوغولجى ونزلوا بهذه الجهة المشهورة بمعادنها الذهبية فأرسلوا بطلب شيخ السودان هناك ليستعلموا منه عن ذلك فأبى الحضور فرجعوا من طريقهم بوادى ابوغولجى نفسه فكان يبسا لا ماء فيه بكثرة وانما كانوا يجدون فى طريقهم فى الحفر بعض مياه وبعض حفائر حفرها العبيد وعلى حكايتهم أن هذه المعادن التى بهذا الوادى كثيرة الذهب ثم بعد ذلك بسير مسافة ساعة صوب الغرب وجدوا واديا آخر عاليا الحوافى الصخرية فلم يقفوا عنده

مطلب
نتيجة تجربة معادن فازغلو

مطلب
تجربة جهات سنجه وزنبو وتوماتو

مطلب
تجربة معادن ابوغولجى

و بينما هم سائرون فى أبا طحه قبض موسيو بوريانى قبضة من الرمل فوجد بها أربع
فلزات من الذهب كل فلز ثمنها وزن حبة فساروا من واد الى آخر حتى وصلوا تجاه جبلى
سنجه وغوبزه وبسفحهما بنو شنغول وسنجه ولهم مساكن لطيفة مقبوة يقال لها
توكول وعدتها تنيف عن ألفى بيت وعرض جبل سنجه فى الدرجة العاشرة والعشرين
دقيقة شمالا ولا يزرع سودانها الا قليلا من الذرة والدخان حول مساكنهم فلما رأوا
العسكر قربوا من مساكنهم ولوا هاربين فدخل العسكر مساكنهم فوجدوا بها الآلات
والادوات المستعملة لتنظيف الرمل واستخراج الذهب منه فبعث رؤساء العسكر
لطلبهم فلم يحضروا ولا حضر احد وبقوا فى طلبهم ولا ظهر عنهم خبر ولا بان لهم أثر
فاحترس العرضى كل الاحتراس وضربت الخيام فى محال عالية من الوادى خوفا من
الهجوم فظهر على حين غفلة فوق الجبل وعلى البعد عدة من العبيد حتى دنوا من
العرضى وصاروا يرمون العساكر بسهامهم وحرابهم وكان العسكر قد سكنوا بمساكنهم
فهجم عليهم العسكر فهربوا ثم عادوا وصاروا يحاربون الى الليل

مطلب
عرض جبل سنجه

ولما اعتكر الليل أحاطوا بالعسكر من كل جانب ولم يتشتت شملهم الا بضرب النيران فلما
أصبح الصباح صعدوا على ذروة الجبل وفوقوا نبالهم وسهامهم على العسكر كالامطار
ومع هذه الحروب الخطرة فكان مع المعدنجية مائة نفر يحفرونهم فاشتغلوا فى وقت
الحروب بتجربة النهر الخارج من هذا الجبل فتحصل موسيو بوريانى على فلزات ذهبية
خرجت بالتنظيف عدة مرات ووضعها فى زجاجة ليمتحنها فيما بعد ولا زال العبيد
ينقضون على العسكر حتى تركوا جبل سنجه بدون تميم التجربة فاقتفى السودان أثرهم
الى جهة وادى بولغيديه فأخذوا قنطارين من دقيق رمل هذا الوادى وغسلوهما
وحسبوا ازمن شغلهما فكلما اخرج منهما وضع فى الزجاجة ووجدوا أن الذخائر كادت
تنفد منهم فرجعوا من طريق سنار وقد جربوا تجاريب كثيرة فى طريقهم وكلما تحصلوا
عليه من الفلزات وضعوه فى الزجاج وسدوا عليه وكانوا يجدون فى عودتهم كثيرا من
المعادن المخربة التى حفرها العبيد ولم يجد العسكر فى طريقهم بيوتا ولا مساكن
مسكونة بأحد لان العبيد لخوفهم من العساكر كانوا يهرعون منها فلذلك لم يقف
المعدنجية على حقيقة الحال ولم يمكنهم أن يذهبوا الى المحلات المشهورة لحصول الذهب
بجبل دول لنفد الذخيرة وقد وجدوا على شطوط نهر هادى عدة آبار مستديرة عميقة يبلغ
عددها نحو ستمائة بئر عمق البئر الواحدة أربعة وعشرون قدما وقطرها نحو أربعة أقدام
وفى قاع كل بئر مماشى يتوصل اليها بواسطة سلالم صغيرة
وهذا النهر كثير الذهب جدا فقد عثر موسيو بوريانى على الذهب فى ثلاث صوانات

مطلب
هجوم أهل سنجه على العسكر

مطلب
تجربة وادى بولغيديه

مطلب
رجوع المعدنجية من تلك الجهات

أخذها

أخذها من هذا النهر وكذلك موسيو روسيجير وجد به قطعا من الاحجار مشتملة على الذهب

فبا ستكشاف معادن هذا النهر اطمأنت قلوب أهل العرضى وفرحوا به فرحا شديدا حتى نهض العساكر على الانقضاض بهذا النهر اعتمادا على حكاية أهل الجهة وجمعوا ما عثروا عليه من الجرم ثم عادوا الى مدينة الخرطوم التى خرجوا منها من نحو ستة أشهر فلم يجدوا الحكمدار فيها حيث كان قد توجه لقتال الحبشة المغيرين على الاطراف فأخذوا فى تحليل ما تحصلوا عليه فوجدوا العينات مختلفة الريع وذلك ان موسيو بوريانى عمل التجربة التخليصية بطريقة التحليل بالزئبق فكانت النتيجة فى احدى التجريبات بالنسبة الى اقليم كاميل ليتحصل من قنطار الرمل الاعلى ثلاث حبات من الذهب فالرجل الذى معه اثنان مساعدان لنقل الماء والتراب اذا كان ينظف كل يوم عشرة قناطير من الرمل الى اثنى عشر فلا يجمع الا ستة قروش مصرى من الذهب وبالنسبة الى رمال اقليم فاسنغار ولا يتحصل الاعلى ثلاثة قروش ونصف من الذهب فى اليوم الواحد فكتب بهذه التجربة خطابا وأرسله مع العينة الى الحكمدار خورشد باشا فارسل الحكمدار المذكور ذلك بصحبة موسيو بوريانى الى المعية السنية وكان ذلك فى سنة أربع وخمسين ومائتين وألف

وأما تجربة موسيو روسيجير فكانت نتيجتها بخلاف ذلك فان الاحجار المعدنية الذهبية يتحصل منها اثنان فى المائة يعنى ان صاف المائة درهم مثلا درهمان وأما الذهب الصفائحى الذى يوجد فى المعادن كالعروق فانه يتحصل فى كل ألف قنطار من مائة وستين الى مائة وثمانين صفيحة من الذهب يعنى من ثمانمائة وخمسة وثلاثين درهما الى ألف ومائة وستة وثلاثين درهما من الذهب وقيمة الدرهم ثمانية وثلاثون قرشا وقد تحقق عنده هذا المعدنى أن الشخص الواحد ينظف كل يوم ثلثمائة وخمسين أقة من الرمل فيتحصل منها ذهب قيمته من ثمانين قرشا الى مائة قرش فكان هذا المعدل يزيد عن معدل موسيو بوريانى عشرين مرة فلما اطلع المرحوم محمد على على المعدلين ووجد الفرق بينهما جسيما لم تمالك نفسه من الغضب على موسيو بوريانى لانه كان يميل بالطبع لما فيه الارجحية فى الريع فبهذا مال الى تقرير موسيو روسيجير فلأجل الوقوف على الحقيقة صمم على السفر الى بلاد السودان لتصير التجربة أمامه مع تقدمه فى السن وشيخوخته وطبيعة اقليم الاقطار السودانية وتعب الاسفار الشاقة بها الا أنه كان ملحوظا بالعناية الربانية ومحفوظا بالتوفيقات الصمدانية كما قيل

ان حل فالشرف التليد أنيسه ⁂ أو سار فالظفر الطريف قرينه

مطلب
تصميم المرحوم محمد على على السفر الى بلاد السودان

فالدهر خاذل من أراد عناده * أبدا ورزاق العباد معينه

وأمر موسيو وريانى بالذهاب قبله بعدة أيام فأراد أن يتخلص من ذلك وقال ان طريقة التحليل بالزئبق التى سلكها موسيو روسيجير ربما يمكن أن ينال بها أكثر من طريقة التصفية التى عليها العمل عند السودان فكأنه سلم ان طريقة صاحبه مربحة وكان قوله ذلك لمحض الاعتذار والخروج من الورطة ثم قال أيضا ان الرمل لامانع من أن يعطى كل يوم للشغال خمسين أو بعين قرشا وصح أنه قال ذلك لمجرد المسايرة الا أن المرحوم محمد على أخذه بالقبول وفرح به

وكان للمرحوم محمد على طلب من فرانساه مهندسا شهيرا بعلم المعادن وهو موسيو ليفبره كان سبق استخدامه فى مدينة المعادن المصرية وكان موسيو بوريانى قد سافر الى السودان امتثالا للامر العالى وبعده بثلاثة أيام ركب المرحوم محمد على البحر وبصحبته خير الدين بك قبودان السفن وعدة اشخاص منهم موسيو ليفبره المعدنجى ودارنو بك المهندس ولمبير بك المهندس وأحمد افندى يوسف الجشنجى فسافر بالسلامة بالنيل حتى دخل السودان

اركب النيل ما استطعت ففيه * راحة للفتى وغاية بغيه
كم تفرجت حين سافرت فيه * فى بلاد وكم ظفرت بغنيه

فلما دخل مدينة الخرطوم كان يوما مشهودا لحضور جميع من هناك للتشريف فلاطفهم جميعا ودعوا له بخير وفرحوا به غاية الفرح وأثنوا عليه بجميل الثناء ومكارم أخلاقه كما قيل

كل الامور تبيد عنك وتنقضى * الا الثناء فانه لك باقى
لوانى خيرت كل فضيلة * ما اخترت غير مكارم الاخلاق

ثم أمر موسيو ليفبره المعدنجى أن يتوجه الى جبال موره وسكادى وهى على ثمان فراسخ فى الجنوب الغربى من سنار ليجرب معادن الفضة ومعادن النحاس التى هى على مجنة النيل باقليم روسيرى وأرسل خلفهم كلا من موسيو بوريانى ودرنو بك وأما حضرته العلية فقد بقى فى الخرطوم ليستقبل رؤساء بلاد السودان الوافدين عليه من جميع الجهات على اختلافها وكلهم وعدوه بالمساعدة على مشروعه وأن يعينوه بستين ألف نفس للشغل اذا اقتضى الحال هذا القدر ثم سافر الى جهة سنار ونزل باقليم روسيرى وحضر اليه ملوك سنار وفازغلو وصار يستعلم منهم عن المعادن ومحل وجودها وعن أحوال زراعة البلاد وما يناسبها وأرشد رؤساء السودان الى طرق جديدة فى الزراعة وفى الصنائع والفنون التى لا يعرفونها وأمرهم بالحصول عليها واستعمالها لتصل

مطلب
استصحاب المرحوم محمد على فى سفره جماعة من أرباب الخبرة فى المعادن وغيرها

مطلب
دخول المرحوم محمد على الخرطوم وما حصل من الاحتفال به وارساله المعدنجية الى عدة جهات واقامته بالخرطوم لاستقبال الوافدين عليه

مطلب
سفر المرحوم محمد على من الخرطوم الى جهة سنار

مطلب
ارشاد المرحوم محمد على أهل السودان الى وسائل الزراعة وغيرها

نوبة التقدم للنوبه باكتساب وسائل المنافع المحبوبة المجلوبه ويتوب الخيط الابيض من فجر الفنون عن الخيط الاسود من فجور الجنون وليكونوا من أهل التبصره وتكون عندهم آية النهار مبصره ثم حضر المعدنجي ليخبره من جبل مويه وأخبره أنه لم يجد أثر المعدن الفضة ولا معدن النحاس فى المحل الذى حكى عنه موسيو روسيجير فنفر من الاقامة بهذه الجهة لعدم الحصول على مقصده ولكن

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه * وليس عليه أن يساعده الدهر

مطلب مسير المرحوم محمد على الى اقليم فازغلو

فرفع معسكره ونهض الى اقليم فازغلو وكان أحمد باشا قد تولى حكمدارا عوضا عن خورشيد باشا وكان قد بعثه محمد على الى محاربة جبال رجريج وكانوا عاصين فنوى أن ينتظر عودة الحكمدار بعد وصوله ففى ظرف ثلاثة أيام وصل المرحوم محمد على الى قرية

مطلب وصول المرحوم محمد على الى قرية فاموكو واستحسانه اياها وامره ببناء قصر فيها على اسمه

فاموكو تجاه فازغلو وهى على ميمنة البحر الازرق فضرب خيامه بها وأعجبه حسنها وظرافتها فأمر ببناء قصر فيها على اسمه ليذكر سفره بها وعين حالا درنود بك لهذه المأمور به فهندسه البك المذكور وبنيت حوله الدور حتى صار بلدة شهيرة هنالك سميت بمحمد على وهى من الاثر الجليل الجلى الا انها صارت محل التغريب ينشد فيها المنفى الغريب

ياعين ان بعد الحبيب وداره * ونأت مرابعه وشط مزاره
فلقد ظفرت من الزمان بطائل * ان لم تريه فهذه آثاره

ولما عاد أحمد باشا من غزوه كان فصل المطر قد دنا والذخائر كادت تنفد وكان المرحوم محمد على توجه الى اقليم فاشنغارو وكان قد بعث حين توجهه احد مماليكه ليأخذ الرمل من وادى قراده فاستخرج المعدنجية من هذا الرمل نحو ثلاثة فلزات من الذهب اليسير القيمة القليل الجودة

مطلب وصول المرحوم محمد على الى فاشنغارو

ولما نزل المرحوم محمد على فى فاشنغارو ضرب مخيمه تحت شجرة تين والمعسكر حوله ولم يبق معه من المأكولات الا البقسماط واليسير من الارز فسئمت نفوس الجميع من قلة الزاد والحط والترحال بهذه الحالة ولام كل الناس موسيو بوريانى على تأميل الباشا المذكور وتجسيمه له فى ربح المعادن الذهبية فجمع الباشا

مطلب جمع المعدنجيه وعمل تجربة عمومية

المذكور المعدنجية والمهندسين ليأخذ رأيهم فقرروا جميعا على عمل تجربة جديده بطريقة أخرى مفيده وهى أن يجمع الرمل من جميع المحلات بمقادير متناسبة ويعلم كمية ما يخرج منها فخرجت النتيجة بهذه التجربة مثل السابق فى قلة الربح ولكن قد استكشف موسيو بوريانى فى بئر من آبار وادى قراده فى عمق اثنين وعشرين قدما طبقة معدنية يتراءى انها كثيرة الذهب ليمتحنها مع التأنى وقبل أن

يرحل موسيو ليفيره المعدنجي من الخرطوم كان عثر أيضا على رطلين من الزئبق في مخازن الحكمداريه فأحب موسيو بورياني ان يعمل امتحانه لما أخذه بطريقة التحليل الزئبقي فبعد الامتحان تحصل على محصول كثير من الذهب بطريقة هذا التحليل فسكت عن ذلك وصار منهمكا على اتباع هذه الطريقة في التجربة فلم يشعر اذ وجد في قرار القزازة جرما معدنيا ذهبيا مخلوطا بغيره ولم يعرف سبب هذا الغش فأخبر غيطاني بك وموسيو لمبير بك بذلك وهم أخبروا المرحوم محمد على فوسيو بورياني اتهم بعض أخصامه انهم أرادوا أن يفسدوا عليه تجربته وأراد باخبار من ذكر البحث عن صاحب الفعلة فادعى أحمد افندي الجشنجي ان موسيو بورياني المذكور هو الذي خلط الذهب بالزئبق عمدا لعدم نجاح تجربته وأخبر بذلك أمام الباشا وصدق عليه الحاضرون ففي اليوم الثاني استعمل موسيو بورياني طريقة الغسل بالقصاع فغسل مائة قنطار من الرمل مأخوذا من فرش الوادي بجبال قراده فاستخرج منها تسعا وأربعين حبة من الذهب

فهذه التجربة الكبيرة ظهر منها اشباع معدن وادي فاشنغار والذي جرب عينته موسيو روسيجير سابقا فوجد بين طريقة موسيو بورياني وموسيو روسيجير فرق جسيم فبهذا الاختلاف الفاحش ضاق صدر الباشا المرحوم وفترت همته حتى كاد أن يصرف النظر عن قضية استخراج المعادن ولكن عاد الى تجلده وصبره وأمر بعقد جمعية تستخرج مقدار قيم مجاميع الاشغال التي حصلت كلها فبادرت الجمعية باستخراج ذلك فنتج انه لا يتحصل من عملية الصانع الواحد من الذهب الا قيمة ثلاثة قروش كل يوم

فمن هذا الوقت سقطت قيمة المعادن الذهبية من أعين الجميع وقل اعتبارها فتغير خاطر المرحوم محمد على من ذلك وداخله اليأس من رواج معادن السودان ولو كان موسيو روسيجير حاضرا معه لسلاه وعلله بالاماني الكاذبه

مطلب يأس المرحوم محمد على من استخراج معادن الذهب بالسودان في نفسه وعوده الى مصر

وأما موسيو بورياني فقد كان حاضرا وأخبر بالصدق ولم يداس ولكن لكونه كان يهاب سيده كثيرا فلم يستطع أن يذب عن نفسه فضرب عنه المرحوم محمد على صفحا وأنعم على جميع المهندسين والمعدنجية عند ارتحاله من السودان بركوبة ورخت مذهب وما استثناه من هذا الانعام ولا غض عنه البصر ويئس من وجود الذهب المشبع من بلاد السودان ولكن لم يظهر له الحقد ولا صرف عنه النظر بل أمر الجمعية أن تمكث وتبحث مع غاية الدقة عن الطريقة اللازمة لاستخراج هذه المعادن فكان العسكر المحافظون على أهل هذه الغزوة العلمية يعتقدون أن سيدهم ابقى هؤلاء

المهندسين

المهندسين رسما فقط وأن أشغال هؤلاء المهندسين ليست الاصورية فكانوا لا يساعدونهم على أشغالهم ولا يصرفون همتهم فى اعطاء ما يلزم لتتميم التجربة وكان قد تعين لادارة المعدن خير الدين باشا فكان بسىء السلوك لانه كان سكرها على الاقامة بتلك البلاد وترك وطنه فبهذا كان يعتقد أن الافرنج المعدنجية هم السبب فى طول غربته فكان يتجاهر بتقريعهم وتوبيخهم

مطلب
موت رئيس المعدنجية وافادته قبل موته ان تقرير الجمعية بعدم ربح استخراج المعادن لا يعول عليه

ثم ان موسيو ليفبره أصابته حمى شديدة وكان قد وعده المرحوم محمد على أن يعطيه بعد تمام الاشغال رتبة ميرالاى فكان على غاية من الاجتهاد فمات بالحمى وقبل موته صرح بأن تقرير الجمعية بعدم ربح المعادن فى السودان ليس بقطعى ولا ينبنى عليه حكم وأنه لا ينبغى ان يقطع الرجاء بالكلية من ربح هذه المعادن لاسيما وأن موسيو بوريانى قرر تقريرا شفاهيا يؤيد رأى ليفبره السابق وعبارته ليس من أرباب الجمعية بتمامها من هو معتمد فى قوله فيما يخص قيمة ما يتحصل من الرمال من الذهب حيث جمعنا الا معرفة له تامة باستخراج المعادن فلسنا متبحرين فى هذا الفن بل الظاهر أنه لو صارت الادارة على صورة حسنة مستقيمة وصدق الممتحنون فى تجاريبهم وصار الاجتهاد فى الاستخراج على وجه مرضى فلا بد أن تظهر نتائج عظيمة خصوصا اذا كان المأمور بذلك من المعدنجية المتبحرين فى هذا العلم وله سابقة عمليات صحيحة وأما سفرنا هذا فلم يكن الا محض مناظرة واطلاع على نفس المحال المعدنية بالبلاد السودانية مجردا عن راحة الفكر والبدن وقوله فى محله لان العرضى كان دائما معرضة لاغارة السودان الهمل وكان بدون أهبة ولا ذخيرة وكانت عساكر الاتراك المحافظين على المعدنجية أشد عليهم عداوة من السودان

مطلب
ان معادن الذهب بالسودان لا تنكر وان الزراعة تفلح فيها ان اعتنى بها وان خيراتها كثيرة

فبهذا لم يمكن الوقوف على حقيقة الحال من الاهالى وكانت التجاريب تعمل بالخوف والعجلة وكانت الامراض أيضا من جملة الموانع ومع ذلك فقد صح بتجربة موسيو بوريانى التى استمرت نحو ثلاث سنوات أن بعملية استخراج المعادن بالعبيد يعطى قنطار الرمل نحو خمس حبات من الذهب مع قبول الزيادة عن ذلك لو وجدت المعرفة والصداقة ومع هذا كله فنقول ان ذهب السودان لا ينكر وان الاقطار السودانيه التابعة للحكومة المصرية وان كانت دون أقاليم أمريقه بكثير فهى كمصر ان لم تسعفها المعادن المتطرقه فمعادن الزراعة فيها محققه ولولا التغافل والتكاسل من بعض الحكام واتصاف بعض آخر بالجهل التام لكانت ايراداتها ومحصولاتها على أكمل نظام فان خصوبة أرضها عجيبه وحيواناتها غريبه وأخشابها جيده ومعادنها متعدده فالمواليد الثلاثة فيها على غاية من الكمال ولا انظر الى ما يعتقده عامة الناس

من أن أكثرها رمال. فقد يوجد من الاهالى من يترافع مع أخصامه فى ملكية ألوف من الفدادين لنفسه ويريد نزعها من يد أبناء جنسه وفى أيام حكمدارية حضرة لطيف باشا أعطى ألف فدان لاحد السناجق وهو دموزاغا من البولو فلم تبرح مدة يسيرة أن صارت من المعمور وصح فيها جميع البقول والغلال لاسيما زرع الحنطة الذى فى تلك البلاد له بال وهناك أراض بمديرية دنقله لايعلوها النيل الا في زمن الفيضان الغزير وليست داخلة فى دفتر حكمدارية الاقليم وقد التمس زراعتها فى سنة من السنين بعض الاهالى بدفع العشور فزرعها من صنف الذرة فأدت محصولا فوق الاربعين ألف أردب فدفع الى شونة الميرى عشرها فصار صنف الذرة رخيصا فى هذه السنة فشكا الاهالى المزارعون من كساد محصولاتهم الى مدير تلك الجهة المتولى فى ذلك الوقت أن يعطيها بعد ذلك لاحد وأحب أحد الكاشفات المستخدم بتلك الجهة أن يتعاهدها فى كل سنة بقيمة مكافئة لعشرها السنوى فلم يساعد على ذلك وأمثال هذه الاراضى كثيرة جدا والاراضى مشتملة النباتات النافعة بنفسها بدون عمل مع قبول أهلها التمدن الحقيقى لدقة أذهانهم فان أكثرهم قبائل عربية لاسيما الجعليين والشاقيه وغيرهم فان اشتغالهم بمألوفهم من العلوم الشرعية شغل رغبة واجتهاد ولهم بهما شغف عظيم فى حسن التعلم والتعليم حتى ان البلدة اذا كان بها عالم شهير يرحل اليه من البلاد الاجنبية للمجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير فيعينه أهل بلدته على ذلك بتوزيع المجاورين على البيوت بحسب الاستطاعة فكل انسان من الاهالى يخص بالواحد أو الاثنين فيقومون بشؤنهم مدة التعلم والتعليم

مطلب استعداد أهالى السودان للمعارف والكمالات ووجود التعاون عندهم على طلب العلم

ولقد رأيت فى طريقى ببلاد الشاقيه بمديرية دنقله حرم سنجق يدعى الملك الازرق تسمى السيدة أمونة تقرأ القرآن الشريف وقد رسمت مكتبين أحدهما للغلمان والثانى للبنات كل منهما لقراءة القرآن وحفظ المتون تنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن وحلجه وغزله وتشغيله ولا ترضى ان يشوبه شئ من مال زوجها وبجانب المكتبين خلوات لمن يختلى من العباد والزهاد الحاضرين من أقصى البلاد لاداء فريضة الحج الشريف ومنزلها كالتكية للفقراء وابناء السبيل والقاصدين بيت الله الحرام ولامثال ذلك كثير هنالك فى ظل الحكومة المصرية

ومما يدل على حسن مقاصد المرحوم محمد على أنه فى عودته من البلاد السودانية استصحب معه عدة غلمان من أبناء وجوه السودان الى مصر وأدخلهم فى المدارس المصرية ليتعلموا مبادى العلوم ثم نقلهم الى مكتب الزراعة ثم الى مدرسة الالسن وكان القصد من ذلك أن يذوقوا طعم المعارف التمدنية لينشروها فى بلادهم وقد شاهدت

بعضهم

بعضهم مستخدما بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب ويغلب على الظن انه بواسطة تنظيمات سعادة شاهين باشا الاخيرة المؤسسة على حب تقدم الحمية المدنية وهمة سعادة جعفر باشا صاحب الانظار التمدنية يمكن ايصال التقدمات العصرية بعناية الحكومة المصرية فى اطراف وأكناف تلك البلاد التى هى الآن لم تخل قراها عن نوع التقدم فى الحضارة مع مساعدة الوارد والمتردد اليها فى هذه الايام لقصد الزيارة أو التجارة فانها اقرب للتمدن من أقاليم أمريقه بكثير وجميع أهلها ماعدا بعض الجبالى لسانهم عربى فصيح حيث ان جلهم من نسل العرب المنتجعة القبائل قديما يحفظون احسابهم وانسابهم وفيهم كمال الاستعداد وذكاء الفطنة وانما يحتاجون فى حصول المطلوب الى اطمئنان النفوس وتأليف القلوب من حكام ارباب مصداقة وعفاف وعدل وانصاف لا تحملهم المطامع الدنيوية على محض الالتفات الى الامور الدنية بل توجد القابلية أيضا فى الاهالى المتأصلين

ويدل على هذا ما حكى للخليفة ابى جعفر المنصور مما جرى بين عبد الله بن مروان ابن محمد وبين ملك النوبة مما ذكره المؤرخون فى حق الملك المذكور مع انه كان من ملوك السودان المتأصلين والجنس القطعى اذلم تكن القبائل العربية انتجعت الى السودان ولا تسلط على هذا الاقليم ملك من أهل الاسلام ولا من العربان وهو ان أبا جعفر المنصور حضره ليلة عبد الله بن على وصالح بن على فى نفر معهما فقال عبد الله بن على يا أمير المؤمنين ان عبد الله بن مروان بن محمد لما هرب الى بلاد النوبة جرى بينه وبين ملكها كلام فيه أعجوبة سقط عنى حفظه فان رأى امير المؤمنين ان يرسل اليه بحضرتنا ويسأله عما ذهب عنا وكان فى الحبس فأرسل اليه ابو جعفر فلما دخل قال له يا عبد الله قال لبيك يا امير المؤمنين قال أخبرنى بحديثك وحديث ملك النوبة قال يا امير المؤمنين هربت بمن تبعنى بأثاث سلم لى الى بلاد النوبة فلما دخلت بلادهم فرشت ذلك الاثاث فجاء أهل النوبة ينظرون الى متعجبين منى الى أن بلغ ملك النوبة حضورى فجاء ومعه ثلاثة نفر فاذا رجل طوال آدم أفطس حسن الوجه أى علمه فلما قرب منى قعد على الارض وترك البساط قلت ما يمنعك ان تجلس على أثاثنا هذا قال انى ملك وحق لكل ملك ان يتواضع لعظمة الله اذا رفعه الله قال ثم نظر الى فقال لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم فقلت عبيدنا وأتباعنا يفعلون ذلك بالجهل منهم قال فلم تلبسون الديباج والحرير وتحلون بالذهب وهو محرم عليكم فقلت زال عنا الملك وانقطعت المادة واستنصرنا بقوم من الاعاجم كان هذا زيهم فكرهنا الخلاف عليهم فاطرق يقلب بيده ويقول عبيدنا واتباعنا وأعاجم دخلوا فى ديننا يكرر الكلام على نفسه ثم نظر الى فقال ليس ذلك كما تقول

لاستكشاف المعادن الذهبيه والكشف عنها بحضوره واعمال الطرق التجربيه لما مهد محمد علي في مصر الزراعه والتجارة والصناعه التي هي المنافع العموميه وكثرت ثروة مصر بالاخذ والعطاء وحظي أهلها بطيب العيش والرفاهيه وذاقوا ثمرة العدل والاحسان والفضل والامتنان وكان أواخر عصر المرحوم محمد علي بالنسبة اليهم ما كان يسمى عصر الذهب عند أمة اليونان في أوائل تلك الازمان حيث عوض الله سبحانه وتعالى أهل مصر في مقابلة ماذاقوه من الشدائد في أول الامر ذوقهم طعم الهناء والراحة التامة في آخره وذلك مصداق قوله تعالى فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا وكان المرحوم لايزال يصرف وقته في تكميل المنافع العموميه للديار المصريه وكانت الاقطار السودانية التي تحت حكومته تجبر قديما وحديثا لاسيما في الذهب وشهيرة بما فيها من المعادن المشبعه صرف همته العليه الى توسيع استخراج المعادن بتلك الجهه لما أن معدن الذهب من أشرف نعم الله على عباده اذ به قوام الدنيا ونظام أحوال الخلق فان حاجات الناس اليه كثيرة وكلها تقضى بالنقدين ويباع بهما ويشرى كل شيء بخلاف غيرهما من المعادن فانه لايرغب فيه كل أحد رغبته في النقدين حيث هما كالقاضيين لمصالح لكل من اقتناهما ولذلك قال الله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم لان المقصود منهما تداولهما بين الناس لقضاء الحوائج فمن كنزهما فقد أبطل الحكمة التي خلقا لها وكان كمن حبس قاضي البلد ومنعه أن يقضي بين الناس فالذهب والفضة كما يجلبان المنافع يجلبان المضار

مطلب امهات المعادن المستخرجة في هذا العهد

وأمهات معادن الذهب المستخرجة في هذا العهد هي معادن بلاد الامريقه تخرج من جوف الارض أو من تنظيف الرمال الذهبية وفي بلاد افريقه التبر فرع عظيم في تجارة السودان وليس في بلاد أوروبا الا معادن سيبرين ببلاد الموسقو ومعادن بلاد المجر في مملكة النمسا وفي آسيا معادن الذهب ورماله وأما معادن الفضة الشهيرة في بلاد أمريقه باقليم برو وغيره وهي التي تعطي كمية عظيمة من الفضة المتعامل بها في أيدي التجار ففي بلاد مقسيقا أزيد من ثلاثة آلاف معدن مستخرج وكذلك معادن بلاد برو بأمريقه فانها مثريه جدا ومعادن قاليفورنا المشهورة بالذهب المشبع التي استكشفت سنة خمسة وستين ومائتين وألف وهي في جمهورية مقسيقا فبلاد افريقه لها شبه بأمريقه فلهذا أرسل المرحوم محمد علي باشا عدة مرات من يلزم من المعدنجيه لتجريب معادنها فلم يقف منهم على حقائق تامة في شأن ذلك فشك في مهارتهم وفي اجتهادهم وقد كان حكمدار بلاد السودان أرسل اليه عدة فلزات من الذهب على سبيل الغنيمة

مطلب معادن الفضة في امريقه

مطلب مشابهة افريقه لامريقه وظن انها يستكشف منها معادن النقدين بالبحث فيها

فكاد

فكاد يطير بها فرحا فأرسل فى نحو سنة مائتين وألف كلا من موسيو روسيجير وموسيو بريانى الكيماوى فالاول كان قد ذهب الى المعادن قبل الثانى بكثير فشرع فى التجربة ورجع الى الخرطوم فوجد موسيو بريانى قد أقام بها ينتظر الفصل المناسب فكتب موسيو روسيجير من الخرطوم الى المرحوم محمد على ما مضمونه ان النفر الذى يشتغل فى المعدن باليومية يستخرج ذهبا بعشرة فرنكات كل يوم يعنى بأربعين قرشا ميريا وكان ذلك فى مدة ولاية خورشيد باشا الحكمدارية السودان وأخبر المعدنجى الحكمدار بذلك فلم يصدق ذلك الحكمدار المذكور وأما المعية السنية فأخذت كلام المعدنجى المذكور قضية مسلمة واعتقد ذلك أيضا المرحوم محمد على وتباشر بأنه اذا صار استخراج المعادن على هذه الكيفية يصير أغنى الملوك وانتقلت الرغبة فى الزراعة التى بها غذاء أهل مصر والتى هى كاللبن لرضاعهم الى الرغبة فى المعادن فصار مطمح النظر من النيل أنه وسيلة السير فيه لاستخراج الذهب وجلبه وكأنما هذا الغرض هو المقصد منه بالاصالة

مطلب
ارسال محمد على معدنجية بالسودان لاستكشاف المعادن

ثم لما اعتدل الوقت اللائق للسفر الى المعادن خرج موسيو روسيجير وموسيو بريانى من الخرطوم ومعهما من النفر ألف من عساكر الجهادية تحت رياسة ميرالاى مصطفى بك وصاروا جميعا حتى وصلوا الى فازغلو وشرعوا فى استخراج المعدن والبحث عنه فوجد حفائر حفرتها العبيد قبل ذلك وبجوانبها قصاع من الخشب فكل واحد من المعدنجية أخذ قصعة وعمل صنعة التنظيف للرمل الخارج من الحفرة فلم يظهر لاحد منهم ربح بل ما تبقى من بعد التصفية انما هو فلزات مشوبة بالحديد والتراب ثم كرروا التجربة فلم تنتج أزيد من ذلك فان موسيو بريانى أخذ قنطارين من الرمل وصفاهما فلم يخرج منهما سوى حبة ونصف من الذهب وكذلك موسيو روسيجير ثم توجهوا الى جهة سنجه وهى أبعد محل فتحه المرحوم اسمعيل باشا ومشهور بكثرة الذهب فمكثوا فيه ليلة بواد يسمى خور البابا كان العبيد قد حفروا فيه حفائر لاستخراج الذهب ثم ذهبوا الى محل يقال له زنبو حوله غابات عظيمة ووديان وسفوح منخفضة ووصلوا الى وادى يسمى وادى توماتو جارى المياه فوجدوا فيه حفائر وقصاعا معدة لتنظيف الذهب وتنقيته فكانت نتيجة التجربة كالسابقة فاقتضى الحال أن يمروا بغابات غير مسلوكة فوصلوا الى جبل ابوغولجى ونزلوا بهذه الجهة المشهورة بمعادنها الذهبية فأرسلوا بطلب شيخ السودان هناك ليستعلموا منه عن ذلك فأبى الحضور فرجعوا من طريقهم بوادى ابوغولجى نفسه فكان يبسا لاماء فيه بكثرة وانما كانوا يجدون فى طريقهم فى الحفر بعض مياه وبعض حفائر حفرها العبيد وعلى حكايتهم أن هذه المعادن التى بهذا الوادى كثيرة الذهب ثم بعد ذلك بسير مسافة ساعة صوب الغرب وجدوا واديا آخر عالى الحوافى التجربة فلم يقفوا عنده

مطلب
نتيجة تجربة معادن فازغلو

مطلب
تجربة جهات سنجه وزنبو وتوماتو

مطلب
تجربة معادن ابوغولجى

و بينما هم سائرون فى أباطحه قبض موسيو بوريانى قبضة من الرمل فوجد بها أربع
فلزات من الذهب كل فلز ثمنها وزن حبة فساروا من واد الى آخر حتى وصلوا تجاه جبلى

مطلب
عرض جبل سنجه

سنجه وغوريزه وبسفحهما بنو شنغول وسنجه ولهم مساكن لطيفة مقبوة يقال لها
توكول وعدتها تنيف عن ألفى بيت وعرض جبل سنجه فى الدرجة العاشرة والعشرين
دقيقة شماليا ولا يزرع سودانها الا قليلا من الذرة والدخان حول مساكنهم فلما رأوا
العسكر قربوا من مساكنهم ولوا هاربين فدخل العسكر مساكنهم فوجدوا بها الآلات
والادوات المستعملة لتنظيف الرمل واستخراج الذهب منه فبعث رؤساء العسكر
لطلبهم فلم يحضروا ولا حضر العبيد وبون فى طلبهم ولا ظهر عنهم خبر ولا بان لهم أثر
فاحترس العرضى كل الاحتراس وضربت الخيام فى محال عالية من الوادى خوفا من
الهجوم فظهر على حين غفلة فوق الجبل وعلى البعد عدة من العبيد حتى دنوا من
العرضى وصاروا يرمون العساكر بسهامهم وحرابهم وكان العسكر قد سكنوا مساكنهم
فهجم عليهم العسكر فهربوا ثم عادوا وصاروا يحاربون الى الليل

مطلب
هجوم أهل سنجه على العسكر

ولما اعتكر الليل أحاطوا بالعسكر من كل جانب ولم يتشتت شملهم الا بضرب النيران فلما
أصبح الصباح صعدوا على ذروة الجبل وفوقوا نبالهم وسهامهم على العسكر كالامطار
ومع هذه الحروب الخطرة فكان مع المعدنجية مائة نفر يحفرونهم فاشتغلوا فى وقت
الحروب بتجربة النهر الخارج من هذا الجبل فتحصل موسيو بوريانى على فلزات ذهبية
خرجت بالتنظيف عدة مرات ووضعها فى زجاجة ليمتحنها فيما بعد ولا زال العبيد

مطلب
تجربة وادى بولغيديه

ينغصون على العسكر حتى تركوا جبل سنجه بدون تتميم التجربة فاقتفى السودان أثرهم
الى جهة وادى بولغيديه فأخذوا قنطارين من دقيق رمل هذا الوادى وغسلوهما
وحسبوا زمن شغلهما فكلما خرج منهما وضع فى الزجاجة ووجدوا أن النتائج كادت
تتقدمهم فرجعوا من طريق سنار وقد جربوا تجاريب كثيرة فى طريقهم وكلما تحصلوا

مطلب
رجوع المعدنجية من تلك الجهات

عليه من الفلزات وضعوه فى الزجاج وسدوا عليه وكانوا يجدون فى عودتهم كثيرا من
المعادن المحفورة التى حفرها العبيد ولم يجد العسكر فى طريقهم بيوتا ولا مساكن
مسكونة بأحد لان العبيد لخوفهم من العساكر كانوا يهرعون منها فلذلك لم يقف
المعدنجية على حقيقة الحال ولم يمكنهم أن يذهبوا الى المحلات المشهورة لحصول الذهب
بجبل دول لفقد الذخيرة وقد وجدوا على شطوط نهر هادى عدة آبار مستديرة عميقة يبلغ
عددها نحو ستمائة بئر عمق البئر الواحدة أربعة وعشرون قدما وقطرها نحو أربعة أقدام
وفى قاع كل بئر ممشى يتوصل اليها بواسطة سلالم صغيرة
وهذا النهر كثير الذهب جدا فقد عثر موسيو بوريانى على الذهب فى ثلاث صوانات

أخذها

أخذها من هذا النهر وكذلك موسيو روسيجير وجنابه قطعا من الاحجار مشتملة على الذهب

فباستكشاف معادن هذا النهر اطمأنت قلوب أهل العرضي وفرحوا به فرحا شديدا حتى نهض العساكر على الانتقاض بهذا النهر اعتمادا على حكاية أهل الجهة وجمعوا ما حصلوا عليه من الجرم ثم عادوا الى مدينة الخرطوم التي خرجوا منها من نحو ستة أشهر فلم يجدوا الحكمدار فيها حيث كان قد توجه لقتال الحبشة المغيرين على الاطراف فأخذوا في تحليل ما تحصلوا عليه فوجدوا العينات مختلفة الربح وذلك ان موسيو بوريانى عمل التجربة التنظيفية بطريقة التحليل بالزئبق فكانت النتيجة في احدى التجربيات بالنسبة الى اقليم كاميل لحصو قنطار الرمل الاعلى ثلاث حبات من الذهب فالرجل الذي معه اثنان مساعدان لنقل الماء والتراب اذا كان ينظف كل يوم عشرة قناطير من الرمل الى اثنى عشر فلا يجمع الاسبعة قروش مصرية من الذهب وبالنسبة الى وطن اقليم فاشنغار ولا يحصل الاعلى ثلاثة قروش ونصف من الذهب في اليوم الواحد فكتب بهذه التجربة خطابا وأرسله مع العينة الى الحكمدار خورشد باشا فارسل الحكمدار المذكور ذلك بصحبة موسيو بوريانى الى المعية السنية وكان ذلك في سنة أربع وخمسين ومائتين وألف

وأما تجربة موسيو روسيجير فكانت نتيجتها بخلاف ذلك فان الاحجار المعدنية الذهبية يتحصل منها اثنان في المائة يعني ان صافي المائة درهم مثلا درهمان وأما الذهب الصفائحي الذي يوجد في المعادن كالعروق فانه يتحصل في كل ألف قنطار من مائة وستين الى مائة وثمانين صفيحة من الذهب يعني من ثمانمائة وخمسة وثلاثين درهما الى ألف ومائة وستة وثلاثين درهما من الذهب وقيمة الدرهم ثمانية وثلاثون قرشا وقد تحقق عند هذا المعدني أن الشخص الواحد ينظف كل يوم ثلثمائة وخمسين أقة من الرمل فيتحصل منها ذهب قيمته من ثمانين قرشا الى مائة قرش فكان هذا المعدل يزيد عن معدل موسيو بوريانى عشرين مرة فلما اطلع المرحوم محمد على على المعدلين ووجد الفرق بينهما جسيما لم تمالك نفسه من الغضب على موسيو بوريانى لانه كان يميل بالطبع لما فيه الارجحية في الربح فهذا ماله الى تقرير موسيو روسيجير فلاجل الوقوف على الحقيقة صمم على السفر الى بلاد السودان لتصير التجربة أمامه مع تقدمه في السن وشيخوخته وطبيعة اقليم الاقطار السودانية وتعب الاسفار الشاقة بها الا أنه كان ملحوظا بالعناية الربانية ومحفوظا بالتوفيقات الصمدانية كما قيل

ان حل فالشرف التليد أنيسه * أو سار فالظفر الطريف قرينه

مطلب
تصميم المرحوم محمد على على السفر الى بلاد السودان

فالدهر خاذل من أراد عناده * أبدا ورزاق العباد مغنيه

وأمر موسيو بورياني بالذهاب قبله بعدة أيام فأراد أن يتخلص من ذلك وقال ان طريقة التحليل بالزئبق التي سلكها موسيو روسجير رنائيكن أن ينال بها أكثر من طريقة القصفية التي عليها العمل عند السودان فكأنه سلم ان طريقة صاحبه مرجحة وكان قوله ذلك لمحض الاعتذار والخروج من الورطة ثم قال أيضا ان الرمل لامانع من أن يعطي كل يوم للشغال خمسة أو بعض قرش ويعد أنه قال ذلك لمجرد المسايرة الآن المرحوم محمد علي أخذه بالقبول وفرح به

مطلب استصحاب المرحوم محمد علي في سفره جمعا من أرباب الخبرة في المعادن وغيرها

وكان للمرحوم محمد علي جلب من فرانساه مهندسا شهيرا بعلم المعادن وهو موسيو ليفيره كان سبق استخدامه في مدينة المعادن المصرية وكان موسيو بورياني قد سافر الى السودان امتثالا للأمر العالي وبعده بثلاثة أيام ركب المرحوم محمد علي البحر وصحبته خير الدين بك قبودان السفن وعدة أشخاص منهم موسيو ليفيره المعدنجي ودارنو بك المهندس ولمبير بك المهندس وأحمد افندي يوسف الحشني فسافر بالسلامة بالنيل حتى دخل السودان

مطلب دخول المرحوم محمد علي الخرطوم وما حصل من الاحتفال به وارساله المعدنجية الى عدة جهات واقامته بالخرطوم لاستقبال الوافدين عليه

اركب النيل مااستطعت ففيه * راحة للفتى وغاية بغيه

كم تفرجت حين سافرت فيه * في بلاد وكم ظفرت بغنيه

فلما دخل مدينة الخرطوم كان يوما مشهودا لحضر جميع من هناك للتشريف فلاطفهم جميعا ودعوا له بخير وفرحوا به غاية الفرح وأثنوا عليه بجميل الثناء ومكارم أخلاقه كما قيل

كل الامور تبيد عنك وتنقضي * الا الثناء فانه لك باقي

لوانني خيرت كل فضيلة * مااخترت غير مكارم الاخلاق

مطلب سفر المرحوم محمد علي من الخرطوم الى جهة سنار

ثم أمر موسيو ليفيره المعدنجي أن يتوجه الى جبال موية وسكادي وهي على ثمان فراسخ في الجنوب الغربي من سنار ليجرب معادن الفضة ومعادن النحاس التي هي على ميمنة النيل باقليم روسيري وأرسل خلفهم كلا من موسيو بورياني ودرنو بك وأما حضرته العلية فقد بقي في الخرطوم ليستقبل رؤساء بلاد السودان الوافدين عليه من جميع الجهات على اختلافها وكلهم وعدوه بالمساعدة على مشروعه وأن يعينوه بستين ألف نفس للشغل اذا اقتضى الحال هذا القدر ثم سافر الى جهة سنار ونزل باقليم روسيري

مطلب ارشاد المرحوم محمد علي أهل السودان الى وسائل الزراعة وغيرها

وحضر اليه ملوك سنار وفازغلو وصار يستعلم منهم عن المعادن ومحل وجودها وعن أحوال زراعة البلاد ومايناسبها وأرشد رؤساء السودان الى طرق جديدة في الزراعة وفي الصنائع والفنون التي لايعرفونها وأمرهم بالحصول عليها واستعمالها لتصل

نوبة التقدم للنوبه باكتساب وسائل المنافع المحبوبة المجلوبه ويتوب الخيط الابيض من فجر الفنون عن الخيط الاسود من فجور الجنون وليكونوا من أهل التبصره وتكون عندهم آية النهار مبصره ثم حضر المعدنجي ليفبر من جبل موزيه وأخبره أنه لم يجد أثر المعدن الفضة ولا معدن النحاس فى المحل الذى حكى عنه موسيو بروسيجير فتكدر من الافادة بهذه الجهة لعدم الحصول على مقصده ولكن

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه * وليس عليه أن يساعده الدهر

فرفع معسكره ونهض الى اقليم فازغلو وكان أحمد باشا قد تولى حكمدارا عوضا عن خورشيد باشا وكان قد بعثه محمد على الى محاربة جبال الزنج وكانوا عاصين فنوى أن ينتظر عودة الحكمدار بعد وصوله فى ظرف ثلاثة أيام وصل المرحوم محمد على الى قرية فاموكو تجاه فازغلو وهى على ميمنة البحر الازرق فضرب خيامه بها وأعجبه حسنها وظرافتها فأمر ببناء قصر فيها على اسمه ليذكر مقره بها وعين حلادرنود بلك لهندسه المأمور به فهندسه البك المذكور وبنيت حوله الدور حتى صار بلدة شهيرة هنالك سميت بمحمد على وهى من الاثر الجليل الجلى الا انها صارت محل التغريب ينشد فيها المنفى الغريب

مطلب مسير المرحوم محمد على الى اقليم فازغلو

مطلب وصول المرحوم محمد على الى قرية فاموكو واستحسانه اياها وامره ببناء قصر فيها على اسمه

يا عين ان بعد الحبيب وداره * ونأت مرابعه وشط مزاره

فلقد ظفرت من الزمان بطائل * ان لم تريه فهذه آثاره

ولما عاد أحمد باشا من غزوه كان فصل المطر قد دنا والذخائر كادت تنفد وكان المرحوم محمد على توجه الى اقليم فاشنغارو وكان قد بعث من توجه احد مماليكه ليأخذ الرمل من وادى قراده فاستخرج المعدنجية من هذا الرمل نحو ثلاثة قلزات من الذهب اليسير القيمة القليل الجودة

ولما نزل المرحوم محمد على فى فاشنغارو ضرب خيمه تحت شجرة تين والعسكر حوله ولم يبق معه من المأكولات الا البقسماط والبسير من الارز فسئمت نفوس الجميع من قلة الزاد والحط والترحال بهذه الحالة ولام كل الناس موسيو بوريانى على تأميل الباشا المذكور وتجسيمه له فى ريع المعادن الذهبية فجمع الباشا المذكور المعدنجية والمهندسين ليأخذ رأيهم فقرروا جميعا على عمل تجربة جديده بطريقة أخرى مفيده وهى أن يجمع الرمل من جميع المحلات بمقادير متناسبة ويعلم كمية ما يخرج منها فخرجت النتيجة بهذه التجربة مثل السابق فى قلة الريع ولكن قد استكشف موسيو بوريانى فى بئر من آبار وادى قراده فى عمق اثنين وعشرين قدما طبقة معدنية يتراءى انها كثيرة الذهب ليمتحنها مع التأنى وقبل أن

مطلب وصول المرحوم محمد على الى فاشنغارو

مطلب جمع المعدنجيه وعمل تجربة عمومية

برحل موسيو ليفبرو المعدنجى من الخرطوم كان عثر أيضا على رطلين من الزئبق في مخازن الحكمدارية فأحب موسيو بوريانى ان يعمل امتحانا لما أخذه بطريقة التحليل الزئبقى فبهذا الامتحان تحصل على حصول كثير من الذهب بطريقة هذا التحليل فسكت عن ذلك وصار منهمكا على اتباع هذه الطريقة فى التجربة فلم يشعر اذ وجد فى قرار القزازة جرما معدنيا ذهبيا مخلوطا بغيره ولم يعرف سبب هذا الغش فأخبر غيطانى بك وموسيو لبيريك بذلك وهم أخبروا المرحوم محمد على فموسيو بوريانى اتهم بعض أخصامه انهم أرادوا أن يفسدوا عليه تجربته وأراد باخباره من ذكر البحث عن صاحب الفعلة فادعى أحمد افندى الجشبنجى ان موسيو بوريانى المذكور هو الذى خلط الذهب بالزئبق عمدا لعدم نجاح تجربته وأخبر بذلك أمام الباشا وصدق عليه الحاضرون ففى اليوم الثانى استعمل موسيو بوريانى طريقة الغسل بالقصاع فغسل ما ثقنطاران من الرمل مأخوذا من فرش الوادى بجبال قسرايده فاستخرج منها تسعا وأربعين حبة من الذهب

فهذه التجربة الكبيرة ظهر منها اشباع معدن وادى فاشنغار والذى جربه بعينه موسيو روسيجير سابقا فوجد بين طريقة موسيو بوريانى وموسيو روسيجير فرق جسيم فبهذا الاختلاف الفاحش ضاق صدر الباشا المرحوم وفترت همته حتى كاد أن يصرف النظر عن قضية استخراج المعادن ولكن عاد الى تجلده وصبره وأمر بعقد جمعية تستخرج مقدار قيم مجاميع الاشغال التى حصلت كلها فبادرت الجمعية باستخراج ذلك فنتج انه لا يتحصل من عملية الصانع الواحد من الذهب الا قيمة ثلاثة قروش كل يوم

فمن هذا الوقت سقطت قيمة المعادن الذهبية من أعين الجميع وقل اعتبارها فتغير خاطر المرحوم محمد على من ذلك ودا خله اليأس من رواج معادن السودان ولو كان موسيو روسيجير حاضرا معه لسلاموعده بالامانى الكاذبة

مطلب يأس المرحوم محمد على من استخراج معادن الذهب بالسودان فى نفسه وعوده الى مصر

وأما موسيو بوريانى فقد كان حاضرا وأخبر بالصدق ولم يداهن ولكن لكونه كان يهاب سيده كثيرا فلم يستطع أن يذب عن نفسه فضرب عنه المرحوم محمد على صفحا وأثنى على جميع المهندسين والمعدنجية عند ارتحاله من السودان بركوبة ورخت مذهب وما استغنا من هذا الانعام ولا غض عنه البصر ويئس من وجود الذهب المشبع من بلاد السودان ولكن لم يظهر له الحقد ولا صرف عنه النظر بل أمر الجمعية أن تكشف وتبحث مع غاية الدقة عن الطريقة اللازمة لاستخراج هذه المعادن فكان العسكر المحافظون على أهل هذه الغزوة العلمية يعتقدون أن سيدهم ابقى هؤلاء

المهندسين

المهندسين رسما فقط وأن أشغال هؤلاء المهندسين ليست الاصورية فكانوا لا يساعدونهم على أشغالهم ولا يصرفون همتهم في اعطاء ما يلزم لتتميم التجربة وكان قد تعين لادارة المعدن خير الدين باشا فكان يسيء السلوك لانه كان سكرا على الاقامة بتلك البلاد وترك وطنه فبهذا كان يعتقد أن الافرنج المعدنجية هم السبب في طول غربته فكان يتظاهر بتقريبهم وبغضهم

ثم ان موسيو ليفبره أصابته حمى شديدة وكان قد وعده المرحوم محمد على أن يعطيه بعد تمام الاشغال رتبة ميرالاى فكان على غاية من الاجتهاد فمات بالحمى وقبل موته صرح بأن تقرير الجمعية بعدم ربح المعادن في السودان ليس بقطعى ولا ينبغى عليه حكم وأنه لا ينبغى ان يقطع الرجاء بالكلية من ربح هذه المعادن لاسيما وأن موسيو بوريانى قرر تقريرا شفاهيا يؤيد رأى ليفبره السابق وعبارته ليس من أرباب الجمعية بمعلمها من هو معتقد في قوله فيما يخص قيمة ما يحصل من الرمال من الذهب حيث جمعنا الا معرفة له تامة باستخراج المعادن فلسنا متبحرين في هذا الفن بل الظاهر أنه لو صارت الادارة على صورة حسنة مستقيمة وصدق المتفننون في تجاريبهم وصار الاجتهاد في الاستخراج على وجه مرضى فلابد أن تظهر نتائج عظيمة خصوصا اذا كان المأمور بذلك من المعدنجية المتبحرين في هذا العلم وله سابقة عمليات صحيحة وأما سفرنا هذا فلم يكن الا محض مناظرة واطلاع على نفس المحال المعدنية بالبلاد السودانية مجردا عن راحة الفكر والبدن وقوله في محل لان العرضى كان دائما معرضة لاغارة السودان الهمل وكان بدون أهبة ولا ذخيرة وكانت عساكر الاتراك الحافظين على المعدنجية أشد عليهم عداوة من السودان

فبهذا لم يمكن الوقوف على حقيقة الحال من الاهالى وكانت التجاريب تعمل بالخوف والعجلة وكانت الامراض أيضا من جملة الموانع ومع ذلك فقد صح بتجربة موسيو بوريانى التى استمرت نحو ثلاث سنوات أن بعملية استخراج المعادن بالعبيد يعطى قنطار الرمل نحو خمس حبات من الذهب مع قبول الزيادة عن ذلك لو وجدت المعرفة والصداقة ومع هذا كله فنقول ان ذهب السودان لا ينكر وان الاقطار السودانية التابعة للحكومة المصرية وان كانت دون أقاليم أمريقة بكثير فهى كمصر ان لم تسعفها بالمعادن المتطرقة فمعادن الزراعة فيها محققة ولولا التغافل والتكاسل من بعض الحكام واتصاف بعض آخر بالجهل التام لكانت ايراداتها ومحصولاتها على أكمل نظام فان خصوبة أرضها عجيبة وحيواناتها عجيبة وأخشابها جيدة ومعادنها متعددة فالمواليد الثلاثة فيها على غاية من الكمال ولا نظر الى ما يعتقده عامة الناس

مطلب
موت رئيس المعدنجية وافادته قبل موته ان تقرير الجمعية بعدم ربح استخراج المعادن لا يعول عليه

مطلب
ان معادن الذهب بالسودان لا تنكر وان الزراعة تفلح فيها ان اعتنى بها وان خيراتها كثيرة

من أن أكثرها رمال فقد يوجد من الاهالى من يترافع مع أخصامه فى ملكية ألوف من الفدادين لنفسه ويريد نزعها من يد أبناء جنسه وفى أيام حكمدارية حضرة لطيف باشا أعطى ألف فدان لاحد السناجق وهو دموزاغا من البور فلم تبرح مدة يسيرة أن صارت من المعمور وصح فيها جميع البقول والغلال لاسيما زرع الحنطة الذى فى تلك البلاد له بال وهنالك أراض بمديرية دنقله لايعلوها النيل الا فى زمن الفيضان الغزير وليست داخلة فى دفتر مكلفات الاقليم وقد التمس زراعتها فى سنة من السنين بعض الاهالى بدفع العشور فزرعها من صنف الذرة فأدّت محصولا فوق الاربعين ألف أردب فدفع الى شونة الميرى عشرها فصار صنف الذرة رخيصا فى هذه السنة فشكا الاهالى المزارعون كساد محصولاتهم فأبى مدير تلك الجهة المتولى فى ذلك الوقت أن يعطيها بعد ذلك لاحد وأحب أحد البكباشات المستخدم بتلك الجهة ان يتعاهدها فى كل سنة بقيمة مكافئة لعشرها السنوى فلم يساعد على ذلك وأمثال هذه الاراضى كثيرة جدا والاراضى منبتة للنباتات الناتجة بنفسها بدون عمل مع قبول أهلها للتمدن الحقيقى لدقة أذهانهم فان أكثرهم قبائل عربية لاسيما الجعليين والشاقيه وغيرهم فان اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعيه شغل رغبة واجتهاد ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم حتى ان البلدة اذا كان بها عالم شهير يرحل اليه من البلاد الاجنبية للمجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير فيعينه أهل بلدته على ذلك بتوزيع المجاورين على البيوت بحسب الاستطاعة فكل انسان من الاهالى يخص الواحد أو الاثنين فيقيمون بشؤنهم مدة التعلم والتعليم

مطلب استعداد أهالى السودان للمعارف والكمالات ووجود التعاون عندهم على طلب العلم

ولقد رأيت فى طريقى ببلاد الشاقيه بمديرية دنقله حرم سنجق يدعى الملك الازرق تسمى السيدة أمونة تقرأ القرآن الشريف ومؤسسة مكتبين أحدهما للغلمان والثانى للبنات كل منهما لقراءة القرآن وحفظ المتون تنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن وحلجه وغزله وتشغيله ولاترضى ان يشوبه شئ من مال زوجها وبجانب المكتبين خلوات لمن يختلى من العباد والزهاد الحاضرين من أقصى البلاد لاداء فريضة الحج الشريف ومنزلها كالتكية للفقراء وابناء السبيل والقاصدين بيت الله الحرام وامثال ذلك كثير هنالك فى ظل الحكومة المصرية

ومما يدل على حسن مقاصد المرحوم محمد على أنه فى عودته من البلاد السودانية استصحب معه عدة غلمان من أبناء وجوه السودان الى مصر وأدخلهم فى المدارس المصرية ليتعلموا مبادى العلوم ثم نقلهم الى مكتب الزراعة ثم الى مدرسة الالسن وكان القصد من ذلك أن يذوقوا طعم المعارف التمدنية لينشروها فى بلادهم وقد شاهدت

بعضهم مستخدما بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب ويغلب على الظن انه بواسطة تنظيمات سعادة شاهين باشا الاخيرة المؤسسة على حب تقدمها الجنة المدنية وهمة سعادة جعفر باشا صاحب الانظار التمدنية يمكن ايصال التقدمات العصرية بعناية الحكومة المصرية فى اطراف واكناف تلك البلاد التى هى الآن لم تخل قراها عن نوع التقدم فى الحضارة مع مساعدة الوارد والمتردد اليها فى هذه الايام لتحصيل الزيارة أو التجارة فانها اقرب للتمدن من أقاليم أمريقه بكثير وجميع أهلها ما عدا بعض الجبالى لسانهم عربى فصيح حيث ان جلهم من نسل العرب المتجمعة القبائل قديما يحفظون احسابهم وانسابهم وفيهم كمال الاستعداد وذكاء الفطنة وانما يحتاجون فى حصول المطلوب الى اطمئنان النفوس وتأليف القلوب من حكام ارباب حماسة وعفاف وعدل وانصاف لا تحملهم المطامع الدنيوية على محض الالتفات الى الامور الفنية بل توجد القابلية أيضا فى الاهالى المتأصلين

ويدل على هذا ما حكى للخليفة ابى جعفر المنصور عما جرى بين عبد الله بن مروان ابن محمد وبين ملك النوبة مما ذكره المؤرخون فى حق الملك المذكور مع انه كان من ملوك السودان المتأصلين والجنس القطنى اذ لم تكن القبائل العربية انجعت الى السودان ولا تسلط على هذا الاقليم ملك من اهل الاسلام ولا من العربان وهو ان أبا جعفر المنصور حضره ليلة عبد الله بن على وصالح بن على فى نفر معهما فقال عبد الله بن على يا أمير المؤمنين ان عبد الله بن مروان بن محمد لما هرب الى بلاد النوبة جرى بينه وبين ملكها كلام فيه أعجوبة سقط عنى حفظه فان رأى امير المؤمنين ان يرسل اليه بحضرتنا ويسأله عما ذهب عنا وكان فى الحبس فأرسل اليه ابو جعفر فلما دخل قال له يا عبد الله قال لبيك يا امير المؤمنين قال أخبرنى بحديثك وحديث ملك النوبة قال يا امير المؤمنين هربت بمن تبعنى بأثاث سلم لى الى بلاد النوبة فلما دخلت بلادهم فرشت ذلك الاثاث فجاء أهل النوبة ينظرون الى متعجبين منى الى أن بلغ ملك النوبة حضورى فجاء ومعه ثلاثة نفر فاذا رجل طوال آدم أفنر مسنون الوجه أى جلسه فلما قرب منى قعد على الارض وترك البساط قلت ما يمنعك ان تجلس على أثاثنا هذا قال انى ملك وحق لكل ملك ان يتواضع لعظمة الله اذا رفعه الله قال ثم نظر الى فقال لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم فقلت عبيدنا وأتباعنا يفعلون ذلك بالجهل منهم قال فلم تلبسون الديباج والحرير وتحلون بالذهب وهو محرم عليكم فقلت زال عنا الملك وانقطعت المادة واستنصرنا بقوم من الاعاجم كان هذا زيهم فكرهنا الخلاف عليهم فلطرق يقلب بيده ويقول عبيدنا واتباعنا وأعاجم دخلوا فى ديننا يكرر الكلام على نفسه ثم نظر الى فقال ليس ذلك كما تقول

ولكنكم قوم ملكتم فظلمتم وتركتم ما به أمرتم وركنتم الى ما عنه نهيتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ولله فيكم نعمة لم تبلغ غايتها بعد وأنا أخاف أن تنزل بكم النقمة وأنتم ببلادى فتصيبنى معكم فارتحلوا عن جوارى انتهى فقام أبو جعفر وقد ذا من كلامه فدخل حجرته قال الله تعالى واذا أردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا قال المفسرون فى الآية حذف دل عليه ما قبلها أى أمرنا مترفيها أى منعميها بالطاعة فخالفوا ففسقوا فدمرناها تدميرا انتهى فبالها موعظة بضاعة من ملك أسود دولة ملوكهم فى الازمان القديمة كانوا كسلطانهم الآن على قدم عظيم فى الاستقامة وطريقة قويمة وأما موضع معرض الذم فى حق أهل السودان فهو متوجه على جمهور أهل البلاد وهم العبيد والمولدون ومن يحذو حذوهم من رعاع أهالى تلك البلاد أرباب الدناءة والخسة

وفى سنة سبع وستين ومائتين وألف كنت سافرت الى السودان بسعى بعض الامراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم فلبثت نحو الاربع سنين بلا طائل وتوفى نصف من بمعيتى من الخوجات المصريين فنظمت هذه القصيدة برسم المرحوم حسن باشا كتخدا مصر رجاء نشلى من أوحال تلك الاحوال فلم يتيسر ارسالها ثم أسعد الحال بتبديل مرّ الماضى بالحال الذى هو حال وذلك عقب تخميسى لقصيدة نبوية برعية متوسلا فيه بشفاعة خير البريه وها هى القصيدة الاولى

ألا فادع الذى ترجو ونادى * بجيل ولن تكن فى أى ّ نادى
فمن غرس الرجا فى قلب حر * أصاب جنى النجائب الحصاد
ومن حسن انتلائق سل حسنا * بجيلا فهو أوفى بالوداد
وحدث عن وثاخل وفى * بمرسل حبه فى القلب بادى
ورب أخ تلاهى عنك يوما * قريب وداده أبدا ودادى
بنو الآداب اخوان جميعا * وأخدان بمختلف البلاد
خلا تف عنصر كل تفذى * بأثداء العلا دون اقتصاد
وآداب الفتى تعليه يوما * الى الانجاد من بعد الوهاد
وآدابى تسامى بى الدرارى * على شعثى وتبلغنى مرادى
ومالى لا أتيه بها دلالا * وقد دلت على نهج الرشاد
الى سبل الفخار تقود حزمى * وفى ميدانه عزم انقيادى
عصامى طريف المجد سعدا * عظامى شريف بالتلاد
سوى نسب العلوم لى انتساب * الى خير الحواضر والبوادى

مطلب
موعظة ملك السودان لمروان بن محمد حين التجأ اليه

مطلب
سفرى للسودان ونظمى قصيدة تشير الى احوال تلك البلاد وعوائدها وتخميسى قصيدة برعيه هب منها نسيم الفرج ببركة مدح خير البريه

حسيني السلالة قاسمي * بطهطا معشري وبها مهادي
لسان العرب ينسب لي نجارا * ويدنيني الى قس الايادي
وحسبي انني أبرزت كتبا * تبيد كتائبا يوم الطراد
فمنها منبع العرفان يجري * وكم طرس تحبر بالمداد
على عدد التواتر معرباتي * تفي بفنون سلم أو جهاد
وملطبرون يشهد وهو عدل * ومنتسكو يقر بلا تمادي
ومغترفو قراح فرات دري * قد اقترحوا اسقاية كل صادي
ولاح لسان باريس كشمس * بقاهرة المعز على عماد
ومحيي مصر أحيا كان قدري * وكافأني على قدر اجتهادي
سأشكر فضله مادمت حيا * وما شكري لدى تلك الايادي
رعى الحنان عهد زمان مصر * وأمطر ربعها صوب العهاد
رحلت بصفقة المغبون عنها * وفضلي في سواها في المزاد
وما السودان قط مقام مثلي * ولا سلماي فيه ولا سعادي
بها ريح السموم يشم منه * زفير لظى فلا يطفيه وادي
عواصفها صباحا أو مساء * دواما في اضطراب واطراد
ونصف القوم أكثره وحوش * وبعض القوم أشبه بالجماد
فلا تعجب اذا طبخوا اخلطا * بمخ العظم مع صافي الرماد
ولطخ الدهن في بدن وشعر * كدهن الابل من جرب القراد
ويضرب بالسياط الزوج حتى * يقال أخو بنات في الجلاد
ويرتق ما بزوجته زمانا * ويصعب فتق هذا الانسداد
واكراه الفتاة على بغاء * مع النهي ارتضوه باتحاد
نتيجته المولد وهو غال * به الرغبات دوما باحتشاد
لهم شغف بتعليم الجواري * على شبق مجاذبة السفاد
وشرح الحال منه يضيق صدري * ولا يحصيه طرسي أو مدادي
وضبط القول فالاخبار نزر * وشر الناس منتشرا لجراد
ولولا البيض من عرب لكانوا * سوادا في سواد في سواد
وحسبي فتكها بنصيف صحبي * كأن وظيفتي لبس الحداد
وقد فارقت اطفالا صغارا * بطهطا دون عودي واعتيادي
أفكر فيهم سرا وجهرا * ولا سمري يطيب ولا رقادي

وعادت بهجتي بالنأي عنهم * بلوعة مهجة ذات اتقاد
أريد وصالهم والدهر يأبى * مواصلتي ويطمع في عنادي
وطالت مدة التغريب عنهم * ولا غنم لدي سوى الكساد
وماخلت العزيز يريد ذلي * ولا يصغي لاخصام لداد
لديه سعوا بألسنة حداد * فكيف صغى لألسنة حداد
مهازيل الفضائل خادعوني * وهل في حربهم يكبو جوادي
وزخرف قولهم اذموه وهو * على تزييفه نادى المنادي
فهل من صير في المعنى بصير * صحيح الانتقاء والانتقاد
قياس مدارسي قالوا عقيم * بمصر فما النتيجة في بعادي
وكان البحر منهج سفن عزمي * فكدت الآن أغرق في الثماد
ثلاث سنين بالخرطوم مرت * بدون مدارس طبق المراد
وكيف مدارس الخرطوم ترجى * هناك ودونها خرط القتاد
نعم ترجى المصانع وهي احرى * لتأييد المقاصد بالمبادي
علوم الشرع قائمة لديهم * لمرغوب المعاش أو المعاد
خدمت بموطني زمنا طويلا * ولي وصف الوفاء والاعتماد
فكنت بنعمة الاكرام أولى * بقدر للتعيش مستفاد
وغاية مطلبي عودي لاهلي * ولو من دون راحلة وزاد
وصبري ضاع منذ اشتد خطبي * وهون الخطب عند الاشتداد
وكم حسنا دعوت لحسن حالي * وكم نادى فؤادي يافؤادي
وارجو صدر مصر لشرح صدري * وجهد الطول في طول النجاد
وكم بشرت أن عزيز مصر * تفوه بالفكاك ولم يفاد
وحاشا أن أقول مقال غيري * وذلك ضد سري واعتقادي
لقد أسمعت لو ناديت حيا * ولكن لاحياة لمن تنادي
وفي دارا لعزازة لي عباد * يقيني نشب أظفار العوادي
أمير كبار أرباب المعالي * فتى في شرعة العرفان هادي
عروف المدى لا يباري * بمضمار العلا طلق الجياد
بوافر فضله الركبان سارت * وغنى باسمه حاد وشاد
وقالوا في معارفه فريد * فقلت وفي الرياسة ذو انفراد
وفي الاحكام قالوا لايضاهي * فقلت وذو تحرّ واجتهاد

وقالوا

وقالوا فى الذكاء ذكا فقلنا * وثاقب ذهنه وارى الزناد
وقالوا وافق الحسن المثنى * فقلت وكم حدا بالوصف حاد
و بحر جداه يمد ومنه در * لغواص العلوم بلا نفاد
فيا حسن الفعال أغث أسيرا * بسجن الزنج يحكى ذا القياد
عليه دوائر الاسواء دارت * وطالت وفق أهواء الاعادى
وقد فوضت للمولى اموري * وذا عين الاصابة والسداد
عسى المولى يقول امضوا بعبدى * فيقضى لى بتقريب ابتعادى
وما انظم القريض برأس مالى * ولا سندى أراه ولا سنادى
ووافر بحره ان جاد يوما * فمدوحى له وصف الجواد
وليس لبكر فكرى من صداق * سوى تلطيف عودى فى بلادى
فما أسمى ذراها من بيوت * رزان فى حماستها شداد
ومسك ختامها صلوات ربى * على طه المشفع فى المعاد
وآل والصحابة كل وقت * مواصلة الى يوم التناد

وأما تخميس القصيدة البرعية التى عبق مسك ختامه أرج الفرج فهو هذا

مطلب تخميس القصيدة البرعية التى مطلعها خل الغرام لصب دمعه دمه

تبدى الغرام وأهل العشق تكتمه * وتدعيه جدا الامن يسلمه
ماهكذا الحب يا من ليس يفهمه * خل الغرام لصب دمعه دمه
حيران توجده الذكرى وتعدمه

دع قلبه فى اشتغال من تقلبه * ولبه فى اشتعال من تلهبه
واصنع جميل فعال فى تجنبه * واقنع له بعلاقات علقن به
لو اطلعت عليها كنت ترحمه

فؤاده فى الحمى مسعى جآذره * وفى نجوم السماء مرعى نواظره
فيا عذولا سعى فى لوم عاذره * عذلته حين لم تنظر بناظره
ولا علمت الذى فى الحب يعلمه

أما ترى نفسه مرعى الهوى انتجعت * وساقها الحب فانساقت ولا رجعت
فاعذر أو اعذله ما ورق الحمى سجعت * لو ذقت كأس الهوى العذرى ما هجعت
عيناك فى جنح ليل جن مظلمه

ولا صبوت لسلوان ولا ملل * ولا جنحت الى لوم ولا عذل
ولا انثنيت لخطب فى الهوى جلل * ولا انثنيت عنان الشوق عن طلل
بال عفت بيد الانواء ارسمه

فكيف ناقشته فى أصل مذهبه * وما تحريت تحقيقا لمطلبه
فو الذى صانه عن وصمة الشبه * ما الحب الا لقوم يعرفون به
قد مارسوا الحب حتى هان معظمه

تجيبه ان دعا للوجد أمته * وعزمه بينهم سام وهمته
قوم لديهم بان الحب نعمته * عذابه عندهم عذب وظلمته
نور ومغرمه بالرامغنمه

يامن دعاه هواه أن يعاشرهم * اسلك مشاعرهم والزم شعائرهم
وان تكلفت أن تدرى أشايرهم * كافت نفسك أن تقفو ما ثرهم
والشئ صعب على من ليس يحكمه

فى حب ليلى خلى البال يعذلنى * ان لم أغالطه فيه فتك يخذلنى
فوالذى منزل العشاق ينزلنى * انى أورى عذولى حين يسألنى
بزينب عن هوى ليلى فاوهمه

كم فى الهوى والنوى قاسيت من ألم * وكم ملأت طروس العشق من كلم
وكم سهرت سمير النجم فى الظلم * وطالما سجعت وهنا بذى سلم
ورقاء تعجم شكواها فأفهمه

ما السحب الادموع العين باكية * ولا لظى غير أحشائى محاكية
لاشك انى أناغى الورق شاكية * وتنثنى عذبات البان حاكية
علم الفريق فادرى ما تترجمه

امام عشق تولى نصر ملته * على الوشاة وفاداها بمهجته
نادى وقد ذاب وجدا مع ثنيته * يامن أذاب فؤادى فى محبته
لو شئت داويت قلبا أنت مسقمه

متى بربع سحابى أبلغ الاملا * فكم سقى ماء دمعى السهل والجبلا
وما شفى معهدا من ساكنيه خلا * سقى الجبال فرعن الطود منه الى
شعب المريحات هامى المزن مرهمه

ملث غيث يسح الوابل الهطلا * وصيب طيب يستخصب الطللا
أضحى بمنهمر الانواء منهملا * وبات يرفض من وادى الخزام على
وادى ارام وماوالى يلملمه

حيا منازلها فيض الحيا ومـلا * أرجاءها من بروق يبتسمن جلا
ولاعدا عن رباها الجود اذ نزلا * يسوقه الرعد من خير البطاح الى

أمّ القرى ورياح البشر تقدمه

وسمى جود سريعات نجائبه * ولى عهد مريعات رغائبه
ووا كف بالندى تكفى سواكبه * وكلما كف أوكلت ركائبه

باداه بالرحب مسعاه وزمزمه

مادرّ من قبله غيث يعارضه * ولا أضرت بمسراه عوارضه
تخاله وهو لا ريح يناقضه * لما الث على البطحاء عارضه

علا المدينة برق راق مبسمه

برق بواسمه فى الجو قد سطعت * فقهقه الرعد بالغبرا وقد خشعت
والرجع سح من الخضرا وما جعت * سقى الرياض التى من روضها طلعت

طلائع الدين حتى قام قيمه

مغارب الارض طرّا أومشارقها * تسعى الى طيبة منها خلائقها
مدينة العلم هل تخفى حقائقها * حيث النبوة مضروب سرادقها

والنور لا يستطيع الليل يكتمه

يلوح فى روضة مأثورة الشرف * درّى كوكبها يجلو دجى السدف
والبدر يطلع فى أفق بلا كلف * والشمس تسطع فى خلف الحجاب وفى

ذاك الحجاب أعز الكون أكرمه

يازائرا قبر خير البدو والحضر * الثم ثرى تربه المعشوشب النضر
يلقاك حيا بأهنى عيشه الخضر * محمد سيد السادات من مضر

خير النبيين محيى الدين مكرمه

عرّج بساحته يمنحك تكرمة * فلا تخف بعدها بغيا ومظلمة
هذا المشفع يوم العرض مرحمة * فرد الجلالة فرد الجود مكرمة

فرد الوجود أبرّ الكون أرحمه

من فى صباحته يحكيه مبتسما * من فى ملاحته حاز البها وسما
كم أقسم الحق باسم المصطفى قسما * نور الهدى جوهر التوحيد بدر سما

ء المجد واصفه بالبدر يظلمه

بطيب عنصره طابت سريرته * شمائل المجد دون الحمد سيرته
وسورة الفتح مثل الحمد سورته * من نور ذى العرش منشاه وصورته

ومنشأ النور من نوريجسمه

من لاذ من فزع بالهاشمى أمن * أوحاد عنه فعن سبل الرشاد عم

بالفضل قد خصه مولاه وهو قمن * ومودع السر في ذات النبوة من
علم وحلم واحسان يقسمه

ما حكمة الله الا تعجز الحكما * قد أبرزت للورى أسمى الورى عظما
لب اللباب تسامى أصله ونما * فذا لمن ثمرات الكون أطيب ما
جاد الوجود باعلاه وأعلمه

سيوفه بالردى نحو العدا المعت * وكفه بالندى قبل الندا همعت
صفوفه في المدا روم الهدى اجتمعت * فما رأت مثله عين ولا سمعت
أذن كاحمد أين الأين نعلمه

لا تعزروا لو ترى كاأو جرا كسة * لحسنه ان في هذا موا كسة
تقول آمنة فيه منافسة * أضحت لمولده الاصنام ناكسة
على الرؤس وذاق الخزى مجرمه

فلا ترى الفرس للنيران جانحة * بعد الخمود ولا الانوار لائحة
والمانوية لا تشغل نا نحة * وأصبحت سبل التوحيد واضحة
والكفر يندبه بالويل مأتمه

كم ظلمة عند أهل الزيغ كامنة * قد انجلت بيد للنفع ضامنة
وعصبة من هجوم الروع آمنة * والارض تبهج من نور ابن آمنة
والعدل ترمي ثغور الجور أسهمه

فلا ترى كاهنا للغيب يسترق * كلا ولا ماردا الا ويحترق
والجن خابوا الرجا بل مسهم فرق * وان يقم لاستراق السمع مسترق
رصدنه أنجم الارجاء ترجمه

فكم تحدى وأبدى في دلالته * من معجزات توالت في رسالته
فقل لطاغ تمادى في ضلالته * ان ابن عبد مناف من جلالته
شمس لافق الهدى والرسل أنجمه

ما جاء من سلب الاعدا غنيمته * به قتادة قد ردت كريمته
في كل آونة تزداد قيمته * العدل سيرته والفضل شيمته
والرعب يقدمه والنصر يخدمه

في حومة الدين أصمى الغى والجدلا * وجندل الكفر حتى صار مبتذلا
عم طويل نجاد حكمه عدلا * أقام بالسيف نهج الحق معتدلا
سهل المقاصد يهدى من يممه

يا صاح كن برسول الله مقتديا * فى فعله و بنور الحق مهتديا
فكم أباد من الباغين معتديا * وكلما طال ركن الشرك منتهيا
فى الزيغ قام رسول الله يهدمه

بسعد طالعه تسمو كواكبه * وطالما ابتهجت زهوا مواكبه
سل البراق بماذا فاز راكبه * سارت الى المسجد الاقصى ركائبه
يزفه مسرح الاسرا وملجمه

سرى به وهو فى أقصى تحجبه * وفاز طه بأعلى المجد أعجبه
له انجلا ما توارى فى تحجبه * والشوق يهتف يا جبريل زج به
فى النور والنور مرقاه وسلمه

فى رؤية الرسل ليلا كم قضى اربا * وكم دنا و تدلى ثم واقتربا
لقد رأى الآية الكبرى وما اضطربا * والعرش يهتز من تعظيمه طربا
اذ شرف العرش والكرسى مقدمه

اعتز بالله حبا فى معزته * وحل فى الملا الاعلى بحوزته
فكيف فاز نبى شطر فوزته * والحق سبحانه فى عز عزته
من قاب قوسين أو أدنى يكلمه

فى السبع فاز بخمس فوز منصرف * بأجر خمسين يسدى شكر معترف
ونال ما نال من مجد ومن ترف * فكم هنالك من عز ومن شرف
لمن شديد القوى وحيا يعلمه

كفار مكة ما كانت مجوزة * بل أصبحت بالاحاجى فيه ملغزة
لا زال يمنح آيات معززة * حتى اذا جاء بالتنزيل معجزة
يمحو الشرائع والاحكام محكمه

أجاب كل فصيح بالسجود كما * آياته أخرستهم منطقا وفما
وحيث كل لديها القوا السلما * هانت صفات عظيم القريتين وما
يأتيه جهلا أبو جهل و يزعمه

فطالما بالغوا فى السب أو ثلبوا * عرضا وأنفسهم والله قد ظلموا
لو ميزوا قدرهم من قدره سلموا * حال السهى غير حال الشمس لو علموا
بل أهل مكة فى طغيانهم عمهوا

عمى البصائر عن قدر وعن قدر * صم المسامع عن تقدير مقتدر
فمن تخلف فى ورد وفى صدر * فاصدع بأمرك يا ابن الشم من مضر

فقد بعثت لانف الشرك ترغمه

من يبغ شأوك فى قاب الكمال عن * بخط منهزم يكبو ويعجز زمن
لك الشفاعة مولاك الكريم ضمن * لك الجميل من الذكر الجميل ومن
كل اسم جود عظيم الجود أعظمه

ففى البداية كنت السيد الحكما * وفى النهاية حزت الحكم والحكما
فرجه ودع الكهان والحكما * يا أيها الآمل الراجى ليهنك ما
ترجوه ذا كعبة الراجى وموسمه

يمم ضريحا اذا ما قام يحصره * عاد ملائكة الرحمن تنصره
روضا تباهت به فى الدهر أعصره * قبرا أشاهد نورا حين تبصره
عينى وانشق مسكا حين الثمه

خضم جود تناهى فى عزازته * فيه الامير برىء من امارته
من لى ولو بنصيب من خفارته * كم استنبت رفاقى فى زيارته
عنى وما كل صب القلب مغرمه

قلبى طليق اللقا جسمى مقيده * فليت شعرى متى يفديه سيده
كم أمه زائر مثلى يؤيده * وكم تصافحه من لايدى يده
ولا فمى عند تقبيل الثرى فمه

أراه كالبدر فى العلياء أرصده * قرين بعد وبالآمال أقصده
من للمريد وقد أقصاه مرشده * متى أناديه من قرب وأنشده
قصيدة فيه أملاها خويدمه

حديثة السن مانبطت تمائمها * نضيرة الغصن قد غنت حمائمها
راحت حواسدها جارت لوائمها * مهما جرية افترت كمائمها
عن ثغر در لسان الحال ينظمه

عذراء منذورة فى خدمة الحرم * عسى يكون بها صفح لمجترم
ويبلغ القصد قبل الفوت بالهرم * كم يأمل الروضة الغراء ذو كرم
يرجو الزيارة والاقدار تحرمه

لما تجنى زمانى الذنب وافتعلا * وابيض مسود شعر الرأس واشتعلا
قصدت من جل فى سلطانه وعلا * مستعديا بحبيب الزائرين على
دهر تنكر بالاهمال معجمه

هل سام نخرك انسان ولا ملك * أو رام قدرك سلطان ولا ملك

فان

فان ألم زمان خطبه حلك * فقم بعبدك ياشمس الوجود وكن
حماه من كل خطب مر مطعمه

فكم سقاه الردى اقذى مشاربه * من حيث ساق له أدهى نوائبه
فاجعل زيارته أبهى مناقبه * وادع الاله اذا ضاق الخناق به
ماخاب من أنت فى الدارين مكرمه

أرجوك نصرة اعزاز موزرة * على هوى النفس اذ كانت معذرة
وقد توالت جيوش الهم منذرة * ياسيد العرب العرباء معذرة
لنادم القلب لايغنى تندمه

الى حمالك ضعيف أمره وكلا * وكم مليك حمى بالجاه رعى كلا
أصبحت كلا على نعمالك بل ثكلا * أثقلت ظهرى بأوزارى وجئتك لا
قلب سليم ولاشئ أقدمه

سلكت فى هذه الدنيا اولك غبى * وماغدوت من الاخرى على رهب
لكن تعلقت فى أذيال خير نبى * ياصاحب الوحى والتنزيل لطفك بى
لازلت تعفو عن الجانى وتكرمه

رفاعة يشتكى من عصبة سخرت * لما رأت أبحر العرفان قد زخرت
فارفع ظلامة نفس عدلك اذخرت * وها لجوهر ابيات بك افتخرت
جاءت اليك بخط الذنب ترقمه

قبول تخميسها فضل عليه ومن * لانه زمن قاسى صروف زمن
تلا مؤلفها يرجو الخلاص غمن * فانهض بقائلها عبد الرحيم ومن
يليه ان هم صرف الدهر يهزمه

فاكشف بجهك عنه اليوم مظلمة * من الهموم غدت كالليل مظلمة
وانظر اليه بعين الفضل مكرمة * واجعله منك بمرأى العين مرحمة
اذا ألم به من ليس يرحمه

ارحم غريبا بعيد الدار غائبه * حبل النوى حل الاثقال غاربه
فصل رغائبه وافصل غرائبه * وان دعا فأجبه واحم جانبه
ياخير من دفنت فى الترب أعظمه

اسير بين قليل الصبر قاصره * وعصره بفراق الاهل عاصره
وأنت ذو كرم لاشئ حاصره * فكل من أنت فى الدارين ناصره
لم تستطع محن الدارين تهضمه

وهذه حاجة الملهوف مجملها * وأنت أعلم والمولى يجملها
وتنتهى وقريب العفو يشملها * عليك منى صلاة الله أكملها
ياماجدا عمت الدارين أنعمه

يسقى البرايا جميعا رى عارضها * انساو جناووحشا فى مرابضها
تشفى الخلائق طرا من تمارضها * يبدى عبيرا ومسكا مسك عارضها
ويبدأ الذكر ذكراها ويختمه

وها تحية ربى أكرم الكرما * تنحو ضريحك ياخير الورى كرما
سواطع النور منها تملأ الحرما * مارنح الريح أغصان الاراك وما
حامت على أبرق الحنان حومه

تحية بصلات البر عائدة * بالخير موصولة للرشد قائدة
تثنى عليك وليست عنك حائدة * وتنتشى فتعم الآل جائدة
بكل عارض فضل جاد مسجمه

رفاعة خمس المنظوم مرتجلا * قريضه وهو بالخرطوم قد وجلا
قالت هواتفه بالله كن رجلا * فان جدك طه للخطوب جلا
فامر خطبك هذا الجد يحسمه

ماذا العناء وأهل البيت قد كفلوا * عودا جميلا وما عن وعدهم غفلوا
لاتعن بالغير جدوا السير او قفلوا * هم أجمعوا أمرهم للكيد واحتفلوا
والامر لله ما يرضاه يحكمه

ومع ان مدة الاقامة بتلك الجهات كانت لمجرد الحرمان من النفع لوطنى فقد اقتضت الحكمة الالهية ان سفرى لم يضع هباء منثورا فقد اعتنيت فى مدتى هناك بترجمة وقائع تليماك وهو بكل من فى حالك وهو الذى صار طبعه فيما بعد فى مدينة بيروت ولاشك انه من أنفع كتب الآداب والحكم حيث اعتنى بترجمته فى سائر لغات الامم وكذلك قد تعلم فقهاء الخرطوم ممن معى من المشايخ القراء تجويد القرآن الشريف وعلم القراآت حتى صاروا ماهرين فى ذلك وفى آخر الامر تنظامت المدرسة نحو تسعة شهور وتعلم فيها التلاميذ من أبناء المصريين القاطنين هناك طرفا من النحو والحساب والهندسة وحسن الخط وظهرت نتيجة ذلك فى الامتحان العام والآن حين جددت الحكومة الاسمعيلية عدة مدارس بالاقاليم السودانية توظف بها البعض من هؤلاء المتعلمين ولابد أنه يرجى نجاح تلك المدارس بداعى ان تأسيسها مبنى على الاخلاص فى النية وحسن الطوية الخديوية

وبالجملة فهى زالت من السودان وسائل الوخامة والسقامه ودخلت أهاليها بحسن الادارة فى دائرة الاستقامه صارت هى وديار مصر فى العمار كالتوأمين وفى اينياع الاثمار صنوين حتى ينشد لسان حالهما

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجـ * ـد جميعا فى الحب ضم النطاق
فى جبين الزمان منك ومنى * غرة كوكبية الائتلاق

وقد لاح على قرب عماريتها علامة ظاهره وهى فتح المدارس الخمسة من ابتداء الحكومة الاسمعيلية الباهره وكذلك ارسالية اسمعيل بك الفلكى ناظر المهندسخانة والرصدخانة الى سواكن فى رمضان سنة ألف ومائتين وثلاثة وثمانين مع بعض المهندسين والراسمين لتعيين الطرق الحديديه المزمع على انشائها بالاقاليم السودانيه وارسالية بعض أرباب المعارف الانكليزية فى سنة ١٢٨٦ لاستكشاف منابع النيل واعطاء ملحوظات خيرية كل هذا وأمثاله دلائل قاطعه على ان السودان سيحظى عن قريب بالوسائل النافعه فلاشك أن ساحة المرحوم جنتمكان فى بلاد السودان وان لم تنفتح بها كنوز الذهب فقد أدى فى حقها من البحث عنها ما وجب فاذا كانت الغايات لاتدرك فالميسور منها لايترك فكأن لسان حاله يقول

سأضرب فى بطون الارض ضربا * وأركب فى العلا غرر الليالى
فاما والثرى وأصيب عذرا * واما والثريا والمعالى

وفى الحديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له وفى رواية فكل مهيأ لما خلق له وبالجملة فكان تهيؤه للمعالى عجيب

الحمد لله انى رجل * مذ كنت لاتنقضى أعاجيبى

وحسبه من الافعال العجيبة وقاية مصر من الاوبية بحسن النظافة وبالاحتراسات الحكمية وتجديد المطبعة لنشر المؤلفات العلمية وانشاء مسجد القلعة العامرة لتعضيد المعالم الاسلامية وقطع دابر المفسدين للحصول على التأمينات العمومية ومع ذلك فكم ترك الاول للآخر وكم أبقى لمن بعده من تكميل المفاخر فلهذا وجب على الخلف تتميمها بتيسر فعله للسلف واعمال فكره فى استنتاج نفائس المنافع كما يعلم ذلك من فصول الباب التابع

مطلب
ان المرحوم محمد على كان يجعل كسب المعالى دائما نصب عينيه وكان لايحرم منها

الباب الخامس

في الآمال الحسنة والاعمال المستحسنة من الاصلاحات المصريه بمقتضى اصطلاحات الحال العصريه وفيه فصول

الفصل الاول

(في ذكر تقدم مصر في هذا الوقت الحالي)

من المعلوم ان مصر في هذا العهد من أحسن البلاد المشرقية حكومة وأفضلها ادارة اذ فيها من كمال حسن الادارة والضبط والربط ما يفيد الأمن على الارواح والاموال والاعراض كما في أعظم الممالك المشرقية والمغربيـة وفيها الصنائع آخذة في النمو والازدياد وما أنشئ فيها من سكك الحديد الكثيرة الفروع ومن الترع والجسور والقناطر زاد كثيرا في تجارتها وزراعتها ولو لم يكن للحكومة الحالية الاحوض السويس العجيب والترعة الابراهيمية التي صار انشاؤها بالصعيد على وجه من السعة غريب لكفاها ذلك على رغم حاسدها المريب فناهيك بترعة كادت أن تكون بحرا وحفرها في أقرب مـدة يكاد أن يعد سحرا وكم للحكومة الحاليـة غـير ذلك من التجديدات والمآثر الخالدات فلو نظرت الى تحسين المحروسة بتوسيع الشارع والمسالك وانها في أقرب مدة صارت كأعظم مدن الدول الكبيرة والممالك لازدريت من تولى حكومة مصر من الملوك والخلفا واصغر في عينك مجدهم الاثيل الذي ذهب جفاء واختفى فشأن مصر اليوم مما يغبط عليه فهي حرية أن تكون قدوة لجميع البلاد المجاورة لها وبالجملة فأرض مصر الاريضه الطويلة العريضه طيبة التربة كريمة المنبت ومضافاتها من بلاد السودان جسيمة المقدار خصبة أيضا على الاكثر تربتها أيضا معشوشبة فيها تعظم سعة الخديوية الجليلة المصرية بحيث لا تنقص في المقدار عن ثلث الممالك العثمانية فساحتها مساحة الممالك العظيمـة وجميع أهاليها وأهالي البـلاد الملحقة بها المحروسـة ملايين كل ذلك يجعلها مضاهيـة حسا ومعـنى لبعض الممالك المعتبرة في ميزان البولتيقية

فلا غرو أن كانت بمزاياها وخصائصها منتظمة في سلوك أحاسن الممالك بل هي واسطة سلوك العقود الجوهرية ومالكها خير مالك ومن وقت ما حسن فيها مذهب الادارة والترتيب جاد مصدرا برادها بالمحصول العجيب فمن قدره بزهاء مليون من الأكياس فقد أصاب حدسه وما حاد عن القياس

وأقوى الدلائل في الحالة الراهنة على طيب حال مصر وما يرجى لها في المستقبل من نمو الخير وانتهاء محو الاصر ما هو جار الآن من ازدياد تجارتها وامتداد معاملتها

مطلب
توسيع المشارع والمسالك

فان

فان ماخرج منها الى البلاد الاجنبيه سنة سبع وستين ومائتين وألف هجريه قدزاد الآن خمسة أضعاف على السابق والذى دخل اليها زاد ضعفين فاليوم صارت قيمة تجارتها الداخلة والخارجة جسيمة جدا من رؤس أموال وأرباح حتى أبلغها بعضهم نحو مائة وخمسين مليونا من الليرات وان كان هذا لايخلو عن المبالغة

ولاتزال مصر بالتقدمات التحسينيه المتشبثة بها الحكومة الحاليه تمادى فى الازدياد وتتهادى بحسن سلوك سبيل الرشد والسداد فلاغرو أن استحالت حالة الحكومة فى أحوال متعدده الى أطوار حسنة متجدده ونهض بها حسن الجد والطالع الى أسمى الطوالع وأسنى المطالع فما أحسن الحكومة التى أنعم الله عليها بمن يسارع فى اعزاز الوطن وتبليغه مناه واعلاء الحمى وتكثير غناه ولو بانفاق المال لتحسين الحال

أصون عرضى بمالى لاأدنسه * لابارك الله دون العرض فى المال
أحتال للمال ان أودى أحصله * ولست للعرض ان أودى بمحتال

فالملك العاقل من يستطيب المتاعب فى استحصال المعونه ويستجلب المكاسب لقوم أود وطنه ويتعهد شؤونه ويجتهد فى تنمية الايراد والمصرف الى حد التعديل بسلوك أرشد طريق وأعدل سبيل حتى يبلغ السعى فى التنميه درجة الموازنة والتسويه فاذا امتلأ الحوض وسقى الروض لطف السعى وذاقت الرعية حلاوة الرعى وظهرت فخامة مصر التجاريه وفخامتها السياسيه بغرس أصول المنافع الاساسيه فان حسن الادارة والاقتصاد والتدبير باب عظيم لفتوح الخير الكثير وطريق لتأسيس الثروة وتمهيد الغنى ولتجديد النعمة وازدياد الهنا وكل مايوجب حسن الثنا مما يحسن فيه قول الشاعر

بدائع من صنع القديم ومحدث * تأنق فيه المحدث المتأنق
اذا أنت من أعلاه أشرفت ناظرا * تجيل عنان الطرف فيه وتطلق
وتجمع فيه كل حسن مفرق * وشمل الاسى عن حاضريه تفرق
فكم من غياض فى رياض وجنة * بها كوثر من مائها يتدفق

ولقد حصل فى هذا الزمن الاخير فى الحكومة توسعات وتسخيرات عجيبة لم تتمكن منها المرحوم محمد على وكان يتمنى حصولها بعض المؤرخين حيث أبدى فيه ملحوظة لطيفة تفيد أنه لو ظفرت ديار مصر بهذا التكميل لتم لها الدست وفازت بالحظ الجزيل فما تمناه المؤرخ المذكور تم فى هذه الحكومة الحالية كما سنذكر ملحوظ ذلك فى الفصل الثانى المتكفل لبيان مبانى تلك المعانى

الفصل الثاني

في ذكر ملحوظات عموميه تتعلق بالديار المصريه أبداها بعض من أرخ مصر من أرباب السياحه وحرض فيها على ما يلزم من تقديم التمدن بتحسين أحوال المنافع العمومية تجارة كانت أو زراعة أو فلاحه وهذا باعتبار ما كان كما لا يخفى على ذوى العرفان

ومضمون كلام هذا المؤرخ ان خصوبة أرض مصر واعتدال قطرها وصفو زمنها كل ذلك يؤذن باستعدادها الى الوصول لدرجة السعادة وأوج الثروة ومع ذلك فقد توالى عليها من منذ قرون عديدة عدة من الدول ولم يتشبث أحد من ملوكهم الى ابلاغها درجة كمال ولا مرتبة اعتدال وذلك لانها في عهد الخلفاء كان يتولى عليها من العمال والنواب من لا يسلك أكثرهم في حسن الادارة والتدبير سبيل الصواب وانما كان النائب فاعلا مختارا يسيء معاملة الرعيه بما عنده من المرخصيه وربما حدث في أيام نيابته اختلال جسيم يتسبب عنه الدمار واختلال العمار فقد رأى نيل مصر بعينيه أن رمال الصحراء والبراري انهالت عليه وامتدت على جزء عظيم من الارض التي كان يرويها حتى أعقمت سواحله بوار نواحيها وأفسدت رسادقها وضواحيها وقد ازداد هذا الضرر وتجسم الخطب والخطر في أيام حكومة سلاطين الشراكسة وبقيت أيضا في أيام الدولة العليه للاختلاف الواقع بين ولاتهم والمماليك الوجاقليه ففسدت مملكة مصر بين الفريقين وضاعت كضياع السفينة ذات الرئيسين ولم يصفها أرباب السياحة من المتقدمين والمتأخرين حق وصفها الصحيح بل تكلموا عليها بكلام ناقص فيما يتعلق بالتعديل والتجريح ولا وفوا لها بما يجب من الطب والعلاج ولا بينوا طرق التقدم والرواج

مطلب
عدم الوقوف على حقيقة مصر لارباب السياحة

ولما حل بها جيش الفرنساويه أمعن النظر فيها وعرف قيمة الطرق المعاشيه وان مصر لو حكمت بحكومة مماثلة لدول أوروبا المنتظمه لامكن تكثير أهلها وبلوغهم الى ثمانية ملايين متممه وأنها قابلة لنمو الزراعة والصناعة والتجاره وأن أهلها فيهم القابلية لاجتناء ثمرات العقول وفوائد المهاره وقطرها مستعد لتحسين الصحة العموميه بطرد الامراض الوبائيه وماء النيل اذا توزع على الاراضي بالوجه اللائق يروي من الفدادين فوق أربعة ملايين وتكون كثيرة المحصول فان فلاحتها المختلفة تمكث ثمانية أشهر من السنة يتقلب عليها الحرث والزرع المختلف باختلاف الفصول فان أراضي أقاليم البحيرة متساوية الاطيان تقريبا في طبيعة المزارع

مطلب
رأى الفرنساوية حين تغلبهم على مصر في عمارها

مطلب
حالة أطيان مديرية البحيره

مستويه

مستوية الاجزاء فجميع أراضيها صالحة للزراعة والفلاحة بالسهولة لان الرطوبة تبقى بها مدة فصل الشتاء وبعده فيسهل انباتها بواسطة ماينزل فيها من الامطار بدون الاستعانة بالسواقى فتخرج منها الحنطة الجيدة فما يوجد فيها من البور بدون زرع فهو ناشئ من مجرد اهمال الاهالى وسوء ادارة الحكام مثلا جميع الاراضى الواقعة على شطوط ترعة الاسكندريه هى أشبه بالصحراء والبريه لخلوها عن الحرث والغرس ولو زرعت جميعها لخرج من المحصول الجسيم مقادير وافرة فالاراضى التى لاتزرع بمديرية البحيرة نحو مائة وثمانين ألف فدان تقريبا منها أرض بحيرة مريوط تشتمل على ستين ألف فدان مع أنه يمكن تجفيف جزء منها وزرعه

مطلب
حال أطيان مديرية روضة البحرين

وأما روضة البحرين فانها خصبة جدا الا أنها لم يعطها الفلاحون فى الفلاحة مايجب لها فهى فى الجملة تعطى محصولات جيدة ولو أعطى لها حقها من الفلاحة لكثر محصولها كثرة بالغة ففى أقسامها تخرج الحنطة والذرة والفول والشعير والكتان والنيلة والدخان الا انه لابد من تقدم الزراعة بها تقدما أجسم من ذلك لازدياد المحصول وكثرته فان روضة البحرين التى هى عبارة عن الغربية والمنوفية فيها نحو مائة وعشرين ألف فدان من البور منها بالغربية نحو ثمانين ألف فدان والباقى وهو مقدار النصف من ذلك بالمنوفية

ومن تحسين الزراعة بمصر أن يخصص جزء من أراضى الشرقية والدقهلية لزراعة القطن والكتان والنيلة وما يبقى بعد هذا التخصيص يكون لزراعة الحنطة والذرة والفول والشعير والعدس ونحو ذلك ويخصص فى مديرية الشرقية جملة أفدنة لزرعها على هيئة المروج الصناعية والمراعى المدبرة ويصح فى هذه المديرية زراعة الكرم والتوت كما صحت زراعة التوت فى بعض الجهات الاخرى من الاقاليم الجنوبية الافرنجية الشبيهة بالاراضى المصرية فان تربية دود القز بمصر تعطى مع السهولة محصولا عظيما المساعدة الحكومة له واستثنائه من دفع العوائد تمييزا له فى الحال المقتضى لها ذلك فان فى مملكة فرانسا أشياء تستثنى من دفع العوائد والضرائب لقصد ترغيب الزراعة وتكون معافاة من ذلك وقتيا يعنى لاتدفع العوائد الابعد مدة فمن ذلك التزام ردم قدر مخصوص من البرك والمستنقعات لمن يريد غرسها فانه يجوز فى فرانسا الترخيص له فى ذلك القدر ومعافاته من دفع المال مدة لاتزيد عن خمس وعشرين سنة تمضى بعد التنشيف وصيرورته صالحا للغرس هذا فى الاراضى البور وأما الاراضى المعمورة فيجوز بموجب اللوائح الصادرة فى ذلك معافاتها من المال لمنفعة الاراضى نفسها اذا زرعت بزراعات مخصوصة أنفع من غيرها للمملكة كزراعة الكرم

مطلب
مايستثنى من دفع العوائد المالية ترغيبا لتكثير العمارية

أو الاشجار أو التوت كتنمية دود القز أو الاثمار فتكون لها امتيازات خصوصية فى فرانسا وقد سلك هذا المسلك المرحوم محمد على فى مبدا الامر برفع الاموال عن أراضى الضواحى التى يزرع فيها قدر مخصوص من شجر الزيتون وكما صدر فى هذا العهد الاخير من قرارات مجلس النوّاب فيما يخص الاراضى المستجرة والموات من تميزها برفع الاموال عنها مدة محدودة للمنفعة العمومية ولا بأس ان يعمل فى مصر مثل ما يعمل فى فرانسا فى ربط الاموال على العقارات المجددة من بيوت الاحجار والورش والمعامل وهو أن لا يربط عليها عوائد الا فى آخر السنة الثالثة التى تمضى من تمام عمارتها ترغيبا للمجددين حيث انهم فى أثناء هذه السنين الثلاثة يجنون جميع ثمرة مبانيهم ويوفون غالبا ما عليهم من الديون للصناع وأرباب مهمات البناء فبمثل هذه الترغيبات يكثر التجديد للامور النافعة النادرة فالتشويق لغرس شجر التوت لتنمية دود القز يكون من هذا القبيل

فبحسن ادارة تربيته يكون عدة وعمدة لامداد الفبريقات الاوروباوية كما سيأتى توضيح ذلك فيما بعد فى الفصل الثالث من هذا الباب

مطلب
اطيان مديرية الشرقيه

وفى اقليم الشرقية نحو أربعين ألف فدان من البور اذا صار تعهدها بالزراعة يتبدل البوار بالعمار وقلة المحصول بالاستكثار وكذلك بالدقهلية نحو ستين ألف فدان بدون زراعه اذا انصلحت راجت وكانت كنزا للبراعه واذا تقدمت زراعة الارز بجوار رشيد ودمياط عما هو جار الآن وتحسن تبييض الارز بتكثير الطواحين التى تدور بالآلات المائية فان أرباب الزراعة بتلك الجهات يكتسبون الاموال الجمة من هذا الفرع الذى هو أجود من أرز ايطاليا وأمريقه والاقطار الهندية لاسيما وأن بتلك النواحى يوجد من الاراضى البور الصالحة لزراعة الارز نحو أربعين ألف فدان

مطلب
اطيان مديرية الجيزه ومديرية القليوبيه

وأما مديرية الجيزة ومديرية القليوبية فانهما تعطيان محصولات مماثلة لمحصولات المنوفية والغربية اذا صار تعهدهما بالحرث والغرس كما ينبغى بل يزيدان على ذلك بصلاحيتهما لزراعة القرطم واذا صار اصلاح ما فيهما من البور الذى يناهز ثمانين ألف فدان يكثر محصولهما كثرة بالغة وكذلك اقليم الفيوم اذا استمر على زراعة الزيتون والورد وأخذ فى الكثرة فان محصول هذين الفرعين يزيد فى قيمته زيادة ذريعة

مطلب
أطيان أقليم الفيوم

فانه أقليم ظريف مخصب بكثرة الاجتهاد وتقديم فن الزراعة فيه وانما يخصص منه جزء عظيم من الاراضى لزراعة الغلال بقدر الحاجة والباقى تصح فيه زراعة النيلة والكتان والبرسيم بترتيب زراعة كل صنف بما يلائمه من فصول السنة لصلاحية أرضه

للزراعات

للزراعات الراتبة ومافيه من الاخراس يقارب ستين ألف فدان قابلة للاصلاح لحالة اراضيه التى فسدت بالحروب واغارة العرب قابلة للاستحسان وأن يعود خصبها كما كان

مطلب اطيان مديرية بنى سويف

وأما مديرية بنى سويف فهى منبتة للحنطة والذرة والفول والكتان والنيلة والدخان ومع ذلك فيها من الاخراس نحو أربعين ألف فدان اذا انصلحت تصير جسيمة المحصول

مطلب اطيان الاطفيحية

وفى اقليم الاطفيحية يصح القمح والفول والذرة والدخان وفيه من الاراضى الغير المفلحة نحو ثلاثين ألف فدان اصلاحها من الواجبات وأما أراضى المنية فأكثرها صالح لزراعة قصب السكر لاسيما نواحى ملوى (قال) الحكيم جالينوس لولا قصب السكر بمصر ما برئت أهاليها من العلل سريعا وقيل يعمل من قصب السكر نحو ألف نوع من الحلوا قال بعضهم وأحسن فى الجناس

سبحان من أنبت فى أرضنا * ما بين شوك وحلا فيها
أنبوبة فى حشوها سكر * قد كان ماء وحلا فيها

وألطف منه بكثير قول بعضهم فيه ملغزا

جعلت فداك هل لك من حبيب * مجيب فى الوصال بلا محال
نقى الثغر معسول الثنايا * له ريق ألذ من الزلال
له قد القضيب اذا تثنى * وهزت عطفه ريح الشمال
يقام عليه حد القطع ظلما * ولم يسرق ولم يتهم بمال
ويعصر كعبه من غير ذنب * فيبدى الشكر من كرم الخلال

وهو كثير فى الديار المصرية لا يكاد ينقطع عنها الا فى خمسة أشهر فى السنة (وقد نقل) عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال لولا قصب السكر بمصر ما سكنتها وكان ويكثر من مصه للذته التى لا يعلمها أحد وقد تجدد صنف آخر من قصب السكر مشبع فى المائية والحلاوة ولكنه لا يساوى فى اللذة القصب البلدى وقد كثر هذا الصنف بأقاليم مصر ولكن استفحلت أعواده فى مديرية المنية لشدة صلاحيتها الزرعه وفيها ثلاثون ألف فدان من البور فاذا زرعت يحصل منها محصولات عظيمة

مطلب اطيان مديرية المنية

مطلب أطيان مديرية أسيوط وجرجا

واما مديرية أسيوط وجرجا فانها مشتملة أيضا على نحو ستين ألف فدان بدون فلاحة لكنها صالحة لذلك ينجح فى أرضها الحنطة والفول والذرة والعدس والنيلة والدخان والسلجم والقرطم والخشخاش وقصب السكر وغير ذلك ومن أسيوط الى اسنا سائر الاراضى صالحة للقطن والكتان والقرطم والسلجم وقصب السكر والقمح والفول

والذرة والعدس واللوبيا وغير ذلك وجميع أراضيها صالحة لزراعة شجرة البن وانما تستدعى بها أعمالا خصوصية يعنى اذا خدمت الارض خدمة مخصوصة وزرعت فيها شجرة البن فانها تثمر اثمارا عظيما فبهذا تستغنى مصر عن بن بلاد اليمن فالارض الصالحة لهذه الشجرة بتلك الجهات الصعيدية تبلغ تقريبا نحو نصف مليون فدان من الاطيان التى تحرست بالحلفاء وبغيرها من الحشائش الفضيلية كالشوك والسعدان ويصح فى هذه الاراضى الصعيدية شجر التوت الذى يتغذى به دود القز لان الصعيد ينبت الجميز فى كل ناحية من نواحيه فيفلح فيه التوت ولا يخشى على دود القز فيه من التلف لقلة الامطار والعواصف المتلفة لدود القز فى بلاد امريقه ويمكن فى مصر وقايتها والتحفظ عليها من هبوب الرياح الجنوبية المريسية بغرس الاشجار الملطفة لتلك الرياح

مطلب
صلاحية أرض الصعيد الاعلى لزراعة شجرة البن

وفى أودية الفيوم تنتج أغنام المارينوس ذوات الصوف الموصوف وتحسن للغاية لجودة مرعاها فبذلك يتحصل فى مصر الاصواف الجيدة وتتخذ منها المنسوجات الظريفة والمشغولات اللطيفة ولا مانع من تخصيص اصطبلات عظيمة فى جزء من اقليم الفيوم وفى جانب من مديرية الشرقية لتحسين جنس الخيول فان توليد الكحائل العربية وجياد الخيول الدنقلاوية للتجنيس على الخيول المصرية ينشأ عنها أصناف جيدة متجنسة تعتبر من الاصائل وكذلك اذا بلغت ترعة السويس المرام بوصلة النيل المبارك بالبحر الاحمر فان مزاياه لا تحصى ولا تحصر واذا سهلت المواصلة بين قنا والقصير للاخذ والاعطاء بتجديد منازل خانات للماكل وبناء صهاريج تمتلى من الامطار الشتائية بقدر لوازم المسافرين واحتياجاتهم فان فوائد هذه التجديدات تكون مما لا مزيد عليه لرواج المخالطات والمعاملات وكذلك اذا صار العريش الذى بين مصر والشام مركزا للتجارات والبضائع وتأكدت المعاوضات والمبادلات والاخذ والعطاء بين الاقاليم المصرية والشامية فان القوافل تنقل محصولات القطرين من أحدهما الى الآخر مدة الفصل الذى يخشى فيه على السفن فى السير فى البحر ولا يؤمن عليها فيه ان ترسى بلا خطر فى مينا دمياط فيكون سفر التجارة فى البر آمن ولهذا يلزم انشاء ترعة ما بين مينتى الاسكندرية لمن لا يريد التجارة فى البر فبانشائها يسهل عبور السفن وخروجها من الاقطار الشامية واذا غرست الاشجار فى صعيد مصر فانها تحفظ القطر المصرى من ريح السموم وتقيه من وخامة الهواء المسموم لان الاشجار العالية الجافة متى غرست فى الجهات المجاورة للبرارى والصحارى وقت المزارع من التلف وحفظت الاهالى من الامراض الناشئة فى الغالب عن هبوب هذه الرياح

مطلب
نتاج أغنام المارينوس بأودية الفيوم

مطلب
تحسين جنس الخيول فى الفيوم والشرقيه بتأسيس اصطبلات خصوصية

المسمومة المضرة فاذا حصل ذلك كله توفر فى قطر مصر الخير والبركة فى محصولاتها وتواجد فيهما من المؤنة والمعونة قوت أهلها فيفيض فيها ما يكفى لقوت أهالى جنوب أوروبا ويمكنها أيضا ان يغتذى بها من مراعيها ما ينيف عن خمسمائة ألف من الابل ومائتى ألف من الخيل وأربعمائة ألف من الحمير والبغال وأربعة ملايين من الابقار والجواميس وعشرة ملايين من الضأن والمعز واذا اتخذ فيها نحو ثمانمائة معمل لترقيد البيض واخراج الدجاج نتج من ذلك خمسة وعشرون مليونا من الدجاج وهذا كله ينتج الغنى والثروة مع ما يتجدد بها من العلاقات التجارية والتواصل بالمعاملات الاستمرارية بينها وبين جميع المدن التى على البحر المالح من بلاد الحجاز واليمن وسائر بلاد العرب وبلاد الحبشة ويكثر تردد السفن منها بطريق السويس والقصير على المينات العربية والحبشية كما تصير موردا لذلك وكذلك اذا زالت موانع الاوبئة والمضار من الجهات الجنوبية فان قوافل داخل بلاد افريقية تتردد الى ديار مصر بمتاجرهم ليستعيضوها بمحصولات فبريقات أوروبا الواردة الى مصر وبواسطة ما فى مصر من الامنية والمساعدة للاجانب والاغراب ترسل جميع البلاد اليها الرسائل التجارية لاطمئنانهم على نجاح مقاصدهم وفلاح مراصدهم فاذا اتصفت مصر بهذه الصفات وصفت أحوالها هرع اليها كل فريق وحج اليها الناس من كل فج عميق فبهذا يعمر المكان وتكثر السكان وبتجدد البركة يكثر العمل وتنبسط الحركة فيستدعى حال المدن الاصلية تكثير المدارس العمومية والكتبخانات الاهلية المشتملة على جميع العلوم والفنون لتنوير عقول ذوى المعارف ويكثر العلماء والمتفننون وتنتشر على آفاق مصر أنوار المعارف الخارجية وأسرار اللطائف الانسانية لاسيما وان أبناء مصر أرباب قرائح ذكيه وحافظتهم قويه متى قصدوا شيأ تعلموه فى أقرب وقت وزمان وكم قام على قابليتهم واستعدادهم لعظائم الامور أعظم برهان

مطلب
استعداد أبناء مصر بقرائحهم الذكية لجميع المعارف والمنافع البشرية

ثم ان تغير حالة مصر الى حالة مستحسنه لا يستدعى من الزمن عشرين سنه لان تربتها طيبه ومزارعها مخصبه وواديها سعيد وبها ينمو الحيوان والنبات فى أقرب وقت ويزيد تنبت الاطفال فيها نباتا حسنا ويترعرعون فى أقرب وقت وتنمو أبدانهم نماء مستحسنا والنوع الانسانى فى مصر يتعود على لطافة الاخلاق وانتظام المعيشة والاقتصاد فيها وعدم التكليف بما لا يطاق

مطلب
تحويل مصر الى حالة مستحسنة فى نحو عشرين سنة

والغالب على أهلها ان تبقى قواهم العقلية الى آخر أعمارهم بدون ان يحصل فيها خسافه واذا بلغ الانسان منهم سن الهرم فلا يتكلم بكلام خرافه

مطلب
حفظ قوى أهل مصر العقلية الى آخر عمرهم فى الغالب

قال صاحب هذه المحوظات لاشك أن ما ذكرته من التحسينات فى شأن المملكة المصريه

يقع معظمه موقع التحقيق لودامت هذه المملكة فى قبضة الفرنساويه انتهى

ونحن نقول من القواعد الاساسيه ان علة الضم الجنسيه

نعم بيننا جنسية الود والصفا * ولكننى لم آلفها علة الضم

فكلامه مبنى على شبهة واهيه وهى ان مصر يسوغ أن تصلحها فرانسا وأى مملكة تكون لها مضاهية فاعتقاد ذلك من الايغال المدهى أو من باب التشبيهات الفاسدة وانما يقتل النفوس التشهى تشطير البيت الشهير

جاء شقيق عارضا رمحه * صوب بنى عم يروم الكفاح
قيل أما تخشى انكسار القنا * ان بنى عمك فيهم رماح

وفى الحقيقة فأغلب ما ذكره صاحب الملحوظات وعليه عوّل فقد قام بأغلبه جنتمكان الذى كان هو المجدد الاول وقام بالتتميم والتكميل خلفه النبيل

فلم تك تصلح الا له * ولم يك يصلح الا لها
ولو رامها أحد غيره * لزلزلت الارض زلزالها

ونقول هنا أيضا ان علة الضم الجنسية فان بنى اسمعيل مستعربة ولا يتعجب من هذا ولا يجهله غير غبى الله أكبر كل الحسن فى العرب وسنذكر فى الفصل الثالث ما يفيد أن هذه الملحوظات لم يعزب منها مثقال ذرة على المرحوم محمد على

فان تك أفنته الليالى فأوشكت * فان له ذكرا سيفنى اللياليا

بل ولا على خلفائه من بعده لاسيما الحفيد المفيد الذى لازال القطر المصرى يكتسب فى أيامه من معالى الامور ويستفيد فالمجددان الامجدان أخرجا المنافع العمومية فى مصر من حيز العدم الى حيز الوجدان

وللمكارم أعلام تعلمنا * مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلا ألسن تثنى محامدها * على الحميدين من فعل ومن شيم
وراية الشرف البزاخ ترفعها * يد الرفيعين من مجد ومن همم

الفصل الرابع

فى بيان بلوغ المنافع العموميه بالديار المصريه درجة ارتقاء جليه فى عهده الحكومة الحاليه مع بعض ملحوظات بهيه

يفهم

يفهم من الملحوظات المذكورة فى الفصل الثانى أن بمصر من البور الصالح ما ينيف عن مليون فدان وانه ينبغى اصلاحها والانتفاع بها وانه ينبغى فى القطر المصرى تجديد المروج المدبرة يعنى المراعى كالبرسيم الحجازى ونحوه وانه ينبغى لاسيما بالصعيد غرس أشجار التوت وتربية دود القز وتعميم ذلك فى البلاد الصالحة له بالاقاليم البحرية وتحسين أحوال الارز وعمل طواحين الهواء لتبييضه وتنظيفه والاكثار من غرس القطن واصلاح أراضى الفيوم بزرع الاصناف كالكتان والنيلة والقطن والاكثار من قصب السكر فى الاقاليم التى ينمو فيها كأراضى المنية وملوى وغرس شجرة البن فى مساحة عظيمة من أرض الصعيد وتربية أغنام المارينوس الاندلسية فى الفيوم وتحسين أجناس الخيل بتوليد الخيول المصرية من الخيول العربية الاصائل وعمل اصطبلات لذلك بالفيوم والشرقية وتوصيل البحرين الاحمر والابيض لتسهيل الاسفار واتخاذ العريش مركز التجارة مصر والشام وغرس الاشجار العالية بالصعيد لمنع مضار الريح السموم ولتسهيل ورود القوافل من داخل افريقه الى مصر لاتساع التجارة

فهذا مضمون ما أشار اليه صاحب الملحوظات كما يعلم ذلك من مطالعة الفصل السابق ولا يخفى على الخبير باحوال مصر الآن أن كثيرا من ذلك قد كان بحسب الامكان فى أيام المرحوم محمد على جنتمكان لاسيما فى أيام من اعتنى من بعده وفى لعمار المملكة المصرية بالشروط والاركان فأما ما يتعلق بالبور المذكور فقد انتظم من أيام المرحوم محمد على الى وقتنا هذا فى سلك المعمور اما بالاقطاع والتمليك لقصد الاصلاح واما بالضريبة أو التأجير للفلاح وغير الفلاح ومن وقت الحكومة الاسمعيلية صار احياء ثلثمائة ألف فدان من الموات حتى قل أن توجد من غير المزرع الأطيان جزئية فى محال عالية أو كالحواجر التى انحسر عنها النيل ولم يبق من البور الا القليل

مطلب
عدم ضرورية المروج المدبرة فى مصر

وأما تجديد المراعى المدبره فقد تجدد شئ من البرسيم الحجازى فى الدوائر والاواسى المعتبره الآن مصر تزرع البرسيم المعتاد فى فصله بكثرة للتشميه ثم عقب الصيف يكثر فيها المراعى بعد الحصيد مجانا ولكثرة علفها اليابس لها عن المروج المدبرة مندوحة

مطلب
زرع القطن وغرس شجر التوت وتربية دود القز

وأما زراعة القطن فتحتاج الى زيادة بسط الكلام والتوفية بالمرام لانها من أنفع المواد للديار المصريه لدخولها قديما وحديثا فى المصانع البلديه ومع ان أرباب

زراعتها بمصر بأرياف مصر لهم خبرة تامة بغرسها ومباشرتها فلا بأس بذكر بعض مسائل تتعلق بذلك مما هو جار فى شأن زراعة القطن فى البلاد الاجنبية ليكون به كمال المعلومية فنقول ان شجرة القطن تنجح بالقرب من سواحل البحار والانهار وفى داخل البلاد بالبعد عن السواحل أيضا ولا يضرها الهواء الرطب متى كانت درجة الحرارة كافية بخلاف ما اذا كان الهواء رطبا والزمن باردا ولا يصلح لشجرة القطن البلاد الكثيرة الامطار المتعاقبة لاسيما فى ابتداء غرسها وفى زمن تزهيرها وفى زمن جنيها فان المطر فى زمن غرسها يوجب العفونة للبذر وفى زمن تزهيرها يسقط الازهار وفى زمن جنيها يقتضى تأخير المحصول ووساخة القطن والاضرار بما يجنى وأما اذا كانت الامطار غير متعاقبة بل متباعدة المسافات فانها تنفع لنمو أغصان هذه الشجرة وكبر حجمها وجودة جنس القطن

ويجب أن تغرس أشجار القطن فى جهات متباعدة عن الاورمان والغابات وأن تكون بحيث لا يمنع ظل الجبال والتلول تمكنها من أشعة الشمس لان الظل يؤذى شجر القطن ولو فى الاقطار الشديدة الحرارة ويسقط أزهارها وكذا الرياح العاصفة والباردة تضر به فينبغى أن يزرع القطن فى الجهات التى ليست عرضة لهبوب الرياح

ومن المجرب ان نفع الهواء مثل نفع النور للمزروعات فينجح زرع القطن فى التلول المتوسطة الارتفاع التى تمر بها الاهوية النافعة وأن لا يظلها ظل وأن يكون عمق الارض فى الدرجة اللازمة لها وأن لا تكون الارض صلبة ولا حجرية ولا يابسة فاذا كانت الارض يابسة ينبغى سقيها وتنجح شجرة القطن فى الاراضى المتخلخلة المشوبة بالرمل أكثر من نجاحها فى الاراضى القوية الابليزية وتنجح فى الاراضى الخفيفة اللبونة أكثر من نجاحها فى الاراضى اليابسة لان ذلك نافع لتشعب سيقانها وتعريشها ومن المجرب انها فى الارض القوية الخصبة ولو انها تنمو نماء بليغا وتكثر أزهارها غير أن الازهار تسقط بالسرعة فلا تنتج المحصول الكثير ومثل ذلك ما اذا كانت الارض شديدة الرطوبة فان أزهارها تسقط سريعا وربما حدث من ذلك عفونة سيقانها وبزرتها معا

ولا تنمو شجرة القطن كما لا ينمو غيرها من النباتات اذا غرست بالاراضى الصخرية والحجرية لان سيقانها لا تجد شيأ تخترقه وتنمو فيه ويصلح لغرس شجرة القطن الاراضى الرملية الدقيقة الرمل المشوبة بالطفل أو بالجير فنموها فى هذه الاراضى وان لم يكن شديد القوة لكن كثير المحصول الجيد الصنف وسريع الاستواء وقد ينجح غرس

القطن فى الاراضى المتوسطة الخصوبة التى يتعسر فيها نجاح غيره من الزروع والحاصل ان تمام نجاح غرس القطن ونموه يكون فى الاراضى المحتوية على الرمال الدقيقة السهلة الحرث القليلة الرطوبة وانما ينبغى الاعتناء باصلاح الارض قبل البذر فيها وينبغى التفطن الى أن ساق شجرة القطن لابد أن يدخل فى الارض ثمان عشرة بوسة يعنى اصبعا الاأقل من ذلك وانها لابد لسيقانها من التعريش والامتداد فالارض الصلبة الكثيفة الصعبة المنافذ لاتليق لها ولايدرك الزارع التعمق والتجنب الابمعرفة درجة العمق المطلوب لوصول الساق فى الارض ومقدار مسافة البعد المطلوب بين ساق كل عود مع العود المجاور له أما معرفة العمق فيسهل الوصول اليها بحرث الارض والتعمق فيها بقيمة ثمان عشرة بوسة الى عشرين بوسة وأما معرفة قدر مد الساق من الفراغ لتعريشه فهى تابعة لطبيعة الاراضى والمعتاد فوات الفراغ بين الخطوط بقدر سبعة أشبار ونصف فى الاراضى الضعيفة وثلاثة عشر وأربعة عشر شبرا فى الاراضى الخصبة القوية فينبغى للزارع أن ينتخب محلا مخصوصا ويغرس به جملة أشجار بعضها متقارب وبعضها متباعد فالانجح منه يتبعه

وينبغى الابتداء بحرث الارض وازالة ما بها من آثار النباتات الطفيلية والحشائش وان يشق جوفها بالمحراث أو بالعزق الا أن العزق يشفع فى الاراضى المنفصلة الاجزاء دون السمينة القوية وبعد الحرث والعزق يرتبها حفرا وشقوقا ونقرا ويتركها عرضة للشمس والهواء مدة من الزمن مع تنقية ما فيها من الاحجار ثم يردها بالثانى باعادة كمية الطين الذى أخذ من جوفها بعد أن يخلطه بالسبخ ولا يترك مكشوفا فيها بوسة واحدة ويضع فى الجزء المكشوف تقاوى القطن بالوجه اللائق وفى كل نقرة يضع من البذر ثلاثة أو أربعة أو خمسة ثم ثم ردم النقرة بباقى الطين الذى خرج منها ويجعل ارتفاع سطح النقرة مساويا لارتفاع سطح الارض المجاورة لها لئلا تكون مخزنا للمياه التى تعفن البذر ويلزم أن تردم جميع النقر التى وضع فيها البذر فى يوم حفرها خوفا من اتلافها بنزول المطر أو نحوه وينبغى أن تكون أشجار القطن متباعدة عن بعضها لتمكن الهواء والضوء منها وينبغى بعد حرث الارض لزراعة القطن أن تمر فوقها الآلة الهراسة لتكسير قطع الطين الكبيرة وفكها ومن أهم الامور انتخاب التقاوى بأن تكون كاملة النضج سليمة خلية عن العيوب مأخوذة من أثمار الاشجار القوية النمو والا كان محصولها ضعيفا وخسيسا وخليا عن الجودة ولذلك ينبغى للزارع البارع أن ينتخب قطعة أرض فى جهة من الجهات المعتدلة الهواء ويزرعها من

الاشجار الشديدة القوية ويعدها للتقاوى فينتخب منها ما يكون متكاملا فى الحب ثقيلا فى الجرم ولا يخلطه بغيره من الحبوب ثم يبذر منه فى الارض ومن محصوله بالخصوص الى أن يظهر له انتقاص المحصول فى الكمية والجودة فيتداول غيره أو أعظم منه من التقاوى فقد صح بتكرار التجارب أن تكرار زراعة الصنف الواحد فى الارض نفسها يعتريه على مدى السنين تناقص فى الجرم والجودة فالارجح لمصلحة أرباب الزراعة القطنية استبدال تقاوى أراضيهم بتقاوى الجهات المجاورة لهم أو جلب تقاوى اجنبية من الخارج وعلامة الحسية فى تقاوى القطن أن يكون مفتوح اللون عظيم الجرم وان يكون غلافه محتويا على نقط بيضاء وأن يعوم على وجه الماء وعلامة الجيد ان يكون صلبا ثقيل الوزن والغالب عند أرباب الزراعة ان التقاوى تكون قديمة من محصول السنة الماضية وهناك عادة مطروقة فى بعض البلاد وهى خدمة التقاوى لانفصال الحبوب من بعضها وتفريقها وتنظيفها من الالياف القطنية المشتبكة بها وطريقة ذلك وضع التقاوى فى الماء عدة ساعات ومزجها بعد بالرمل أو الرماد أو الطين المسوس ثم دعكها فيما بعد بعضها فوق بعض بالايدى أو بالارجل وبعض الناس يغمسها فى الماء اثنتى عشرة ساعة لقصد تعجيل انباتها ويحسن استعمال هذه الطريقة فى الاراضى اليابسة القليلة الرطوبة وأنفع من ذلك لتكثير المحصول غمس التقاوى فى الماء الممزوج بهباب المداخن أو بزجيع معاصر الزيوت فانه يقيها أذى الحشرات الارضية كالدود

مطلب بيان تسبيخ الارض المهيأة لزراعة القطن

ومن المعلوم عند أرباب الزراعة ان الارض المتكونة من طرح البحار والانهر الغزيرة الطمى غنية عن التسبيخ ومثلها فى ذلك الاراضى البور التى صار اصلاحها قريبا وأما ما عدا ذلك من الاراضى فلا يستغنى عن التسبيخ وبيان ذلك ان القطعة الارض يمكن للزارع خدمتها وغرسها قطنا والاستحصال منها على ما يشاء من المحصول بشرط أن يكون تسبيخها حسب اللزوم وأن يكون سبخها موافقا لطبعها وأن يوضع فيها من السبخ القدر اللازم على قدر الحاجة فوضع السبخ بالقدر اللازم والجودة المطلوبة متعلق بمعرفة الزارع وبطبيعة الارض وأهل الصين هم الذين يحسنون زراعة القطن ويجيدون تسبيخ أراضيهم الا أن استعمال التسبيخ بروث المواشى والخيول قليل جدا عندهم لعدم اعتنائهم بتربية الحيوانات فلهذا يقوون الارض بطين الانهر والخلجان

والودیان

والوديان والبرك وبأنواع الرماد وبجميع عصر الزيوت وبالفضلات الانسانية الا أنهم يفضلون الرماد على غيره خصوصا رماد القصب والخيزران والحشائش الطبيعية وأوراق الاشجار ويحترسون على تجميع الاجزاء الصغيرة من أجزاء قطنهم ومن جزورها وأوراقها ولوزها وعيدانها فيحرقونها او ينشرونها فى الارض المعدة لزراعة القطن قبيل غرسه وقد صار الآن رجيع عصير الزيوت مستعملا فى اوربا لتسبيخ المزروعات ولا يشترط أهل الصين فى شئ أصلا من الفضلات الانسانية فيدخلونها فى انبات البقول على الاطلاق لتقوية الانبات وفى جميع البلدان يستعان بها مائعة أو يابسة على تقوية المزروعات بخلاف أهل الصين فانهم ينتفعون بها فى زراعة القطن من وجهين الاول طرحها فى النقر مختلطة بكمية كافية من الماء لسقى الارض منها الثانى انهم يخلطونها خلطا جيدا بجانب من الطفل أو من طين المزارع ويصنعون من ذلك أكرا صغيرة وينشفونها فى الشمس ثم يسحقونها فى وقت الطلب وينثرونها على سطح الارض المقتضى زراعتها وقد يستعمل فى بلاد الصين التسبيخ بالجير لاصلاح أراضى القطن كما يستعمل ذلك فى بلاد أوربا وهذه الطريقة نافعة لزرع القطن اذا كانت أرض القطن خالية من المادة الجيرية

مطلب زمن بذر القطن

وزمن بذر القطن يكون تارة مقدما وتارة مؤخرا بحسب ما يوافق مزاج القطر وطبيعة الارض ومع ذلك فهو دائما قبل دخول الشتاء بشهرين أو بثلاثة فى البلاد الباردة الثلجية والبلاد الحارة القليلة الرطوبة وينبغى بذر التقاوى فى الاراضى حين وجود درجة الحرارة المطلوبة فان بذرت قبل ذلك لا تنبت ويصير تعفن البذر وينبغى أن يكون رمى البذر فى يوم الصحو ولا يجوز أن يكون فى زمن نزول الامطار الكثيرة فانه يترتب على ذلك تعفن البذر أيضا

ومن الواجب أن يحافظ المزارعون فى كل عام على أكثر مما يلزم لهم من التقاوى لكى يمكنهم اعادة الغرس مرة أخرى فالمزارع المتبصر بالعواقب يحرص دائما على قدر التقاوى مرتين فأكثر

مطلب الاعتناء بشجرة القطن فى أثناء انشائها ونحوها

ينبغى تعهد مزرعة القطن للتنظيف وازالة ما ينبت فيها من الحشائش الطفيلية والنباتات الاجنبية وخلعها اما بالايدى واما بالآلات وكذلك يجب الاعتناء بعملية تقليمها تقليما جزئيا أو كليا وينبغى الاعتناء بها فى زمن بدو أزهارها وأثمارها والاعتناء بكيفية سقيها

وبيان ذلك أنه متى شوهد أن الحشائش الاجنبية زاحمت عيدان شجرة القطن النابتة يجب عزق الارض وتنظيفها من الحشائش وقد جرت العادة أن أبذار شجرة القطن

تخرج من الارض بعد مضى اسبوع من بذرها اذا كانت الارض محتوية على درجة اللبونة اللازمة وكان الحر شديدا ومع ذلك فقد يتقدم الانبات أو يتأخر عدة أيام بحسب ما يقتضيه مزاج القطر وطبيعة الارض وتكون تنقية الحشائش فى المرة الاولى متى بلغت عيدان القطن أربع ابهامات أو خمسة أو ستة يعنى متى مضى شهر كامل تقريبا بعد البذر وانما يلزم الاحتراس من اتلاف العيدان الصغيرة المستورة بالحشائش والاحسن استعمال اليد فى قلعها أو بالمنجل المقور وكذلك ينبغى فى عزق الارض الاهتمام بقلع عيدان القطن الضعيفة وابقاء القوية للتخفيف مع الاحتراس من أن لا تتزحزح العيدان الباقية عن مكانها ولا تتلف جذوره ومن الواجب لتثبيت الجذور وتمكينها بعد خلع العيدان الضعيفة أن يصير دك الارض بالرجل فى جميع أجزاء الغيط وهذه العملية تكون فى التنقية الثانية يعنى متى بلغت العيدان فى الارتفاع ثمانية عشر اصبعا ويقال لهذه العملية عملية الدور الثانى

وأما الدور الثالث فيكون فى وقت دخول زمن التزهير ولا يجب عمليات اذا انبتت الازهار وظهرت لانه يخشى فى ذلك الوقت من سقوط شئ من الازهار بعملية العزق والتنقية فان المزرعة اذا احسنت تنقيتها قبل دخول التزهير فان العيدان تكون فى هذا الاوان مظللة على ما تحتها من الارض فلا تضرها النباتات الاجنبية ومع ذلك فمن اللازم أن تكون الارض دائما بالتلطيف نظيفة نقية خلية من الحشائش الاجنبية بحيث لا يصير ابقاء الحشائش الاجنبية حتى تنمو وتظهر ويلزم انه لا يمس قشر جذوع أشجار القطن جرم أجنبى فيلزم لهذا عزق الارض وتنظيفها ثلاث مرات فأزيد فى العام الواحد خصوصا فى مزارع القطن التى تزرع بالسقى لانها فى العادة تكثر بها الحشائش الاجنبية فيجب تعهد هذه الحشائش بالقلع وابعادها خارج المزرعة

ويكون تزهير شجرة القطن بعد انباتها على سطح الارض بنحو خمسة أشهر بل عادون ذلك فى الاقطار الحارة وبأزيد من ذلك فى الاقطار الباردة وكذلك بدو ثمرتها قد يتقدم أو يتأخر حسب مزاج طبيعة القطر وسن الاشجار ولا مانع من ابتداء جنى القطن فى آخر الشهر الخامس أو السادس وتقل العمليات المقتضى اجراؤها فى أثناء زمن التزهير الى استواء الاثمار وربما انحصرت جميع العمليات فى تقليم الفروع الميتة ويجب على الزارع الماهر أن يستيقظ بين مسافة التزهير والانبات لحفظ الشجرة ووقايتها مما يعتريها من الآفات

وأما سقى شجرة القطن بالبلاد الحارة اليابسة فهى أعظم ما يعين على انبات النباتات فان الماء اقوى الاسباب الموجبة لاحياء الارض وخصوبتها وبدون اعطاء الارض

حقها فى السقى لا تجدى ولا تثمر ولو توفرت الشروط الاخرى فسقى الارض فى الاوقات اللازمة عليه نجاح زرع القطن فلا تستغنى أشجار القطن عن أخذ حقها من الماء خصوصا فى الاقاليم الحارة المتمكنة منها أشعة الشمس المحرقة و ينبغى أن يحترس فى السقى أن لا يكون زيادة عن المقنن

فقد ظهر بالتجاريب الصحيحة ان سقى القطن اذا زاد عن المقنن ينقص جودة جنس القطن وسواء كان ذلك فى زمن حرث الارض أو بذر التقاوى فينبغى أن يكون تقسيم المياه وتوزيعها بحسب الحاجة

ثم ان السقى للاراضى القطنية وريها قد يكون لازما قبل دخول زمن البذر وتارة يكون عقب اتمامه والارجح ان لا يصير سقى الاراضى المبذورة الا بعد البذار بخمسة عشر يوما أو بعد تخفيف الارض من أعواد القطن الضعيفة مالم تكن المزرعة كثيرة اليبوسة فانه ينبغى الاهتمام بسقيها عند مجرد الانبات وقد يعتنى فى بعض البلاد برى الحفر المعدة لبذر القطن وتركها مدة من الزمن حتى تنشف قبل وضع التقاوى فيها

ولا يمكن تحديد زمن لسقى الارض ولا تقدير كمية الماء الذى يسقى به بل هذا موكول لمهارة الزارع حيث يراعى ما يوافق مزاج قطر بلده وطبيعة أرضه حيث ان الارض المرملة المتشققة تسقى أكثر من الارض الطينية المتكاثفة التى من طبيعتها الرطوبة وكذا اذا كان القطر حارا يابسا قليل الامطار يلزم تواتر السقى مالم يكن معتادا بكثرة الندى لان نفع الندى فى كثير من البلاد مثل نفع الامطار ولذلك كثيرا ما تنجح شجرة القطن وغيرها من النباتات فى الاراضى الشديدة الحرارة المعدومة الامطار

وأما اذا صار تسبيخ أرض القطن فلا بد من سقيها وفيض الماء فوقها ولا مانع من استمرار السقى كل خمسة عشر يوما مرة ان كان كل من الارض ومزاج القطر صالحا لذلك وهذا فى غير زمن الاثمار وبعضهم يقول ان السقى غير لازم من ابتداء التزهير ويرجح ذلك لان الشجرة فى زمن تزهيرها موجود بها ما يكفيها من الفواعل المعينة على تغذيتها لاسيما ان ساقها مغطى بما يظلله من الفروع والاوراق التى من عادتها تجديد الرطوبة المساعدة على تنضيج الاثمار وبلوغها حد الكمال

وأما غرس شجرة التوت وتربية دود القز بالديار المصرية فيحتاج أيضا الى بعض اطناب فنقول ان من المعلوم أن التوت مألوف الغرس عند العرب ويسمى الفرصاد قال ابن وحشية صاحب الزراعة التوت أنواع يخالف بعضها بعضا فى الطعم والطبع وفيه ألوان فمنه الابيض والاسود والاحمر والاصفر والاغبر وكذلك طعمه فيه الحلو والمر والتفه وأكثر ما يتخذ غرسا وتحويلا وأجود ما ينبت منه ما أكله بعض الطيور

الموجودة فى البساتين وزرقه لان بزر التوت لا ينهضم فى معدة الحيوانات كلها فالطير يأكله ويزرقه على شطوط الانهار وتحت سقوط مجارى الامطار فينبت نباتا جيدا لانه اذا وقع الى الارض من جوف الطائر وقع وزبل معه فينبت بسرعة والطيور التى تحب لقط ثمر التوت كثيرا هى الفواخت والوراشين والعصافير والغربان وهذا النبات يوافقه الماء موافقة كثيرة وليس له زبل يختص به بل جميع الازبال على اختلافها موافقة له ويحتاج الى التسبيخ مرتين فى السنة وقد ينبت فى البرارى بنفسه ويعظم فيها الا أنه اذا نبت بقرب المياه وعلى أطراف الانهار كان أجود ويوافقه ريح الجنوب وتلقحه لقاحا حسنا وهو يمد عرقه الى أسفل الارض كالكمثرى وغرسه فى أول شباط والى آخر أدار وتغرس أصوله بعروقها او قضبانها انتهى كلام ابن وحشية

وقال ابن بصال وجه العمل فى غرسه ان تحفر له حفر رقيقة ثم يغرس كما يغرس التين ومن الناس من يغرسه كما يغرس الرمان أوتادا واذا نبتت عروقه حولها (قال) أحمد بن وحشية التوت أعز الاشجار لان دود القز لا يأكل الا منه ومنافعه كثيرة جدا * وقد قال المعتصم العباسى لعمال البلاد استكثروا من شجر التوت فان شجرها حطب وثمرها رطب وورقها ذهب انتهى قال الشاعر فى ثمر التوت

ومختضبات من نجيع دمائها * اذا احببت من بكرة الغدوات
تكاد بأن تطفى اذا ما لمستها * فأرجها من سائر الثمرات

ولما من الله سبحانه وتعالى على المملكة المصريه بتقدمها فى طريق التمدنات العصريه وفد على مصر كل وافد وقصدها كل قاصد ممن له نصيب فى المعلومات الصناعيه والمنافع التجاريه والزراعيه رجاء أن يجد فى مصر نصيبه فى الغنيمه وأن يروج صناعته بأنفس قيمه فكان ممن حضر من بلاد فرانسا شخص يسمى الفونس غوطيه من أرباب الزراعة يتشبث بفلاحة غرس التوت وتربية دود القز واستخراج ابزاره المسماة بالشرانق وطرق حله وتصفيته وتنظيفه وكيفية غزله وهذا الوافد كغيره من الوفود الاغراب انما حضر الى مصر رجاء أن يجد فيها نصيبه من الربح بجولان النظر فيما يبديه من التمرينات لتنمية هذه المنفعة فهو متشبث بالتجربيات والعمليات من منذ ستة أشهر يجتهد كل الاجتهاد فى تجاربيه العديدة وهو الآن مشغول بتجربة ذلك فى الجزيره بأمر عزيز مصر الجالب لها الفوائد الغزيره ويقال انه كان قد نجح أيضا فى تربية دود القز بالاقاليم البحريه وظهر له أن استخراج الحرير من غرس شجر التوت وتربية دود القز واستخراج الحرير منه يزيد فى عماريه مصر وفى منافعها وثروتها

ونص عبارته فيما كتبه في هذا المعنى قد كان محصول القطن في العهد القريب بغية تجار مصر وزراعها وكان الاشتغال به مستوليا على عقولهم وجل مرامهم وأقوى غرامهم وأغلبهم يحبس رأس ماله عليه ولا تميل نفسه الا اليه ولم يخطر ببال أحد منهم أن يميل الى غرس التوت ولا تنبه للاستحصال على الحرير ولا استيقظ لما يترتب عليه من المنافع العمومية المهمه مع انه أيضا منبع الغنى والثروه والظاهر أنه لم يعزب ذلك من عقول المتقدمين منهم وانما لم تساعدهم الاوقات والاحوال ولا أعانهم على ذلك ولاة الأمور في الازمان السابقة والآن قد حان أوان الوعظ باتخاذه ولعل الوعظ فيه يقرع الاسماع ويؤثر في النفوس الزكية الحريصة على جميع انواع الانتفاع ولا أنفع لمصر من غرس التوت لتحصيل الحرير فانه ينشأ عن ذلك الخير الجزيل والغنى الغزير فان غنى مصر يكون في المستقبل بدون الاستحصال على الحرير ضيق الدائرة كما يكون كذلك بدون القطن فان زراعة شجر التوت القزى لم يأخذ من اراضي مصر الا الاماكن الخالية الآن عن الغرس فاذا انضمت من الآن فصاعدا زراعة هذا الصنف الى زراعة القطن على طريقة حسنة فلا ينقص ذلك من اراضي مصر شيأ ولا ينقص كمية زراعة القطن

فبهذه الطريقة الجامعة بين الزراعتين يزيد غنى أهالي مصر عما كانوا عليه قبل كساد القطن عقب صلح أمريقه ولا شك أن كل عاقل تمنى شدة الاعتناء بغرس التوت بقدر اعتناء الحكومة بتنمية القطن لادراكه احتياج الصناعات الى الاقطان فكذلك المنافع العظمى تستدعى نمو الحرير لرواجه فان مصانع فرانسا الآن في أشد الاحتياج الى الحرير وهو مطلوب أيضا لمصانع ايطاليا واسبانيا ثم ان بلاد يابونيا والصين والهند والدولة العثمانية مجلوب منها هذا الفرع التجاري الصناعي الا انه لا يفي بحاجة الصناعة لعموم الجهات وحيث ان الاقاليم المصرية مملكة مستعدة بالنسبة للصنائع الخالية ومتشبثة بالحصول على درجة الكمال فاستخراج الحرير فيها يكون من صالح المصالح فاذا غرست فيها أعواد التوت الصغيرة فلا تمكث مدة الا تجسمد وتعلو اذ ليس من الشجر ما يقوى على الشموخ مثل شجر التوت ولا من البلاد التي في دائرة البحر الابيض الرومي من له هذه المنقبة مثل مصر ففيها يكثر ويسعف بجميع الجهات فان الحرير الآن في سائر البلدان متجاوز الحد في الاثمان فلا يقدم على شرائه الا أصحاب الاموال الجسيمة وهم الاغنياء المفرطون في جمع الاموال فهم يغتنمون فرصة احتكار زراعته أو الاستيلاء عليه فلا يكادون يخرجونه الا بأثمان الغالية لقلته فتكثيره في بلاد الدنيا لا يكون الا بواسطة الحكومة المصرية حيث مواقعها الطبيعية أصلح

المواقع لزراعته اذ مافيها من التوت المحوز يتحصل منه حالا بواسطة التربية والخدمة أجود ما يكون من الحرير فاذا صار تقليمه بمعرفة أهل الصناعة بالطريقة اللازمة زاد محصوله وسهل اجتناء ثمره ثم تغرس عيدان التوت الشابة بترتيب لطيف فيتحصل منها أوراق ظريفة مع حسن الاقتصاد فى مصاريف الصنايعية المستخدمين لذلك

فاذا صار فى الاقاليم المصرية الابتداء بخدمة الحرير الكثير المحصول على هذا الوجه فى الاقاليم البحرية فانه يصير كثير الارباح جدا ولا يضر فى الزراعات الاخرى فان غرس اشجار التوت يكون علاوة على غيره من الزراعات حيث يغرس على حافات الترع والخلجان العديدة وعلى الطرق الكبيرة والصغيرة العمومية والخصوصية وعلى حدود الشفالك والاواسى والاراضى المملوكة والاترية وعلى الجسور وأسوار المدن والقرى والكفور لتكون أشجارهم مظلة حول القرى والغيطان والكروم والبساتين وهى أعظم ما يكون فى الوقاية من حر الشمس

فاذا تم غرس هذا الصنف على هذا الوجه فانه يكون فى آن واحد ابتداء مغروسات سريعة الانبات بديعة المحصول ولا يخفى أن مديرية البحيرة واسعة الاراضى المسطوحة فاذا غرست شطوط ترعها باشجار التوت كان لها منظر الطرافة والثروة وتعد من المنتزهات الخلائية يستظل الفلاح تحتها وقت الاستراحة ويستريح المسافر عندها وأرباب السياحة وتحجب الرياح الشديدة الهبوب وتلطفها وتمنع شدة مضرتها وحدة أذاها لاسيما فى أيام القيظ وحرارة الخماسين وتنفع أيضا هندمة الطرق المدبرة لتحسين حصيد جوز الحرير فانه ينمو فيها الغرس فتكون تربية الدود تربية متوالية وأجود من تربيته فى اوروبا اذ ثمرة دود القز يخرج أربع مرات فى السنة كما يحصل فى بلاد الصين والهند ويابونيا وفى مملكة برمان وكما أن مصر صالحة لدود القز استخراجا بزراعة التوت فهى صالحة لحلجه وتنظيفه وغزله وصناعته أكثر من غيرها فينجح فيها كل النجاح اذ يتحصل منه أصناف جيدة منتظمة بهجة النعومة واللون والقوة والتمدد واللين مستكملة لجميع ما تستدعيه جودة هذا الصنف بخلاف الحرير فى اوروبا فلا يعطى الا محصولا واحدا فان شهور فصل الشتاء طويلة الليالى كثيرة الرطوبة موجبة لاستخراج الحرير من جوزته فيحتاج الى كثرة المصاريف للاحتراس والتدارك

وكذلك فصل تربية الدود غير موافق فى تلك البلاد فان الدود يضعف بواسطة نمو الربيع ويضر بالاوراق الشابة المتجددة فى أوان توليدها للحرير وفقسها له فبهذا تكون التربية بطيئة فيقاسى الدود مدة ما يقاسى من التعب ثم يتغير الربيع بالصيف

فينضج

فينضج الدود بغتة وفجأة فتنشف الاوراق وتحترق فتخيب التربية ولا يحصل المقصود
منها بل يعتري الدود أسباب الامراض فلا تصادف التربية محلا في الغالب ببلاد
أوروبا وأما في بلاد الهند والصين ويابونيا فلا يمنع الحر من تربية دود القز بل له فيها
منفعة فاذا احتاج الحال الى ترطيبه وتعديله فان ذلك يحصل برش المعامل بحسن
التدبير وأما زمن البرد والصقيع الذي يقع في اوروبا في فصول البرد ولو في الربيع
والخريف فلا يمكن مداواة نزول الصقيع على أوراق الشجر النضرة المتجددة فيكون
الصقيع فيهما من أسباب مرض الدود فليس له علاج أبدا

فمن هذا يفهم أن مصر صالحة جدا لتربية دود القز ولا يساويها في الصلاحية لذلك
غيرها من البلدان فبها يحصل الغنى والثروة زراعة وشغلا فان زراعة التوت متى نجحت
ونجحت التربية والاستحواذ على جودة الحرير ترتب على ذلك نتاج المصانع والمشغولات
الحريرية اذ ليس في اقليم مصر مانع يمنع من ذلك كله لاعتدال اقليمها ووجود الحرارة
الملائمة للتربية بها واستواء الحرارة في فصل الربيع الذي هو عبارة عن برمهات
وبرموده وبشنس فهذه الشهور الثلاثة تكفي لتربية دود القز فهي صالحة له من جهة
مزاج القطر وموافقة أيضا لدود القز من جهة أخرى وهي مواظبة أهلها على أشغال
الزراعة والفلاحة وعلى أشغال التربية والجني والحصد فان لين أعضاء الاولاد
والبنات يوافق شغل الحرير اذ شغل الحرير يحتاج الى شيئين وهما خفة الايدي والتعود
على الحر وابناء مصر متوفر فيهم ذلك كله بخلاف أوروبا فوجب أن تكون مصر
مثرية في المواد الحريرية الاولية غرسا وتربية وأن لا تجلب حريرها من الخارج
وأن تشتغل المشغولات الحريرية الدقيقة والغليظة بنفسها في مصانعها وأن تتخلص
من ربقة شراء الحرير من البلاد الاجنبية بالاثمان الغالية فانها الى الآن تصرف
الاموال الجسيمة على الاستحصال على الحرير فيجب عليها ان توسع دائرة محصولاتها
وتجارتها فاذا وصلت الى أقصى درجات جهدها في تربية دود القز اتسعت دائرتها
في غزله وفتله سريعا وفي صناعة نسج الحرير ومشغولاته فتأخذ من حرير بلادها
مقدار ما يكفي لحاجتها وما زاد على الحاجة من الخام والمشغول تنفذه الى البلاد
الاجنبية ليباع فيها بالملايين من الاموال وهذا خير من أن تبقى على حالتها الاصلية
فاقدة لهذه المزية مقتصرة على اشتراء الحرير المصنوع أو غيره من البلاد الاجنبية

فمن أمعن النظر وأنعم الفكر في تربية دود القز بالديار المصرية ظهر له بالحساب الصحيح
مقادير الارباح الجسيمة التي تكتسبها مصر من هذا الصنف فان صناعة الحرير لم تزل
الى الآن في ديار مصر قليلة لـ[illegible]

تقدم تقدما عظيما بحيث تعم سائر الجهات المصرية وعقد باطرافها وأكنافها لأن العمدة في مشغولات الحرير وأقمشته على صبغته ولونه ومياه النيل المبارك تساعد كل المساعدة على حسن الصبغة واللون مما به تتزين المشغولات الداخل فيها الحرير كالمناديل والمحارم والملابس فجميع مشغولات الحرير تبلغ الدرجة العالية في عدة من السنين بشرط أن يحصل التشويق من الحكومة المصرية للحرير كالتشويق الحاصل الآن لزراعة القطن حيث اتسعت دائرة مزارعه بعناية الحكومة كما هو ظاهر للعيان وغني عن الدليل والبرهان هذا ما أبداه موسيو فونس غوطيه المومى اليه في هذا الفصل بصريح قوله

ومن المعلوم ان ملحوظه في محله وانما فيما سلف كان قد شرع في تربية دود القز فكان المرحوم محمد علي وحصل من ذلك النفع الجلي ولازالت الى الان تربية دود القز في حيز الموجودات وانما هي مقصورة على بعض جهات في المديريات فاذا حصل التعميم كان بالنسبة لتقدم صنائع الوطن معدودا من النفع العميم وأما ما أشار اليه صاحب الملحوظات المذكورة من تحسين زراعة الارز فلا يجهل انسان أن زراعة الارز في الاقاليم البحرية ملتفت اليها كل الالتفات ولها خصائص ومزايا بمعافاة زراعها من كثير من العمليات وأنه قد تجدد في أكثر دوائرها للتنظيف والتبييض كثير من الوابورات وقد صح بالاجماع والاتفاق على أن أرز مصر أجود من غيره على الاطلاق فأرز عين البنت أجود من أرز أمريقه وأرز ايطاليا الخارج من أرض البنادقة وهذا الرأي لا ينافي ما قضى به قضاة المعرض الباريسي من الحكم بالاولوية والامتياز به لصنف أرز ايطاليا لان مطمح نظرهم فيه انما كان للون فانه أشد أنواع الارز بياضا فهو بهذا المعنى يعجب الناظر أكثر من أرز مصر

وأما أرز أرض مصر فهو وان كان دون ما ذكر في اللون الا أنه شتان ما بينهما في الطعم فلا يفوقه في طعمه صنف من أصناف أرز الدنيا لاسيما نموه بالنضج نموا وافرا فهو أخص أوصافه وأما ما أشار اليه المؤلف المذكور من غرس قصب السكر في مديرية المنية لصلاحيتها له فهذا أمر معتنى به من أيام المرحوم محمد علي كمال الاعتناء وأعظم من اعتنى بغرسه والاكثار منه واستخراج أنواع العسل والسكر مما يكفي القطر المصري هو المرحوم ابراهيم باشا فانه عم زراعته في شفالكه التي بغير الصعيد وبالصعيد بمديرية المنية وغيرها حتى نافست مصانع السكر به مصانع الافرنج وهو أول من جدد الوابورات لسق ذلك وصناعته وجلب القصب الجمايكي حتى انحطت بمصر أثمان السكر وقد كان الاوربانيون يتغالون في أثمانه كل المغالاة وتبعه في ذلك كثير

مطلب
مساعدة مياه النيل على حسن التلون بالصباغه

مطلب
تحسين زراعة الارز بالاقاليم المصرية

مطلب
غرس قصب السكر في مديرية المنية

من

من دوائر الذوات وأوسيات الاهالى حتى كاد لايخلو منه قسم من الاقسام المصرية لكثرة أرباحه ثم لما آلت الدوائر الابراهيمية أى أغلبها لنجله الخديو الاعظم اتسعت مصانعها وكثرت وابوراتها وعظم محصولها حتى كادت تجارة اوروبا فى السكر أن تكون كاسدة فى القطر المصرى خصوصا وسكر مصر لا يفوقه فى الجودة والحلاوة غيره واما ما أشار اليه من غرس شجر البن فى الصعيد وأنه يمكن أن يخصص لغرسه مقدار جسيم من الاراضى فالظاهر أن الحكومة لم تعتن بذلك لانه سبق تجربته وأنه لا يبلغ فى الجودة درجة البن اليمنى بل يكون دونه بكثير نهاية الحال أنه يصير كالبن الخارج من جزيرة فرانسا وغيرها المسمى بالبن الافرنجى وهو قليل الرواج بالديار المصرية وغيرها من البلاد حتى انه على كثرته فى بلاد السودان المصرية ورخص ثمنه لا يعتنى أحد بجلبه الى الديار المصرية لان شرب القهوة بديار مصر وغيرها بالبلاد الاسلامية انما هو من قبيل الكيف والتلذذ بالنكهة كشرب الدخان وقل من يستعمل القهوة ممزوجة باللبن وحده أو مع البيض للاكل بالخبز كما يستعمله أهل اوروبا بكثرة فيقنعون بأى بن كان على أن أكثر تجار مصر يتجرون فى البن اليمنى ولهم فيه عملاء وشركاء فهو من أهم التجارات اليمنية فالمقصود الاعظم الذى هو الربح حاصل بذلك فعلى فرض غرس شجرة البن بمصر وفلاحها تكون عديمة النكهة كالدخان البلدى بالنسبة للجبلى والصورى وكالتنباك البلدى بالنسبة للعجمى والحجازى وعلى كل حال فليست الحاجة ماسة لغرس شجر البن فى مصر بل ربما عد من الامور النافلة لان ما ينبغى تجديده هنا من المحسنات ان لم يكن عظيم الجودة اوتدعو اليه الحاجة فالتشبث به ليس تحته عظيم طائل

وأما ماذكره صاحب الملحوظات من تربية أغنام المارينوس فى الفيوم فرأيه فيه أدق من رأيه فى غرس شجرة القهوة فتربية المارينوس محض منفعة لامحض شهوة اذ القهوة محض كيف ولهذا أنكر على متعاطيها بعضهم وهو الخطيب غير القزوينى والشربينى ورد عليه بعضهم بقوله

قهوة البن حرمت * فاحتسوا قهوة الزبيب
ثم طيبوا وعربدوا * واصفعوا الى قفا الخطيب

(وقال آخر)

قهوة البن حرمت * فاشربوا قهوة العنب
ثم قوموا وعربدوا * واصفعوا من هو السبب

وقال بعضهم فى مدحها

قم واسقنى قهوة بنية فضحت * بنت الدنان وشنف لى الفناجينا
من كف ظبى رشيق القد ذى حور * نادنه عشاقه يا الف ناجينا

تدعو الى نحو مافيه البقاء ولو * دعت الى نحو مافيه الفنا جينا
لوأن ألف امرئ طافوا بساحتها * راموا النجاة وجدت الالف ناجينا

مطلب اقدمية اتخاذ الصوف للصناعة واقدمية الفلاحة وبيان من اخترعها من الامم

ثم ان اغنام المارينوس المقصودة بالتربية هى الاغنام الاندلسية ذوات الصوف الناعم والصوف من حيث هو فى جميع بلاد الدنيا قديم واحديث امر غوب حتى انه يعتبر من أول عمر الدنيا ومن تاريخ الخليقة كأنه يتخذ للصناعة والنسج فلاشك انه معلوم الصنعة فى الازمان الاولية فهو قرين الفلاحة التى هى معلومة قبل الطوفان ولم تعطلها حادثة الطوفان ولا أبطلتها فقد دلت التوراة على أن نوحا عليه السلام لما نجا من الطوفان بسفينته اشتغل بحراثة الارض وعلم أولاده الناجين معه ما كان يعرفه فى أصول الزراعة وقد ذكر قدماء المؤرخين أن العراقيين والكنعانيين والمصريين اشتغلوا بالفلاحة من الازمان القديمة والاعصر الخالية حتى ان المصريين كانوا يعتقدون أن أول مخترع للزراعة أسلافهم وزعم أهل الصين ان لهم الاسبقية فى ذلك قبل غيرهم وأن أول رؤساء ملتهم هو الذى اخترع علم الفلاحة والمحقق بالاخذ من التواريخ الصحيحة الجامعة بين الاقوال المختلفة ان قدماء الامم لاضطرارهم الى القوت والمؤنة كل منهم اخترع علم الفلاحة وبرع فيه ومن أقاليمهم التى لها الاسبقية فى مزية الاختراع انتقلت الزراعة الى غيرهم بالتدريج وان جميع الامم أجمعوا على ان الزراعة أمر مهم وأدركوا انه علم نفيس ولا يقتدر على ابتداعه من حيث كونه علما الا أرباب العقول الذكية فنسبوا اختراع علم الفلاحة لاكابر عقلائهم وفى كتب اليونان ما يفيد أنهم تعلموا الزراعة من مصر وقال الرومانيون ان هذا العلم وصل الى بلادهم يعنى الى ايطاليا من اليونان ومن مصر نعم من المحقق أن أهل الصين يعتنون بزراعة الارض ويجتهدون فى تكميل علم الفلاحة ومما يدل على ذلك ان لهم عيدا مشهورا فى كل سنة بمدينة تونكين وهو يوم مشهود يحضر محفله ملك الصين بموكب عظيم مع أعيان دولته فيأخذ الملك المحراث ويحرث قطعة من الارض بنفسه وينتهى هذا الموسم بوليمة عظيمة على طرف الملك وهذا اليوم معدود عند أهل الصين من أيام المواسم والافراح الاهلية وفى محفل هذا اليوم لا يدور على ألسنة الجم الغفير والجموع المتكاثرة من المحادثة والمذاكرة غير المسامرات المتعلقة بخصوص الزراعة وانها أتم النعم وزينة الامم وجميع أهل الزراعة من مبادى أمرهم يعتنون بتربية المواشى لاسيما الغنم وبطرائق تحسين حالها ونتاجها فكانت الغنم فى الازمان السالفة أصل ثروة سكان المعمورة حتى ان الرومانيين كانوا يعدونها فرعا من الفلاحة لكونها ألزم الاشياء لطريق التعيش وكانوا يتخذون المعاملة من جلود الغنم يطبعونها بطابع السكة وقد

مطلب تشريف ملك الصين للزراعة بحرثه بنفسه قدرا من الارض فى يوم مشهود

مطلب الاعتناء بتربية المواشى لاسيما تربية الغنم

مكثت

مكثت الغنم البيض مدة نحو ستمائة سنة فى بلاد الرومانيين يحسنون تربيتها وتنميتها ولا يهملون فيها حتى انهم رتبوا مأمورين للتفتيش عليها فكانوا لا يعدونها للذبح بل أصوافها البيضاء معدة للصناعة ومن أهمل فى تربية الماشية على العموم وتنمية الغنم على الخصوص عاقبوه بدفع المغارم الجسيمة ومن أحسن تربية ذلك وتنميته كافأوه بالجوائز السنية وشوقوه بالتحف البهية والانعامات لاسيما من جلب من الخارج من ذوات الاصواف الجيدة الى موطنه حيوانات للتوليد وكان الرومانيون ينسجون من هذه الاصواف جميع الملابس المختلفة والامتعة المتنوعة كالجارى الآن عند المتأخرين من الامم فكانوا يبحثون مع غاية الاعتناء عن الاصواف النفيسة الجامعة بين الطول والنعومة واللين كالصوف الانجورى وكصوف نابلى وأثينا وملطيه وسيواس وكلها أصواف ممدوحة ولم يكن فى ذلك الوقت يتخذ من الاصواف اليونانية فى التجارة الا أصواف خشنة لا تصلح للمصانع الا بالتنظيف ماعدا أصواف أثينا فان أصواف أغنامها تناهى أصواف أغنام اسبانيا المسماة بالمارينوس مع النعومة التى تجددت فى الازمان الاخيرة فهذه الاغنام الاندلسية انتقلت فيما بعد الى بلاد الانكليز والفلمنك فأتقنت هذه الدول تربية هذا الصنف وزادت كمية محصوله بتربيته حتى ان ولاية اسبانيا كانت فى ابتداء أمرها يحصل فى خزينة مملكتها من مغنم الاصواف الجيدة ما ينيف عن ثلاثين مليونا من الريالات ثم ان ملك الانكليز المسمى ادوارد الرابع جلب من بلاد اسبانيا باذن ملكها ثلاثة آلاف رأس من الغنم البيضاء الى مملكة الانكليز فمن هذا الوقت انفتح منبع جديد للثروة والغنى والسعادة المالية لخزينة المملكة والتجارات الملية

وفى القرن السابق الهجرى ورد من بلاد الهند الشرقى الى بلاد الفلمنك صنف من الغنم من ذكور واناث عالى القامة مستطيل البدن غزير الصوف فاجتهد أهل الفلمنك بتربيته وتعويده على مزاج اقليمهم فنجح فيها أكمل النجاح حتى آن أناثى هذه الاغنام كانت تلد فى السنة الواحدة أربع أغنام وصوف الرأس الواحد يزن من عشرة أرطال الى ستة عشر رطلا فمثل هذه الاغنام تنجح ولو فى البلاد الباردة مثل مملكة أسوج فانها اعتنت بتربية أغنام المارينوس وأمثالها وغلبت على الموانع القطرية كبرودة الاقليم بحيث ان هذه المملكة كانت تجلب قبل ذلك اصوافها من اسبانيا والفلمنك والآن استغنت عن ذلك فما ظنك بالخديوية الجليلة المصرية التى أقاليمها معتدلة ملائمة لتربية الاغنام فى الفيوم وغير الفيوم فان النجاح فيها محقق لا محالة فمن جد وجد فان مملكة فرانسا كان أهاليها فى الازمان القريبة يشترون غزل الاصواف بالاموال الجسيمة جدا

مطلب
الاعتناء بتربية الغنم البيض عند الرومانيين والنهى عن ذبحها

مطلب
جلب ادوارد ملك الانكليز من اسبانيا مقدارا جسيما من الغنم البيض الى مملكته للتنمية

مطلب
ورود نوع مخصوص من غنم الهند الى بلاد الانكليز لتحسين الصناعة بأصوافها وما نتج عن ذلك من البراعة

مطلب
شراء مملكة فرانسا فى الازمان السابقة الاصواف المغزولة بأثمان غالية قبل تجديد دواليب الحلج والغزل

تدعو الى نحو ما فيه البقاء ولو * دعت الى نحو ما فيه الفنا جينا
لوأن ألف امرئ طافوا بساحتها * راموا النجاة وجدت الالف ناجينا

مطلب اقدمية اتخاذ الصوف للصناعة واقدمية الفلاحة وبيان من اخترعها من الامم

ثم ان اغنام المارينوس المقصودة بالتربية هى الاغنام الاندلسية ذوات الصوف الناعم والصوف من حيث هو فى جميع بلاد الدنيا قديما وحديثا مرغوب حتى انه يعتبر من أول عمر الدنيا ومن تاريخ الخليقة كأنه يتخذ للصناعة والنسج فلاشك انه معلوم الصنعة فى الازمان الاولية فهو قرين الفلاحة التى هى معلومة قبل الطوفان ولم تعطلها حادثة الطوفان ولا أبطلتها فقد دلت التوراة على أن نوحا عليه السلام لما نجا من الطوفان بسفينته اشتغل بحراثة الارض وعلم أولاده الناجين معه ما كان يعرفه فى أصول الزراعة وقد ذكر قدماء المؤرخين أن العراقيين والكنعانيين والمصريين اشتغلوا بالفلاحة من الازمان القديمة والاعصر الخالية حتى ان المصريين كانوا يعتقدون أن أول مخترع للزراعة أسلافهم وزعم أهل الصين ان لهم الاسبقية فى ذلك قبل غيرهم وأن أول رؤساء ملتهم هو الذى اخترع علم الفلاحة والمحقق بالاخذ من التواريخ الصحيحة الجامعة بين الاقوال المختلفة ان قدماء الامم لاضطرارهم الى القوت والمؤنة كل منهم اخترع علم الفلاحة وبرع فيه ومن أقاليمهم التى لها الاسبقية فى مزية الاختراع انتقلت الزراعة الى غيرهم بالتدريج وان جميع الامم أجمعوا على ان الزراعة أمرمهم وأدركوا انه علم نفيس ولا يقتدر على ابتداعه من حيث كونه علما الأرباب العقول الذكية فنسبوا اختراع علم الفلاحة لاكابر عقلائهم وفى كتب اليونان ما يفيد أنهم تعلموا الزراعة من مصر وقال الرومانيون ان هذا العلم وصل الى بلادهم يعنى الى ايطاليا من اليونان ومن مصر نعم من المحقق أن أهل الصين يعتنون بزراعة الارض ويجتهدون فى تكميل علم الفلاحة ومما يدل على ذلك ان لهم عيدا مشهورا فى كل سنة بمدينة تونكين وهو يوم مشهود يحضر محفله ملك الصين بموكب عظيم مع أعيان دولته فيأخذ الملك المحراث ويحرث قطعة من الارض بنفسه وينتهى هذا الموسم بوليمة عظيمة على طرف الملك وهذا اليوم معدود عند أهل الصين من أيام المواسم والافراح الاهلية وفى محفل هذا اليوم لايدور على ألسنة الجم الغفير والجموع المتكاثرة من المحادثة والمذاكرة غير المسامرات المتعلقة بخصوص الزراعة وانها أم النعم وزينة الامم وجميع أهل الزراعة من مبادى أمرهم يعتنون بتربية المواشى لاسيما الغنم وبطرائق تحسين حالها ونتاجها فكانت الغنم فى الازمان السالفة أصل ثروة سكان المعمورة حتى ان الرومانيين كانوا يعدونها فرعا من الفلاحة لكونها ألزم الاشياء لطريق التعيش وكانوا يتخذون المعاملة من جلود الغنم يطبعونها بطابع السكة وقد

مطلب تشريف ملك الصين للزراعة بحرثه بنفسه قدرا من الارض فى يوم مشهود

مطلب الاعتناء بتربية المواشى لاسيما تربية الغنم

مكثت

مكثت الغنم البيض مدة نحو سبعمائة سنة فى بلاد الرومانيين يحسنون تربيتها وتنميتها ولا يهملون فيها حتى انهم رتبوا مأمورين للتفتيش عليها فكانوا لا يعدونها للذبح بل أصوافها البيضاء معدة للصناعة ومن أهمل فى تربية الماشية على العموم وتنمية الغنم على الخصوص عاقبوه بدفع المغارم الجسيمة ومن أحسن تربية ذلك وتنميته كافأوه بالجوائز السنية وشوقوه بالتحف البهية والانعامات لاسيما من جلب من الخارج من ذوات الاصواف الجيدة الى موطنه حيوانات للتوليد وكان الرومانيون ينسجون من هذه الاصواف جميع الملابس المختلفة والامتعة المتنوعة كالجارى الآن عند المتأخرين من الامم فكانوا يبحثون مع غاية الاعتناء عن الاصواف النفيسة الجامعة بين الطول والنعومة واللين كالصوف الانجورى وكصوف نابلى وأثينا وملطيه وسيواس وكلها أصواف ممدوحة ولم يكن فى ذلك الوقت يتخذ من الاصواف اليونانية فى التجارة الا أصواف خشنة لا تصلح للمصانع الا بالتنظيف ماعدا أصواف أثينا فان أصواف أغنامها تناهى أصواف أغنام اسبانيا المسماة بالمارينوس مع النعومة التى تجددت فى الازمان الاخيرة فهذه الاغنام الاندلسية انتقلت فيما بعد الى بلاد الانكليز والفلمنك فأتقنت هذه الدول تربية هذا الصنف وزادت كمية محصوله بتربيته حتى ان ولاية اسبانيا كانت فى ابتداء أمرها يتحصل فى خزينة مملكتها من مغنم الاصواف الجيدة ماينيف عن ثلاثين مليونا من الريالات ثم ان ملك الانكليز المسمى ادوارد الرابع جلب من بلاد اسبانيا باذن ملكها ثلاثة آلاف رأس من الغنم البيضاء الى مملكة الانكليز فمن هذا الوقت انفتح منبع جديد للثروة والغنى والسعادة المالية لخزينة المملكة والتجارات الملية

> مطلب الاعتناء بتربية الغنم البيض عند الرومانيين والنهى عن ذبحها

> مطلب جلب ادوارد ملك الانكليز من اسبانيا مقدارا جسيما من الغنم البيض الى مملكته للتنمية

وفى القرن السابق الهجرى ورد من بلاد الهند الشرقى الى بلاد الفلمنك صنف من الغنم من ذكور واناث عالى القامة مستطيل البدن غزير الصوف فاجتهد أهل الفلمنك بتربيته وتعويده على مزاج اقليمهم فنجح فيها كل النجاح حتى آن أناثى هذه الاغنام كانت تلد فى السنة الواحدة أربع أغنام وصوف الرأس الواحد يزن من عشرة أرطال الى ستة عشر رطلا فمثل هذه الاغنام تنجح ولو فى البلاد الباردة مثل مملكة أسوج فانها اعتنت بتربية أغنام المارينوس وأمثالها وغلبت على الموانع القطرية كبرودة الاقليم بحيث ان هذه المملكة كانت تجلب قبل ذلك اصوافها من اسبانيا والفلمنك والآن استغنت عن ذلك فما ظنك بالخديوية الجليلة المصرية التى أقاليمها معتدلة ملائمة لتربية الاغنام فى الفيوم وغير الفيوم فان النجاح فيها محقق لا محالة فمن جد وجد فان مملكة فرانسا كان أهاليها فى الازمان القريبة يشترون غزل الاصواف بالاموال الجسيمة جدا

> مطلب وورود نوع مخصوص من غنم الهند الى بلاد الانكليز لتحسين الصناعة بأصوافها وما نتج عن ذلك من البراعة

> مطلب شراء مملكة فرانسا فى الازمان السابقة الاصواف المغزولة بأثمان غالية قبل تجديد دواليب الحلج والغزل

فكأنهم كانوا يدفعون للبلاد الاجنبية فى الثمن هذه المبالغ الثقيلة كالجزية والخراج فلما تقدمت حركة الصناعة من منذ نحو السبعين سنة استشعرت بما يلحقها من العار فى ذلك لاسيما وأنها بهذه الحالة لا تستطيع مصانعها أن تساوى مصانع غيرها من الانكليز والفلمنك ونحوهم فتعلقت آمالها أن تجتهد فى تقديم صناعتها التفوق على غيرها فانتهى الامر بنجاحها فى تجهيز الاصواف حيث شرعت ان تدخل فى بلادها الدواليب والآلات اللازمة لحلج الصوف وغزله فتشوقت من يستجلب من الاهالى هذه الدواليب لتنظيف الصوف وغزله فكثر فى فرانسا أرباب الصناعات والبراعات ممن يحسن عمل هذه الدواليب

فبهذه الوسيلة تقدمت الصنائع الآلية فى بلادهم وكثرت المكافآت من جمعية التشويقات الاهلية حيث ان هذه الجمعية الاهلية خصصت ثلاثة آلاف فرنك لكل من يخترع دولابا لغزل الصوف فاخترع بعضهم دولابا لذلك وأخذ المكافأة وكثر الاختراع للدواليب التنظيفية بهذا التشويق فوجود اغنام المارينوس وحدها فى البلاد لا يكفى ولا يتم الانتفاع بأصوافها الا بالدواليب المذكورة فان صوف المارينوس كان موجودا فى فرانسا من عدة أجيال وكان يساوى فى النعومة والجودة مارينوس اسبانيا ولم يتم الانتفاع به الا باختراع الدواليب

ومن المجرب عند الفرنساوية ان غنم المارينوس كلما طالت مدتها فى البلاد وتربت أغنامها وتطبعت بالتوليد لا يزال يأخذ صوفها فى النعومة وينجح النجاح التام فى مصانع الجوخ العال والمدار على حسن تعهده بالتنظيف والتصفية فان ذلك يزيد فى قيمته ولم يكن بفرانسا من حيضان تنظيف الصوف الاحوض واحد فالآن كثرت حيضان التنظيف حول باريس فلعل يوما من الايام تدرك الديار المصرية مناها فى اغتنام فرصة الاقتناء والاعتناء بتحصيل مزايا هذه الاغنام ثم ان مزية أصواف هذه الاغنام المارينوسية ليست منحصرة فى النعومة والامتداد بل من جملة جودتها طول قرون أصوافها فكلما طالت كثرت فيها الرغبات وكان الناس يعتقدون ان الاغنام تتناقص جودة أصوافها للجز كل سنة وان كل جزة من سنة سابقة أجود من اللاحقة وان الاصواف اذا بقيت على الضأن عدة سنوات لا ينمو صوفها نماء يكون كفؤا لجزها عدة مرات فجرب ذلك بالامتحان عدة من أعضاء الجمعية الزراعية الفرنساوية بأن أبقوا قطيعا من الغنم ثلاث سنوات بدون جز لتظهر النتيجة فلم يجدوا تناقصا فى الكم والكيف بل رأوا ان أصوافها قد اكتسبت طولا متساويا ودقة متساوية ووجدوها ناعمة الملمس كما لو كانوا جزوها على مرار عديدة وظهر من هذه التجربة تجديد فروع

مطلب
ابقاء الصوف بلا جز عدة سنوات وان التجربة افادت حسنة بعدم جزه كل سنة

للصناعة

للصناعة وهو تطويل الصوف بعدم جزه وتفويت أوانه مدة ليدخل فى مصانع أخرى تحتاج اليه ومن هذا اخترعوا صنفا من الجوخ الشهير المسمى بالكزمير فأكثروا من اصطناعه وتحسينه وقدموه فى أحد المعارض العمومية بفرانسا فاستحسن الجميع جودة صناعته لعلو مرتبته وحسن أصوافه بحيث صار يضاهى بالكلية مشغولات الكزمير الانكليزية

مطلب الجوخ الفرنساوى المسمى بالكزمير

وقد تبين أيضا بالملاحظة ان الغنم التى لم تجز مدة طويلة وتبقى هذه المدة بقصد طول أصوافها لا يؤثر فيها تأثيرا ظاهرا ثقل الصوف على أبدانها وهذا بخلاف ما تعتقده العامة وقد أطلنا الكلام فى الاصواف وحسبك فيها الآية الشريفة وهى قوله تعالى والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين ومن المعلوم ان البيوت التى يسكن الانسان فيها على قسمين أحدهما البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التى بها يمكن تسقيف البيوت واليها الاشارة بقوله والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وهو ما يسكن اليه الانسان أو يسكن فيه وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقله بل الانسان ينتقل اليه والقسم الثانى القباب والخيام والفساطيط واليها الاشارة بقوله وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم وهذا القسم من البيوت يمكن نقله وتحويله والمراد بها الانطاع يعنى البسط المتخذة من الجلد وما يعم البيوت منه مما تستعمله العرب وغيرهم من أهل البوادى والمعنى يخف عليكم حملها فى أسفاركم وفى اقامتكم أى لا يثقل عليكم فى الحالين وقوله تعالى ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها قال المفسرون الاصواف للضأن والاوبار للابل والاشعار للمعز وقوله تعالى أثاثا الاثاث أنواع متاع البيت من الفرش والاكسية وقديم الثياب والكسوة وقوله تعالى ومتاعا الى حين أى ما تتمتعون به الى يوم القيامة واستقرب بعض المفسرين أن المراد بالاثاث ما يكتسى به المرء ويستعمله فى الغطاء والوطاء وبالمتاع ما يفرش فى المنازل ويزين به فقد ذكر الله تعالى الاصواف وما بعدها فى معرض النعم العظيمة التى يجب شكرها فيجب الاعتناء بتكثيرها على اختلافها فى جميع أطراف وأكناف الممالك المصرية بعناية الحكومة الخديوية وهمم عمد أهل الاراضى الزراعية لتعميم المنافع الاهلية فان مصر المتشبثة الآن بأن يكون لها فى الصنائع والفنون قدم رسوخ لا ينبغى ان تيأس من تجديد مصانع الجوخ فكم من أشياء لا يخطر انشاؤها بالبال ويظن أن تحصيلها من قبيل المحال وعند اقتضاء الاوقات وتعلق الآمال يتم الحصول عليها بأسهل طريق وأتم منوال

مطلب
ورود قوافل افريقية الى مصر للتجارة

وأما تنبيه صاحب الملحوظات على وفود قوافل داخل افريقية الى الديار المصريه واستعاضتها بضائعها بمشغولات مصر وأوربا وخلاصة صنائعها فهو فى محله وقد جرى مفعول هذه الملحوظة على أصول مصونة محفوظة فتجار دارفور وبرنو ونحوهما تحضر فى ميعادها وتأتى بسائر بضائعها على حسب معتادها ومن جهة سنار والبحر الابيض تحضر التجار بسن الفيل والصموغ وريش النعام وغيرها وانما اهل أقاليم تنبكتو وهى بلاد التكرور لايحضرون الالقضاء الحج وكذلك الفلاتة السودانية يمرون بمصر لسفر الحجاز وماذاك الالبعد المسافة لالقلة أمن الطريق أو وجود مخافة فالتجارات فى داخل افريقية الحقيقيه تتيسر بعد تخطيط المسالك الطرقيه وهى لاتتيسر الا بحركة عجيبة من الحكومة المصريه واستكشافات جليلة عصريه وانتجاعات من قبائل اسلامية متمدنه وتوقيفات لاهالى تلك البلاد على وسائل التمدن المستحسنه وان شئت فقل ان حسن تمامها انما يكون بنوع من الفتوحات والتشبث بعمارتها وادخال مايلزم لها من الاصلاحات حتى يصير جنوب افريقية كالاقاليم الجنوبيه بقسم امريقه فان كان من السابق فى علم الله تعالى أن يكون لمصر فيه قوة التجيز (فما ذلك على الله بعزيز)

فكم من صغير أسعفته عناية * من الله فاحتاجت اليه الاكابر
وكم خامل جاءت اليه اشارة * من الله فانحازت اليه الاشائر

فمن هذا نجد أن ملحوظات الفصل الثانى التى سبقت اليها الاشاره قد اجريت بتداول الايام (وما الدهر الا تارة بعد تاره)

فكلما خطر بالبال أمر خطير من الاعمال الصالحة يحتاج الى حسن التدبير كان الوطن معانا عليه من المولى القدير فالمقاصد الخيريه ميسرة الوسائل قريبة المشارع عذبة المناهل وحق على الامير الطالب للمعالى أن يتغالى فى المطلوب ويتعالى فى مدارج العلا بأجل اسلوب ويبرز فى مظهر البلاغة نظام بيت ملكه المشيد حتى يظهر فى نظم سلوك الملوك بيت القصيد ومن أحسن من ولاة الامور سلوك أقوم سنن تأييد بحسن نيته فى ميدان الانتصار على مشروعه الحسن ان ينصركم الله فلا غالب لكم

ملك الملوك اذا وهب * لاتسألن عن السبب
الله يعطى من يشا * فقف على حد الادب

مطلب
تمثل المال والعقل والسعد للاسكندر

يحكى ان اسكندر الاكبر تشكلت له ثلاث معان فى جلباب الجمال وثياب المهابة والاجلال فأول شكل دخل عليه فى حلل الحسن والبها والشمائل التى يزهو بها

فأخذ بقلبه ولبه فأحله منه بقربه ثم سأله من أنت فقال أنا المال فقال الاسكندر لولا انك ميال ثم دخل عليه الشكل الثانى يرفل فى حلل الوقار والمعانى فأدناه منه ثم سأله من أنت فقال أنا العقل فقال لولا انك فى بعض الاحوال عقال ثم دخل عليه الشكل الثالث تزفه الغانيات بالمثالث وقد أشرقت بجماله وجوه المطالب وانجلت باقباله ظلم الغياهب فقام له على قدميه وقبل ما بين عينيه ثم قال من الزائر أيها البهى الزاهر فقال أنا السعد فقال أشهد أنك عناية الحق وميزان اختبار الخلق فالويل لمن جهل حقوق اقبالك عليه ويا سعادة من وفى حق الخلافة اذا سلمت اليه ثم عاهده على أن يكون من أعوانه وعلى وفق ما يقتضيه حكم ميزانه والحمد لله الذى جعل نعمة مصر فى المزيد ليزداد الشكر والمحبة لوليها الذى أجريت النعمة على يديه اذ هو السبب الاصلى الحامل على ذلك والدال عليه والمائل بالطبع اليه وسيأتى الاشارة الى ما يجدد من المحاسن الحالية فى الفصل الرابع من هذا الباب

الفصل الرابع

(فى اسعاد الحاكم للبلاد والعباد)

ليس من ملوك مصر من تفتخر به الاهالى مثل افتخارهم بالخديو الاكرم حيث انه تأسس فى أيامه قواعد عدلية لا تحصى وما ثر منافعها جلية لا تستقصى ولو لم يكن له من الماثر الا كونه حمل الاهالى على أن يستنيبوا عنهم نوابا ذوى فكرة ألمعيه ليتذاكروا فى شأن مصالحهم المرعيه لكفاه ذلك شرفا ومجدا وعزا وسعدا حيث صار مستوليا على امة حرة الرأى باستشارتها فى حقائق التراتيب والتنظيمات التى يراد تجديدها لاجلهم كما ان له الفخار فى أنه لا يضيع حقوقهم حيث جعله الله أمينا عليها فبهذه الوسيلة القوية تمكن من اداء ما وجب عليه فى حق الرعايا مع كونه يتمدح بالحكم على رعايا أحرار يتمتعون بحقوقهم ويحظون بمزاياهم وبهذا أيضا يكون على يقين من التسلطن المعنوى على النفوس والارواح وان يدرك بمساعدتهم اياه فى اسعاد وطنهم تمام النجاح حيث القلوب جبلت على حب من أحسن اليها فقل أن تخلع الرعايا خلعة محبتها القلبيه ومودتها الاخلاصيه على حاكمها مجانا فالعاقل من لا يحب أو يبغض الا بسبب من الاسباب وقد تقدم غير مرة ان غنى مصر ورأس مالها الحقيقى انما هو متكون بالاصالة من زراعتها وبالتبعية من تجارتها فى محصولات الزراعة مع ما يتبع الزراعة من تنمية المواشى وتكثيرها لاسيما ما يعين على الحرث وتنمية النبات كالبقر الذى هو نخاصة مصر قديما وحديثا أنفع بهيمة الانعام

مطلب
تأسيس شورى النواب

مطلب تبصر وتصبر أهل مصر عند نفق المواشي بالوباء وذكر نادرة تناسب ذلك في التعزية بثور أبيض

وأجل غنيمة الانعام بدليل ان البلاد تذوق مرارة المضرة في السنة التي يذوق فيها هذا النوع كأس الحمام ولولا الهام أهلها التبصر والتصبر عند حلول مثل هذه المصيبة القطيعه لحزنوا جميعا في سنة نفق المواشي بالوباء ولا حزن أبي بكر بن قريعه حيث نفق له ثور أبيض وجلس على العزاء عليه تراقعا وتحامقا حتى ان أبا اسحق الصابئي كتب اليه يعزيه على هذا المفقود عن لسان ابن لعبة في أيام وزارته فقال التعزية على المفقود انما تكون بحسب محله من فاقده من غير أن تراعى قيمته ولا قدره ولا ذاته ولا عينه اذا كان الغرض منها تبريد الغله واخماد اللوعه وتسكين الزفره وتنفيس الكربه فرب ولد عاق وأخ ذي شقاق وذي رحم أصبح لها قاطعا وقريب قوم قلدهم عارا وناط بهم شنارا فلا لوم في ترك التعزية عنه وأحرى بها أن تكون تهنئة بالراحة منه ورب مال صامت غير ناطق قد كان به مستظهرا وله مستثمرا فالفجيعة به اذا فقد موضوعة موضعها والتعزية عنه واقعة منه موقعها وبلغني ان القاضي أصيب بثور كان له فجلس للعزاء عنه شاكيا واجهش عليه باكيا وللندم مواليا وحكيت عنه حكايات في التأبين له واقامة الندبة عليه وتعديد ما كان فيه من فضائل البقر التي تفرقت في غيره واجتمعت فيه وحده فصار كما قال أبو نواس في مثله من الناس

وليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

لانه يكرب الارض معموره ويثيرها مزروعه ويدور في الدوالنب ساقيا وفي الارحاء طاحنا ويحمل الغلات مستقلا والاثقال مستخفا فلا يؤده عظيم ولا يعجزه جسيم ولا يجري في الحائط مع شقيقه ولا في الطريق مع رفيقه الا كان جلدا لا يسبق ومبرزا لا يلحق وفائتا لا ينال شأوه وغايته ولا يبلغ مداه ونهايته ويشهد الله ان ما ساءه ساءني وما آلمه آلمني ولم يجز عندي في حق الموده استصغار خطب جل عنده فارمضه وأرقه وامرضه وأقلقه فكتب هذه الرقعة فاصابها من ألحق في مصابه هذا بقدر ما أظهر من اكثاره اياه وأبان من اعظامه له وأسأل الله تعالى ان يخصه من المعوضة بأفضل ما خص به البشر عن البقر وان يفرد هذه البهيمة العجماء بأثرة من الثواب تضيفها الى المكلفين من الالباب فانها وان لم تكن منهم فقد استحقت ان لا تفرد عنهم بأن مس القاضي سببها وصار اليه منتسبها حتى اذا أنجز الله ما وعد به من تمحيص سيأتهم وتضعيف حسناتهم والافضاء بهم الى الجنة التي رضيها لهم دارا وجعلها لجماعتهم قرارا واورد القاضي أيده الله تعالى موارد أهل النعيم مع أهل الصراط المستقيم جاء وثوره هذا مجنوب معه مسموح له به وكان الجنة لا يدخلها الخبث

ولا يكون

ولا يكون من أهلها الحدث ولكنه عرق يجرى من اعراضهم كذلك يجعل الله ثور
القاضى مركبا من العنبر الشحرى وماء الورد الجورى فيكون له نورا وجونة عطر له
طورا وليس ذلك بمستبعد ولا مستنكر ولا مستصعب ولا متعذر اذا كانت قدرة الله
بذلك محيطة ومواعيده لامثاله ضامنة بما أعده الله فى الجنة لعباده الصادقين وأوليائه
الصالحين من شهوات أنفسهم وملاذ أعينهم وليس ما منحه من غامر فضله وفائض
كرمه بمانع له من صالح مساعيه ومحمود شيمه وقبيح متعلق بمعرفة خبره أدام الله
عزه فيما ادّرعه من شعار الصبر واحتفظ به من ايثار الاجر ورفع اليه من السكون
لامر الله تعالى فى الذى طوّقه والشكر له فيما ازعجه واقلقه فليعرفنى القاضى من
ذلك ما أكون ضاربا معه بسهم المساعدة عليه وآخذا بقسط المشاركة فيه فأجاب
القاضى ابو بكر بقوله وصل توقيع سيدنا الوزير أطال الله بقاءه وادام تاييده
ونعماءه وأكمل رفعته وعلاه وحرس بهجته ومرقاه بالتعزية عن الثور الابيض
الذى كان للحرث مثيرا وللدواليب مديرا وبالسبق الى سائر المنافع شهيرا وعلى شدائد
الزمان مساعدا وظهيرا لعمرك لقد كان بعمله ناهضا ولحاقات البقر رافضا أنى لنا
بمثله وشرواه ولا شروى فانه من أعيان البقر وانفع أجناسه للبشر مضاف ذلك الى
أخلاق لولا خوفى من تجدد الحزن عليه وتهييج الجزع وانصرافه اليه لعددتها ليعلم
أدام الله عزه ان الحزين عليه غير ملوم وكيف يلام امرؤ فقد من ماله قطعة يجب
فى مثلها الزكاة ومن خدم معيشته بهيمة تعين على الصوم والصلاة وقد احتذيت
ما مثله الوزير من شمل الاحتساب والصبر على المصاب فانا لله وانا اليه راجعون قول
من علم انه أملك لنفسه وماله وأهله وانه لا يملك شيأ دونه اذ كان جل ثناؤه وتقدست
اسماؤه هو الملك الوهاب المرتجع ما ارتجع مما يعوّض عليه نفيس الثواب وقد
وجدت ايد الله الوزير للبقر خاصة فضيلة على سائر بهيمة الانعام تشهد بها العقول
والافهام ثم ذكر جملة من فضائله لا يحتاج اليها هنا انتهى وانما نقول انه لا يتوجه على
مثل هذا القاضى فى مصيبته ملامة لائم فكيف والسعد فى طالع البهائم ولهذا تقول
العامة ان الدنيا على قرن ثور وقال الشاعر

والدهر كالدولاب ليس * يدور الا بالبقر

وأما التعزية فلا بأس بها

فلعمرى يحق لو كتبوها * بسواد العيون فوق الجبهة

قال بعضهم ومن موجبات الثروة الهمة والصنعة فان الهمم الموجبة لها فى المملكة
يقال لها القوة المحصلة وهى مختلفة فى الممالك فبعض الممالك ما تكون ثروته أزيد من

مطلب
جواب التعزية

الاخرى وذلك بنسبة تزايد القوة المحصلة لها ونقصها والقوة المحصلة للثروة عبارة عن شيئين سعي الانسان وموضوعه الارض فاذا نظر فى الهيئة الاجتماعية وجدان الارض فى جميع الازمان على طبيعتها وانما اختلفت باختلاف الاطوار الحاصلة كاختراع السفن البخارية والطرق الحديدية واستعمال السلوك البرقية المسماة بالتلغراف فى المخابرات مما يخترعه الانسان بواسطة توسيع دائرة العلوم والفنون فيجعل الانسان ما لا يمكن تحويله بطبيعته فى طرز آخر وبالتأمل فى أحوال الامم المختلفة والممالك الداخلة فى حوزة حكوماتها يعلم اختلاف الامزجة والطباع من وجهين

مطلب القوة المحصلة للغنى

الاول ان أهالى الممالك التى تحت المنطقة الحارة ليست مثل الممالك التى تحت المنطقة المتجمدة كالبلاد التى باطراف القطب فى اللوازم الضرورية فان أهل المنطقة القطبية المتجمدة تفتقر الى زيادة الملبس للتحفظ من تأثير البرد بخلاف أهل المنطقة الحارة فهى بعكسها مفتقرة الى ما يقيها من تأثير الحرارة والرطوبة وبخلاف أهل المنطقتين المذكورتين أهالى المنطقة المعتدلة

الثانى ان طبيعة الاراضى والاقاليم ترشد الانسان الى وسائط متنوعة فى الصناعة ونماء النبات والحيوان انما يكون بالنسبة لاهوية المملكة الموجودة هى فيها وبعض الممالك مشهور بكثرة الطيور والمراعى النضرة والمعادن وبعضها ليس فيها شئ من أسباب الثروة الطبيعية بالكلية ومن الممالك ما تسهل المخابرات فيه بكثرة الانهار ومنها ما تشق فيه لعدم ذلك فالانسان لا يمكنه محوها وانما بالقوة الصناعية العلمية يمكنه تحويل الحال الى حالة أخرى وحصول هذه الحالة واختراعها وبلوغها درجة كاملة كالتلغراف مثلا انما يكون بصرف المساعى والهمم وكذا سائر الوسائل كالسفن البخارية والطرق الحديدية وسائر المخترعات النافعة فكلها من أعظم أركان القوة المحصلة وتزايدها موقوف على ترقى الفنون والصنائع وبعظم هذه القوة يرتقى بعض الامم الى درجة الثروة وبضعفها تتراجع الاخرى فعمار المملكة موقوف على وصولها الى الدرجة الكمالية وذلك موقوف على اتساع الدائرة الصناعية وهو موقوف على تتميم الصناعات الموروثة سلفا عن خلف ونقل ما اخترع منها فى الممالك الى البلاد التى ليست فيها هذه الاختراعات موقوف على صرف الهمة اليها والسعى فالمدار فى استكمال أسباب الثروة على السعى

مطلب ان صرف الهمة الى الصنائع فى بلدة من البلاد يقطع عرق الفتن والشرور فيها

وحيث كانت التجارة من منابع الثروة العظيمة فلا شك ان صاحب الاشتغال بها الباذل همته وسعيه فيها اذ ذهنه مصروف اليها بالكلية ففكره عادة ملهى عن الافكار الباطلة التى يتسبب عنها هدم بنيان الامة بالفتن والشرور ومتى كانت التجارة متسعة فى مملكة

تنصرف الهمم الى التشبث بالارباح الحقيقية وتشتد الرغبات فى الاسباب والمسببات المكونة لاتساع رؤس الاموال وفى تمكين القوة الصناعية بالقوى العلمية من كل مايسهل طرق المكاسب ويحولها الى درجات كمالية مما يهتم به الآن بالنظر لتقديم المنافع العمومية أصالة وللمنافع السياسية تبعا

وقد اختلفت هذه الازمان الحديثة عما كان يجرى فى الازمان القديمة من صرف المساعى والهمم فى تسهيل وسائل الدولة بالاصالة مما يكون للمنافع الرعية حاصلا غير مقصود فقد دلت التواريخ على أن المخترعات الجديدة فى الدول المتأخرة لم تخل عن مقابل لها من بعض الوجوه فى الدول القديمة كالطرق الحديدية والتلغراف ونحوها فكان البريد وحمام الرسائل قائما مقامها فى مصالح الدولة وكذلك هجن الثلج والمراكب المسفرة بالثلج فى البحر لشرابخانة السلطنة المصرية وكذلك المناور لاستطلاع اخبار العدو والاحتراس منه والمحرقات للزروع والمراعى لقطع رجاء العدو والمريد الاغارة على بلاد السلطنة فجميع هذه انما كانت منافع سلطانية كما سيعلم

مطلب
ان الاختراعات الجديدة كان لها نظائر فى الازمان القديمة تقوم مقامها من بعض الوجوه

فقد كان البريد فى عهد الاكاسرة والقياصرة موجودا وانما أحواله مجهولة وأول من وضع البريد فى الاسلام معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما حين استقرت له الخلافة ومات أمير المؤمنين على كرم الله وجهه وسلم اليه ابنه الحسن وخلا من المنازع فوضع البريد ليسرع اليه أخبار بلاده من جميع أطرافها فأمر باحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم وعرفهم مايريد فوضعوا له البرد واتخذلها بغالا بأكف كان عليها سفر البريد ثم اتسع الامر فى زمن عبد الملك بن مروان حين خلا وجهه من الخارجين عليه كعمر بن سعيد الاشدق وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير والمختار بن أبى عبيد واستعمل البريد الوليد بن عبد الملك بعد أبيه فكان يحمل عليه الفسفيسا وهى الفصوص المذهبة من القسطنطينية الى دمشق حتى صفح بها حيطان المسجد الجامع وبمكة والمدينة والقدس الشريف ثم لم يزل البريد قائما والعمل عليه دائما حتى آن لبناء الدولة المروانية أن ينتقض ولحبلها أن ينتكث فانقطع مابين خراسان والعراق لانصراف الوجوه الى الدعوة القائمة للدولة العباسية ودام الامر على هذا حتى انقرضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وملك السفاح ثم المنصور ثم المهدى والبريد لايشد له سرج ولا يلجم له دابة ثم ان المهدى أغزى ابنه هرون الرشيد بلاد الروم وأحب أن لايزال على علم قريب من خبره فرتب مابينه وبين معسكر ابنه بردا كانت تأتيه بأخباره وتريه متجددات أيامه فلما قفل الرشيد قطع المهدى تلك البرد ودام الامر على هذا باقى مدته ومدة خلافة موسى الهادى بعده

مطلب
وجود البريد فى عهد الاكاسرة والقياصرة ومن بعدهم من ملوك الاسلام

فلما كانت خلافة هرون الرشيد ذكر يوما حسن صنيع أبيه فى البرد التى جعلها بينهما فقال له يحيى بن خالد لو أمر أمير المؤمنين باجراء البريد على ما كان عليه كان صلاحا للملكه فامر به فقرره يحيى بن خالد ورتبه على ما كان عليه أيام بنى أمية وجعل البغال فى المراكز وكان لا يجهز عليه الا الخليفة أو صاحب الخبر ثم استمر على هذا فى خلافة المأمون واتسع امر البريد فيها حتى رتب لصاحب البريد أربعة آلاف من الهجن مع مؤنتها وآلاتها ليستخبر بها عن أمور المملكة فكان يعلم أمور العالم فى يوم واحد

ولما دخل هذا الخليفة بلاد الروم نزل على نهر البردون وكان الزمان حارا فقعد على هذا النهر ودلى رجليه فيه وشرب من مائه فاستعذبه واستبرده واستطابه وقال لمن كان معه مستفهما ما أطيب ما يشرب عليه هذا الماء فقال كل برأيه فقال هو أطيب ما يشرب عليه هذا الماء رطب ازاد فقالوا له يعيش أمير المؤمنين حتى يأتى العراق ويأكل من رطبها الازادى فما استتموا كلامهم حتى أقبلت بغال البريد تحمل أشياء منها رطب ازاد فأتى للمأمون منها فأكل وشرب من ذلك الماء فاكثر فعجب الحاضرون لسعادته حيث لم يقم من مقامه حتى بلغ امنيته مع ما كان يظن من تعذرها فلم يقم المأمون حتى حم حمى حارة كانت فيها منيته

ولما جاءت دولة بنى بويه وعلوا على الخلافة وغلبوا عليها الخلفاء العباسيين قطعوا البريد ليخفوا على الخليفة ما يكون من أخبارهم وحركاتهم أحيان قصدهم بغداد وكان الخليفة يأخذهم على بغتة وجاءت الملوك السلاجقة على هذا وكان بين ملوك الاسلام اذ ذاك اختلاف ذات بينهم وتنازعهم فلم يكن بينهم الا الرسل على الخيل والابل كل أرض بحسبها فلما أتت الدولة الزنكية أقام السلطان نور الدين الشهيد للبرد النجابة وأعد لها النجب الجيدة ودام هذا فى جميع أزمان الدولة وفى أيام بنى أيوب رحمهم الله الى آخر أيامهم وسقوط أقدامهم وتبعها على ذلك أوائل الدولة التركية المصرية فبطل فى اثنائها البريد حتى صار الملك الى الظاهر بيبرس رحمه الله واجتمع له ملك مصر والشام وحلب الى نهر الفرات وأراد تجهيز دولة الى دمشق فعين لها نائبا ووزيرا وقاضيا وكاتبا للانشا وكان الصاحب شرف الدين محمد عبد الوهاب هو كاتب الانشاء فلما مثل بين يديه ليودعه اوصاه بوصايا كثيرة آكدها مواصلته بالاخبار لاسيما ما يتجدد من اخبار التتار والفرنج وقال له ان قدرت أن لا تبيتنى ليلة الا على خبر ولا تصبحنى الا على خبر فافعل فعرض له بما كان عليه البريد فى الزمان الاول وايام الخلفاء وحرضه عليه فحسن موقعه منه وامر به ورتب عليه جمال الدين عبد الله الدوادارى البريدى المعروف بابن السديد فكان جمال الدين فى ذلك الوقت جناح الاسلام الذى لا يقص وترتبت فى ايام

نظارته

مطلب ترتيب مراكز البريد من قلعة مصر الى ولاياتها

نظارته مراكز البريد فى الممالك الاسلامية ومنها فى محروسة مصر مركز قلعة الجبل الى نواحيها الخاصة بها وهى ثلاث جهات اولها الى جهة قوص ثم الى اسوان ثانيها من القلعة الى جهة الاسكندرية ثالثها الى جهة دمياط فالاولى من مركز القلعة الى الجيزه ثم منها الى زاوية حسين والى منية القائد ثم منها الى ونا ثم منها الى بيا ثم منها الى دهروط ثم منها الى اقلوصنا ثم منها الى منية ابن خصيب التى يقال ان الخصيب أيام ولايته عمرها الابنه وسماها باسمه ثم من منية ابن خصيب الى الاشمونين التى كانت احدى مدن الصعيد العظيمة وكان بها اذذاك مقر الولايه ثم منها الى ذروة الشريف نسبة الى الشريف حصن الدين بن ثعلب فانها كانت دار مقامه وبها دوره وقصوره وكان قد خرج وملك الصعيد وعجز عنه ملوك مصر وأمن ايام المعز ايبك ومن بعده فلم يظفر به ثم خدعه الظاهر بيبرس ومناه العوض بالاسكندرية فلما اناب اعلق به الظفر والنلب وجهز الى الاسكندرية ليتملكها فشنق على بابها ثم من ذروة الشريف الى منفلوط وهى اجل خالص السلطان ثم منها الى اسيوط ثم منها الى طما ثم منها الى المراغه ثم منها الى بلسبوره ثم منها الى جرجا ثم منها الى البلينة ثم منها الى هو ويليها الكوم الاحمر وهما من خالص السلطان وعندهما ينقطع الريف فى البر الغربى ويكون الرمل المتصل بدندره ويسمى خانق دندره ثم من هو المذكورة الى قوص ثم من قوص يركب البريد الهجن الى اسوان والى عيذاب ثم الى النوبة اوالى سواكن على ما يكون واما جهة اسكندرية فالمراكز من القلعة اليها فى طريقين فالوسطى تشق العامر الآهل وهى من مركز القلعة المحروسة الى قليوب ثم منها الى منوف ثم منها الى محلة المرحوم مدينة الغربية ثم منها الى النحريرية ثم منها الى الاسكندرية والطريق الاخرى وهى الآخذة من طريق البر وتسمى طريق الحاجر وهى من مركز القلعة الى الجيزة ثم منها الى جزيرة القط ثم منها الى وردان ثم منها الى الطرانة ثم منها الى زاوية مبارك ثم منها الى دمنهور مدينة اعمال البحيرة ثم منها الى لوقين ثم منها الى الاسكندرية

واما طريق دمياط فمن القلعة الى سرياقوس ثم منها الى بلبيس وهى آخر المراكز التى لخيل السلطان أى الخيل التى تشترى بمال السلطان ويقام لها السواس والعلوفات على طرف السلطان ثم مما يليها خيل البريد المقررة على عربان ذوى اقطاعات عليها خيول موظفة تحضر فى هلال كل شهر فى مراكز اصحاب النوبة بالخيل فاذا انسلخ الشهر جاء غيرهم ولهذا تسمى خيل الشهارة وعلى بريد الشهارة وال من قبل السلطان يستقبل فى رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه ويدوغها بالداغ السلطانى ثم من بلبيس الى

السعيديه وهى أول بريد الشهارة ثم منها الى أشموم الرمان ثم منها الى دمياط فهذه المراكز الخاصة بالديار المصرية وكان ثم مراكز آخذة من قلعة الجبل المحروسة الى الفرات تبتدئ من سرياقوس وتجتمع ببريد دمياط وتفترق من السعيدية السالفة الذكر وتتشعب فى البلاد الشامية الى جهات مختلفة

وأما حمام الرسائل فان منشأه من بلاد الموصل وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر وبالغوا حتى أفردوا لمراكزه دواوينا وجرائد بأنساب الحمام وأول من اعتنى به من الملوك ونقله من الموصل فهو الشهيد نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله سنة خمس وستين وخمسمائة حيث بنى الابراج على الطريق بين المسلمين والفرنج وجعل فيها من يحفظها وفوقهم الحمام الهوادى فاذا رأوا من العدو أحدا ارسلوا الطيور فأخذ الناس خبرهم وتجهزوا لهم فلم يبلغ العدو منهم الغرض وكان هذا من ألطف الفكر وأكثره نفعا وهذا معنى قول الحافظ عماد الدين بن كثير فى تاريخه اتخذ السلطان نور الدين الشهيد الحمام الهوادى فى سنة سبع وستين وخمسمائة وذلك لامتداد مملكته واتساعها فانها من حد النوبة الى همدان فلذلك اتخذ فى كل قلعة وحصن الحمام التى تحمل الرسائل الى الآفاق فى أسرع مدة وأيسر عدة انتهى وتسمى حمام الرسائل حمام البطاقة أيضا ولعل تربية حمام البطاقة فى بلاد الموصل التى بها جبل الجودى مستنبطة من بعث نوح الغراب ثم الحمامة لاستعلام خبر الطوفان فقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال استقرت السفينة على الجودى فبعث نوح الغراب ليأتيه بالخبر فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء نضب أى نشف

مطلب حمام الرسائل وان منشاه بالموصل ونقل نور الدين الشهيد له لترتيبه فى ممالكه

وقد كان بالديار المصرية تدريج الحمام بالوجه القبلى بالرسائل فكان متصلا من القاهرة الى قوص وأسوان وعيذاب ومن القاهرة الى اسكندرية ومن القاهرة الى دمياط ومن القاهرة الى السويس من طريق الحاج ومن القاهرة الى بلبيس متصلا بالشام وبالجملة فكانت مراكز الحمام فى سائر البلاد الاسلامية حتى قيل ان الحمام ملائكة الملوك

مطلب مراكز الحمام بالديار المصريه

وفى سنة احدى وسبعين وخمسمائة اعتنى الخليفة الناصر لدين الله بحمام البطاقة اعتناء زائدا حتى صار يكتب بأنساب الطير الحاضر انه من ولد الطير الفلانى وقيل انه بيع بألف دينار وقد جرت العادة فى مصر ان الحمامة لا تحمل البطاقة الا فى جناحها لامور منها حفظها من المطر ولقوة الجناح والواجب انه اذا بطقت الحمامة من مصر لا تطلق الا من أمكنة معلومة فاذا سرحت الى الاسكندرية فلا تسرح الا من منية

عقبة

عقبة بالجيزة والى الشرقية فمن مسجد التبن ظاهر القرافة والى دمياط والذى استقر عليه قواعد الملك ان طائر البطاقة لا يلهو عنه الملك ولا يغفل ولا يهمل لحظة واحدة فتفوته مهمات لا تستدرك امامن واصل واما من هارب واما من متجدد فى الثغور ولا يقلع البطاقة من الحمام الا السلطان بيده من غير واسطة أحد فان كان يأكل لا يمهل حتى يفرغ أو نائما لا يمهل حتى يستيقظ بل ينبه وينبغى ان يكتب البطاق البطاقة فى ورق الطير المعروف بذلك وتؤرخ بالساعة واليوم لا بالسنة ومما قيل فى حمامة البطاقة من الادب

مطلب ما قيل فى حمامة البطاقة من الادب نثرا ونظما

خضر تفوت الريح فى طيرانها * لا بعد بين غدوها ورواحها
تأتى بأخبار الغدو عشية * لكسير شهر تحت ريش جناحها
وكأنما الروح الامين بوحيه * نفث الهداية منه فى ارواحها

ومن انشاء القاضى الفاضل فى وصفها سرحت لا تزال أجنحتها تحمل من البطائق أجنحه وتجهز جيوش القاصد والاقلام أسلحه وتحمل من الاخبار ما تحمله الضمائر وتطوى الارض اذا نشرت الجناح للطائر وتزوى لها الارض حتى ترى ما سيبلغه ملك هذه الامه وتقرب منها السماء حتى ترى ما لا يبلغه وهم ولا همه وتكون مراكب الاغراض والاجنحة قلوعا ويركب البحر بحرا يصفق فيه هبوب الرياح موجا مرفوعا وتعلق الحاجات على اعجازها ولا تعوق الارادات عن انجازها وقد أشار ابن الوردى فى اشارة الحمامه الى ما يفيد مزية حمام الرسائل مستوفيا الكل خاصة فيه وعلامه حيث قال فبينما البازسكران بما بان له من البان واذا حمامه قد وقفت امامه وقالت كم تفتخر وأنت عظم نخر أنت من آلة اللعب والصيد وأنا من آلة الجد والكيد أنا مع الطوق والخضاب من حملة الكتاب ومع حذرى من شرك الشرك وخوفى من فخ الافك حملت الامانة التى أبت الجبال عن حملها وامتثلت مرسوم ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها فلما أوصلت الحقوق أمنت العقوق وقوبلت بالبشائر والخلوق ومما اعجب العالمين انى مخضوب البنان ولى يمين أقول للملك دع الاهتمام لا تلعب بى فأنا الحمام فمهما حدث على البعد من أخصامك أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك كتمت عن الناس سرى وأبهمت بين الغناء والنوح أمرى

رأوا خضابى وطوقى * فاستنكفوا من بكائى
ثم ادعوا ان زيى * مناسب للغناء
فقلت كفوا فعذرى * باد بغير خفاء

فالخضب من فيض دمعى * والطوق عقد ولائى

وقال بعضهم

فحبذا الطائر الميمون يطرقنا * فى الامر بالطائر الميمون تنبيها

فاقت على الهدهد المذكور اذ حملت * كتب الملوك وصانتها أعاديها

تأتى بكل كتاب نحو صاحبه * تصون نظرته صونا وتخفيها

فما تمكن غير الشمس تنظره * ولا تجوز أن تلقيه من فيها

منسوبة لرسالات الملوك فبالـ * ـمنسوب تسمو ويدعوها مسميها

اكرم بجيش سعيد سعادته * مما يشكك فيها ذاكرها كيها

حمامتا الغار يوم الغار تحرسه * فبالها وقفة عزت مساعيها

وقوفه عند ذاك الباب شرفه * وللسعادة أوقات تواتيها

ويوم فتح رسول الله مكة عنـ * ـد الدخول اليها من بواديها

صفت تظلل من شمس كتيبته الـ * ـخضراء مظهرة فيه تواليها

فعند ما حظيت بالقرب أمنها * فشرفت بعطايا جل مهديها

فما يحل لذى صيد تنا ولها * ولا ينال المنى بالنار مصليها

سمت بتلك المعالى غير ذى دنس * لا ترتضيه ولو جزت نواصيها

وانظر لها كيف تأتى للخلائق من * آل الرسول لحب كامل فيها

من المقام الى دار السلام ولم * يمض النهار لعزم فى دواعيها

وربما ضل نحو الهند ملتقط * حبات فلفله وارتد مبطيها

فجاء فى يومه فى اثر سابقة * حفظا لحق يد طابت أياديها

مناقب لرسول الله أيسرها * لدى نبوته الغراء يكفيها

مطلب
مراكز هجن الثلج فى الممالك المصرية وسفن الثلج بها

وأما مراكز هجن الثلج فكانت تعمر فقط فى أوان نقل الثلج من دمشق الى قلعة الجبل وهذه المصلحة متأخرة الانشاء عن مصلحة سفن الثلج فان الثلج كان يحمل فى البحر خاصة الى مصر من الثغور الشامية الى دمياط فى البحر ثم يخرج الثلج فى النيل الى ساحل بولاق فينقل منه على البغال السلطانية ويحمل الى الشرابخانة الشريفة ويخزن فى صهريج أعد له ثم صار يحمل فى البر والبحر وكانت مدة ترتيب حمله من حزيران الى آخر تشرين الثانى وعدة نقلاته فى البر احدى وسبعون نقلة متفاوتة مدة ما بينها بل ربما زاد على ذلك وكان يجهز لكل نقلة بريدى يتدركه ويجهز معه بالسلاح وكان المرتب لكل مركز ستة هجن خمسة للحمل وواحد للهجان وكانت المراكز البريدية مرتبة فى المسافات من مملكة الشام الى مصر والكلفة على مال مصر

وأما عدة المراكب المسفرة به فى البحر فكانت فى أيام الملك الظاهر ثلاثة مراكب فى السنة ثم أخذت بعد ذلك فى الزيادة الى أن بلغت احد عشر مركبا من مملكتى الشام وطرابلس ثم صارت من السبعة الى الثمانية واذا سفرت المراكب من البلاد الشامية سفر معها من يتدركها مع الملاحين ولا يصل الثلج متوفرا الا اذا أخذ من الثلج المجلد واحترز عليه من الهواء فانه أسرع اذابة له من الماء ومنذ ترتب من الثلج مايحمل برا على ظهور الهجن استقر منه خاص المشروب لانه يصل أنظف وآمن عاقبة لاسيما وأن المسفرين به يأخذون الجشنى منه بحضور أمير مجلس وناظر الشرابخانة السلطانية وخزانها وكان المنقول فى البحر لسوى ذلك وكان للحاضرين بالثلج من الخلع والانعام رسوم مستقره وعوائد مستمره

مطلب مواضع المناور بالممالك المصرية لمعرفة الاخبار

وأما المناور فكانت مواضع معدة لرفع النار فى الليل والدخان فى النهار للاعلام بحركات التتار اذا قصدوا البلاد لدخول لحرب أو لاغارة وقد أرصد فى كل منور مايلزم من المراقبين والنظارة لرؤية ماوراءهم واداءه مما أمامهم وكان لهم على ذلك جوامك مقررة كانت لاتزال دارة وكانت المناور المذكورة على رؤس الجبال وفى الابنية العالية ومواضعها معروفة وكانت من أقصى ثغور الاسلام كالبيرة والرحبة الى ديوان السلطان بقلعة الجبل حتى ان المتجدد بكرة بالعراق كان يعلم به عشاء بمصر والمتجدد به عشاء كان يعلم به بكرة وكانت تأتى أخبار لسان النار على الجناح والبريد وهذه المناور فى الدولة السلطانية الاخيرة لها شبه بما صنعته فى الاحقاب الخالية دلوكة العجوز ملكة مصر التى تولت على مصر بعد اغراق فرعون واشراف أهل مصر فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها من مزارع ومدائن وقرى وجعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء وأقامت القناطر والخلجان وجعلت فى ذلك الجدار محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل وجعلت على كل محرس رجالا وأجرت عليهم الارزاق وأمرتهم أن يحرسوا بالاجراس فاذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم الى بعض الاجراس فيأتيهم الخبر من أى وجه كان فى ساعة واحدة فينظروا فى ذلك فمنعت بذلك مصر ممن يطمع فيها ويمد عينه اليها وفرغت من بناء ذلك الجدار فى ستة أشهر فكانت فكرتها فى ذلك لابأس بها فى ذلك الوقت

مطلب ترتيب المحرقات للمراعى والمخصبات التى يأتى من جهتها العدو ومنعا الاغارته على الممالك المصرية

وأما المحرقات فكان الاهتمام بها أول كل شئ وهى مواضع مما يلى بلاد سلطنة مصر والشام من حد الشرق داخلة فى تلك المملكة فكان يخشى من مجاوريها من الاعداء مباغتة الاطراف ومهاجمة الثغور كجهة بلاد الموصل وبلاد الاكراد فكان يجهز

رجال لتحرق زرعها ونباتها حيث هي أرض مخصبة كانت تقوم بكفاية خيل المغيرين
مرعى اذا قصدوا البلاد فكان في حرقها اضعافهم واقعاد حركاتهم اذ كان من
عاداتهم أن لا يتكلفوا علوفة لخيلهم بل يكلوها الى ما ينبت من الارض فاذا كانت
مخصبة سلكوها أو مجدبة تجنبوها وكان ينفق في هذه المحرقات في كل سنة من خزينة
دمشق جملة من الاموال ويجهز منها لذلك شجعان الرجال وكان شأنهم في الاحراق
استصحاب الثعالب الوحشية والكلاب المستنفرة ثم يكمن المجهزون لذلك عند امناء
النصاح وفي كهوف الجبال وبطون الاودية وتمضي الايام حتى يكون يوم ريح عاصف
وهواء زعزع فتعلق النار موثقة في أذناب الثعالب والكلاب ثم تطلق الثعالب
والكلاب في أثرها وقد جوعت فتجد الثعالب في الهرب والكلاب في الطلب فتحرق
ما مرت به وتعلق الريح النار منه فيما جاوره ويضاف هذا الى ما كانت تلقيه الرجال
بأيديها في الليالي المظلمة وعشايا الايام المعتمة وكان يستثنى من ذلك أرض الجبال
التي هي بلد البقية القادر به من ولد شيخ الاسلام عبد القادر الجيلي فكانت
ذريته معظمة عند الاكابر والملوك لقديم سلفهم وصميم شرفهم ولما كان للاسلام
وأهله من اسعافهم بما تصل اليه القدرة ويبلغه الامكان

فمن هذا كله يفهم أن من تولى مصر من الملوك والسلاطين كان يجد فيها بقدر
استطاعته من المنافع ما يظنه لازما لسعادتها فأول مسعد لمصر من دبر أمر النيل
بالمقياس وصعد الى منبعه ومسيله ودبر وزن الماء والارض بمصر ورسم التعاليم
وبنى القناطر وأصلح مجرى النيل من جبال الحبشة الى مصر ولا زالت المنافع تتزايد
ثم تتناقص على حسب صروف الدهور والعصور الى أن توازنت الاحوال في جميع
الممالك والمسالك بحركة عمومية وأسباب بلغت درجة الاهمية ودواع دعت الى أنه
يجب على كل مملكة أن تضرب في الاجتهاد بسهم ونصيب والا أصابها سهم غيرها
اذا قصرت في أن تجتهد وتصيب فعلى الملة العاقلة أن تتشبث بأسباب الغنى لتحظى
في أيام ملكها العادل ببلوغ المنى (راجع الفصل الاول من الباب الثاني والفصل الثاني
من الباب الاول من هذا الكتاب)

مطلب
مدح الغنى وانه صفة من صفاته صلى الله عليه وسلم

فلا شك ان الغنى حلية تحلى بها أغنياء الانبياء كداود وسليمان ويوسف وابراهيم
وموسى وشعيب على نبينا وعليهم افضل الصلاة والسلام وكثير من الصحابة
والتابعين كانوا من الغنى في روضة غناء وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوصف
بالغنى بدليل قوله جل من قائل ووجدك عائلا فأغنى فقد امتن الله سبحانه وتعالى
على نبيه باغنائه عن فقر كما هو صريح الآية فهو غني وان كان في كيفية الاغناء

وجوه عند المفسرين فمنهم من قال ان الله تعالى أغناه بتربية أبي طالب ولما اختلت أحوال أبي طالب أغناه بمال خديجة ولما اختل ذلك أغناه بمال أبي بكر ولما اختل ذلك أمره بالهجرة وأغناه باعانة الانصار ثم أمره بالجهاد وأغناه بالغنائم

وروى أنه عليه السلام دخل على خديجة وهو مغموم فقالت له مالك فقال الزمان زمان قحط فان أنا بذلت المال ينفد مالك فاستحي منك وان أنا لم أبذل أخاف الله فدعت خديجة قريشا وفيهم الصديق رضي الله عنه قال الصديق فأخرجت دنانير وصبتها حتى بلغت مبلغا لم يقع بصري على من كان جالسا قدامي لكثرة المال ثم قالت اشهدوا أن هذا المال ماله ان شاء فرقه وان شاء أمسكه ومن المفسرين من قال أغناه بأصحابه كانوا يعبدون الله سرا حتى قال عمر حين أسلم أتعبد اللات جهرا ونعبد الله سرا فقال عليه الصلاة والسلام حتى تكثر الاصحاب فقال حسبك الله وأنا فنزل قوله تعالى يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين فأغناه الله بمال أبي بكر وبهيبة عمر ومنهم من قال في التفسير أغناك بالقناعة فصرت بحال يستوي عندك الحجر والذهب لا تجد في قلبك سوى ربك فربك غني عن الاشياء لا بها وأنت بقناعتك استغنيت عن الاشياء وان الغنى الاعلى الغنى عن الشيء لا به وهذا المعنى الاخير ما أشار اليه البوصيري في قوله

وراودته الجبال الشم من ذهب * عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته * ان الضرورة لا تعدو على العصم

أي طلبت الجبال العالية أن تصير ذهبا له صلى الله عليه وسلم فارتفع عنها ارتفاعا معنويا أعلى وأرفع من ارتفاعها الحسي وذلك بالاعراض عنها الاعراض الكلي وعدم الالتفات الى جهتها كما أمره ربه سبحانه وتعالى في قوله جل من قائل ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا أي لا تنظر نظرا طويلا الى ما متعنا به المذكورين استحسانا للمنظور اليه واعجابا به كما فعل نظارة قارون حيث قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم

ولما كان النظر الى الزخارف كالمركوز في الطباع نهى الله سبحانه وتعالى رسوله ومن المعلوم ان النهي له نهي لامته وقيل ان الذي نهى عنه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ولا تمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف أي لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا لانك غني عنها بربك حيث هي غير ممدوحة والدنيا اذا كانت ممدوحة فانما يكون مدحها باعتبار انها وصلة لدار القرار ولذلك قال بعضهم وأجاد

لاتتبع الدنيـا وأيامها * ذمّا وان دارت بك الدائره
من شرف الدنيا ومن فضلها * ان بها تستدرك الآخره

فكيف يذم مطلق الغنى وهو وصف لله سبحانه وتعالى ولنبيه عليه الصلاة والسلام فهو ممدوح شرعا فلا بأس أن يتشبث بالوصف به الملوك والرعايا

مطلب ما نتج من ثروة الحكومة المصرية واسعافها للاهالى بهذه الوسيلة فى الاحوال الضرورية

وأقل من اياغنى الحكومة المصريه انه لما قصرت بلادها عقب آفات قسرية كموت المواشى وقلة المحصول وعز على الاهالى تحصيلها الا بالاثمان الغالية من البلاد الاجنبية ولا يتيسر لكل انسان جلبها استجلبها الخديو الاكرم بنفوذ يسار الحكومة بالاثمان اللائقة وصار التوسيع بذلك على الاهالى فكان كما قيل

فتى كسماء الغيث والناس حوله * اذا أجدبوا جادت عليهم سحائبه

ولقد أحسن من قال

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله * ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

فكم له من جدوى على الاوطان فى قضاء أوطار وكم استمدت الرعايا فى هذه الاعصار استمداد الجداول من البحار مما تعجز العقول عن فهم كنهه وعن حق أداء الشكر على الانعام به فقد أنجز الله لمصر ما قدره لها من السعاده وأبرز فى حيز الوجود ما كتبه لها من الحسنى وزياده

واذا السعادة لاحظتك عيونها * نم فالمخاوف كلهن أمان
واصطد بها العنقاء فهى حبائل * واقتد بها الجوزاء فهى عنان

مطلب ان مصر كوكب المشرق

ومع ان كل قسم من أقسام الدنيا له كوكب من الممالك فى أفقه مشرق فمصر بأعلى منارها كوكب قسم افريقه وشمس افق المشرق فقد كسيت فى هذا العهد حلة المهابة والنباهه وخرج أهلها بصقال البراعة والبراعة عن لكنة القصور والفهاهه واكتسبت الفنون والمنافع حتى صارت ترنو اليها الابصار وتومى اليها الاصابع وبتوفيق الله تعالى تمسك أهلها بالآية الشريفة التى العمل بها من الفرض وهى يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض يعنى من التجارة والزراعة فسياسة الحكومة الحالية الالتفات الى جذب النفوس الى هذه المنافع العمومية من أعجب التأثيرات العصرية وفى الحقيقة

مطلب السياسة وأقسامها

لولا السياسة ما قامت لنا سبل * وكان أضعفنا نهبا لاقوانا

فمدار انتظام العالم على السياسة وهى خمسة أقسام الاول السياسة النبوية والله يختص بها من يشاء من عباده كما قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته وهو الذى يهدى لاتباعهم من يشاء من فضله بسابق السعادة ولا معقب لحكمه لا يسأل عما يفعل

وهم يسألون قال سيدى محمد وفا

قد كنت أحسب ان وصلك يشترى * بكرائم الاموال والاشباح
وظننت جهلا ان حبك هين * تفنى عليه نفائس الارواح
حتى وجدتك تجتبى وتخص من * أحببته بلطائف الامناح
فجعلت فى عشق الغرام اقامتى * ولويت رأسى تحت طى جناحى

الثانى السياسة الملوكية وهى حفظ الشريعة على الامة واحياء السنة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر

الثالث السياسة العامة وهى الرياسة على الجماعات كرياسة الامراء على البلدان أو على الجيوش وترتيب أحوالهم على ما يجب من اصلاح الامور واتقان التدبير والنظر فى الضبط والربط والحسبه

الرابع السياسة الخاصة وتسمى السياسة المنزلية وهى معرفة كل انسان حال نفسه وتدبيره أمر بيته وما يتعلق به وقضاء حقوق اخوانه شرعا وفتوة وعرفا كما قال من يميل بطبعه الى حب المعروف

انى لاهوى أن أكون لصاحبى * غيثا وغوثا فى الندا والباس
واذا اكتسى ثوبا جميلا لم أقل * ياليت هذا الثوب كان لباسى

وهذه السياسة فى الغالب لا يحسنها الا أشراف الناس كما قيل

لعمرك ما الاشراف فى كل بلدة * وان عظموا الا لفضل صنائع

الخامس السياسة الذاتية وهى تفقد الانسان أفعاله وأحواله وأقواله واخلاقه وشهوته وزمها بزمام عقله فان المرء حكيم نفسه وبعضهم يسميها بالسياسة البدنية قال الشاعر

تعلمت فعل الخير من غير أهله * وهذب نفسى فعلهم باختلافه
أرى ما يسوء النفس من فعل جاهل * فآخذ فى تأديبها بخلافه

وما أحرى من الملوك من تمسك بهذه السياسات الخمسة لينزهها وطنه عن النقائص ويحلى بها نفسه لان تفاضل الانفس انما هو بقدر تحصيلها من الفضائل التى يظهر بها التفاوت فى القيم وذلك بمقدار ترافع الهمم والكيس من ينافس فى تحصيل النفيس والانفس ليتوصل الى درجة الكمال فيما هو أصون لحفظ الناموس وأحرس

من يستطيع بلوغ أعلى رتبة * ما باله يرضى بأدنى منزل

ومن العار على كامل التمييز ان يطلب رتبة دون الرتبة القصوى وأن يقصر عن الوصول الى وصال سعدى وعلوى وأما قول الشاعر

مطلب مدح حب المعالى وعدم الاقتناع بالدون

والنفس راغبة اذا رغبتها * واذا ترد الى قليل تقنع

فهو قول من يقنع بالدون ويرضى بصفقة المغبون وما أحسن ما قاله بعضهم

ان الغنى لشهاب كلما اعتكرت * دجى الكروب جلاعنها حنادسها

لاتنفع الخمسة الاسماء محدقة * لديك الا اذا ما كنت سادسها

مطلب ان زينة الاسماء الخمسة سادسها

والمراد من الاسماء الخمسة أبوك وأخوك وحموك المرتجى نفعهم وتجدتهم عند الشدائد وهنوك وهو كناية عن الشئ وفوك وهو الفم والمراد الفصاحة والبلاغة وسادس الاسماء ذومال وهو سيدها فذو المال اقرب لاكتساب المعالى لذويه ولوطنه وان يقلده قومه ويتبعوه فى ذلك

تناهض القوم للمعالى * لما رأوا نحوها نهوضى

فكل ما يتمناه المتمنى بلسان الاستعداد وشهادة الاستحسان والرشاد من المراتب الباهيه والمناصب الزاهيه والمقاصد السنيه والموارد الهنيه والعزة والجاه بلغ فيه رجاه فمطمع نظر مصر الآن التبصر فى تكميل وسائل التمدن والتمصر من باب احسان العمل وقد قال تعالى انا لا نضيع أجر من أحسن عملا وقال صلى الله عليه وسلم ان الله كتب الاحسان على كل شئ فمباشرة الاسباب مظنة الانجاب ولذلك أوصى بعض الصلحاء بعض أرباب الفلاحة بقوله لا تدع غرس أرضك وان سمعت بخروج الدجال فالاسباب لا تنكر (وقال) داود البصير بمناسبة ذكر الاسباب ان قيل اذا كان الطب حافظا للصحة دافعا للمرض فالواجب البقاء وعدم اختلال البنية خصوصا من نفس الطبيب ونحن نرى الحكماء فضلا عن غيرهم يمرضون ويموتون فلا فائدة حينئذ فى الطب قلنا ليس على الطبيب منع الموت والهرم ولا تبليغ الاجل المطول ولا حفظ الشباب لعدم قدرته على ضبط ما ليس اليه أمره كتغير الهواء ووروده فى الاغذية من حيوان وغيره ومشقة الاحتراز فى تعديل أمور المأكل والمشرب وغيرها وعدم امكان جلب الفصول على طبائعها الاصلية فقد ينقلب كل منها الى الآخر وانما عليه اصلاح ما أمكن من دفع طارومناف وحفظ صحة الى الاجل المعلوم (فان قيل) موجبات الموت والحياة ولوازمهما اما ان تكون بتقدير الصانع ايجابا وسلبا كما هو الحق أو باقتضاء طالع الوقت وعلى التقديرين ليس للطبيب قدرة على أحدهما فانتفت الحاجة اليه (قلنا) لو كان الامر كذلك لكان الاكل والشرب وسائر ما به القوام من هذا القبيل فكان يجب تركه لان المقدر من بقاء الاجل ان كان بدونها فلا فائدة فى تعاطيها أو بها لزم ذلك والكل باطل بل تقادير علق الامر عليها كما فى محله فكذا الطب وبهجاءت السنة عن أرباب النواميس فقد قال صلى الله عليه وسلم تداووا فان الذى أنزل الداء أنزل الدواء

مطلب ان مطمح نظر مصر التمدن بالاعمال الرابحة

مطلب ان تعاطى الاسباب لا ينافى التوكل ولا ينافر القضاء والقدر

وما

ومامن داء الا له دواء الى غير ذلك فقيل له أيدفع الدواء القدر فقال صلى الله عليه وسلم الدواء من القدر انتهى

مطلب الصورة المثمنة الشكل التى كانت عند اسكندر والمكتوب على اضلاعها من المسائل السياسية الحكمية

ونتيجة هذه المسئلة ان مباشرة الاسباب من هذا القبيل والتشبث بتصحيح الاعمال تطييب للنفس وتعليل والملوك فى الظاهر حكام وفى الباطن حكماء يقال انه كان بين يدى الاسكندر كرة مثمنة من الذهب وضعها له الحكيم أرسطاطاليس على كل جهة منها كلمة سياسية تتعلق كل واحدة بالاخرى لتكون بين يديه يقلبها فى حركاته ويعمل بما فيها وهى هذه العالم بستان سياجه الدولة الدولة سلطان يحفظها السنة السنة شريعة يحوطها الملك الملك راع يعضده الجند الجند اعوان يكلفهم المال المال رزق تجمعه الرعية الرعية خدام يتعبدهم العدل العدل مألوف وبه صلاح العالم فحقيق لمن قلده الله أمر عباده وبلاده ان يعطف عليهم ويعدل فيهم وينصف ضعيفهم من قويهم ويساوى فى الحق بين شريفهم ومشروفهم ويبدى أولا بالانصاف من نفسه وولده وأهله وخاصته فالناس على دين الملك كما قيل بمعنى انهم يتبعونه فى أحواله وأفعاله ولذلك لما قدم بريد من الشام على عمر بن عبد العزيز فقال له كيف تركت الشام قال تركت ظالمهم مقهورا ومظلومهم منصورا وغنيهم موفورا وفقيرهم مجبورا (أى مسرورا) قال عمر الله أكبر لو كانت لاتتم خصلة من هذه الا بفقد عضو من أعضائى لكان ذلك يسيرا

وبالجملة فالسعى فى أداء الحقوق الوطنيه منحة الهيه يمنحها الله سبحانه وتعالى من يصطفيه من خلقه فانها مرتبة جسيمه ونعمة وفية عظيمه فيجب علينا ان نقيدها بشكر المولى سبحانه وتعالى على انعامه بها علينا ولقد كان السلف الصالح كالفضيل ابن عياض والامام احمد بن حنبل وغيرهما يقولون لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها لولى الامر لان فى صلاحه صلاح المسلمين أصلح الله حال ملكنا وسلطاننا وسائر الملوك والسلاطين آمين

وهذا دعاء لا يرد لانه * يزان به كل الورى والممالك
تراه بلا شك اجيب لانه * اذا ما دعونا أمنته الملائك

وسيأتى بسط الكلام على سياسة ولاة الامور فى الخاتمة

(خاتمة)

وهى ان شاء الله تعالى حسنة فيما يجب للوطن الشريف على أبنائه من الامور المستحسنة وفيها أربعة فصول

وذلك لان أهل الوطن اربع طبقات فالطبقة الاولى ولاة الامور والطبقة الثانية طبقة العلماء والقضاة وأمناء الدين والطبقة الثالثة الغزاة والطبقة الرابعة أهل الزراعة والتجارة والصناعة فلهذا كانت الخاتمة مرتبة على أربعة فصول

الفصل الاول

(فى ولاة الامور)

وظيفة ولاة الامور من أعظم واجبات الدين وأهم أمور المتوطنين فهم قوام الدين والدنيا وعليهم فى حركة الاعمال مدار البركة العليا وبدونهم يختل نظام العالم لوجود المفسدين من بنى آدم فلولا ولى الامر لما قدر العالم على نشر علمه ولا الحاكم الشرعى والسياسى على تنفيذ حكمه ولا العابد على عبادته ولا الصانع على صناعته ولا التاجر على تجارته ولولاهم لانقطعت السبل وتعطلت الثغور وكثرت الفتن والشرور ولولا ردع الملوك لتغالبت الناس وتهارجت وطمع بعضهم فى بعض واستولى الاقوياء على الضعفاء وتمكن الاشرار من الاخيار فيضطرون الى التشرد والتفرد وفى ذلك خراب البلاد وفناء العباد فالملك كالروح والرعية كالجسد ولا قوام للجسد الا بروحه ولكن من لطف الله تعالى بعباده أجرى عادته فى كل زمان ان ينصب فى الارض من ينصف المظلوم من الظالم ويردع أهل الفساد عن المظالم ويصنع للرعية جميع المصالح ويقابل كل أحد بما يستحقه من صالح وطالح

مطلب احتياج الانتظام العمرانى الى قوتين قوة حاكمة وقوة محكومة

فقد استبان من هذا احتياج الانتظام العمرانى الى قوتين عظيمتين احداهما القوة الحاكمة الجالبة للمصالح الدارئة للمفاسد وثانيهما القوة المحكومة وهى القوة الاهلية المحرزة لكمال الحرية المتمتعة بالمنافع العمومية فيما يحتاج اليه الانسان فى معاشه ووجود كسبه وتحصيل سعادته دنيا وأخرى فالقوة الحاكمة العمومية وما يتفرع عليها تسمى أيضا بالحكومة وبالملكية هى أمر مركزى تنبعث منه ثلاثة أشعة قوية

مطلب اركان الحكومة وقواها

تسمى أركان الحكومة وقواها فالقوة الاولى قوة تقنين القوانين وتنظيمها وترجيح ما يجرى عليه العمل من أحكام الشريعة أو السياسة الشرعية الثانية قوة القضاء وفصل الحكم الثالثة قوة التنفيذ للاحكام بعد حكم القضاة بها فهذه القوى الثلاثة ترجع الى قوة واحدة وهى القوة الملوكية المشروطة بالقوانين لان القوة القضائية انما هى فى نفس الامر راجعة للملك لان القضاة نواب ولى الامر على المحاكم ومأذونون منه فهو الذى يقلد القضاة بالولايات القضائية وحكام المجالس أى قضاتهم بالاحكام الشرعية أو السياسة الشرعية وينتخب لكل ولاية قضائية أو مجلس من يرى فيه

الاهلية لذلك على موجب أصول المملكة المرعية فالقضاء فى الحقيقة من حقوق ولاة الامور والقضاة خلفاؤهم فى مباشرته ولذلك كانت أحكام القضاة التى على طبق الشرع لا تنقض لاعتبار اذن ولى الامر بها ضمنا من حيث فصل الحكم فرجعت هذه القوة الى الملك وكذلك قوة تنفيذ الاحكام بعد قطع الحكم فيها فانها حق خاص بولى الامر من أول وهلة لا يشاركه فيه غيره كما انه هو الذى ينسب اليه تقنين القوانين حيث يتوقف على أوامره تنظيمها وترتيبها واجراء العمل بموجبها فقد انحصرت فيه القوى الثلاثة التى هى أركان القوة الحاكمة

ثم ان الاصول والاحكام التى بها ادارة المملكة تسمى فن السياسة الملكية وتسمى فن الادارة وتسمى أيضا علم تدبير المملكة ونحو ذلك والبحث فى هذا العلم ودوران الالسن فيه والتحدث به والمنادمة عليه فى المجالس والمحافل والخوض فيه فى الغازيتات كل ذلك يسمى بوليتيقة أى سياسة و ينسب اليه فيقال بوليتيقى أى سياسى فالبوليتيقة هى كل ما يتعلق بالدولة وأحكامها وعلاقتها وروابطها فقد جرت العادة فى البلاد المتمدنة بتعليم الصبيان القرآن الشريف فى البلاد الاسلامية وكتب الاديان فى غيرها قبل تعليم الصنائع وهذا لا بأس به فى حد ذاته ومع ذلك فمبادى العلوم الملكية السياسية التى هى قوة حاكمة عمومية وفروعها مهملة فى الممالك والقرى بالنسبة لابناء الاهالى مع ان تعليمها أيضا لهم مما يناسب المصلحة العمومية فما المانع من ان يكون فى كل دائرة بلدية معلم يقرأ للصبيان بعد تمام تعليم القرآن الشريف والعقائد ومبادى العربية مبادى الامور السياسية والادارية ويوقفهم على نتائجها وهو فهم اسرار المنافع العمومية التى تعود على الجمعية وعلى سائر الرعية من حسن الادارة والسياسة والرعاية فى مقابلة ما تعطيه الرعية من الاموال والرجال للحكومة و يفيدهم أسباب ايجاب الحكومة على الاهالى ان تخدم وطنها بنفسها خدمة شخصية فى العسكرية واسباب الزام الاهالى بدفع حصة مخصصة من أموالهم بوصف خراج أو ويركو أو عوائد أو نحو ذلك من جبايات الحكومة القائمة فى الدول الاسلامية مقام الزكاة المعطلة وكذلك ليعرف الاهالى أسباب ايجاب الحكومة عليهم ان يتنازلوا عن شئ من أملاكهم وعقاراتهم عند الاقتضاء واحتياج الحكومة لذلك للمصلحة العمومية كتوسيع الطرق وما أشبه ذلك من العمليات التنظيمية فاذا ارتكز فى أذهان الصبيان من زمن شبوبيتهم أصول هذه السياسات الشرعية وفروعها وفهموا الاسباب والمسببات سهل عليهم عند بلوغ الرشد والوصول الى كمال الرجولية اجراء مفعولها وهل هذا التعليم الا ايقاف أهل الوطن على معرفة حقوقهم وواجباتهم بالنسبة لاملاكهم وأموالهم ومنافعهم ومالهم

مطلب
علم تدبير المملكة

مطلب
ان البوليتيقة هى العلم بالسياسة واحوال الناس

مطلب
استصابة تعليم ادارة الحكومة لابناء الاهالى فى صغرسنهم

وماعليهم محافظة على حقوقهم ودفعا للتعدى عليها فاللائق ان يكون بكل ناحية معلم لمبادى الادارة ومنافع الجمعية العمومية فى مقابلة ماتدفعه الجمعية للحكومة فان هذا التعليم مع تقديمه للشخص المتعلم له تأثير معنوى فى تهذيب الاخلاق ومنه تفهم الاهالى ان مصالحهم الخصوصية الشخصية لاتتم ولا تنجز الا بتحقيق المصلحة العمومية التى هى مصلحة الحكومة وهى مصلحة الوطن فتذعن نفوسهم بأن الفوائد الخصوصية ليست فى حد ذاتها مضمونة الحصول الا فى ضمن الفوائد العمومية المذكورة وأيضا مما يقتضى لياقة تعليم مبادى الادارة بالنواحى كون قانون الحكومة لايمنع من جواز استخدام أحد من الاهالى فاستخدامه فى الملكية لاسيما منصب المشيخة البلدية كما سيأتى ذكره يستدعى سبق معرفة بأصولها والا ترتب على استخدام الجاهل بها من السقامة مالا يخفى وانما العلم بالتعلم لاسيما أيضا مع تجديد جمعيات الانتخاب ومجالس النواب

مطلب ان استخدام الانسان فى الحكومة يستدعى سبق معرفة بأصول وظيفته

وكان المانع لتعلم البولتيقة والسياسة فى الازمان السابقة ماتشبث به رؤساء الحكومات من قولهم ان السياسة من أسرار الحكومة الملكية لاينبغى علمها الا لرؤساء الدولة ونظار الدواوين مع كون لفظ البولتيقة كان معروفا أيضا بمعنى آخر وهو الحيلة والخداع والتدبير مما لايليق الا بالمملكة الجائرة وفى هذه الايام جميع الاحكام الملكية مؤسسة على العدل والامانة وخلوص النية المتقوم منها الحق وهو أيض أبلج لاينبغى الا على الاخلاص فى القول والعمل وحسن العلاقات بين الراعى والرعية مما يغرس المحبة والمودة فى قلب الملك ورعاياه بسبب اتباعه الاصول المربوطة وسيره على السنن القويم حسب احكام المملكة المشروطة وهى غير مكتومة ومن المعلوم ان الملك الذى يحب رعاياه يحب تقدمهم فى المناصب الملكية للاستعانة بآرائهم التى هى فى حقه ضرورية فهو احق باصطفاء رجاله منه باصطفاء امواله لانه مع استبداده بالنهى والامر وسمو المقام وجلالة القدر لايكتفى بالوحدة ولايستغنى عن الكثرة فمثله كمثل المسافر فى الطريق البعيد يجب ان تكون عنايته بفرسه المجنوب كعنايته بفرسه المركوب ومن احب المقاصد والنتائج سهل الوسائل والمقدمات وأيضا من البديهى ان للانسان حقوقا وعليه واجبات فطلبه لحقوقه وتأديته لواجباته على الوجه الاكمل يقتضيان معرفة الحقوق والواجبات ومعرفتهما متوقفة على فهمهما وفهمهما عبارة عن معرفة قوانين الحكومة التى هى السياسة فالذى لايريد خدامة الحكومة هو أيضا مثل المستخدم فيها لمعرفة قوانينها

مطلب سبب كتمان الامور السياسيه عن العموم وجعلها من أسرار الدولة فى الازمان السابقة

وقد تجدد فى مديريات مصر فى هذا العهد الاخير مبادى ما اشرنا اليه وهو صدور الاوامر الخديوية بجلب من يرغب من ابناء العمد ووجوه الناس الى دواوين

مطلب صدور الاوامر الخديوية بقيد ابناء وجوه الناس بوظيفة معاونين ليتمرنوا على الاحكام

المديريات ليتمرنوا على تعليم الاحكام والادارة لتوظيفهم فيما بعد فى الوظائف الادارية ونفعهم بكمال النفع للحكومة قال الشاعر

وكاذب الصبح يبدو قبل صادقه * وأول الغيث قطر ثم ينهمل

(وقال آخر)

رب قليل غدا كثيرا * كم مطر بدؤه مطير

ثم ان الحكومة التى عبرنا عنها فيما سبق بالقوة الحاكمة هى من مقولة النسب والاضافات تقتضى حاكما ومحكوما يعنى ملكا ورعيته فلا يفهم الملك الا بالرعية ولا تفهم الرعية الا بالملك كالابوة والبنوة فلهذا وجب أن نبين كلا منهما مع ما يتعلق به ونبتدئ بولاة الامور فنقول

ولى الامر هو رئيس أمته وصاحب النفوذ الاول فى دولته وحاكم متصرف بالاصول المرعية فى مملكته ولا توجد رعية فى مملكة منتظمة بدون راع والا ضعفت واختلت وشقى أهلها العدم من يسعى فى اسعادهم بتحسين شؤنهم

وقد تأسست الممالك لحفظ حقوق الرعايا بالتسوية فى الاحكام والحرية وصيانة النفس والمال والعرض على موجب أحكام شرعية وأصول مضبوطة مرعية فالملك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين

ولما كانت السياسة جسيمة لا يقوم بها واحد اختص الملك بمعالى الاحكام وكلياتها وخلع بعض نفوذه فى جزئيات الاحكام على المحاكم والمجالس وجعل لهم لوائح وقوانين خصوصية ترشد أفعالهم ولا يتعدونها قال بعضهم ليست فى الدنيا جمعية منتظمة ولا مملكة معتدلة الاحكام الا وتكون القوة فيها بالاصول العدلية فالاصول العادلة تصون ناموس الدولة عن الملامة ولهذا كان جميع ما امضاه الملك السالف من الاحكام وأجرى مقتضاه بالفعل والتنجيز لا يسوغ لمن جاء بعده أن يخدشه و يبطل أحكامه التى جرى مقتضاها وهذه القاعدة جارية فى سائر الممالك لحرمة الاصول الملكية بصونها عن نقض ملجرياتها راجعة فى الحقيقة لحفظ حرمة الملك فان بت الحكم فى عهد الملك أثر نتائج افكاره أو ثمرة أوامره ونواهيه وتصديقه عليه فهو منسوب الى المنصب الملوكى فلا يسوغ نقضه وقد كان المنصب الملوكى فى أول الامر فى أكثر الممالك انتخابيا بالسواد الاعظم واجماع الامة ولكن لما ترتب على أصل الانتخاب ما لا يحصى من المفاسد والفتن والحروب والاختلافات اقتضت قاعدة كون درء المفاسد مقدما على جلب المصالح اختيار التوارث فى الابناء وولاية العهد على حسب أصول كل مملكة بما تقرر عندها فكان العمل بهذه الرسوم الملوكية ضامنا لحسن انتظام الممالك

مطلب
اختصاص الملك بمعالى الاحكام وكلياتها وتفويضه جزئياتها لوكلائه

مطلب
خصائص الملوك فيما يجب لهم وعليهم

ثم ان للملوك فى ممالكهم حقوقا تسمى بالمزايا وعليهم واجبات فى حق الرعايا فمن مزايا الملك انه خليفة الله فى أرضه وان حسابه على ربه فليس عليه فى فعله مسئولية لاحد من رعاياه وانما يذكر للحكم والحكمة من طرف أرباب الشرعيات أو السياسيات برفق ولين لاخطاره بما عسى أن يكون قد غفل عنه مع حسن الظن به لقوله صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة فقلنا لمن يارسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم وأيضا للانسان فى نفسه محكمة تجرى الاحكام على صاحبها وهى الذمة التى

مطلب
كون الذمة محكمة قضائية تثيب صاحبها وتعاقبه على الخير والشر

هى النفس اللوامة أو المطمئنة فهى قاض لا يقبل الرشوة فاذا فعل الملك كغيره مالا يوافق لامته نفسه لان نور الحق يسطع فى القلب واذا فعل الملك مالا ينبغى فعله لا تطمئن نفسه الى ذلك ولا يركن قلبه اليه ولا يفرح به واما فعل الخير فتطمئن اليه النفس ويركن اليه القلب وينشرح له الصدر

مطلب
كون الرأى العمومى يحمل ولاة الامور على العدل والاحسان

وبيان ذلك ان القلب مبدأ الحركات البدنيه والارادات النفسانيه فان صدرت عنه ارادة صالحة تحرك البدن حركة صالحة وان صدرت عنه ارادة فاسدة تحرك البدن حركة فاسدة فالقلب كالملك والاعضاء كالرعية ولذلك قال أهل السنة والجماعة ان العقل فى القلب وله شعاع متصل بالدماغ فالقلب يطمئن للعمل الصالح طمأنينة تبشره بأمن العاقبة فصاحب هذا العمل قضى له قاضى الذمة بانه محق فى عمله بخلاف العمل السيئ فانه يورث القلب تندما وحسرة ويكسبه ملامة تنذره بسوء العاقبة فصاحب هذا العمل السيئ قضى عليه قاضى الذمة بأنه آثم مبطل فى عمله ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لوابصة بن معبد لما أتاه فى وفد جئت تسأل عن البر البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب والاثم ماحاك فى النفس وتردد فى الصدر فاستفت نفسك وأن افتاك الناس وافتوك وسبب ذلك أيضا ان الله سبحانه وتعالى فطر عباده على معرفة الحق والسكون اليه وقبوله وركز فى الطباع محبته ومن ثم ورد حديث كل مولود يولد على أصل الفطرة قال أبو هريرة اقرؤا ان شئتم فطرة الله التى فطر الناس عليها وهذا يؤيد قول بعضهم ان عمل القلب ان كان خيرا أو شرا كصدى الصوت فى الجبل يعود على القلب برنة الخير أو الشر وهو معنى قولهم كاد المرتاب أن يقول خذنى

فذمة الملوك كذمة غيرهم تتأثر بالانبساط من الخير والانقباض من الشر فالذمة حكم عدل تنفر غالبا من الظلم والجور فهى عنوان الخوف من الله تعالى فى كونها تحمل الملوك على العدل ومما يحملهم على العدل أيضا ويحاسبهم محاسبة معنوية الرأى العمومى أى رأى عموم أهل ممالكهم أو ممالك غيرهم ممن جاورهم من الممالك فان الملوك يستحيون من اللوم العمومى فالرأى العمومى سلطان قاهر على قلوب الملوك

والاكابر

والاكابر لا يتساهل فى حكمه ولا يهزل فى قضائه فويل لمن نفرت منه القلوب واشتهر بين العموم بما يفضحه من العيوب

ومما يحاسب الملوك أيضا على العدل والاحسان التاريخ أى حكاية وقائعهم لمن بعدهم من ذراريهم وخلفهم من الاجيال الآتية فان المؤرخ يذكر للامة أخبار ملوكها فينتقل من العين الى الاثر ومن البيان الى الخبر فيبث محاسن الملوك ومثالبهم لاعقابهم ليعتبروا فدأب الملك العاقل أن يتبصر فى العواقب وأن يستحضر فى دائم أوقاته وفى حركاته وسكناته ان الله سبحانه وتعالى اختاره لرعاية الرعية وجعله ملكا عليهم لا مالكا لهم ولرعاياهم يعنى ضامنا لحسن غذائهم حسا ومعنى لا آكلا لهم وانه تعالى خصه بمزايا جليلة أولها انه خليفة الله فى أرضه على عباده وقد أمر الجميع بالعدل والاحسان وما بعده حيث قال جل من قائل ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية فمأمورية العدل أول واجبات ولاة الامور وهو وضع الاشياء فى مواضعها واعطاء كل ذى حق حقه والمساواة فى الانصاف بميزان القوانين وأفضل الازمنة أزمنة أئمة العدل قال تعالى وأقسطوا ان الله يحب المقسطين وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب العدل وقال بعض الحكماء اذا نطق لسان العدل فى دار الاماره فهو بشرى لها بالعز وعلى السعادة أماره فتدبير الملوك أمر العباد والبلاد بالعدل ارفع لذكرهم وأعلى لقدرهم (وسأل) الاسكندر حكماء أهل بابل هل الشجاعة عندكم أبلغ أو العدل فقالوا اذا استعملنا العدل استغنينا عن الشجاعة فالى العدل انتهت الرياسة الكاملة والمملكة الفاضلة ومن مزايا ولاة الامور أيضا أن النفوذ الملوكى بيدهم خاصة لا يشاركهم فيه مشارك وهذه المزية العظمى تعود على الرعية بالفوائد الجسيمة حيث ان اجراء المصالح العمومية بهذه المثابة ينتهى بالسرعة لكونه منوطا بارادة واحدة بخلاف ما اذا نيط بارادات متعددة بيد كثيرين فانه يكون بطيأ وهذا النفوذ الملوكى القضائى غير النفوذ الاجرائى الذى هو مباشرة العمل وهو من خصائص الوزراء وتطار الدواوين وغيرهم فالنفوذ الملوكى هو الترتيب والامر بالنفوذ الاجرائى لمن يجريه فهو حق محترم لا مسؤلية فيه على الملك ولا يكون لغيره فيكيف وهو رئيس المملكة وأمير الجيوش البرية والبحرية وقائدهم الاول وعليه مدار الامور الملكية والعسكرية الداخلة والخارجية وهو الذى يقلد المناصب العمومية لمن يستحق باصدار أوامره فيها ويرتب الوظائف وينظم اللوائح المبينة لطرق اجراء الاصول والقوانين ويأمر بتنفيذ الاحكام الصادرة من دواوينه ومحاكمه ومجالسه وله الرياسة على امناء دين مملكته وله الحق فى أن يمنح المناصب والالقاب العالية وأن يعطى عنوان الشرف ونيشانه

مطلب
ان نفوذ ولاة الامور يعود على الرعية بالفوائد الجسيمه

واذا أمر المجالس بتنظيم لوائح فانها لا يجرى مفعولها ولا يعتد بها الا اذا صدق على نفس اللوائح وعلى ترتيب الجزاء على من خالفها وترتيب الجزاء على مخالفة القوانين هو ما يسمى تقرير القوانين وترسيخها فانها بدون ترتيب الجزاء ليس على مخالفها لوم

مطلب وظائف المجالس

وأما وظائف المجالس الخصوصية ومجالس النواب فليس من خصائصهما الا المذاكرات والمداولات وعمل القرارات على ما تتقرر عليه الآراء الاغلبية وتقديم ذلك لولى الامر وكذلك من خصوصيات ولى الامر نشر القوانين واجراء مفعولها من يوم نشرها ومن المزايا الملوكية ما يسمى حق الصفح عن الجانين وهو أجل المزايا اللائقة

مطلب كون ذا المنصب الملوكى الصفح عن الجانى أو تخفيف العقوبة عنه

بالمنصب الملوكى وهو ان له الحق فى الصفح عن العقوبة المترتبة على الجانى الذى جنايته من قبيل وخلق الانسان ضعيفا أو تخفيف جزاء هذه الجناية فان العظيم يعفو عن الذنب العظيم وكذلك له ان يسامح من جزاء المذنب بالصغائر وان يقبل توبة من يتوب وهذه المزية الجليلة لائقة بما ينبغى ان يكون عليه الملك من الرأفة والرحمة والحلم فان الحلم يجب ان يكون من الاوصاف الذاتية للملوك وليس لهذا الحلم المطلوب حد محدود ولا قيد مخصوص بل على اطلاقه وعمومه فى حقه ومفوض فيه أمر ماليه وانما ضابطه

مطلب تعريف الحكم بالنسبة للملوك

ان يكون لرعيته بمنزلة الوالد فى الشفقة على أولاده وان حدث فى الرعية حادث فليتداركه بلطفه وتدبيره لئلا يتسع الخرق على الراقع فان أصابهم خلل فى أمر المعيشة من الطعام والشراب والكسوة والدواب أو فى الذهب والفضة فانه يوسع عليهم ويلم الشعث الحادث بهم كما فعل السلطان الغازى محمود بن سبكتكين سلطان غزنة فانه لما اجدبت رعيته وكان له طعام فقال بعض وزرائه ينبغى ان يعطى لهم بثمن عدل فقال لا بل نوسع لهم ونتصدق به عليهم فانهم رعيتنا لا ينبغى ان نأخذ منهم شيأ ولا يستحسن منا ان نكون فى الرخاء ورعيتنا فى الشدة والغلاء ثم أمر حتى أفيض عليهم فان ضاقت البلدة بالرعية وشق عليهم المقام فى ازدحامهم فليزد فى البلد فان لم يمكن فلينقل من البلد جانبا من الاهالى الى بلد آخر فهذا هو الملك الحليم العادل

مطلب كون صفح الملك عن الجانى يمحو العقوبة ولا يمحو الذنب

ويجوز له ان يبذل حلمه الى ما لا نهاية فلا يليق الاستفسار منه عن الاسباب الحاملة له على الصفح عن الجانى فى حالة ما اذا صفح عنه ولا عن عدم الصفح فى حالة ما اذا لم يصفح وانما اللائق فى حقه فى حالتى العفو والعقاب ان لا يتجاوز فى ذلك الحد حفظا للناموس الشريعة وصونا لحدود الله من التعطيل ومحافظة على ابقاء قوة السياسة الشرعية الضامنة للامن العام ومنعا للتجرى وتعدى الناس بعضهم على بعض ولهذا لما صدر من بعض الملوك الصفح عن بعض الجانين وحضر الجانى أمام القاضى ليصدر له الامر بالصفح عنه حكم أمر الملك قال له القاضى لقد صدر أمر الملك بالعفو عن ذنبك فاذهب

سريعا فقد ارتفع عنك العقاب وبقي عليك الوزر (وقال) قاض آخر لانسان آخر قتل شخصا بالسم وحكمت عليه المحكمة بعقوبة القتل فخففها الملك باستبدال القتل باللبمان اذهب الى اللبمان لتزعج أهله فقد قدم عليهم معتد أثيم قبيح الفعال ليصاحبهم فلاشك انهم ينفرون منك كل النفور

مطلب كون صفح الملك لا يكون فى حقوق العباد

وفى الممالك المدققة فى الاحكام العدلية لا يصفح الملك عن الجانى فى الغالب الا فى ذنب الخوض فى الناموس الملوكى أو فى الصغائر الخاصة بالسياسة الملوكية ولا يتجاوز الملك عن المتعدى فى شئ بالنسبة لحقوق العباد المبنية على المشاحة فلا يمنع حدود الله ولا يصفح عن القاتل لشخص له ورثة أبدا الا ان الدية أو القود حقهم ومع صفح الملك عن الجانى فلا يبطل تحقيق الدعوى المقامة فى شأن الجناية فان حقوق الملك انما هى تخفيف عقاب المذنب نظرا للنفوذ الملوكى والناموس السلطانى المبنى على الشفقة والرحمة فليس من المصلحة عفوه عن الذنب قبل ظهوره ولا اظهاره وذلك للمجاكم قبل التحقيق لان ذلك يفضى الى ستر الحق وله فى حقوق الحكومة اذا حصلت فتنة عمومية وخمدت نارها وظهر رؤساء الفتنة وبان المفسدون ان يخبر المجالس المحكمية المقامة فيها قضاياهم بأنه قد عفا عن الجنح السياسية وكذلك اذا حصل اتهام للمستخدمين فى فى الاموال الميرية باختلاس أو اهمال وكان عليهم تحقيق أو محاسبة أن يسامحهم مما اتهموا به ويخلى سبيلهم

مطلب فى ان عفو الملوك مطلوب لكونهم أولى بالتخلق باخلاق الرحمن

وبالجملة فحق العفو من الملوك الذين هم خلفاء الله فى أرضه على عباده مبنى على وجوب التخلق بأخلاق الرحمن أى الاتصاف بصفاته كالرأفة والرحمة والحلم وفى الحديث الشريف الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء وفى بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى ان كنتم تريدون رحمتى فارحموا عبادى وقيل فى هذا المعنى

ان كنت لا ترحم المسكين ان عدما * ولا الفقير اذا يشكو لك العدما
فكيف ترجو من الرحمن رحمته * وانما يرحم الرحمن من رحما

(وقال آخر)

ابغ للناس من الخيـ * ـر كما تبغى لنفسك
وارحم الناس جميعا * انهم أبناء جنسك

مطلب الكلام على الرعية وما يفعله الملك لاصلاحهم

وأما الرعية فهم طبقات متكاثرة فينبغى للملك ان يحسن تربية رعيته على اختلافهم ويهذب اخلاقهم بالآداب الحسنة وان يحمل أرباب الزراعة والتجارة والعمارة على تأدية حرفهم جميع حقوقها وينهاهم عن استنفاد الذهب والفضة فيما لا يحل كالاوانى

والاطواق واللجم والمناطق لئلا يضيق عليهم أمر المعاش بمعنى انهم لا يستعملون النقدين في الاشياء المستغنية عنهما فان الملوك المتقدمين كانوا لا يفعلون ذلك هم ولا رعاياهم فكثرت في ايامهم النقود والخيرات و ينبغي ان يشوق المحترفة بالعطايا والمكافآت وشمول النظر والمسامحات حتى يتسابقون الى تكثير مصنوعاتهم وهكذا كل طبقة

مطلب

حقوق الرعية المسماة بالحقوق المدنية أي حقوق أهالي المملكة الواحدة بعضهم على بعض

وبسط الكلام على عموم الرعية ان يقال ان لهم حقوقا في المملكة تسمى بالحقوق المدنية يعني حقوق أهالي المملكة الواحدة بعضهم على بعض وتسمى بالحقوق الخصوصية الشخصية في مقابلة الحقوق العمومية وهي عبارة عن الاحكام التي تدور عليها المعاملات في الحكومة وهذه الحقوق في كتب الفقه عبارة عن المعاملات والانكحة والفرائض والوصايا والحدود والجنايات والدعاوى والبينات والاقضية فالحقوق المدنية المذكورة هي حقوق أهل العمران بعضهم على بعض لحفظ أملاكهم وأموالهم ومنافعهم ونفوسهم وأعراضهم وما لهم وما عليهم محافظة ومدافعة ويتفرع من حقوق المملكة العمومية أي السياسة والادارة الملكية ومن الحقوق المدنية الشخصية فرع آخر من الحقوق يسمى بحقوق الدوائر البلدية يعني حقوق النواحي والمشيخة البلدية فهذه الحقوق تتعلق بالامتيازات الخصوصية لكل ناحية

مطلب

حقوق الدوائر البلدية التي هي فرع من المدنية

ثم ان الدائرة البلدية والناحية والمشيخة الفاظ مترادفة في عرف الادارة على معنى واحد فحقوق الدوائر البلدية الامتيازية هي استقلال النواحي بالتصرفات الرشدية يعني استقلال كل ناحية بتحسين نظامها من حيث خصائصها البلدية وحال أهاليها واستبدادها بحفظ مصلحتها الخاصة بها تحت ظل الحكومة وهي مجموع قرية أو حارة أو أكثر صارت ناحية لما فيها من الروابط والعلاقات الخصوصية التي استدعتها المنافع العمومية فهي جزء من المملكة الكلية امتازت من اجزاء مملكتها بالمزايا الخصوصية البلدية كاختصاصها باسواق دوريه ومواسم سنويه وعوائد محليه وعمائر خيريه

مطلب

سبق تكون الدوائر البلدية على تكون الحكومات والممالك

ثم ان تكون النواحي سابق الوجود على تكون الحكومات واقدم منها في التجمعات التأنسية فالنواحي أصل الممالك فقد كانت النواحي مشيخات صغيرة مستقلة منفرد بعضها عن بعض على قرية أو أكثر أو على بندر ومدينة بوصف دائرة بلدية وكان الحامل لاهلها على الاجتماع والاتحاد اقتضاء الحاجة الانسانية للتأنس والتعيش والتحفظ حيث أحسوا باحتياجاتهم الى ادارة داخلية لدائرتهم فاحتاجت تلك الادارة الى عمل ومحافظة وحسن تدبير وملاحظة فاستدعى الحال الى رئيس يقوم بادارة تلك الدائرة و يسوس امرها و يقوم أودها فاختار أهل هذه الدائرة لهذه الوظيفة اعقل العشيره وأنورهم بصيره

وكانوا

وكانوا فى مبدا الامر يختارون بالرغبة والطوع لمثل ذلك شيخا من شيوخ الاهالى الطاعنين فى السن ممن أفادتهم كثرة التجاريب المعلومات القوية والهيبة والوقار ويجعلونه كبير الناحية ومن المعلوم ان من طعن فى السن يطلق عليه اسم الشيخ فلذلك قيل لهذا الشيخ شيخ البلد أو شيخ الناحية أو شيخ الحارة وقيل للبلد وللناحية وللحارة مشيخة فاستمر الحال على هذه التسمية حتى انتظمت النواحى فى الحكومات وانخرطت فى سلك الممالك وصارت أجزاء لكل أو جزئيات لكليات وبقى اسم الشيخ دالا على كبير القوم أيا ما كان عمره

مطلب سبب تلقيب رئيس الناحية بشيخ البلد

ثم بتداول الازمان وترتيب البلدان وانضمام عدة أقاليم أو مدن تحت رياسة واحدة تنظمت النواحى تنظيما رسميا تابعا لانقسام البلاد الى ممالك والممالك الى ايالات والايالات الى كور أو مديريات والمديريات الى أقسام والاقسام الى أخطاط والاخطاط الى نواحى ودوائر بلدية أو الى مدن والمدن الى أجزاء وسمى شيخ المملكة سلطانا أو ملكا أو رئيس جمهورية وسمى حاكم الايالة واليا أو أميرا وحاكم المدينة محافظا أو مأمورا وحاكم المديرية مديرا وهكذا وحاكم البلد شيخ البلد أو عمدة وهكذا على حسب عرف كل بلاد واختلفت الاسماء باختلاف عرف الاقاليم والنواحى والمسميات متحدة

فقد تأسست كلية الحكومة على عمد نواحيها ومعاونيهم فهم أعضاء لجسد الحكومة وجميع الخدامات المحلية محالة على عهدتهم واعتماديتهم حتى ان القوانين قد ترتبت فى الحكومة بحسب دوائرها البلديه واقتضاء مواقعها المحليه من المزايا الخصوصيه

مطلب تحكير الملتزمين فى أوروبا قديما على الاراضى والفلاحين

وفى الازمان السالفة قبل تقدم الجمعية فى البلاد الاروبية وقبل أخذها من التمدن بالحظ الاوفر كان أكثر أهالى حكوماتها ملتزمين وأمراء كبار مستقلين بتملك الدوائر البلديه والاراضى الزراعيه يملك الواحد منهم القسم بتمامه ويستبد فيه برأيه وتنفيذ أحكامه ويدفع خراجا مقررا لرئيس الحكومة الكبيرة فكان هؤلاء الملتزمون والامراء مستبدين بما تحت أيديهم من المدن والقرى والبلاد ومستعبدين لما فيها من الفلاحين والاهالى والعباد وفى مقابلة ذلك يدفعون الخراج المقرر المعلوم لولاة الامور بشرط اتباع القوانين المعلومة والاصول والرسوم فكانت النواحى تابعة لهؤلاء الاساتيذ الملتزمين التابعين تبعية ضعيفة للملوك مع مباراتهم لهم بالمشاحنات فى كل وقت مثل ما كان جاريا بالديار المصرية فى عهد المماليك

مطلب
مانتج فى أوروبا من الحروب الصليبية لاخذ القدس الشريف وغيره من بلاد الاسلام

فلما دعت الحروب الصليبيه والغزوات الافرنجيه فى البلاد المشرقية الاسلاميه الى سفر رؤساء الجيوش بأنفسهم الى هذه الحروب وكانوا هم أرباب الالتزام واقتضى الحال أن يأخذوا من التزاماتهم ماقدروا عليه من الاموال والنفوس لحرب الاسلام وكانوا أرباب حميه قويه وغيرة دينيه وطالت أزمنة الغزو والقتال للتغلب على القدس الشريف العزيز المنال مع كثرة الانفاق لطول الشقاق وتبصرهم فى ادخال محاسن التمدن المشرقيه فى بلادهم المغربيه وتعلمهم من الاسلام ماحسن بلادهم وانفاقهم النفقات الجسيمه فى الحصول على ذلك كله مددا مديده فتضعضع بهذا من جهة المعايش حالهم وضاعت فى الازمان المختلفة أموالهم ورجالهم وعمتهم لضرورة الحروب الفاقه وعجزوا عن الاطاقه واضطروا الى بيع الاراضى والرجال فاشترى منهم أهل النواحى أملاكهم وأنفسهم بالاموال ومنهم من اشترى الامتياز بحق تنصيب شيخ من الناحية للمحاماة عن الحقوق الاهلية فتمتعوا من ذلك الوقت بالمزايا الاهليـة والحقوق المدنية وتملكوا الاملاك وخرجوا من ربقة التبعية وصاروا على تداول الايام يزدادون فى القوة بقدر ضعف الملتزمين وفقدهم للنخوة فتواجدت عند الجميع الحريه وصارت ممالك أوربا بالتمدن حقيقة وحريه

وقد ترتب على اعتاق اعناق الدوائر البلديه وتحرير رقاب النواحى فى البلاد الاروباويه كما فى غيرها من البلاد المتمدنة فائدتان مهمتان (احداهما) تمتع أهالى النواحى بثمرات الاكتساب وتحصيل المنافع وتحسين أحوال أهاليها بالثروة والغنى والاخذ فى التمدن والتقدم فى العمران (وثانيتهما) قوة الحكومة وتمكين الدولة حيث صارت جميع النواحى بالمملكة تابعة لها مباشرة بدون توسط الملتزمين والامراء والاساتيذ والكبراء لان النظام العمومى فى الدولة انما يتم بوحدة الحكومة واستبدادها بالتصرفات الملكيه ورفض مذهب السيادة الارضيه وطرح مشعب الالتزامات البلديه ظهريا ونبذ طرق تعدد الاحكام المختلفة مكانا قصيا فالمملكة المتوحده يدمرها كثرة الحكام المتعدده

ثم لم تزل النواحى تأخذ فى التمكن من التصرفات الرشيديه والتقدم فى محافظات حقوق الدوائر البلديه بعناية الحكومة الكليه حتى صارت قويه متينه محررة مصونه لان قوة الاجزاء مستلزمة لقوة الكل فتمتع جميع الاهالى اذذاك بثمرات مهاراتهم الصناعيه وآثار براعتهم الزراعيه

ومن المعلوم ان الشريعة الشريفة من صدر الاسلام ناطقة بما هو أقوى من ذلك وأقوم

والسيرة العمرية صادقة فيما هو أتم من ذلك كله وأنظم والاسلام سوى بين الجميع في العدل والانصاف وقدعم به التمدن في سائر الاقطار والاطراف واعترف له بذلك جميع أمم الدنيا كمال الاعتراف فلا يضيره ولا يضره سفاهة بعض حكام سلفوا حيث خالفوا أحكامه المرضية في أيامهم فلا يقاس على تلك الايام وذلك لحكومة المماليك في مصر وتحميلهم لاهلها ثقيل الاصر فهذه قضية شخصية لاتنقض العموم بدليل زوالها في أجل مسمى ووقت معلوم

مطلب
كون الاحكام الاسلامية مقتضية تسوية جميع الناس في العدل والانصاف

فقد وفق المولى تبارك وتعالى المرحوم محمد على صاحب المساعي المشكوره وكذلك من بعده من ورثائه على قدر حاله وامكانه لاسيما خديو مصر العادل فقد شرع في تأسيس الدوائر البلدية المحرره وبنى ذلك على قواعد ثابتة مقرره فالآن بعناية هذا العزيز الجليل وحسن رعايته الظاهرة كالشمس فلا يقام عليها دليل تفوز مصر بنجح الآمال وترقى الى درجة الكمال ثم ان ترتيب عمد الدوائر البلدية التي هي النواحي وترتيب معاونيهم ومأموريهم ومعاوني الضبطية انما هو بحسب جسامة كل ناحية واتساع دائرتها وثروة أهلها حتى ان الناحية الجسيمة يترتب فيها أيضا مشورات بلدية رشدية للاتحاد مع العمدة ومساعدته في الامور المهمة فالمدار في ادارة الناحية وضبطيتها على العمدة وهو كثير الوظائف ومنوط بامور جمة منها تنظيم جرائد الانساب وهو تسجيل المولودين والمتزوجين والمفقودين على الرسوم المربوطة وهو من أهم أمور المملكة في حفظ الاموال والنفوس والقرابات ينبني عليه أبواب كثيرة من الفقه والسياسة فالعمدة من ذوي الادارة المدنيه والضبطية الحاكميه الا ان الادارة البلدية التي هي أصل وظيفته الاصليه تحت رياسة المديريه ولما تفرعت وظائفه وتشعبت خصائصه كان شيخ الناحية بالنسبة لها كمدير صغير وولي على دائرتها فهي كاليتيم وهو كالكفيل النصير فمن خصائصه مباشرة أملاك دائرة الناحية وعقاراتها وايراداتها وتقنين مصاريفها بما تقتضيه المصلحة والغبطة وتسديد ما عليها من أموال الميري ومن الديون

مطلب
ترتيب عمد الدوائر والمشورات البلدية

ومن خصائصه أيضا ترتيب الاشغال العموميه واجراء العملية اللزوميه على طرف الدائرة البلدية اذا كانت هي الملزومة بالمصاريف ومن خصائصه أيضا مباشره ادارة عمائر المحال الخيريه التابعة للناحية اذا كانت مصاريفها على دائرة الناحية او كانت المصاريف على الحكومة وكانت المحال الخيريه معدة لمنافع الدائرة البلدية كالاسبتاليات والمكاتب ومن خصائصه أيضا التشبث بكافة الوسائل التي تجلب الراحة والامنية وحسن الانتظام لاهالي البلدة وكذلك الاعتناء بتهذيب الاخلاق

مطلب
خصائص شيخ الدائرة البلدية

والتأديب والتربية للاهالى وتعويلهم على الاستقامة وعدم ارتكاب مافيه سقامه
ومن مأموريانه أيضا توزيع مايخص دائرة الناحية فى ضمن عموم المديرية من الاموال
والعوائد وتوزيعها على أشخاص الناحية بحسب ميسرة كل منهم بالاتحاد مع شورى
الناحية لعدم المغدورية وكذلك يجب تحصيل الاموال والعوائد بحسب التوزيع
وتوريدها الى خزينة القسم أو الى خزينة المديرية حسب الاصول المقررة وعليه أيضا
الملاحظة للاشغال العمومية والعمليات والمحافظة على أملاك الحكومة والبحث
عن اصلاح المساجد والمعابد والمشاهد والقرافات والاضرحة والمكاتب والمدارس
والآثار القديمة وكل ماهو فى الناحية من أمثال ذلك

مطلب الترخيص لشيخ الناحية باجراء ماهو من خصائصه بدون استئذان ممن هو فوقه من الحكام الا فى أمور جسيمة

وبالجملة فعمدة البلد أو الناحية مرخص له بدون استئذان من ديوان القسم أو المديرية
أن يجرى من بادئ رأيه جميع ماهو من خصائصه ووظائفه وحدوده ماعدا بعض
أشياء جسيمة يحتاج فيها للاستئذان من الرئيس الذى هو أعلى منه وهو المدير بالنسبة
للادارة البلدية ونائب الملك فى المحاكم بالنسبة للضبطية الحاكمية فمما يحتاج فيه
العمدة للاستئذان شراء عقارات أو أراضى للناحية أو بيع مثل ذلك من الناحية
أو ضرب عوائد على الاهالى غير المقنن فوق العادة لمصروف الناحية لاحتياجاتها
وكاقتراض أموال على طرف الناحية للوازمها وكتجديد أشغال ومنافع وعمارات
وسكك وكالتجارة فى أموال الناحية المتوفرة فى صندوقها بعد المصرف وكالتداعى
فى قضايا تخص الناحية أو قبول التخاصم والتداعى مع أحد ادعى على دائرة الناحية

مطلب مايجب أن يكون عليه شيخ البلد من المعلومات

بشئ فكل هذا على العمدة أن يستأذن فيه من محل الاقتضاء وماعدا ذلك من حقوق
الناحية هو من دائرة تصرفه وحدوده فيجب على العمدة بحسب الامكان أن يباشرها
بنفسه فهو المحامى عن الناحية محاماة الولى لليتيم والكفيل للمكفول وللحكومة العليا
تولية من يفتش أحوال الدائرة البلدية كالناظر الحسبى

مطلب كون الملك ينتخب للولايات المهمة من أرباب المعارف السياسية من فيهم الكفاءة اللازمة والمعلومات الكافية

فيجب على كل عمدة أن يكون له المام بالاحكام الشرعيه والقوانين الوضعيه
وممارسته للاحكام الملكيه فان جهله لهذه الاحكام يحط بمقامه ويزرى به بين
أقرانه وأقوامه ولهذا اعتنى المؤلفون فى سائر الدول والملل فى تأليف كتب السياسة
على سائر الفنون وجعلوها فى طاقة الحكام واذا كان هذا وصف شيخ البلد وأنه يزرى
به جهل شريعة البلد وأحكامها السياسة الشرعية فما بالك بمن هو أعلى منه من
الموظفين كوكلاء المملكة ووزرائها ونوابها وحجابها فالملك العاقل المدبر لاينتخب
للوظائف المهمة الامن يكون جامعا لخصال الخير حسن الخلق والخلق يجمع بين
البشاشة والوقار والحلم والهيبة والعفة والنزاهة وعزة النفس وسداد الرأى وحسن

التدبير

التدبير وسرعة الفهم والعلم بالامور السياسية والقوانين الملكيه والاحوال الديوانيه والوقوف على أحوال المسالك والممالك ومابينهما من العلاقات والروابط والعهود والضوابط وان يكون معروفا بالصدق والوفاء متبحرا فى أنواع العلوم السياسية له خبرة بكتابة الانشاء والمحاسبات ذكى الفطنة سريع الجواب كثير الصواب متيقظا فى تدبير الدولة العادلة معمرا للجهات والنواحى والاعمال مثمر الاصناف الاموال وتحصيل الغلال مقتصدا فى وجوه صرفها ونفقاتها (قالت) الحكماء يجب أن يكون الوزير مثل المرآة التى لها وجهان ينظر بوجه منهما الى الله تعالى وبالآخر الى الرعية انتهى ومثل الوزير فى ذلك سائر رؤساء المملكة فانهم جميعا كالراعى الذى استؤجر لحفظ الاغنام فاذا حفظوها استحقوا الاجرة وان ضيعوها أخذوا بالغرامه وحبسوا فى سجن الملامه وخسروا الدنيا والآخرة ويقال لهم يارعاة السوء اكلتم السمين وضيعتم الهزيل فحق منكم الانتقام بخلاف الوزراء الذين يعلمون أن الشريعة معيار المملكة والسياسة ميزان السلطنة فيزنون الرعايا كانفسهم بميزان الشريعة والسياسة فهؤلاء يفوزون بسلامة الدنيا والآخرة لما حفظوه من الوزن بقسطاس العدل فى صيانة النفس والمال والعرض فبالعدل قامت السموات والارض

وبالجملة فعلى ولى الامر ان يجتهد حتى يرضى عنه جميع رعيته وان ينزل نفسه منزلتهم وكل مايحبه لنفسه يحبه لهم وعليهم الطاعة الكاملة له لقوله تعالى اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فقد قرن تعالى طاعة ولاة الامر بطاعة نفسه ورسوله فهذه عظمة جميلة لولاة الامر ومنزلة جليلة تبلغ النهاية فى رفعة القدر فاذا ظهر لولى الامر عدو لزمهم معاونة الملك عليه فاذا استقرضهم اقرضوه واذا استعان بهم أعانوه وان عدل فيهم مدحوه وان ثقل عليهم شئ من أحكامه صبروا الى ان يفتح الله لهم باب هدايته للخير وارشاد دولته للعدل وزوال الضير ويسألون الله تعالى ان يرزقه بطانة أهل حكمة وشجاعه وعفة وعداله

فالملك المرزوق بموظفين متصفين بهذه الخصال المحمودة هو مسعود الرعية فهو الذى يتجمل به الزمان ويرضى عنه الرحمن واهتمام الملك وموظفيه بمصالح الرعية لايمنع من سعيهم أيضا فى اصلاح انفسهم بقدر الامكان لان من لم يصلح نفسه عسر عليه اصلاح غيره وكيف يعرف رشد غيره من لايعرف رشد نفسه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

الفصل الثانى

(فى طبقة العلماء والقضاة وأمناء الدين)

والمراد بهم هنا مايشمل علماء الحقيقة وعلماء الشريعة وعلماء الحكمة والامور النافعة التى عليها انتظام الدنيا والدين فأما علماء الحقيقة أهل الزهد والورع وقليل ماهم فهم أصحاب الاخلاص فى الدين وعن محبة الدنيا تراهم متباعدين وأما العلماء وهم ورثة الانبياء وحملة الشريعة فدرجتهم من أمة النبى صلى الله عليه وسلم مثل درجة انبياء بنى اسرائيل وكرامتهم عظيمة ولحومهم مسمومة من شمها مرض ومن أكلها سقم فمن عظمهم فقد عظم الله ورسوله واعطى درجة العلم حقها وهو فضل الله يؤتيه من يشاء (قال) صلى الله عليه وسلم لولا العلماء لهلكت أمتى اللهم احفظ العلماء واعف عن الجهال وارحم الناس فيجب على الدولة ان تحترم علماء الشريعة وتكرمهم وتثيبهم على تعليمها والمحافظة عليها بل عليها أيضا ان تتحرى ادخال السرور عليهم واستمالة قلوبهم والتعطف عليهم وان تتقرب اليهم بالصلات وان تتحف اولادهم بالتحائف رفقا بهم وتلطيفا لهم وان تحملهم على الاشتغال بالعلم والمراد بعلماء الشريعة العارفون بالاحكام الشرعية والعقائد الدينية اصولا وفروعا يعنى الاحكام المتعلقة بالعمل عبادات ومعاملات ويلحق بهم أهل العلوم الآلية العقلية التى يتوقف عليها فهم العلوم الشرعية لان الوسائل تشرف بشرف المقاصد وينبغى زيادة الاجلال والتبجيل لاهل التفسير والحديث وهم العلماء المنتدبون لعلوم القرآن وتفاسيره ورواية الحديث باسانيده وبعلوم الترغيب والترهيب وتبجيل علماء الحقيقة الذين انجلى عن قلوبهم الخبث وقاذورات الدنيا وارتفع عنها الغطاء والرين حتى اتضحت لهم حلية الحق عيانا وانتظمت شمائلهم فى سمات الصالحين الذين بذكرهم تنزل الرحمات من رب العالمين فمثل هؤلاء ينبغى الاتحاد بهم لاستفادة الخير منهم فمن كان جليسه صاحب علم أو صلاح استفاد منه خيرا لانه قلما يخلو مجلسه عن مسئلة وعظ أو نصح

أحب الصالحين ولست منهم * لعلى ان أنال بهم شفاعه
واكره من بضاعته المعاصى * وان كنا سواء فى البضاعه

(وقيل)

لى سادة من عزهم * اقدامهم فوق الجباه
ان لم اكن منهم فلى * من حبهم عز وجاه

فمجالسة الصالحين فائدة عائدة بالخير العميم على مجالسيهم وفى الحديث يحشر المرء مع من أحب وقال صلى الله عليه وسلم العالم والمعلم شريكان فى الخير وكذلك يحترم ويكرم العلماء المشتغلون بجملة علوم شريفة ينتفع بها ويحتاج اليها

فى الدولة

فى الدولة والوطن كعلم الطب والهندسة والرياضات والفلكيات والطبيعيات والجغرافيا والتاريخ وعلوم الادارة والاقتصاد فى المصاريف والفنون العسكرية وكل ما كان له مدخل فى فن أو صناعة فان أهله يجب اكرامهم من أهل الدولة والوطن وكذلك يجب اسداء المعروف واصطناعه لارباب المعارف الادبية والفصاحة العربية فقد ذكر ابن رشيق فى العمدة ان اعرابيا وقف لعلى رضى الله عنه فقال ان لى اليك حاجة رفعتها الى الله قبل أن أرفعها اليك فان أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك وان أنت لم تقضها حمدت الله وعذرتك فقال خطها فى الارض فخط انى فقير فدفع اليه حلة فلما تسلمها أنشد

كسوتنى حلة تبلى محاسنها * فسوف اكسوك من حسن الثنا حللا
ان الثناء ليحيى ذكر صاحبه * كالغيث يحيى نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به * فكل عبد سيجزى بالذى فعلا

فأمر له بخمسين دينارا وقال الحلة لفاقتك والخمسون لأدبك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أنزلوا الناس منازلهم

وقد نص المؤرخون على انه لم يك فى الدنيا فى قديم الزمان اعظم دولة ولا اشمخ مملكة ولا أدوم أياما وذكرا من دولة مصر والفرس واليونان وسبب ذلك تعظيمهم للعلوم والحكمة وتمكين من يشتغل بذلك ورعاية جانبه حتى كان اكثر ملوكهم علماء وحكماء فمن تمام رونق المملكة اشتمالها على أئمة فى هذه العلوم بأسرها فما اضيع دولة قل علماؤها وحكماؤها وفسدت مزارعها وكسدت منافعها ولم تجد من يحييها ولا من يحيى بتحيات العلوم معالمها ونواحيها ولكن الحمد لله الذى من على مصر بخلافة الخلفاء على الاطلاق حيث جعلوا فيها شموس العلوم ساطعة الاشراق ثم من عليها بدولة آل عثمان فحفظت بالنسبة اليها ما بقى فيها من مكارم الاخلاق مع المحافظة على القوانين الشرعيه لاسيما وان من نتيجة تسلطنهم عليها انتشريف ذى النفس الزكيه والمناقب السنيه جنتمكان المرحوم محمد على الذى ابقى بحسن صنيعه ذكره مدى الايام وآل أمر المملكة لحفيده الرفيع المقام

انما المجد ما بنى والد الصد * ق وأحيا فعاله المولود

فقد جدد دروس العلوم بعد اندراسها وأوجدت بعد العدم رؤساء العلماء والفضلاء نتيجة قياسها لقصد انتشار العلم والزيادة فى الفضائل فأتى من ذلك بما لم تستطعه الاوائل غير انه حفظه الله وأبقاه ولو أنه أعلى منار الوطن ورقاه لم يستطع الى الآن ان يعم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الازهر الانور ولم يجذب طلابه الى تكميل

عقولهم بالعلوم الحكمية التى كبير نفعها فى الوطن ليس ينكر نعم ان لهم اليد البيضاء فى اتقان الاحكام الشرعية العملية والاعتقاديه وما يجب من العلوم الآليه كعلوم العربية الاثنى عشر وكالمنطق والوضع وآداب البحث والمقولات وعلم الاصول المعتبر ولمثل هذا فليعمل العاملون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون غير ان هذا وحده لايفى للوطن بقضاء الوطر والكامل يقبل الكمال كما هو متعارف عند أهل النظر

مطلب
انه ينبغى للعلماء الشرعيين أن يتشبثوا أيضا بمعرفة المعارف البشرية كالعلوم الحكميه العمليه

ومدار سلوك جادة الرشاد والاصابه منوط بعد ولى الامر بهذه العصابه التى ينبغى ان تضيف الى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفه ورفع اعلام الشريعة المنيفه معرفة سائر المعارف البشريه المدنيه التى لها مدخل فى تقديم الوطنيه من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الامة المحمديه فانه بانضمامه الى علوم الشريعة والاحكام يكون من الاعمال الباقية على الدوام و يقتدى بهم فى اتباعه الخاص والعام حتى اذا دخلوا فى امور الدوله يحسن كل منهم فى ابداء المحاسن المدنية قوله فان سلوك طريق العلم النافع من حيث هو مستقيم ومنهجه الابهج هو القويم يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أقوم وتلقيه من أفواههم أتم وأنظم لاسيما وان هذه العلوم الحكمية العملية التى يظهر الآن انها أجنبيه هى علوم اسلاميه نقلها الاجانب الى لغاتهم من الكتب العربيه ولم تزل كتبها الى الآن فى خزائن ملوك الاسلام كالذخيره بل لا زال يتشبث بقراءتها ودراستها من أهل اوروبا حكماء الازمنة الاخيره فان من اطلع على سند شيخ الجامع الازهر الشيخ أحمد الدمنهورى الذى كانت مشيخته قبل شيخ الاسلام الشيخ أحمد العروسى الكبير جد شيخ شيوخ الجامع الازهر الآن السيد المصطفوى العلم الشهير رأى انه قد أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير وانه له فيها المؤلفات الجمه وأن تلقيها الى أيامه كان عند أهل الجامع الازهر من الامور المهمه فانه يقول فيه بعد سرد ما تلقاه من العلوم الشرعية وآلاتها معقولا ومنقولا اخذت عن استاذنا الشيخ المعمر الشيخ على الزعترى خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات وبما توقف عليها كالفرائض والميقات وسيلة ابن الهائم ومعونته كلاهما فى الحساب والمقنع لابن الهائم ومنظومة الياسمينى فى الجبر والمقابلة ودقائق الحقائق فى حساب الدرج والدقائق لسبط المارديني فى علم حساب الازياج ورسالتين احداهما على ربع المقنطرات والأخرى على ربع المجيب كلاهما للشيخ عبد الله الماردينى جد السبط ونتيجة الشيخ اللادقى المحسوبة لعرض مصر والمنحرفات لسبط الماردينى فى علم وضع المزاول وبعض اللمعة فى التقويم واخذت عن سيدى احمد القرا فى الحكيم بدار الشفاء بالقراءة عليه

كتاب الموجز واللمحة العفيفية فى اسباب الامراض وعلاماتها بشرح الامشاطى وبعضا من قانون ابن سينا وبعضا من كامل الصناعة وبعضا من منظومة ابن سينا الكبرى والجميع فى الطب وقرأت على أستاذنا الشيخ عبد الفتاح الدمياطى كتاب لقط الجواهر فى معرفة الحدود والدوائر لسبط المارديني فى الهيئة السماوية ورسالة ابن الشاط فى علم الاسطرلاب ورسالة قسطاس لوقا فى العمل بالكرة وكيفية أخذ الوقت منها والدر لابن المجدى فى علم الزيج وقرأت على أستاذنا الشيخ سلامة الفيومى اشكال التأسيس فى الهندسة وبعضا من الجغمينى فى علم الهيئة وبعضا من رفع الاشكال عن مساحة الاشكال فى علم المساحة وقرأت على شيخنا الشيخ عبد الجواد المرحومى جملة كتب منها رسالة فى علم الارتماطيقى للشيخ سلطان المزاحى وقرأت على الشيخ محمد الشهير بالسحيمى منظومة الحكيم درمقاش المشتملة على علم التكسير وعلم الاوفاق وعلم الاستنطاقات وعلم التكعيب ورسالة أخرى فى رسم ربع المقنطرات والمنحرفات لسبط المارديني وعلم المزاول ومنظومة فى علم الاعمال الرصدية وروضة العلوم وبهجة المنطوق والمفهوم لمحمد بن ساعد الانصارى وهى كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علما اولها علم الحرف وآخرها علم الطلاسم ورسالة للاسرائيلى ورسالة للسيد الطحان كلاهما فى علم الطالع ورسالة للخازن فى علم المواليد أعنى الممالك الطبيعية وهى الحيوانات والنباتات والمعادن وأخذت عن شيخنا الشيخ حسام الدين الهندى شرح الهداية فى علم الحكمة ومتن الجغمينى فى علم الهيئة بمراجعة قاضى زاده ومطالعة السيد عليه وأخذت عن سيدى احمد الشرفى شيخ المغاربة بالجامع الازهر كتاب اللمعه فى تقويم الكواكب السبعة

ولنذكر ما تلقاه من هذه العلوم أعقبه بما طالعه بنفسه بدون الاخذ عن شيخ فقال طالعت كتاب احياء الفؤاد بمعرفة خواص الاعداد فى علم الارتماطيقى فى نحو كراسين وكتاب عين الحياة فى علم استنباط المياه فى نحو كراسين ورسالة فى الكلام اليسير فى علاج البواسير فى نحو كراسين ورسالة التصريح بخلاصة القول الصريح فى علم التشريح فى نحو كراسين ومنها كتاب اتحاف البريه بمعرفة الامور الضروريه فى علم الطب فى نحو خمسة كراريس ومنها رسالة القول الاقرب فى علاج لسع العقرب فى نحو كراس ومنها منهج السلوك فى نصيحة الملوك فى نحو عشرة كراريس ومنها كتاب بلوغ الارب فى أسماء سلاطين العجم والعرب معنونا باسم السلطان مصطفى خان ابن السلطان احمد خان المولود فى رابع عشر شهر صفر سنة تسع وعشرين ومائة وألف يوم الاربعاء اول النهار فى الساعة الاولى بعد الشمس الجالس على سرير الملك فى سابع عشر شهر صفر الخير سنة احدى وسبعين ومائة وألف يوم الاحد قبل الشمس انتهى كلامه ملخصا بتصرف

فانظر الى هذا الامام الذى كان شيخ مشايخ الجامع الازهر وكان له فى العلوم الطبية والرياضية وعلم الهيئة الحظ الاوفر مما تلقاه عن أشياخه الاعلام فضلا عن كون أشياخه كانوا أزهريه ولم يفتهم الوقوف على حقائق هذه العلوم النافعة فى الوطنية وفضل العلامة الجبرتى المتوفى فى أثناء هذا القرن فى هذه العلوم وفى فن التاريخ أمر معلوم وكذلك العلامة الشيخ عثمان الوردانى الفلكى وكان للمرحوم العلامة الشيخ حسن العطار شيخ الازهر أيضا مشاركة فى كثير من هذه العلوم حتى فى العلوم الجغرافية فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لاسمعيل أبى الفداء سلطان حماه المشهور وأيضا بالملك المؤيد وللشيخ المذكور هوامش أيضا وجدتها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الاطباء وغيرها وكان يطلع دائما على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية مع غاية الديانة والصيانة وله بعض تآليف فى الطب وغيره زيادة عن تآليفه المشهورة فلو تشبث من الآن فصاعدا نجباء أهل العلم الازهريين بالعلوم العصرية التى جددها الخديو الاكرم بمصر بانفاقه عليها أوفر أموال مملكته لفازوا بدرجة الكمال وانتظموا فى سلك الاقدمين من فحول الرجال وربما يتعللون بالاحتياج الى مساعدة الحكومة والحال ان الحكومة انما تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر فترجع المسئلة دورية والجواب عنها ان الحكومة قد ساعدت بتسهيل الوسائط والوسائل ليغتنم فرصة ذلك كل طالب وسائل وكل من سار الى الدرب وصل وانما تكون المكافاة على تمام العمل فهذا ما يتعلق بطبقة العلماء وقد ذكرنا ما يتعلق بالعلم فى الفصل الاول من الباب الاول من هذا الكتاب مبسوطا بما فيه الكفاية

مطلب منصب القضاء وجلالة قدره

ومن أجلاء طبقة العلماء القضاء فرتبة القضاء قد جعل الله اليها منتهى القضايا وانهاء التظلمات والشكايا ولا يكون صاحبها الا من العلماء الذين هم ورثة الانبياء فالقاضى متولى الاحكام الشرعية لهذه الرتبة كما ورث عن النبى صلى الله عليه وسلم علمه وورث عنه بهذه الوظيفة الشريفة حكمه

مطلب اجتماع منصب القضاء مع نقابة الاشراف فى عائلة مؤلف الكتاب ومن تولى من عائلته قضاء مصر وذكر نسبهم

ومما ينبغى ذكره هنا بالمناسبة ان من من الله سبحانه وتعالى على عائلتنا بطهطا أن اجتمع فيها مع منصب نقابة الاشراف التى هى لم تزل فى بيتنا الى الآن منصب قضاء الولاية فى كثير من نسلنا

ان الله علينا نعما * يعجز العبد عن العد لها

فله الحمد على نعمائه * وله الشكر على الحمد لها

وكنت أسمع من أسلافنا أن من ذرية جدنا أبى القاسم الطهطائى من تقلد بمحروسة مصر بولايات شريفه وحظى عند ملوكها بالمراتب المنيفه حتى وقفت الآن على كتاب

يسمى ذيل رفع الاصر فى قضاة مصر للحافظ شمس الدين أبى الخير محمد بن عبد الرحمن
ابن محمد بن أبى بكر بن عثمان بن محمد السخاوى صاحب الضوء اللامع ترجم فيه لاثنين من
أقاربنا توليا قضاء مصر بالتعاقب ولما كان هذا الكتاب مرتبا على حروف المعجم ترجم
للخلف منهما قبل السلف فقال هذا المؤلف ما نصه عمر بن أبى بكر بن محمد بن حريز ويدعى
محرز بن أبى القاسم بن عبد العزيز بن يوسف بن رافع بن جندى بن سلطان بن محمد بن أحمد
ابن حجون بن أحمد بن محمد بن جعفر بن اسمعيل بن جعفر الزكى بن محمد المأمون بن على
الحارض بن الحسين بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن على بن
الحسين بن على بن أبى طالب القاضى سراج الدين بن الشيخ مجد الدين الحسينى المغربى
الاصل الطهطائى المنفلوطى المصرى المالكى الشهير بابن حريز بضم المهملة وآخره
زاى وهو أخو القاضى حسام الدين محمد الآتى والحسام هو الذى أملى على هذا
النسب بعد أن أثبته ثم أوقفنى عليه صاحب الترجمة فى جزء فيه ترجمة جده الاعلى الشيخ
أبى القاسم المذكور بالكرامات والاحوال السنية وكون الشيخ عبد الرحيم القنائى بن
عم جده وتقدمه فى الزمان وان من جملة من لقيه السراج البلقينى وانه مات فى مستهل
سنة اثنتين وستين وسبعمائة عن نحو تسعين سنة ودفن بزاويته التى أنشاها بطهطا وقبره
هنالك ظاهر يزار انتهى أنجب أبو القاسم هذا عدة أولاد كانت لهم جلالة وهيبة وكلمة
نافذة منهم نور الدين أبو الحسن على الضرير المقرى وجد والد صاحب الترجمة الزين أبو
المعالى حريز الموصوف من بعض من لقيه فى سنة ثمان وسبعين بالشيخ الامام المحدث
المقرى وكان مولد صاحب الترجمة فى سنة تسع عشرة بمنفلوط ونشأ بها فحفظ القرآن
والرسالة والملحة وجود القرآن على الشهاب الطهطائى وقرأ الفقه على الزينين عبادة
وطاهر والشهاب السخاوى وعليه قرأ فى العربية والفرائض ولازمه وانتفع به وأخذ
فى علم الكلام عن أبى عبد الله اليشكرى المغربى وسمع الحديث عن النجم بن عبد الوارث
فمن دونه وممن سمع عليه الشيخ أحمد بن يونس المغربى نزيل مكة حين اثبات هذه الترجمة
وأجازله العلم البلقينى وناب عنه وكذا عن غيره من الشافعية بعده وعن الولى السنباطى
المالكى وحج فى سنة أربع وستين وتعانى ادارة الدواليب والمعاصر (أى معاصر قصب
السكر) ونحوها كأخيه

ولما استقر أخوه فى قضاء المالكية صار يكتب على الفتوى وعرف بالديانة والامانة
والتصلب فى أمر دينه ومزيد اليبس وحسن المعاملة وصدق اللهجة والوفاء بالعهد
وذكر باستحضار فروع المذهب فصار الى رياسة وجلالة فلما مات أخوه استقر فى قضاء
المالكية بعده فى شعبان سنة ثلاث وسبعين وأعرض عن بعض وظائف كانت مع أخيه
كتدريس الشيخونية فاستقر فيها المحيوى بن تقى وتدريس جامع طولون أيضا فاستقر فيه

مطلب
تقلد القاضى عمر سراج الدين المنفلوطى الطهطائى فى قضاء مصر ونسب جده أبى القاسم الطهطائى

النورى بن التنيسى ثم رجع اليه بعد وفاته وقام بالمنصب مقاما حسنا متحريا فيه جهده وشكرت سيرته فيه وصمم فى قضايا وبرز فى مواطن جبن فيها غيره كل ذلك مع اشتغال فكره بما التزمه من ديون أخيه وكثرة التعرض له بسببها من الدوادار الكبير وكذا الثانى مرة بعد أخرى وآل الامر فى بعضها الى أن أمر السلطان بالترسيم عليه وأقام بطبقة الزمام بضعة عشر يوما وعد ذلك فى النوازل ثم أطلق وبعد ذلك أنهى الى السلطان فى شئ من تتمات ما أشير اليه يقتضى تغير خاطره منه فبادر يوم الاثنين سادس صفر سنة سبع وسبعين الى التصريح بعزله وتقرير الشيخ برهان الدين اللقانى وجاءه الشرفى الانصارى مبشرا بذلك وتألم السراج لهذا الامر كثيرا وظن انه بسبق سعى من البرهان والظاهر خلافه وكذا تألم له أحبابه هذا بعد أن كان فى أول هذا الشهر وقت التهنئة بالغ فى المشى فيما رأى انه الحق مما هو موافق لغرض السلطان فى قتل شاه سوار الذى شرحت خبره فى غير هذا المحل وجهر بذلك جهرا زائدا عن رفقته وانه لا تقبل توبته بل يضم اليه فى القتل كل جماعته ولم يعجب السلطان فيما قيل الجهر بذلك بل كان يحب اخفاء الامر فيه والله يحسن العاقبة ثم ترجم لاخيه فقال

مطلب تقليد القاضى محمد ابن أبى بكر حسام الدين المنفلوطى الطهطائى قضاء مصر

محمد بن أبى بكر بن محمد بن حريز وباقى نسبه مضى فى أخيه عمر القاضى حسام الدين أبو عبد الله الحسينى المغربى الاصل الطهطائى المنفلوطى المصرى المالكى عرف بابن حريز ولد فى العشر الاخير من شهر رمضان سنة أربع وثمانمائة بمنفلوط وانتقل منها وهو صغير مع أبيه الى القاهرة فقرأ القرآن بها على الشريف جمال الدين بن الامام الحسينى وتلاه برواية أبى عمرو من طريق الدورى على الجمال يوسف المنفلوطى أحد تلامذة جده الاعلى أبى القاسم المذكور بالامامة فى القراآت وغيرها كما سلف فى أخيه عمر ثم على الشهاب بن البابا والشهاب الهيثمى وتلاه بعد ذلك وهو كبير فى مجاورته بمكة بالسبع افرادا وجمعا على الشيخ محمد الكيلانى أحد أصحاب الشمس بن الجزرى ابتدأ عليه فى عاشر المحرم سنة ثمان وأربعين وختم فى رابع ذى الحجة منها وحفظ قبل ذلك العمدة والشاطبية والرسالة والالفية وعرضها على الجمال الاقفهسى والبدر الدمامينى والشمس البساطى وابن عمه القاضى جمال الدين والشمس بن عماد والولى العراقى والعز بن جماعة والجلال البلقينى والشمس والمجد البرماويين وشيخنا والتلوانى وآخرين وتفقه على الزين عبادة قرأ عليه الرسالة مرتين وصل فى الثانية الى الوصايا وربع العبادات فقط من ابن الحاجب والرسالة فقط على الشمس الغمارى المغربى نزيل الصرغتمشية وكذا أخذ عن الشمس البساطى وغيرهم وسمع على الولى العراقى بعض الصحيح وعلى الزين بن عياش بمكة صحيح مسلم والسنن لابى داود وعلى البدر حسين بن الاهدل بقراءته الشفاء وبقراءة القاضى فتح الدين بن سويد الموطأ وعلى

الشرف أبى الفتح المراغى بقراءة ابن سويد أيضا الشفاء كل ذلك فى مجاورته الماضية بعينها وكان حج قبل ذلك فى سنة اثنتين وعشرين وولى قضاء منفلوط عن شيخنا فمن بعده وأورد شيخنا فى حوادث سنة اثنتين وأربعين ان القاضى بهاء الدين الاخنائى حكم بحضرة مستنيبه بقتل بخشيباى الاربلى حد الكونه لعن أجداد صاحب الترجمة بعد ان قال له أنا شريف وجدى الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم واتصل ذلك بقاضى الاسكندرية فأعذر ثم ضربت عنقه

ولازم القاضى حسام الدين المطالعة فى كتب الفقه والتفسير والحديث والتاريخ والادب حتى صار يستحضر جملة مستكثرة من ذلك كله ويذاكر بها مذاكرة جيدة مع سرعة الادراك والفصاحة والبشاشة والحياء والشهامة والبذل لسائليه وغيرهم والقيام مع من يقصده فى مهماته واقتناء الكتب النفيسة والتبسط فى أنواع المآكل ونحوها والقيام بما يصلح معيشته من زرع الغلال والقصب وطبخ السكر وغير ذلك وحمد الناس معاملته فى صدق اللهجة والسماح وحسن الوفاء حتى رغب ذوو الاموال فى معاملاته وممن كان يتردد اليه من مشايخنا المزيد احسانه واكرامه السيد النسابة وربما سمع الحسام عليه بعض النسائى الكبير بل استكتبه ليسمعه بتمامه فما تيسر والزين البوتيجى وكان يحكى من كرامات بعض سلف الحسام شيأ كثيرا ولم يزل دأبه ما حكيناه الى ان مات القاضى ولى الدين السنباطى فى ليلة الجمعة تاسع شهر رجب سنة احدى وستين والتمس من يصلح لقضاء المالكية ويستقر لمن بعده فيه وتطاول لذلك غير واحد فاقتضى رأى الجمالى ناظر الخاص استقراره به لما علمه فيه من رياسته وشهامته وراسل كلا من القاضى الشافعى ابن البلقينى والقاضى الحنفى ابن الديرى فى الثناء عليه عند السلطان واستحقاقه له ففعلا واستقر فى يوم الاحد ثانى عشر الشهر المذكور وركب فى أبهة وخفر وفرح الناس به لاسيما رفقته من بقية المذاهب لما وقر عندهم من حشمته ومحاسنه الجمة وحينئذ باشره بعفة ونزاهة وشهامة مفرطة وقيام بأعباء جماعة مذهبه والانعام عليهم بأنواع من الاكرام فاجتمع شملهم بوجوده وبلغ كلهم فيما يؤمله غاية مقصوده ومنعهم من تعاطى الاخذ على الاحكام وأكد على من لم يثق به منهم فى ذلك التأكيد التام حتى بالايمان ونحوها ولزم الاختصاص به من أعيانهم البدر بن المخاطة وقرأ عنده فى المدارك للقاضى عياض وفى الجواهر لابن شاس وغيرهما واستناب فى بعض الاوقات فى تداريسه أعيان المذهب قصد اليهم ففى المنصورية الشيخ يحيى العلمى وفى الناصرية الشيخ نور الدين السنهورى وفى الصالحية الشيخ نور الدين الوراق وتزاحم عليه الفضلاء من سائر أرباب المذاهب وممن تردد اليه الشهاب بن صالح أحد نوادر أئمة الادب وسمعت حينئذ قاضى المذهب الحنبلى وناهيك بذلك من مثله يقول ان الشهاب لا ينهض

ان يغرب علمه فى فنه اشارة الى ملاءته وتقدمه فى جودة محاضرته وكذا كان
الشهاب بن أسد شيخ القراء فى زمنه ممن يتردد اليه وقد صحبته قبل استقراره فى المنصب
وساعدنى فى بعض القضايا وكان يجلنى وسمع من لفظى بعض تصانيفى بحضرة الامام
الزين البوتيجى وتفضل هو بسؤالى فى الاذن له بالاجازة وكتب القاضى خطه بما يشهد
لهذا

ولما استقر التمس منى اسنادى بالبخارى ونحوه فخرجت له جزأ فيه أسانيد كثيرة من
الكتب الحديثية والعلمية فسر بذلك ورغب الى فى تبييض ماعلم انى جمعته من طبقات
المالكية والمرور عليه عنده فعاق عنه بعض الشواغل وكذا رغب فى قراءتى الجامع
للترمذى عنده فى رمضان ففعلت وحرص على المداومة على ذلك فثقلت على الحركة
بسبب ذلك خصوصا فى شهر الصوم فبادر صاحبنا الشمس بن الفالاتى لذلك وانتهز
الفرصة فلم يزل يقرأ عنده حتى مات واقتصر فى آخرة الامر عليه بعد أن كان يقرأ عنده
الثلاثة فأكثر وينعم على القراء بالخلع والجوائز وغير ذلك فى الضحايا وغيرها بل ويصرف
على جميع من يحضر عنده يوم الختم دراهم متفاوتة على قدر منازلهم ولما مات يحيى
العجيسى استقر فى تدريس الشيخونية ثم لما مات ولده استقر فى تدريس جامع طولون
وباشر التدريس فيهما وكذا درس بالمؤيدية نيابة عن ولد صاحبه البدر بن المخلطة بعد
وفاة والده وفى سلخ المحرم سنة ثلاث وستين لبس خلعة الاستمرار

ولم يزل على جلالته وعلو مكانته فى جميع ما أشرت اليه حتى حصل بينه وبين العلاء بن
الاهناسى الوزير ما يقتضى الاستيحاش فقام فى معاونة الشرف يحيى بن صنيعة أحد
الكتاب حتى استقر عوضه فى الوزارة فى ربيع الآخر سنة ست وستين بعد ان رسم
بالقبض على ابن الاهناسى وهو بالوجه القبلى فى الصعيد ولزم من ذلك قيامه معه خوفا
من حصول خلل يعود اللوم عليه بسببه حتى يقال انه تكلف فى تلك الحادثة نحو ثلاثين
ألف دينار فتزايدت ديونه بسبب ذلك وطمع فيه أرباب الدولة وأدى ذلك الى انحطاط
جانبه وهو مع ذلك لا ينفك عن التجمل جهده واظهار الجلد والصبر لمن يجيء عنده الى
ان كاد الامر أن يتفاقم فلطف الله به ومات فى ليلة الاثنين مستهل شعبان سنة ثلاث
وسبعين وثمانمائة بمنزله بمصر وصلى عليه من الغد بجامع عمرو وتقدم للصلاة عليه أخوه
السراج عمر الماضى ودفن بتربة جده من قبل امه الشيخ محمد الهلالى العريان بجوار
تربة الشيخ أبى العباس الحرار من القرافة الكبرى عند اولاده واستقر أخوه فى المنصب
بعده ولم يتعرض لوظيفة الشيخونية وجامع طولون كما سلف وقد قتل بسيف الشرع
جماعة من المفسدين منهم حمزة بن غيث بن نصير أحد مشايخ العربان أبوه بالغربية
ومنصور بن صفى الاستادار وما خلا عن عتب فى بعضهم جريا على عادة الناس

فى اختلاف

فى اختلاف أغراضهم وكان منقحما على قتل سعد الدين بن بكير القبطى فكفه عنه بعض الحنابلة العز الكنانى كما سلف فى ترجمته انتهى

وفى تاج العروس شرح القاموس للسيد مرتضى فى صحيفة ٢٥ من الجزء الرابع مانصه والشريف أبو المعالى حريز بن بويدى أيضا محرز بن الشريف أبى القاسم الحسينى الطهطائى التلمسانى تقدم فى القرآت كأبيه وروى وحدث وكذا ولده الامام المحدث شمس الدين محمد وحفيده القاضى مجد الدين ابو بكر بن محمد بن حريز تولى القضاء بمنفلوط وحسنت سيرته وولده قاضى القضاة أبو عبد الله حسام الدين محمد حدث عن أبى زرعة العراقى وأخوه سراج الدين عمر توفى سنة ٨٩٢ وهم اكبر بيت بالصعيد يقال لهم المحارزة والحريزيون انتهى

وقول السخاوى فى ترجمة الاول فى حق جده انجب أولادا وذكر منهم اثنين وأقول ان الثالث منهما يسمى يحيى وعائلتنا بطهطا الموجودة الآن هم من ذريه يحيى المذكور وينتهى نسبنا اليه حيث ان المرحوم والدى السيد بدوى بن على بن محمد بن على بن حريز ابن ابى القاسم الصغير بن جلال الدين وليس عندى الآن بحصر السلسلة الموصلة الى سيدى أبى القاسم

احببت أروى صحاح در * عن حسن جاء عن مسدد
سلسلة أطلقت بيانى * لكن رقى بها مقيد

ومن جهة الام فوالدتى فاطمة بنت المرحوم الشيخ احمد الفرغلى الانصارى ابن المرحوم الشيخ عبد العزيز الانصارى ابن المرحوم القاضى أبى الحسن الانصارى ابن المرحوم العلامة القاضى محمد الانصارى ينتهى نسبهم الى الامام العالم القطب الربانى سيدى رفاعة بن عبد السلام الانصارى المشهور بالخطيب المكتوب على ضريحه

اقصد رفاعة كلما * كرب يضيق سبيله
وانزل بساحته وقل * حاشا يضام نزيله

وعلى كل حال فما أحسن قول من قال

يزداد فى مسمعى تكرار ذكركم * طيبا ويحسن فى عينى مكرره

مطلب الاشراف المتفرعة عن ذرية سيدى ابى القاسم بطهطا وان منهم اشراف ابيار والقاسمية بالوجه البحرى وغير ذلك

ويتفرع عن عائلتنا التى بطهطا عائلة شريف ابيار المشهورة فانها نزلت بابيار فى القرن الحادى عشر وهم بيت مجد مؤثل كاصولهم واما أولاد سيدى حريز فهم أشراف اسيوط وفيهم النقابة الى الآن ولعل هذا هو معنى قول النسابة عبد الواحد بن ابراهيم الحسينى الهاشمى فى نبذة الانساب عند ذكر الاشراف بعد ان ذكر بنى الحسن وانهم فى جرجا يعنى اشراف منشاة النيدة قال وفى أسيوط طائفة من أولاد جعفر الصادق ابن

محمد الباقر ابن على بن الحسين بن على عليهما السلام يعرفون باولاد الشريف قاسم انتهى
ومن أولاد حريز اشراف منفلوط وفيهم النقابة والقضاء الى الآن ومنهم فرع العالم
الفاضل السيد حسن بن حريز الغمراوى أحد فضلاء الجامع الازهر ومدرس الجامع
العالى بالقلعة العامرة ومنهم فرع منتشر فى بلاد أناطلى
واما أولاد سيدى على نور الدين البصير المدفون بجزيرة شندويل بعمالة جرجا وله مشهد
يزار فهم اشراف جزيرة شندويل ومنهم جماعة بقرية مطاى بالاقاليم الوسطى ومنهم
أشراف عربان بالوجه البحرى مشهورون بالقواسم منهم العالم الفاضل الشيخ
اسمعيل رأس نقباء الطريقة المحمدية الدمرداشية حالا ويفهم من قول العلامة
السخاوى ان القاضى حسام الدين جده لامه الشيخ محمد الهلالى العريان ومع ذلك
فسيدى ابو القاسم استاذه هذا الشيخ المذكور حيث يوجد فى مناقبه ان الشيخ محمد
الهلالى العريان ألبسه طاقيته كما أشرت لذلك فى قصيدة جامعة لمناقبه منها قولى

طاقية العريان قد ألبستها * رمز السر خلافة آنستها
كم صنت طهطا من أذى وحرستها * كم من يد بيضاء منك غرستها
ثمراتها البنين أضحت مكسبا

وقد جدد الامير الكبير والمفرد العلم الشهير لطيف باشا ناظر عموم البحرية سابقا
جامع سيدى أبى القاسم بطهطا وتأنق فى بنائه بالبناء العجيب الذى صرف فيه جزيل
الاموال من ضمن ما جدده بطهطا من العمائر كالحمام النفيس المبنى على شكل حمام
المرحوم مطوش باشا بالاسكندرية مما به صارت طهطا بهيه جزاه الله خير الجزاء
واحسن له الحال والمآل وفى هذا القدر مقنع وان كان مجال الكلام أوسع وقد
كان كل من القاضى حسام الدين والقاضى سراج الدين ابنى حريز بلفظ التصغير بحاء
مضمومة ثم راء مهملة ثم زاى معجمة خلافا لما وجد من الرسم فى طبع حسن المحاضرة
فى ذكر قضاة المالكية بان حسام ابن جرير وصحته ابن حريز بالحاء والراء والزاى وكان
توليتهما القضاء فى زمن ملوك الجراكسة وكان منصب القضاء فى ذلك العهد وما
قبله يتعدد بمصر بتعدد المذاهب الاربعة حتى منصب قضاء العسكرية فكان تارة يضاف
الى القاضى الحنفى وتارة يضاف الى القاضى الشافعى وتارة ينفرد به قاض حنفى
وماذاك الالان قاضى العسكر انما ينتفع به فى الجهاد ووقت خروج العسكر
وتقع وصايا من الامراء وشهادات بينهم ولا يوجد فى العسكر الجالسين فى المراكز أحد
ويحتاج الى اثبات ذلك عند القاضى الشافعى فلا يسمع شهادة العسكر فيتعطل اثبات
ذلك فتبطل وصاياهم وشهاداتهم فلهذا السبب ولى الملك الظاهر بيبرس القاضى
الحنفى لما اتفق له فى الجهاد مثل ذلك وامتنع القاضى الشافعى فى ذلك الوقت من

مطلب
انتماء سيدى أبى القاسم المذكور فى الطريقة الى الشيخ محمد الهلالى العريان وانتماء أولاد أبى القاسم المذكور له فى النسب من جهة الام

مطلب
تجديد سعادة لطيف باشا ناظر ديوان البحرية سابقا جامع سيدى أبى القاسم الطهطاوى

مطلب
سبب تخصيص القضاء على مذهب أبى حنيفة النعمان بعد ان كان تعدد القضاة بتعدد المذاهب الاربعة فى سالف الزمان

سماع شهاداتهم ثم بتداول الايام ودخول أكثر الممالك الاسلاميه فى قبضة الدولة العثمانيه المقلد جمهور حكامهم لابى حنيفة النعمان انتهى الامر أن صار حصر القضاء على مذهب امامهم الذى هو أول من دون الفقه وجمعه وتقدم وسبق من العلماء من تبعه واختص بكثير من الفروع التى تلايم ولاة الامور وأعظمها عدم اشتراط أمور كثيرة فى المراسم السلطانية والفسحة فى اشتراط العدلة وان كانت فى الغالب لا يخلو منها من قضت له بالتولية الارادة الصمدانية فيجوز تقليد الامام غير القرشى المناصب والاعمال وأصله قصة معاوية فان الصحابة تقلد وامنه الولايات واستدل الشافعية بقوله صلى الله عليه وسلم الائمة من قريش فبهذا كان مذهب أبى حنيفة أوفق للملوك وأصلح

ومن الفروع أن من له أرض خراجية عجز عن زراعتها وأداء خراجها فللامام على مذهب أبى حنيفة أن يؤجرها من غيره و يأخذ من أجرتها الخراج سواء رضى صاحبها بذلك أم لم يرض * ومنها ان من عزره ولى الامر لاستحقاقه التعزير فمات فى أثناء تعزيره فلا ضمان عند أبى حنيفة على ولى الامر وهذه المسئلة موافقة لولاة الامور ولولاها لفسد أمرهم * ومنها أن من أحيا أرضا مواتا باذن ولى الامر ملكها وان كان بغير اذنه لم يملكها عند أبى حنيفة * ومنها اذا احتاج ولى الامر الى تقوية الجيش له ان يأخذ من أرباب الاموال ما يكفيه من غير رضاهم على مذهب أبى حنيفة ففيه مساعدة لولاة الامور على مشروعاتهم حتى لو اضطرت الحكومة الى تولية قاض غير حنفى وجب تقليده لمذهب أبى حنيفة لاجل الولاية واجراء الاحكام عليه

مطلب
اقتضاء الاحوال والمعاملات العصرية تنقيح الاقضية والاحكام الشرعية بما يوافق مزاج العصر بدون شذوذ

ثم ان الحالة الراهنة اقتضت أن تكون الاقضية والاحكام على وفق معاملات العصر بما حدث فيها من المتفرعات الكثيرة المتنوعة بتنوع الاخذ والاعطاء من أمم الانام وقد تقدم بعض ما يتعلق بذلك فى الفصل الرابع من الباب الثانى ومن المعلوم ان بحر الشريعة الغراء على تفرع مشارعه لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وأحياها بالسقى والرى ومصداق ذلك قوله تعالى ما فرطنا فى الكتاب من شئ فلا ريب فى انقياد شمم كل عرنين اليها صاغرا بدوام النفوذ ولم تخرج الاحكام السياسية عن المذاهب الشرعية لا على سبيل التهاون ولا على سبيل الشذوذ بل سارت على مشاعب المذاهب لمجاراة ماجريات النوازل والنوائب وماشرع مذهب السيف الا لنصرة مذاهب الشرع لانها أصل وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع فاختلاف مذاهب الائمة رحمه وجواز تقليد أى واحد منهم والرجوع الى اجتهاد الآخرين للحاجة نعمه ومما ينبغى أنس به فى الاقضية

مطلب
صحة تقليد غير الاربعة للحاجة وافتاء العلامة الصبان فى شأن ذلك مع بعض ملحوظات

والاحكام بهذه الازمان ما أفتى به وقد سئل عنه العلامة الشيخ محمد الشافعي الشهير بالصبان . وقد عثرت بهذه الفتوى الجليلة وهي جديرة بان يجعلها من يريد التقليد للحاجة دليله

ونص السؤال ما قولكم دام فضلكم في الانتقال في بعض المسائل الى غير المذهب الذي عليه الشخص هل يجوز ولو كان متبوعه في هذا البعض مفضولا وهل يجوز العمل بالقول الضعيف في خاصة النفس وهل يجوز تقليد غير الائمة الاربعة أفيدوا الجواب

ونص الجواب بخطه مشمولا باسمه وختمه محفوظا عندي برسمه ووسمه

الحمد لله وحده

قال الزركشي في البحر المحيط في تقليد المفضول مذاهب أحدها امتناعه ونقل عن احمد وابن سريج ثانيها وهو الاصح واختاره ابن الحاجب وغيره الجواز ثالثها يجوز لمن يعتقده فاضلا أو مساويا وقال في موضع آخر لو التزم العامي مذهبا معينا واعتقد رجحانه من حيث الاجماع فهل يجوز أن يخالف امامه في بعض المسائل ويأخذ بقول مجتهد آخر فيه خلاف والاصح الجواز كما في الرافعي ثم قال وقسم بعضهم الملتزم لمذهب اذا اراد تقليد غيره الى أحوال الى أن قال الثانية أن يقصد بتقليده الرخصة فيما هو محتاج اليه لحاجة لحقته أو ضرورة أرهقته فيجوز الى أن قال السادسة أن يجمع من ذلك حقيقة مركبة ممنوعة بالاجماع فيمتنع كما اذا افتصد ومس الذكر وصلى (أي لان ذلك يعد تلفيقا في مسئلة واحدة) ثم ذكر الخلاف في جواز التقليد بعد العمل والخلاف في جواز تتبع الرخص ورجح المنع وحكى الجواز عن بعض مشايخ الشافعية ثم قال لا ينبغي اطلاق القول بالجواز لكل أحد بل يرجع الى حال المستفتي وقصده كما وقع لابن القاسم مع ولده اذ حنث في يمين بالمشي الى الكعبة فاستفتى أباه فقال له أفتيك فيها بمذهب الليث كفارة يمين وان عدت أفتيك بمذهب مالك يعني الوفاء ويجوز عمل الشخص بالقول الضعيف في حق نفسه خاصة اذا دعت اليه حاجة ولم يلزم تتبع الرخص ولا التركيب حقيقة اجمع على بطلانها وانما الممنوع ان يفتي بها أو يحكم وفي البحر المحيط أيضا مجتهد الصحابة اذا لم يجعل قوله حجة ففي جواز تقليده في هذه الاعصار خلاف فذهب امام الحرمين وغيره الى ان العامي لا يقلده وبه جزم ابن الصلاح وزاد انه لا يقلد التابعين أيضا ولا غير من لم يدون مذهبه لعدم الوقوف على حقيقة مذاهبهم فانهم انما نقل عنهم فتاوى مجردة فلعل لها مكملا أو مقيدا أو مخصصا لو انضبط كلام قائله لظهر فتقليدهم على غير ثقة وعلى هذا فينحصر التقليد فيمن دون

مذهبه

مذهبه كالاربعة والاوزاعى وسفيان واسحق وداود على خلاف فى داود وذهب غيرهم الى ان الصحابة يقلدون وهذا هو الصحيح ان علم دليله وقد قال الشيخ عزالدين فى فتاويه اذا صح عن بعض الصحابة مذهب فى حكم جاز تقليده والا فلا انتهى وبالجملة فلا يختص التقليد بالاربعة على كلا القولين والله أعلم كتبه الفقير محمد الصبان الشافعى

موضع الختم

مرتجى الغفران

محمد الصبان

وقوله وسفيان لعله أراد به أبا عبد الله سفيان بن سعيد الثورى نسبة الى ثور بن عبد مناف وقيل الى ثور همدان الكوفى مات بالبصرة فى شعبان ودفن بها سنة احدى وستين ومائة ولم يزل مقلدوه الى القرن السادس ومن الناس من زعم أن من أصحاب المذاهب سفيان ابن عيينة فيدخل تحت كاف التمثيل كما يدخل أيضا اسحق بن راهويه ومحمد بن جرير الطبرى وقوله وداود على خلاف فيه لعله نظر الى قول امام الحرمين ان المحققين لا يقيمون للظاهرية وزنا وان خلافهم لا يعتبر ولكن قال العلامة اللقانى فى شرح الجوهرة عند قوله ومالك وسائر الائمة الى آخره حمل ابن السبكى قول امام الحرمين على ابن حزم وأمثاله قال السبكى وأما داود فمعاذ الله أن يقول امام الحرمين أو غيره ان خلافه لا يعتبر فلقد كان جبلا من جبال العلم والدين وله من سداد النظر وسعة العلم ونور البصيرة والاحاطة بقول الصحابة والتابعين والقدرة على الاستنباط ما يعظم وقعه وقد دونت كتبه وكثرت أتباعه وذكره الشيخ أبو اسحق الشيرازى فى طبقاته من الائمة المتبوعين فى الفروع وقد كان مشهورا فى زمن الشيخ وبعده بكثير لا سيما فى بلاد فارس شيراز وما والاها الى ناحية العراق وفى بلاد المغرب انتهى على ان ابن حزم المحمول عليه عدم اعتبار المذهب نسب اليه بعضهم الشيخ الاكبر محيى الدين بن العربى ولعله من مقلديه حكاه العلامة الامير فى حاشيته على شرح الملوى للسمرقندية عند التكلم على البسملة ثم قال ووجدت فى ديوان محيى الدين ما يدل على اجتهاده وهو قوله

نسبونى الى ابن حزم وانى * لست ممن يقول قال ابن حزم

لا ولا قال غيره فقالى * قال نص الكتاب ذلك علمى

أو يقول الرسول أو أجمع الخلق على ما أقول ذلك حكمى

وأما الاوزاعى وهو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الاوزاعى امام أهل الشام روى عنه الثورى وأخذ عنه عبد الله بن المبارك وجماعة كثيرة ولد ببعلبك ثم نقلته أمه الى بيروت ودفن بقرية على باب بيروت يقال لها حنتوس فى قبلة المسجد ولا يعرف

قبره بها الا الخواص من الناس وأما أهل القرية فيقولون ههنا رجل صالح يتنزل عليه
النور وأما ذكر العلامة الصبان نقلا عن الزركشى استفتاء والد ابن القاسم وافتاء
أبيه له على مذهب الامام الليث فيدل على جواز الافتاء بغير المذاهب الاربعة بجواز
العمل فى حق نفسه فحينئذ قول السبكى يجوز تقليد غير الائمة الاربعة فى العمل فى حق
نفسه لا فى الافتاء والحكم كما قاله ابن الصلاح فلعله ليس على اطلاقه وأما ذكر العلامة
الصبان أصحية تقليد الصحابة فيما علم دليله وصح عنهم فظاهر لان جميعهم رضى الله عنهم
لا يتطرق الى آرائهم تجريح اذ كلهم عدول لان الله عز وجل ورسوله زكاهم وعدلاهم
فمذهب كل منهم صحيح رجيح ومما يدل على ان التشديد والتخفيف فى الاحكام قد يختلف
باختلاف الازمان والايام ما قاله العلامة السيوطى فى كتاب الانصاف فى تمييز
الاوقاف انك اذا تأملت فتاوى النووى وابن الصلاح وجدتهما يشددان
فى الاوقاف غاية التشديد واذا تأملت فتاوى السبكى والبلقينى وسائر المتأخرين
وجدتهم يرخصون ويسهلون وليس ذلك منهم مخالفة للنووى بل كل تكلم بحسب
الواقع فى زمنه انتهى وقد أتى بمثل ذلك نادرة عصره خير الدين باشا التونسى وذكر
فى كتابه أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك مالم يسبق به غيره ونصح أهالى
الاوطان فى سائر الممالك الاسلامية بما لا يشكر لدين الاسلام من النفع خيره فانه حمل
هموم أوطانه واخوانه المسلمين عملا بحديث من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم ومن
لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم * وكان عمر بن الخطاب اذا نزل بالمسلمين بلاء لا يضحك
قط حتى يرتفع ذلك البلاء وكذلك عمر بن عبد العزيز وسفيان الثورى وغيرهم فتنظيم
كتاب للاحكام الشرعية بمناسبة تفرع النوازل فى هذه الايام بأكمل تنظيم مما تنتظم
به الاحكام القضائية فى أوطاننا ويكون عمدة للقضاة والحكام

مطلب حديث من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم

وعلى ولى الامر اذا أراد أن يولى القضاء لاحد على مذهبه ان يطلب أعيان ذلك المذهب
ويسأل كل واحد بانفراده سرا عن رجل يصلح للقضاء يكون كاملا فى العقل والدين وان
اجتمع مع هذين الوصفين الكمال فى الفضيلة فهو أجود والا فالمتوسط فى الفضيلة مع كمال
هذين الوصفين أولى فاذا اتفقوا أو أكثرهم على تعيين شخص صرفهم عن مجلسه ثم سأل
عن هذا الشخص الذى عين من غير أهل مذهبه سرا فان أثنى عليه بانه أكمل أهل مذهبه
فى العقل والدين استخار الله تعالى وولاه وان اثنوا على غيره أكثر منه جمع أعيان ذلك
المذهب فى مجلسه وأهل المذهب الآخر وذكر لهم ذلك الشخص الذى عين أولا وهذا
الشخص الآخر وطلب منهم أن يتفقوا على الارجح منهما فان اتفقوا أو أكثرهم على
أحد الشخصين ولاه ولا يعتمد الترجيح الا على الأدين الأعقل ولا يغتر بكثرة الفضيلة

مطلب انتخاب القضاة

مع

مع قلة الدين والعقل فيكون الضابط لولى الامر حينئذ فى هذا الباب اعتبار الأدين الأعقل وان لم يكن لفضيلة تامة فان المتدين تمنعه ديانته عن أن يقع فيما لا يجوز وان يحكم فى شئ لا يعرفه ولا كذلك الأعلم اذا كان متهاونا فى الدين فانه يخشى منه وهكذا أصحاب أبى حنيفة نصوا أنه اذا اجتمع الأدين والأعلم قدم الأدين وانما وجب الفحص عن أهلية القاضى وقت الولاية وانه يكون أدين أهل مذهبه وأعقلهم لقوله عليه السلام من قلد انسانا عملا وفى رعيته من هو أولى منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين فعلى ولاة المسلمين أن لا يخرجوا عن هذا الامر الذى قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قوله تعالى أيضا يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون

مطلب آداب القاضى ووصاياه

ثم ان القاضى متى تقلد منصب القضا وحصل على توليته التوافق والرضا فقد أصبح بيده زمام الاحكام وفصل القضاء الذى عساه أن يعرض على غيره من الحكام وما منهم الا من ينقد نقد الصيرفى وينفذ حكمه نفاذ المشرفى فليتروّ فى أحكامه قبل امضائها وفى المحاكمات اليه قبل فصل قضائها وليراجع الامر مرة بعد مرة حتى يزول عنه الالباس ويعاود فيه بعد التأمل كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والاجماع والقياس وما أشكل عليه بعد ذلك فليجل مظلمه بالاستخاره وليحل مشكله بالاستشاره ولا ير نقصا عليه اذا استشار فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالشورى ومن أول السلف من جعلها بينه وبين خطا الاجتهاد سورا فقد يسنح للمرء ما أعيا غيره وقد أكثر فيه الدأب ويتفطن الصغير لما لم يفطن اليه الكبير كما فطن ابن عمر للنخلة ما منعه أن يتكلم الاصغر سنه ولزومه مع من هو أكبر منه للأدب ثم اذا وضح له الحق قضى به لمستحقه وأسجل له به واشهد على نفسه بثبوت حقه وحكم له به حكما يسره يوم القيامة أن يراه واذا كتب له به تذكرا اذا بلى وأبقى الدهر ما كتبت يداه وليسوّ بين الخصوم حتى فى تقسيم النظر وليحمل كل جملة على الحق فيما أباح وما حظر وليحد النظر فى أمر الشهود حتى لا يدخل عليه زيف وليتحرّ فى استئداء الشهادات فرب قاض ذبح بغير سكين وقاتل قتل بغير سيف ولا يقبل منهم الا من عرف بالعداله وألف منه أن يرى أوامر النفس أشد العدى له وغير هؤلاء ممن لم تجر لهم بالشهادة عاده ولا تصدى للارتزاق بسببها ومات وهو حى على الشهاده فليقبل منهم من لا يكون فى قبول مثله ملامه فرب عدل بين منطقة وسيف وغير عدل فى فرجية وعمامه ولينفث على ما يصدر من العقود التى يؤسس أكثرها على شفا جرف هار ويوقع فى مثل السفاح الا ان الحدود تدرأ بالشبهات ويتقى العار وشهود القيمة الذين

يقطع بقولهم فى حق كل مستحق ومال كل يتيم ويقلد شهاداتهم أمر كل عظيم فلا يطول منهم الاعلى كل رب مال عارف ولا يخفى عليه القيم ولا يخاف معه خطأ الحدس وقد صقل التجريب مرآتهم على طول القدم وليتأن فى ذلك كله أناة لا تفضى باضاعة الحق ولا الى المطاولة التى تفضى الى حرمان من استحق وليجتهد لرسه ولا يتعلل بأن القاضى أسير الشهود وهو كذلك وانما يسعى بخلاص ذمته والوكلاء هم البلاء المبرم والشياطين المسولون لمن يوكلون له بالباطل ليقضى لهم به انما يقطع لهم قطعة من جهنم فليكف بهما بتموساوس افكارهم ومساوى بغارهم ولا يدع لجنى أسهمنهم ثمرة ممنوعه ولا يدا عند اعتقد الا مغلولة الى عنقه والا مقطوعه وليطهر بابه من دنس الرسل الذين يمشون على غير الطريق واذا رأى واحدا منهم يدرهم فكأنه حصل فى يده ووقع فى نار الحريق وغير هذا مما لا يحتاج به مثله أن يوصى ولا أن يحصى عليه منه افراد عمله وهو لا يحصى وعليه أن ينظر فى أمور أرملة فسد هبة قطر الصوم لمصرها بجميل نظره فرب نظرة أنفع من مواقع النجوم

ومما يشملها بالنظر وينم فيه الشكر أمر دعاوى بيت المال المعمور ومحاكاته التى فيها حق كل فرد فرد من الجمهور فليحترز فى قضاياها غاية الاحتراز وليعمل بما يقتضيه لها الحق من الصيانة والاحتراز وليتثبت فى قضايا أموال الايتام الذين حذر الله من أكل مالهم بالمعروف لا بالشبهات وقد مات آباؤهم ومنهم صغار لا يهتدون الى غير الثدى للرضاع ومنهم حمل فى بطون الامهات فليأمر المتحدثين لهم بالاحسان اليهم وليعرفهم بأنهم سيجزون فى بنيهم بمثل ما يعملون معهم اذا ماتوا لو تركوا ما فى يديهم وليحذر منهم من لا تولد له وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم وليقص عليهم فى مثل ذلك أنباء من سلف تذكيرا وليتل عليهم قوله تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا فهذه وصية قاضى العمل المستقل

فاذا كان قاضى العسكر منفردا فليكن مستحضرا لهذه المسائل وليعلم ان العسكر المنصور هم فى موطن الحرب أهل الشهادة وفيهم من يكون بجرحه تعديلا لهم وزيادة فليقبل منهم من لا يخفى عليه سيما القبول ولا يرد منهم من لا يضره ان رده هو وهو عند الله مقبول وليجعل له مستقرا معروفا فى العسكر يقصد فيه اذ العسكر كالخيام وموضعا يمشى فيه ليقضى فيه وهو سائر وأشهر ما كان على يمين الاعلام وليلازم ذلك طول سفره وفى مشقة المقام وليتخذ معه كاتبا يكتب للناس والا فمن أين يوجد هناك شهود ويسجل لذوى الحق بحقه والا فمن أين يستناب الجود وتقوى الله هى التى بها

قوله الاحتراز أى الوضع فى الحرز اه مؤلفه

مطلب
آداب قاضى العسكر المستقل

يقصر

ينصر الجنود وبما لم تكن أعلى ما يكون على أعلام الحرب والا فالحاجة الى نشر البنود
ثم انه من حيث يجب على ولى الامر الكشف عن أحوال الولاة والدواوين فى كل
وقت ومحاسبتهم فيما يلزم بواسطة كشاف من أعقل الناس وأكثرهم أمانة وعفة
فالقضاة ونوابهم داخلون فى هذه الزمرة ولو أنه سبق اشتراط شروط فى ولاية القاضى
اذا توفرت يحصل الامن من وقوع شئ منه مما يخل بمنصب القضاء الا أنه غير معصوم
من حب المال الذى يكون الطمع فيه طبعا فلهذا وجب التثبت فى ذلك بالتفتيش فقد
يحدث العيب ويخالف الشهادة الغيب

فكل يسلى النفس عند خلوه * بزهد ولكن لاتصح العزائم

فينبغى لولى الامر أن يتخذ عليهم باحثا فى السر يكون ثقة دينا عفيفا أمينا
قليل الكلام لا يتفطن لهم من مثلهم ولا يدرى به انه مطلع عليهم بحيث يطالع
ولى الامر بأحوالهم فى السر ساعة بساعة ويكون ولى الامر فى العلانية معظما للقضاة
لا يظهر منه أنه يتكشف عن أحوالهم أبدا لحفظ ناموسهم الرفيع وشرف منصبهم
المنيع فاذا صح عنده أنه وقع من أحدهم جريمة فان كانت من أخذ رشوة أرسل الى
القاضى وطلبه اليه سرا وسأله عن الواقعة فان اعترف بذنبه أخذ الرشوة التى التمسها
من الناس وردها على صاحبها وأدب الذى بذلها فى السر من غير أن يظهر تأديبه عملا
وعزل القاضى وكشف عليه فان وجده التمس من الناس مالا أو اكتسبه بالقضاء
أخذه لبيت المال كالهدية ونحوها وان لم يعترف القاضى وظهر لولى الامر من قرائن
الاحوال أو من صدق الناقل اليه ذلك عن القاضى عزل القاضى ولا يظهر بأى سبب
عزله

وان كانت الجريمة من غير أخذ الرشا ولم يكن من هذا القبيل وانما كان بسبب قوة نفسه
وتحامله فى الحكومات وهوى النفس يجب على ولى الامر عزله والاستبدال به ولا يغره
كثرة علمه ولا ديانته فى الظاهر فان التحامل من القاضى من أصعب الامور ومما يوجب
عزله ولا يلتفت الى انتصار محكمه بعد أن يعرف ولى الامر منه الهوى والغرض
والتحامل وله أن يعزره بسبب ذلك اذا تحقق جوره كى يتأدب به غيره وان كانت الجريمة
بسبب ارتكاب بعض المعاصى من شراب وغيره سأل ولى الامر عن هذا الامر من
الثقات فان صح عنده ذلك عزره سرا ورفعه ولا يشهر ذنبه بين الناس وان جمع القاضى
مالا من الحكومات أخذه ولى الامر ووضعه فى بيت المال

وان كان هذا القاضى نائبا وقد قيل عنه شئ مما ذكرنا كشف عن حال مستخلفه فان
تبين عند ولى الامر أنه كان يعلم به ويستر عليه عزله أيضا وان كان لا يعلم واشتبه فيه

مطلب
التفتيش عن أحوال
القضاة من طرف
ولى الامر كتفتيش
غيرهم من الولاة

فهو بالخيار ان شاء عزله وان شاء تركه واذا صح عند ولى الامر أن القاضى جمع مالا بعد
تولية القضاء وقد كان فقيرا قبل التولية ينبغى أن يفحص عن ذلك الجمع فان كان من
متعلقات المنصب كما يأخذه بعض القضاة بدون حق من فضلة النيابات أو من دوان
الايتام أو الصدقات أو الاوقاف فان ولى الامر يأخذه منه ولا يترك فى يده منه شيأ
ويضعه فى بيت المال وان عرف أنه من مال الايتام أو الاوقاف رده على من أخذ منه
وان كان من غير متعلقات المنصب بأن يكون اتجر أو ورث أو استفضل من معلوم
مدارسه وكسبه فهو له وان كان للقاضى حاشية وأولاد يتعرضون الى أموال الناس
وقطع مصانعاتهم كما كان وقع فى زمن الملك الناصر بن قلاوون بمصر من القاضى
الشافعى والحنفى وعزلهما بسبب أولادهما فان ولى الامر يجب عليه عزله ان كان ذلك
بعلمه وأخذ ما حصله أولاده وحاشيته بجاه المنصب ويضعه فى بيت المال ويؤدبهم
ولا تأخذه رأفة عليهم ولا يقبل فى القاضى ولا فى أولاده المذكورين شفاعة أحد فان
ذنبهم كبير وفسادهم متعد

وقد أسلفنا ان شرط الباحث الكاشف عن أحوال القضاة وغيرهم الامانة والعفة
والوثوق فبهذه الوسيلة يقبل ولى الامر قوله فى القاضى بخلاف ما اذا كان المخبر لولاة
الامور من السعاة المشائين بالنميمه المتخلقين بالاخلاق الذميمه فلا ينبغى أن يقام
لقولهم فى حق القضاة وزن ولا قيمه

ان نصف الناس أعداء لمن * ولى الاحكام هذا ان عدل

مطلب سعى علوية المغنى بابن أخته القاضى الخلنجى عند المأمون

كما يحكى عن الخلنجى القاضى عبد الله بن محمد ابن أخت علوية المغنى وكان هذا القاضى
قد تقلد القضاء للامين العباسى وكان خاله علوية عدوا له فجرت له قضية فى بغداد
فاستعفى عن القضاء وسأل أن يولى بعض الكور البعيدة فتولى قضاء دمشق وحمص
فلما تولى المأمون الخلافة غناه يوما علوية بشعر الخلنجى وهو

برئت من الاسلام ان كان ذا الذى * أتاك به الواشون عنى كما قالوا
ولكنهم لما رأوك غريبة * بهجرى تواصوا بالنميمة واحتالوا
فقد صرت اذنا للوشاة سميعة * ينالون من عرضى فلو شئت ما نالوا

فقال له المأمون من يقول هذا الشعر قال قاضى دمشق فأمر المأمون باحضاره
فاشخص وجلس المأمون للشرب واحضر علوية ودعا بالقاضى فقال له أنشدنى قولك
برئت من الاسلام الابيات فقال يا أمير المؤمنين هذه ابيات قلتها منذ أربعين سنة وأنا
صبى والذى اكرمك بالخلافة وورثك ميراث النبوة ما قلت شعرا منذ اكثر من عشرين
سنة الا فى زهد أو عتاب صديق فقال له اجلس فجلس وناوله قدح نبيذ كان فى يده فأرعد

وبكى

وبكى وأخذ القدح من يده وقال والله يا أمير المؤمنين ما غيرت الماء بشئ قط مما يختلف
فى تحليله فقال لعلك تريد نبيذ التمر أو الزبيب فقال لا والله يا أمير المؤمنين لا أعرف شيأ
من ذلك فأخذ المأمون القدح من يده وقال اما والله لو شربت شيأ من هذا لضربت
عنقك ولقد ظننت انك صادق فى قولك كله ولكن لا يتولى القضاء رجل بدأ فى قوله
بالبراءة من الاسلام انصرف الى منزلك وأمر علوية فغير هذه الكلمة وجعل مكانها
حرمت مكانى منك فكان ما جرى للمأمون عفا الله عنه مع هذا القاضى المسكين هو
المعهود من حلم هذا الخليفة ومكارم اخلاقه وكان غير هذا الفعل أولى به وبرياسته
ولكن الخليفة صان منصب القضاء ووقره وأجله فعفا الله عنه وأما هذا القاضى
الخلنجى رحمه الله فقد اختلج فى خاطره من الوشاة ما أضربه عند محبوبته وعند الخليفة
وهذا من كهانة الشعر ومما يتفق وقوعه للشاعر بعد مدة مديدة وأما علوية فاعله الله
ولا أعلى له كعبا فلقد أضر بابن أخته وعطله من حلى القضاء وقد جاء عن النبى صلى الله
عليه وسلم لعن الله المثلث فقيل يارسول الله وما المثلث قال الذى يسعى بصاحبه الى
سلطان فيهلك نفسه وصاحبه وسلطانه

مطلب
عدم قبول وشى الوشاة وتجنبهم

قال الواثق يوما لابن أبى دواد قد سعى بك عندى قوم قال فما قالت لهم يا أمير المؤمنين قال
ما قال صاحب عزة

وسعى الى بعيب عزة نسوة * جعل الإله خدودهن نعالها

ورفع بعض السعاة الى الخليفة السفاح قصة بسعاية على بعض عماله فوقع فيها هذه
نصيحة لم يرد بها ما عند الله فنحن لا نقبل قول من آثرنا على الله * ومما اتفق فى ايام
السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون انه حضر فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة
تاج الدين كاتب المفتاح الى الامير علاء الدين مغلطاى الجمالى لما كان وزيرا وذكر
عنده أناسا بكل قبيح والتزم فيهم جملة من الذهب اذا صودروا واخذت منهم وظائفهم
فدخل الجمالى الى السلطان وحكى له ما قاله الكاتب فقال أحضره لى فلما استحضره سمع
كلامه وقال له هل لك علم بأحد فى القاهرة يعرف شيأ من هذه الاحوال فقال نعم جماعة
وعدهم فقال للوزير خذ هذا عندك واحتفظ به وأحسن اليه واذا احضر اليك كل
هؤلاء الذين ذكرهم عرفنى بهم فخرجا من عنده وذكر له الكاتب جماعة وهو يحضرهم
الى ان لم يبق منهم أحد ودخل الجمالى الى السلطان وعرفه بهم فقال اخرج الآن
فى هذه الساعة وجهز الجميع ولا تدع أحدا منهم فى القاهرة فان هؤلاء مناحيس
يرافعون الناس فنفاهم أجمعين

وقال رجل للمهدى عندى لك نصيحة يا أمير المؤمنين فقال لمن هى ألنا أم لعامة المسلمين

أم لنفسك قال لك يا أمير المؤمنين قال ليس الساعى بأعظم عورة ولا أقبح حالا من قابل سعايته ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة فلا نشفى غيظك أو عدوا فلا نعاقب لك عدوك ثم أقبل على الناس فقال لا ينصح لنا ناصح الا بما فيه رضا الله تعالى وللمسلمين فيه صلاح فانما لنا الابدان وليس لنا القلوب ومن استتر لم نكشف له ومن نادانا طلبنا توبته ومن أخطأ أقلنا عثرته انى أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعالجة والقلوب لا تبقى لوال لا ينعطف اذا استعطف ولا يعفو اذا قدر ولا يغفر اذا ظفر ولا يرحم اذا استرحم انتهى

وقد كان بعض الامراء رحمه الله تعالى اذا جاءه أحد ورافع كتابه والمباشرين الذين فى بابه قال هؤلاء قد اخذوا وشبعوا لا تغير وهم فان الذى يجىء بعدهم يكون جوعانا ونقل نحو ذلك أيضا عن المرحوم محمد على وما ألطف قول البهاء زهير رحمه الله تعالى وأرقه فى عدم سماع قول الوشاة

حبيبى ما هذا الجفاء الذى أرى * وأين التقاضى بيننا والتعطف
لك اليوم أمر لا يسئك يريبنى * فاوجهك الوجه الذى كنت أعرف
نعم نقل الواشون عنى باطلا * وملت كما قالوا فزادوا وأسرفوا
كأنك قد صدقت فى حديثهم * وحاشاك من هذا خلقك أشرف
وقد كان قبل الناس فى الناس قبلنا * فكذب يعقوب وسرق يوسف
بعيشك قل لى ما الذى قد صنعته * فانك تدرى ما أقول وتنصف
فان كان قولا صح أنى قلته * فللقول تأويل وللقول مصرف
وهب انه قول من الله منزل * فقد بدل التوراة قوم وحرفوا
وها أنا والواشى وأنت جميعنا * يكون لنا يوم عظيم وموقف

مطلب رؤساء أهل الكتاب

ولا بأس بتعقيب هذا الفصل بالتتمة مما ينبغى ذكره فى رؤساء أحبار أهل الذمة ليكون فيه أوفر سهم وأوفى قسط لرؤساء العبرانيين والبطاركة فأما بطريك اليعاقبة فهو أكبر أهل ملته والحاكم عليهم ما امتد فى مدته واليه مرجعهم فى التحريم والتحليل وفى الحكم بينهم بما أنزل فى التوراة ولم ينسخ فى الانجيل وشرعته مبنية على المسامحة والاحتمال والصبر على الاذى وعدم الاكتراث والاحتفال وهو مؤدب لنفسه فى الاول بهذه الآداب وفى المدخل الى شريعته قسيم الباب (أى بابا رومه) وانهما سواء فى الاتباع ومتساويان فانه لا يزيد مصراع على مصراع فدأبه التخلق من الاخلاق بكل جميل وان لا يستكثر من متاع الدنيا فانه قليل فليقدم المصالحة بين المتحاكمين اليه قبل الفصل البت فان الصلح كما يقال سيد الاحكام وهو قاعدة دينه

مطلب آداب بطريك القبط

المسيحي ولم يخالف فيه المحمدية الغراء دين الاسلام ولينظف صدور اخوانه من الغل
ولا يقنع بما ينظفه ماء المعمودية من الاجسام وهو رأس جماعته والكل له تبع فلا
يتخذله تجارة مربحه أو يقتطع بها مال عيسوى يقربه فانه مايكون قد قربه الى المذبح
وانما ذبحه وكذلك الديارات وكل عمر والقلالى فيتعين عليه ان يتفقد فيها كل أمر
ويجتهد فى اجراء أمورها على مافيه رفع الشبهات علما انهم انما اعتزلوا فيها للتعبد فلا
يدعها تتخذ منتزهات وانهم انما أحدثوا هذه الرهبانية لتقلل فى هذه الدنيا والتعفف
عن الشهوات وحبسوا فيها أنفسهم حتى ان أكثرهم اذا دخل اليها لايعود يبقى مع
المطلوقين من الجماعات فليحذرهم من جعلها مصيدة للمال بل خلوة منزهة عن الحرام
مرصدة على الحلال لايأوى اليها من الغرباء القادمين عليه من يريب ولايكتم عن
الحكومة مشكل أمر ورد عليه من بعيد أو قريب وليتجنب مالعله فيما يخص
المذاهب من طرف الاجانب ينوب وليتوق مايأتيه من تلقاء الحبشة حتى اذا قدر فلا
يشم انفاس الجنوب فمادة سود دا السودان وان كثرت مقصره فان الله تعالى جعل
آية الليل مظلمة وآية النهار مبصره والتقوى مأمور بها أهل كل مله وكل موافق
ومخالف فى القبله فليكن عمله بها على وجه صحيح وفى الكناية مايغنى عن التصريح
وبالتقوى رضا الله ورسوله وبها أمر المسيح

مطلب
آداب رئيس اليهود

وأما رئيس اليهود فهو الضابط لطائفته على قلتهم والمؤمن لسربهم الذى لولم يؤمنوا
فيه لأكلهم الذئب لذلتهم فعليه بضم جماعته ولم شملهم باستطاعته والحكم فيهم
على قواعد ملته وعوائد أئمته فى الحكم اذا وضح له بأدلته وعقود الانكحة
وخواص مايعتبر عندهم فيها على الاطلاق ومايفتقر فيها الى الرضا من الجانبين
فى العقد والاطلاق وفيما أوجب عنده حكم دينه عليه التحريم وأوجب عليه
الانقياد الى التحكيم ومانص فيه الاحبار التواتر من الاخبار والتوجه تلقاء بيت
المقدس الى جهة قبلتهم ومكان تعبد أهل ملتهم والعمل فى هذا كله بما شرعه موسى
الكليم والوقوف معه اذا ثبت انه فعل ذلك النبى الكريم واقامة حدود التوراة
على ماأنزل الله من غير تحريف ولاتبديل لكلمة بتأويل ولاتصريف واتباع
ماأعطوا عليه العهد وشدوا عليه العقد وأبقوا به ذمامهم ووقوا به دماءهم وما
كان يحكم به الانبياء والربانيون ويسلم اليه الاسلاميون منهم ويعبر عنه العبرانيون
كل هذا مع الزام الرئيس لهم من حكم أمثالهم من أهل الذمة الذين أقروا فى هذه الديار
ووقاية أنفسهم بالاتصاف بالخضوع والانكسار ومد رؤسهم بالاذعان الى ملة الاسلام
وحفظ شعار الذمة بتمام الانقياد والاستسلام وعدم التظاهر بما يقتضى المناقضه

أو يفهم منه المعارضه وعلى هذا الرئيس ترتيب طبقات أهل ملته من الاحبار فمن دونهم على قدر استحقاقهم وعلى ما لا يخرج عنه كلمة اتفاقهم وكذلك له الحديث في جميع كنائس اليهود المستقرة الى الآن المستقرة بأيديهم من حين عقد عهد الذمة ثم ما تأكد بعده بطول الزمان وتقريرهم على ما سلف عليه سلف هذه الامه وفي هذا كفاية وتقوى الله وطاعة الدولة الاسلامية رأس الامور المهمه

قال الشيخ بدر الدين بن عبد الرحمن البرلسي المالكي في كتابه المسمى بالقول المرتضى في أحكام القضا مسئلة اختلف القرويون هل يجوز تمكين الخصم من طلب يهودي في سبته والزامه الحكم فيه أو يكره ذلك قال العلامة قاضي القضاة البساطي وعندي انه يمنع الا ان تقوم القرائن على ان المسلم اضطر الى ذلك ولم يقصد ضررا قال ولقد حكى لنا ان بعض الناس يتعيش بذلك فيذهب الى بعض القضاة ويرفع اليه ورقة ويطلب فيها يهوديا وربما كان معه ورقتان أو ثلاث من قضاة مختلفة واذا كان يوم السبت توجه الى اليهود ومعه رسول قد أطمعه على شره ويقول طلبتك الى الشرع فلا يسعه الا ان يصالحه على الترك في ذلك اليوم انتهى كلام الشيخ بدر الدين ثم قال في محل آخر تغليظ اليمين يكون في المحل المعظم وهو الجامع للمسلمين ولا يقوم مقامه مسجد ويحلف غير المسلم حيث يعظم فيحلف اليهودي في البيعة ويحلف النصراني في الكنيسة والمجوسي في بيت النار انتهى وعند الامام الاعظم أبي حنيفة النعمان لا يحلفون في بيوت عباداتهم وانما يحلفون عند القاضي فقد راعى مذهب الامام مالك عالم المدينة معتقدهم ثم قال الشيخ بدر الدين أيضا في محل آخر قال الشيخ سراج الدين عمر الحنفي قارئ الهداية اذا بنى الذمي دارا عالية بين دور المسلمين وجعل لها طاقات وشبابيك تشرف على جيرانه هل يمكن من ذلك فاجاب بقوله أهل الذمة في المعاملات كالمسلمين وما جاز للمسلمين جاز لهم وانما يمنع الذمي من تعلية بنائه اذا حصل ضرر لجاره من منع ضوء أو هواء هذا هو ظاهر المذهب انتهى وقال الامام النووي في التحفة ما نصه وللامام أو نائبه الاستعانة بأهل الذمة والاستئمان على العدو بشرط ان تؤمن خيانتهم بان يعرف حسن رأيهم فينا ويشترط في جواز الاعانة بهم الاحتياج اليهم ولو بنحو خدمة أو قتال لقلتنا ونفعل بالمستعان بهم الاصلح من افرادهم أو تفريقهم في الجيش انتهى ويحسن هنا ان نقول ما قاله هرقل ملك الروم حين أمر في جيشه بالشام جبلة بن الايهم الغساني على من معه من العرب ليحاربوا معه عرب الاسلام وجعل جبلة وقومه مقدمة لجيش الروم وكان جبلة قد أسلم ثم ارتد وانضم للروم ليخلص من حكم عمر رضي الله تعالى عنه حيث أراد ان يسوي بينه وبين خصمه في القصاص في تطيير

مطلب
امرة جبلة بن الايهم من قبل قيصر الروم على من معه من عرب غسان لحرب عرب الاسلام بالشام

لطمة

لطمة لطمها جبلة فقال هرقل حين صدر به فى حرب الاسلام لا يقطع الماس الا الماس يعنى لا يغلب العرب الا العرب أى لا يغلب الجنس الا جنسه

فلا شك فى جواز مخالطة أهل الكتاب ومعاملتهم ومعاشرتهم وانما المحظور الموالاة فى الدين ومما يقرب ذلك حل الكتابية للمسلم وولاية العقد له من وليها لقوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم أى حل لكم مع جواز التسرى بالكتابيات اللاتى وقعن فى أسر الاسلام بحرب لانه صلى الله عليه وسلم تسرى بصفية وريحانة قبل اسلامهما وممن تزوج بالكتابيات من الخلفاء الراشدين ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه فانه تزوج بنصرانية كتابية لكن أسلمت بعد ذلك وحسن اسلامها

مطلب
مخالطة أهل الكتاب ومعاشرتهم

وبالجملة فرخصة تدين أهل الكتاب بدينهم مؤسسة على العهود المأخوذة عليهم عند الفتوح الاسلامى وكل مسلم يحفظ العهد لان العهد فى الحقيقة انما هو لله تعالى وفى العادة ان العهد يلتزمه من يعقده بالطوع والاختيار فبهذا يجب الوفاء به قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما وقد ذكر بعض ما يتعلق بذلك فى المقدمة عند التكلم على حرية الذمة التى تعتبر عند أهل الاديان وفى الفصل الثالث الآتى بعد هذا ما يتعلق بوفاء العهود فليراجع

(ومما يحكى) مما يناسب ذلك فى الجملة ان البرنس جرجس بن جاكس الثانى ملك الانكليز وولى عهده الذى هو بروتستانى المذهب لما سافر الى مملكة فرانسا للسياحة ذهب لزيارة فنلون القسيس الفرنساوى صاحب التآليف الكثيرة التى منها سياحة تلماك أوصاه بقوله اذا آل الملك اليك أيها الامير لا تجبر رعيتك القاتوليقية على تغيير مذهبهم ولا تبديل عقائدهم الدينية فانه لا سلطان يستطيع أن يتسلط على القلب وينزع منه صفة الحرية فقوة العنفوان الحسية والشوكة الجبرية الغاصبة لا تفيد برهانا قاطعا فى العقيدة ولا تكون حجة يطمئن اليها القلب فلا ينتج الاكراه على الدين الا النفاق واظهار خلاف ما فى الباطن انتهى

مطلب
ان محض التعصب فى الدين والاكراه عليه لا ينتج الا النفاق وان الممدوح انما هو التعصب لاعلاء كلمة الله

ومن هذا يعلم ان الملوك اذا تعصبوا لدينهم وتداخلوا فى قضايا الاديان وأرادوا قلب عقائد رعاياهم المخالفين لهم فانما يحملون رعاياهم على النفاق ويستعبدون من يكرهونه على تبديل عقيدته وينزعون الحرية منه فلا يوافق الباطن الظاهر فمحض تعصب الانسان لدينه لاضرار غيره لا يعد الا مجرد حمية وأما التشبث بحماية الدين لتكون كلمة الله هى العليا فهو المحبوب المرغوب ولذلك كان الجهاد الصحيح لقمع العدو وانما

يتحقق اذا كان القصد منه اعلاء كلمة الله عز وجل واعزاز الدين ونصرة المسلمين لا لحيازة الغنيمة واسترقاق العبيد واكتساب اسم الشجاعة وتحصيل الصيت وطلب الدنيا ففاعل ذلك تاجر أو طالب وليس بمجاهد كما ستعرفه فى الفصل الثالث

الفصل الثالث

فى طبقة الغزاة المجاهدين

قال صلى الله عليه وسلم ان أقرب الناس درجة من درجة النبوة أهل الجهاد وأهل العلم أما أهل العلم فقالوا ما قال الانبياء وأما أهل الجهاد فجاهدوا على ما جاءت به الانبياء (وسأل) رجل النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أى الجهاد أفضل فان الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء ويقاتل ابتغاء عرض الدنيا فأى ذلك فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وهذا الحديث مرآة لكل غاز ومجاهد بحيث يكون جهاده لله عز وجل حتى يستحق الثواب أما من حارب للحمية أو لطلب الدنيا أو لسبب من هذه الاسباب فلا يكون غازيا ثم ان المحاربة لا تجوز الا فى ستة مواضع الاول محاربة المشركين وأهل الحرب الثانى محاربة الملحدين لانهم شر الخلائق الثالث محاربة المرتدين الرابع محاربة البغاة الخامس محاربة قطاع الطريق السادس محاربة القاتلين ليقتص منهم

مطلب
كون تولى الملك للحرب العظيم بنفسه من شهامته

ومن شهامة الملك أن يتولى الحرب العظيم بنفسه وأن يتحفظ من لقاء العدو فى بلاده لسلامة نفسه كما قيل

ان السلامة من سلمى وجارتها * أن لا تمر على حال بواديها

وينبغى أن يخوف الملك العدو بما يمكنه فرب مارجع ويجتهد فى قمع العدو بالحيلة والمكيدة فالحيلة أنفع وسيلة واذا حضره العدو أجزل العطاء للعسكر ووفى بالمواعيد لهم لئلا تنكسر قلوبهم فبهذا يبيعون أرواحهم لقتال عدوهم لانهم حماة الوطن والدين (قال) الحكماء الناس حازمان وعاجز فأحزم الحازمين من عرف الامر قبل وقوعه فاحترس منه والحازم بعده من اذا نزل به الامر تلقاه وعمل الحيلة حتى يخرج منه والعاجز من تردد بين ذلك لا يأتمر رشيدا ولا يطيع مرشدا حتى تفوته النجاة ويقال احتل تغنم وتفكر تسلم ويقال ترك التقدم أحسن من التندم (وأوصى) ملك قائد سريته فقال له كن كالتاجر الكيس ان وجد ربحا اتجر والا حفظ رأس ماله ولا تطلب الغنيمة حتى تحمد السلامة وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك ويقال لا تنشب فى حرب وان وثقت بقوتك حتى تعرف وجه الهرب منها فان

النفس أقوى ما تكون اذا وجدت سبيل الحيلة مدبرة لها واختلس من تحاربه خلسة الذئب وطر منه طيران الغراب فان التحرز زمام الشجاعة والتهور عدو الشدة

ومما يجب مع التفكر على المحارب مشاورة العقلاء من النصحاء أولى التجارب فقد حكى ان قوما من العرب أتوا شيخا قد أربى على الثمانين وقارب التسعين فقالوا ان عدونا استاق سرحنا فأشر علينا بما ندرك به الثار وننفى العار قال ان ضعف قوتى نسخ همتى ونقض ابرام عزيمتى ولكن شاوروا الشجعاء من ذوى العزم والجبناء من أولى الحزم فان الجبان لا يألو برأيه ما وقى مهجكم والشجاع لا يألو ما يشيد ذكركم ثم خلصوا من الرأيين نتيجة تبعد عنكم معرة نقص الجبان وتهور الشجعان فاذا نجم الرأى على هذا كان انفذ على عدوكم من السهم الصائب والحسام القاضب وملاك التعجيل فى بلوغ الامانى رفض العجلة واستعمال التوانى (قال) الحكماء اياك والعجلة فانها تكنى ام الندامة لان صاحبها يقول قبل أن يعلم ويجيب قبل أن يفهم ويعزم قبل أن يفكر ويقطع قبل أن يقدر ويمدح قبل أن يجرب ويذم قبل أن يختبر ولن تصحب هذه الصفة أحدا الا صحب الندامة وجانب السلامة قال الشاعر

الصبر مفتاح ما يرجى * وكل صعب به يهون
وربما نيل باصطبار * ما قيل هيهات لا يكون
فاصبر وان طالت الليالى * فربما أمكن الحزون

وقال تعالى فى نهى نبيه عن العجلة تعليما لامته ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقال بعض الحكماء تأن واحزم فاذا استوضحت فاعزم فاذا اجتمع فى الرجل الحزم والشجاعة فهو الذى يصلح لتدبير الجيوش وسياسة أمر الحروب والناس رجل ونصف رجل ولا شىء فالرجل من اجتمع له اصابة رأى وشجاعة ونصف الرجل هو الذى انفرد بأحد الوصفين دون الآخر والذى لا شىء هو من عرى من الوصفين

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الغزاة المجاهدين الذين هم أنصار الوطن والدين بوصف فى حقهم بالخصوص فقال ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وقد أعد الجنة لمن منهم ذاق بالشهادة طعم الحتوف بدليل قوله صلى الله عليه وسلم ان الجنة تحت ظلال السيوف وحسبك قوله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون الآية ومدار فن الحرب الآن على تعليم الحركات العسكرية وحسن الرأى والشجاعة وخيرها أوسطها قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة وقال المتنبى

الرأى قبل شجاعة الشجعان * هو أول وهى المحل الثانى

مطلب
انه يجب على المحارب مشاورة العلماء أولى التجارب

فاذا هما اجتمعا لنفس مرة * بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طعن الفتى أقرانه * بالرأى قبل تطاعن الاقران

ولو أن الشجاعة هي عماد الفضائل ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة الا أن الرأى مقدم عليها كما حكي ان الاسكندر حاصر قلعة سنة كاملة فلم يفتحها فكتب اليه الحكماء لو جلست سبعين سنة لا تملك فتحها الا بالمكيدة للاعداء وان يكون بأسهم بينهم فبعث لبعضهم وخدعهم ثم بعث الى آخرين بضد ذلك فتنازعوا وتحاربوا ثم سلموا القلعة وعرف بعضهم الشجاعة بأنها غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده وقيل فى تعريفها أيضا هي سعة الصدر بالاقدام على الامور المتلفة (وقد روى) عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الشجاعة ولو فى قتل حية * وقال بعض أهل التجارب الرجال ثلاثة فارس وشجاع وبطل فالفارس الذى يشد اذا اشتدوا وقال عامر بن الطفيل

مطلب
تعريف الشجاعة

وانى وان كنت ابن سيد عامر * وفارسها المشهور فى كل موكب
فما سودتنى عامر عن وراثة * أبى الله أن اسمو بأم ولا أب

ويكنى بأبى على وهو ابن أخى عامر بن مالك المعروف بملاعب الاسنة أحد فرسان العرب المشهورين وكبارهم ومراد عامر بن الطفيل ان قبيلة عامر لم تجعله سيد الاجل وراثته من أبيه السيادة بل لامر آخر ولمح بعضهم لهذا المعنى بقوله

يسود من يسود بغير ريب * اذا الاسباب كان لها وجود
ألم تسمع أخى ما قال قيس * لامر ما يسود من يسود

واما الشجاع فالداعى الى البراز والمجيب داعيه الى ذلك والبطل المحامى لظهور القوم اذا ولوا والعرب تسمى ذلك كله شجاعة ويجعلون أول مراتب الشجعان الهمام سمى بذلك لاهتمامه وعزمه ثانيها المقدام سمى بذلك للاقدام وهو ضد الاحجام ثالثها الباسل من البسالة وهي الجراءة والشدة رابعها البطل أى الذى يبطل فعل الاقران ويطفئ شجاعة الشجعان خامسها الصنديد وهو الذى لا يقاومه مقاوم

وحكم الشجاعة ومظهرها وثمرتها الاقدام فى موضع الاقدام والثبات فى موضع الثبات والزوال فى موضع الزوال وضد ذلك يخل بالشجاعة وقالوا الحرب كالنار ان تداركت أولها خمد اضرامها وان استحكم اضرامها صعب اخمادها وهذا معنى قولهم ينبغى أن تتغدى بالعدو قبل أن يتعشى بك (وزعم) بعضهم ان السخاء والكرم دليل الشجاعة وان كل سخى شجاع والصحيح ان ذلك أغلبى غير مطرد بل بنو آدم على أربعة أحوال فمنهم الجواد الشجاع يجود بماله ونفسه وهو أعلاهم مرتبة ومنهم البخيل الجبان وهو أذلهم وأكثرهم مذمة ومنهم الجواد الجبان يجود بماله ويضن بنفسه ومنهم الشجاع البخيل بضد ذلك والاخلاق مواهب من الله يهب منها ما يشاء لمن يشاء

ويجبل

ويجعل خلقه على ما يريد وانما الاخلاق الفاضلة تتلازم غالبا وكذا الاخلاق الدنيئة

(قال) أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمل الناس وجها وأجود الناس كفا وأشجع الناس قلبا لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق الناس ثائرين قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا قد سبقهم الى الصوت وسبر الخبر على فرس لابى طلحة عرى والسيف فى عنقه وهو يقول لن تراعوا لن تراعوا (وقال) عمران بن حصين مالقى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة الا كان أول من يضرب (وقال) الحكماء أصل الخير كله فى ثبات القلب وهو الشجاعة وأعظم أهل الجند شجاعة وأقواهم جاشا من اذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب فى وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم ويقوى قلوب أصحابه فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن كابه فرسه حماه حتى ييأس العدو منهم حتى قيل ان المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين ومن أكرم الكرم فى الشجاعة الدفاع عن الحريم

مطلب كونه صلى الله عليه وسلم أشجع الناس قلبا

ولقد اعترف الجميع لابى بكر الصديق رضى الله عنه بقوة الجاش والصبر فى المواطن الكريهة وكان عمر رضى الله عنه موسوما بالشدة والشجاعة كان يضع يده اليمنى على أذن فرسه اليسرى ويجمع بدنه ويثب على ظهرها كأنما خلق عليها

مطلب الاعتراف من الجميع بشجاعة الصحابة

وكان على رضى الله تعالى عنه شجاعا بطلا اذا ضرب لا يثنى وكذلك الزبير بن العوام معدود من شجعان الفرسان قالوا لم يكن فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم فارس أشجع من الزبير ولا راجل أشجع من الامام على كرم الله وجهه ومن الشجعان بنو قيلة وهم الانصار قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع يريد أنهم يقاتلون ابتغاء مرضاة الله لاعلاء كلمته لا للغنيمة ومن شجعان الانصار معاذ بن عفراء قطع كتفه يوم بدر فبقى معلقا بجلده فلم يزل يقاتل جميع يومه وهو معلق حتى وجد ألمه فوضع رجله على يده وتمطأ حتى قطع الجلدة ومن شجعان الصحابة خارجة بن حذافة والمقداد بن الاسود

ولما كتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وهو محاصر مصر يطلب ثلاثة آلاف فارس ليبعث اليه بها بعث اليه بهؤلاء الثلاثة رضى الله عنهم ولم يكن فى الجاهلية ولا فى الاسلام أشجع من خالد بن الوليد ولشجاعته سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف الله لم ينهزم فى جاهلية ولا فى اسلام ومات على فراشه وقيل لعبد الملك بن مروان من أشجع الناس فقال العباس بن مرداس السلمى الذى يقول

أشد على الكتيبة لا أبالى * أحتفى كان فيها أم سواها

مطلب
من اشتهر بالشجاعة من الابطال

وقيس بن الحطيم حيث يقول

وانى فى الحرب العوان موكل * باقدام نفس لا أريد بقاءها

وممن اشتهر بالشجاعة أبو دلف القاسم بن عيسى العجلى فارس بطل شاعر نديم جامع لما تفرق فى غيره حمل على فارس ووراءه رديف فطعنهما فانتظمهما فى رمحه وكان ذلك فى بعض حروبه وفيه يقول بكر بن النطاح ويذكر طعنته

واذا بدا لك قاسم يوم الوغى * يختال خلت امامه قنديلا
واذا تلذذ بالعمود ولينه * خلت العمود بكفه منديلا
واذا تناول صخرة ليرضها * عادت كثيبا فى يديه مهيلا
قالوا وينظم فارسين بطعنة * يوم اللقاء ولا تراه كليلا
لا تعجبوا لو كان مد قناته * ميلا اذا نظم الفوارس ميلا

ومن كلام أبى دلف العجلى المذكور

ليس المروءة أن تبيت منعما * وتظل منعكفا على الاقداح
* ما للرجال وللتنعم انما * خلقوا ليوم كريهة وكفاح

وقد أرشد الله سبحانه وتعالى عباده المجاهدين بخمسة أشياء ما اجتمعت فى فئة قط الا نصرت وان قلت وكثر عدوها وهى مجموعة فى قوله تعالى وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين أحدها الثبات ثانيها كثرة ذكره سبحانه وتعالى ثالثها الطاعة رابعها اتفاق الكلمة خامسها الصبر فهذه الخمسة تبنى عليها قبة النصر ولما اجتمعت هذه القوى الخمس فى الصحابة لم تقم لهم أمة من الامم حتى فتحوا الدنيا ودانت لهم البلاد والعباد ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل امرهم الى ما آل اليه

ولا بأس أن نذكر هنا من أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد ونقله صاحب المستطرف قال نزل علينا بنو تغلب فى بعض السنين وكنت مشغوفا بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها فبينما أنا أدور فى بعض أحيائهم اذا أنا بامرأة واقفة فى فناء خبائها وهى آخذة بيد غلام فما رأيت مثله فى حسنه وجماله له ذوائب كالسبج المنظوم وهى تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب تحن اليه الاسماع وترتاح له القلوب وأكثر ما أسمع منها أى بنى وهو يتبسم فى وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل كأنه جارية بكر لا يرد جوابا فاستحسنت ما رأيت واستحليت ما سمعت فدنوت منه وسلمت فردت على السلام فوقفت أنظر اليهما فقالت يا حضرى ما حاجتك فقلت الاستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام فقالت يا حضرى ان شئت سقت اليك من خبره ما هو أحسن من

منظره

منظره فقلت قد شئت برحمك الله فقالت حملته والرزق عسر والعيش نكد حملا خفيفا
حتى مضت له تسعة أشهر وشاء الله عز وجل أن أضعه فوضعته خلقا سويا فوربك ما هو
الا ان صار ثالث أبويه حتى أفضل الله عز وجل وأعطى وآتى من الرزق بما كفى وأغنى
ثم أرضعته حولين كاملين فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد الى فراش أبيه فربى
كأنه شبل أسد أقيه برد الشتاء وحر الهجير حتى اذا مضت له خمس سنين أسلمته الى
المؤدب فحفظه القرآن فتلاه وعلمه الشعر فرواه ورغب فى مفاخر قومه وآبائه
وأجداده فلما ان بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرس
وتمرس ولبس السلاح ومشى بين بيوتات الحى الخيلاء فأخذ فى قرى الضيف واطعام
الطعام وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه فاتفق ان نزلنا بمنهل من
المناهل بين أحياء العرب فخرج فتيان الحى فى طلب ثار لهم وشاء الله تعالى ان أصابته
وعكة شغلته عن الخروج حتى اذا أمعن القوم ولم يبق فى الحى غيره ونحن آمنون
وادعون ما هو الا أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع
العدو فما هو الا هنيهة حتى أحرزوا الاموال دون أهلها وهو يسألنى عن الصوت وأنا استر
عنه الخبر اشفاقا عليه وضنا به حتى اذا علت الاصوات وبرزت المخدرات رمى دثاره
وثار كما يثور الاسد وأمر باسراج فرسه ولبس لامة حربه وأخذ رمحه بيده ولحق حماة
القوم فطعن أدناهم منه فرمى به ولحق أبعدهم عنه فقتله فانصرفت وجوه الفرسان فرأوه
صبيا صغيرا لا مدد وراءه فحملوا عليه فأقبل يؤم البيوت ونحن ندعو الله عز وجل له
بالسلامة حتى اذا مدهم وراءه وامتدوا فى أثره عطف عليهم ففرق شملهم وشتت جمعهم
وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق ومرق كما يمرق السهم وناداهم خلوا عن المال فوالله
لا رجعت الا به أو لأهلكن دونه فانصرفت اليه الاقران وتمايلت نحوه الفرسان
وتحيزت له الفتيان وحملوا عليه وقد رفعوا اليه الاسنة وعطفوا عليه بالاعنة فوثب
عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الابل وجعل لا يحمل على ناحية الا حطمها
ولا كتيبة الا مزقها حتى لم يبق من القوم الا من نجا به فرسه ثم ساق المال وأقبل به فكبر
القوم عند رؤيته وفرح الناس بسلامته فوالله ما رأينا قط يوما كان أسمح صباحا
وأحسن رواحا من ذلك اليوم ولقد سمعته يقول فى وجوه فتيات الحى هذه الابيات

تأملن فعلى هل رأيتن مثله * اذا حشرجت نفس الجبان من الكرب
وضاقت عليه الارض حتى كأنه * من الخوف مسلوب العزيمة والقلب
ألم أعط كلا حقه ونصيبه * من السمهرى اللدن والمرهف العضب
انا ابن أبى هند بن قيس بن مالك * سليل المعالى والمكارم والسيب

أبى لى أن أعطى الظلامة مرهف * وظرف قوى الظهر والجوف والجنب
وعزم صحيح لو ضربت بحده الشبعبال الرواسى لانحطن الى الترب
* وعرض نقى أتقى ان أعيبه * وبيت شريف فى ذرى تغلب الغلب
فان لم أقاتل دونكن وأحتمى * لكن وأحميكن بالطعن والضرب
فلا صدق اللاتى مشين الى أبى * يهنينه بالفارس البطل الندب

هكذا فضائل شبان العرب فى الشجاعة ومكارم الاخلاق

آراؤهم ووجوههم وسيوفهم * فى الحادثات اذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح * تجلو الدجى والاخريات رجوم

كما أن شجاعة شيوخهم فى قوة آرائهم المؤسسة على التجارب كما حكى قريبا عن الشيخ الذى قارب التسعين لما استشاره قوم من العرب فى شأن عدوهم فأشار عليهم برأى سديد

مطلب من جمع بين فضيلتى الشجاعة والرأى

ومن الشيوخ من يجمع بين فضيلتى الشجاعة والرأى كعمرو بن معدى كرب الزبيدى فانه بعد أن عمر وضعف كان فى واقعة الفرس يحمل على عدوه وذلك أنه معدود من فرسان الجاهلية والاسلام فله فى حروب الجاهلية مواقف مذكوره ومواطن مشهوره اسلم ثم ارتد ثم عاد الى الاسلام وشهد حروب الفرس وكان له فيها أفعال عظيمه واحوال جسيمه وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا رآه قال الحمد لله الذى خلقنا وخلق عمرا (وروى) عنه رضى الله عنه أنه سأله يوما فقال له يا عمرو أى السلاح أفضل فى الحرب قال فعن أيها تسأل قال ما تقول فى السهام قال منها ما يخطئ ويصيب قال فما تقول فى الرمح قال أخوك وربما خانك قال فما تقول فى الترس قال هو الدائر وعليه تدور الدوائر قال فما تقول فى السيف قال ذلك العدة عند الشدة (وقيل) انه نزل يوم القادسية على النهر فقال لاصحابه انى عابر على هذا الجسر فان أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتمونى وسيفى بيدى أقاتل به تلقاء وجهى وقد عرفنى القوم وأنا قائم بينهم وان أبطأتم وجدتمونى قتيلا بينهم ثم انغمس فحمل على القوم فقال بعضهم لبعض يا بنى زبيد علام تدعون صاحبكم والله ما نظن انكم تدركونه حيا فحملوا فانتهوا اليه وقد صرع عن فرسه وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم فأمسكها والفارس يضرب فرسه فلم تقدر أن تتحرك فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نفسه وخلى فرسه فركبه عمرو وقال أنا أبو ثور كدتم والله تفقدوننى فقالوا أين فرسك فقال رمى بنشابة فعار وشب فصرعنى

(ويروى) أنه حمل يوم القادسية على رستم وهو الذى كان قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم

القادسية

القادسية على قتال المسلمين فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل فضرب عمرو الفيل فقطع عرقوبه فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار فقتل رستم وانهزمت العجم وكان عمرو من الشعراء المعدودين وفيه يقول العباس ابن مرداس

اذا مات عمرو قلت للخيل أوطئي * زبيدا فقد أودى بنجدتها عمرو

وما أحسن قوله فى وصف السيف ذاك العده عند الشده فقد كان له سيف يسمى الصمصامة فكان يضرب به وبسيفه المثل اذ هو أشرف سيوف العرب فيقال ما كل من يسطو بصمصامة عمرو ويقال له الصمصام قال نهشل متمثلا به

أخ ماجد ما خانني يوم مشهد * كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص ولم يزل فى آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسرى بمال جزيل لهشام فلم يزل عند بنى مروان حتى جد الهادى العباسى فى طلبه فأخذه قال صلى الله عليه وسلم الخير فى السيف والخير مع السيف والخير بالسيف قال السموءل

وما مات منا سيد حتف أنفه * ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظباة نفوسنا * وليست على غير الظباة تسيل

وقال ابن الرومى

لم أر شيأ حاضرا نفعه * للمرء كالدرهم والسيف

يقضى له الدرهم حاجاته * والسيف يحميه من الحيف

وما أحسن قول الطغرائى

وعادة السيف أن يزهى بجوهره * وليس يعمل الا فى يدى بطل

ولما لما انتصر بعض الامراء على أعدائه وأطلق اسراهم من عليهم بسلاحهم فقال موقع جيشه يصف ذلك مننا عليهم من الاسلاب بالبيض القواطع ليجعلوا حليها أساور فى أيدى البيض ذوات البراقع وحلية السيف لا يحسن الا بكف يكون به ضاربا له لا جالبا واذا عطل فى مواقف الجهاد فالاولى له أن يجعل عاطلا كما قال أبو العتاهيه

فصغ ما كنت حليت * به سيفك خلخالا

فما تصنع بالسيف * اذا لم تك قتالا

(ومدح) اعرابى قومه فقال قومى ليوث حرب وغيوث جدب ليس لاسيافهم أغماد غير الهام ولا رسل للمنايا غير السهام قال الشاعر

كأن سيوفهم صيغت عقودا * تجول على الترائب والنحور

مطلب

مدح السيف وان القصد منه فى بعض المواطن آلات الحرب

وسمر رماحه جعلت همونا * فما يخطرن الا فى الضمير

وقال عبد الله بن طاهر

يبيت مجيبى السيف طورا وتارة * تعض بها مات الرجال مضاربه

أخو ثقة أرضاه فى الروع صاحبا * وفوق رضاه اننى أنا صاحبه

وليس أخو العلياء الا فتى له * بها كلف ما تستقر كتائبه

وقال ابن الرومى

كتبت لنا أيدى النزال صحائفا * عجما من الاعراب والافصاح

أطراسها جثث الكماة وحبرها * مما أسلنا من دم الارواح

فالشكل فوق سطورها بصوارم * والنقط فوق حروفها برماح

وقد تنازع الادباء فى التفضيل بين السيف والقلم ففضل بعضهم السيف فى قوله

السيف أصدق انباء من الكتب * فى حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى * متونهن جلاء الشك والريب

وأشار بعضهم الى تفضيل القلم على السيف بقوله

الكتب عقل شوارد الكلم * والخط خيط فرائد الحكم

بالخط نظم كل منتثر * منها وفصل كل منتظم

والسيف وهو بحيث تعرفه * فرض عليه عبادة القلم

ولو أن بكل من السيف والقلم قوام الممالك الا أن تقديم الثانى على الاول أقرب لان بالاقلام تساس الاقاليم فالقلم أنفع من السيف وان كان السيف أرفع منه قال الشاعر

لا يسلم الشرف المنيع من الاذى * حتى يراق على جوانبه الدم

فكيف وبه دوام المجد وتمام السعد فما ينقش بالذهب على سيوف بعض العرب

ان أسيافنا القصار الدوامى * صيرت مجدنا طويل الدوام

باقتحام الاهوال من وقت حام * واقتسام الاموال من وقت سام

ثم ان التعبير فى المواطن الحربية بالسيف القصد منه آلات الحرب وعدته اذ هو فى الازمان القديمة كان أشهرها والافليس للاهوان والمدافع فى وقت الاهوال من دافع ولا مدافع فهى أولى من الرمى بالسهام والنبال فى قول من قال

نالوا بها من أعاديهم وان بعدوا * مالم ينالوا بحد المشرفيات

فانها فى العدد وانكى وابلغ فى الانتقام والبلية وأهلك للاخصام وأملك فى قطع

المنازعات

المنازعات الحربية بين أمم البريه الا انه لم تزل الشهرة للمرهفات وأيضا القوة كانت في قديم الزمان الرمى بالنبال حيث فسر النبى صلى الله عليه وسلم القوة به حين مر على أناس يرمون فقال الان القوة الرمى الان القوة الرمى الان القوة الرمى وأراد بالقوة القوة المذكورة فى قوله تعالى واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وقوله تعالى ما استطعتم مشتمل على كل ما هو فى مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة فالآية الشريفة جامعة لابواب الحرب وهى الاصل فى تدبير الحروب التى وضع الناس لها كتبا ورتبوا فيها تراتيب خاصة وتفننوا فيها تفننا عجيبا مع قوله تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ومن المعلوم أنه ليس ثم بناء مرصوص أتم ولا أنظم من تشكيل الشكل المربع المسمى بالقلعة فى التعاليم الجديدة النظامية التى تجددت من منذ سنين عديدة فى مصر المحمية فهذه النظامات الحديثة الاخيرة من أعظم ما تكون به ديار الاسلام جديرة والفضل فى ادخالها الديار المصرية واقتفاء الاقتداء بها وتأليفها فى الديار الاسلاميه للحضرة المحمدية العليه ثم قويت واتسعت دائرتها برياسة نجله الاكبر سمى الخليل ثم تشكلت أشكالا متنوعة الى ان قويت شوكتها بالخديو الجليل عزيز مصر اسمعيل فانه فرع تبع الاصل الاصيل فى كسب المجد الاثيل

وهل ينبت الخطى الا وشيجه * وتغرس الا فى منابتها النخل

فانه ربى للسجال رجال لهم فى ميادين الحرب أعلى مجال

يبنى الرجال وغيره يبنى القرى * شتان بين قرى وبين رجال

قلق بكثرة ماله وجياده * حتى يفرقها على الابطال

(وقال آخر)

وشرط الفلاحة غرس الثمار * وشرط السياسة غرس الرجال

مطلب وصية حكيم لتلميذه الامير على السرية

ولا بأس ان نذكر هنا عظة تمثيليه وصى بها الحكيم منطور تلميذه تليماك حين رياسته على بعض السريات اليونانيه وان كانت الواقعة فى حد ذاتها خياليه الا أن لها معنى من المعانى الصحيحه يجب أن يتمسك به امراء الجنود فى سفراتهم الحربيه فنقول قال منطور لتليماك اذهب الى أى خطر كان واقتحم المخاوف والمهالك متى احتاج الامر لذلك فان المرء يتدنس عرضه اذا هاله الخوض فى المعارك ولم يقتسم الاخطار مع اربابها ولم يشارك ولم يقتحم معا مع الحرب والجدال فان هذا يلوثه أزيد مما اذا منع من السفر لحضور الحرب والنزال ولا ينبغى لمن يقود الجيوش وله عليهم امره ان تكون شجاعته مترددة بل محققة لينفذ على الجميع نهيه وأمره فاذا كانت الرعية تحتاج

لحفظ ملكها وبقائه فهى أحوج لان تجد شهرته مترددة يخشى عليها من السقوط ومن شماتة أعدائه ولا تنس أن الذى يحكم العساكر ويقودها فى الكفاح لابد أن يكون انموذج الجمع وشاكى السلاح وشجاعته الجاسرة الباسلة يحيى قلوب الجنود الفاضلة فاياك ان تهاب الاخطار بل متى خف ميدان الحرب ونقع الغبار فهذا خير من ان يرميك الناس بالجبن ويصفوك بالذل والصغار وأما المداهنون الذين يصدونك عن التعرض للخطر عند الاقتضاء واللزوم فهم أول من يقول فى حقك سرا انك ملوم ومذموم وانك ضعيف الفؤاد والجاش ويجهدك جهدا لا وباش ويفوقونك بسهام الملام متى وجدوا ان يسهل عليك الاحتجاب والاحجام والتأخر عن الاقدام ولكن لا ينبغى لك ان تنهض وقت الرخاء والدعة لتطلب الاخطار بدون منفعة فان الشجاعة ليست محمودة العلقة والارتباط الا اذا كانت موزونة بقسطاس العقل وميزان الحزم والاحتياط والا فهى بدون ذلك عبارة عن احتقار النفس النفيسة والمخاطرة بها بدون رأى ولا تدبير فهى اذن خسيسة فترجع الى الهيئة الشهوانية والصفة الغضبية الحيوانية فلا تنتج نتيجة محققة مأمونة ولا تثمر ثمرة عن الهوان مصونة مع ان النفس جوهرة مكنونة فيجب ان تكون دماؤها محقونة فالانسان الذى لا يملك نفسه فى وقت الاخطار هو انسان غضبى ورجل احمق لا شجاع باسل حليف انتصار ولا هو معدود من فحول الرجال بل محتاج ان يخرج من مركز العقل ويدخل فى زوايا الاختلال ليغلب الخوف بصولة الغضب وجولته ولا يقتدر على غايته لقوة قلبه وحضور عقله واستحضار فكرته فهو فى هذه الحالة لا يكر ولا يفر ولا يقبل ولا يدبر وانما يتعكر ويتكدر ولا يتذكر ولا يتفكر بل يختلط ولا يتدبر ويخسر حريته عقله وفكره مما لا يلزم لتنظيم حاله واغتنام تدمير عدوه وتدبير أمره وينسى خدمة الاوطان ومنفعة البلدان وهذا عين الهوان فاذا كان عند ذلك المجازف شجاعة النفر العسكرى المجالد فليس عنده فطانة الرئيس الكامل ولا امارة الامير القائد بل ليس متصفا فى الحقيقة بحقيقة شجاعة النفر الصحيحة ولا يسأله آحاد الجنود وأفراد العساكر الرجيحة لان النفر العسكرى من واجباته ان يحافظ فى المعركة على استحضار عقله والاعتدال والحلم حتى يكون ملازما للطاعة فى جميع فعله فأى محارب تعرض للمجازفة فى الحرب العوان كدر نظام العساكر واخل بالتعليمات والحركة العسكرية فى حومة الميدان وكان قدوة للمجازفة والمخاطرة والمثابرة والمكابرة وعرض الجيش بتمامه بفقد استحضار العقل الصائب للوقوع فى مكايد الخطر والمصائب فكل من يؤثر مطامعه الفاسدة ويقدم وسائله ومقاصده

على

على مقتضيات العدل والمصلحة العامه يستحق الجزاء والعقاب لا المكافأة والثواب على رأى الخاصة والعامه فاحذر يا بنى ان تطلب الفخار بدون صبر ولا تؤده بل أقرب الوسائل فى الحصول عليه ان تنتظر اغتنامه بالفرصة لتستعبده فلا يكن سعيك اليه سعيا خائبا ولا ترم سهمك صوبه الا صائبا فان الخصلة الجيدة فى الانسان صاحب الكمال محمد ما دامت مبنية على الرفق والاعتدال فهى معادية للزينة وحب الرياء والسمعه وقصد التعمق فى المطلوب والوسعه فتى زادت الحاجة الداعية لاقتحام الاخطار ودعت الدواعى لاقتحام العقبات الكبار وجب أيضا الاستحصال على وسائل التبصر والاستبصار والحزم فى الشجاعة لبلوغ الاوطار فتقوى الشجاعة بقوة الحاجة اليها ويجب توسيع دائرة البال فى الحصول عليها وبالجملة فتنبه لان تسلك فى امورك كلها مسلكا لا يجلب اليك غيرة الباقين ولا يوجب لك عداوة الآخرين فامدحهم فيما يستحقون عليه المدح وليكن مدحك مصحوبا بتمييز كل على قدر حاله لئلا يستحيل الى القدح ان تذكر حسنات ذوى الاحسان والخصال الملاح من خالص قلب متهلل بالفرح والانشراح تضرب صفحا عن سيئاتهم وترثى لحال فاعلها وتتأسف على وقوعه فى الفعائل القباح ولا تحكم بشئ وتقضى به استقلالا بحضور هؤلاء الرؤساء الافاضل الذين مارسوا الامور وجربوا الوقائع والنوازل فانك خلى عن ذلك ولست مثلهم فى سلوك هذه المسالك فاسمع قولهم مع الادب والاحترام وشاورهم فى الامر لتبلغ صحيح المرام واخضع لارباب المعارف والعوارف وافزع اليهم وتضرع ليعلموك ما لم تعلمه من اللطائف ولا تستح من ان تعزو الى من تعلمت منهم جميع ما يصدر عنك من الامور الصائبه فانسب لهم وأضف اليهم محاسنه وأطايبه ولا تسمع أبدا مقالة من يثبط همتك بالبعد عنهم وأخذ الحذر منهم مما يوقع المنافسه والعداوة والمناقشه والقساوة بينك وبين هؤلاء الرؤساء الساده والامراء القاده واذا تحدثت معهم فاعتمد عليهم كل الاعتماد واركن اليهم وثق بهم وسلم لهم القياد ولا تشك فيهم ولا تتوسوس ولاطفهم فى الخطاب ليتمكن الحب ويتأسس واذا ظننت أو رأيت ان أحدا منهم حصل منه تقصير فى حقك به عليه يعاب فعاتبه برفق واصف نيتك فى العتاب واصدقه فى الدعاوى والاسباب فان وجدت فيه أهلية لفهم مقصدك الشريف بالانصاف والعود على نفسه بالاذعان والاعتراف فخدنه بما يشرح صدره ويرفع قدره ويعلى ذكره فبهذا تأمل منه نوال ما تحتاج اليه واستكمال ما تطلبه لديه وأما اذا رأيته لاعقل له فى موافقة رأيك الصائب فصبر نفسك على ما تجده عنده من التعسف فهو احدى المصائب ولا تجزع وتجلد الى ان

ينتهى الحرب على أحسن حال فانه لايلام عليك فى التمسك بآداب الحرب على هذا المنوال ولكن احترس أيضا أن تفشى لبعض المتملقين والسعاة والوشاة من المنافقين شكوى ما تظنه ظلما من هؤلاء الرؤساء الموجودين فى الوجاقات والمواقع التى أنت فيها معهم فى الحروب والوقائع واقع انتهى

وقد عمل بعض الملوك وصية لناظر الجيش قال فيها وليأخذ أمير هذا الديوان بكليته وليستحضر كل مسمى فيه اذا دعى باسمه وحليته وليقم قيامابغيره لم يرض وليقدم من يجب تقديمه فى العرض وليقف على معالم هذه المباشرة وجرائد جنود نا بعلى يحصى له من الاعلام ناشرة وليقتصد فى كل محاسبه ويحررها على مايجب أوما قاربه أو ناسبه وليستنصح أمر كل ميت يأتى اليه من ديوان المواريث الحشرية ورقة وفاته أو يخبره مقدمه أو نقيبه اذا مات معه فى الاسفار وعنده وفاته وليحرر ما تضمنته الكشوف ويحقق ما يقابل به من اخراج كل حال على ماهو معروف حتى اذا سئل عن أمر كان لم يخف واذا كشف على شئ أظهر ماهو عليه حقيقته ولا ينكر هذا الاهل الكشف وليحرر فى أمر كل مربعه ومافيها من الجهات المقطعه وكل منشور يكتب ومثال عليه جمع للامر يترتب ومايثبت عنده وينزل فى تعليقه ويرجع فيه الى تحقيقه وليعلم ان وراءه من ديوان الاستيفاء من يساوقه فى تحرير كل اقطاع وفى كل زيادة واقطاع وفى كل ماينسب اليه وان كان انما فعله بأمرنا المطاع وليتبصر عن وراءه وليتوق اختلاف كل مبطل وافتراءه وليتحقق انه هو المشار اليه دون رفقته والموكل به النظر والمحقق به جملة جندنا المنصور من البدو والحضر واليه مدارج الامراء فيما ينزل وأمر كل جندى لهم ممن فارق أو نزل وكذلك مساوقات الحساب ومن يأخذ بتاريخ المنشور الشريف أو على السابقه ومن هو فى العساكر المنصورة فى الطليعة أو فى الساقه وطوائف العرب والتركمان والاكراد ومن عليهم تقدمه أو درك بلاد ملزمه أو غير ذلك مما لا يفوت احصاؤه القلم وأقصاه أو أدناه تحت كل لواء ينشر أو علم فلا يزال لهذا كله مستحضرا وله على خاطره محضرا لتكون لفتات نظرنا اليه دون رفقته فى السؤال راجعه وحافظته الحاضرة غنية عن التذكار والمراجعه وملاك الوصايا تقوى الله وهى من أخص أوصافه والجمع بين العدل والاحسان وهما من نتائج اتصافه فليجعلهما عمدتى حكمه فى القول والعمل والله يجعله من أوليائه المتقين وقد جعل انتهى

ومما ينبغى ذكره ان امراء الجيوش هم نواب الامام فى الجهاد فكما يجوز لهم قتال أهل الحرب مقبلين ومدبرين ونصب المنجنيقات والعرادات والقاء الحيات ورمى النيران

مطلب
وصية بعض الملوك لناظر جيشه

مطلب
كون امراء الجيوش هم نواب ولى الامر فى الجهاد وفى عقد العقود والوفاء بالعهود

بجميع

بجميع آلاتها وقطع اشجار العدو ولو مثمرة عند الاقتضاآت والضرورات وقتل الشبان والشيوخ ومن يتعرض للطعن والضرب لاقصد قتل النساء والصبيان فكذلك يجوز لهم بمقتضى رخصتهم أن يعقدوا عقود العهود والامانات ويؤمنوا من ألقى السلاح بما شرع لجلب المصلحة ودرء المفسدة ومتى عقدوا العقود وعاهدوا العهود فلا يجوز نكثها بوجه من الوجوه الا ان ظهر لهم من العدو المتعاهدين معه خيانة مستورة وخوف مظهرة فينبذ العهد اليهم حتى يستووا في معرفة نقض العهد لقوله تعالى واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء وكذلك اذا كان العهد مؤجلا بمدة فانقضت المدة فبانقضائها ينقض العهد وينبذ اذا كان الغرض عدم تجديده بل العزم على المحاربة والمقاتلة ولا يجوز نقضه في غير ماذكر لان نقضه يجري مجرى الغدر وخلف القول قال تعالى الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيأ ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ومتى جاز نقض العهد وجب اخبار المعاهدين بذلك ليكونوا على بصيرة لان النبي صلى الله عليه وسلم حين نقض العهد مع أهل مكة بعث مناديه وهو علي رضي الله تعالى عنه في الموسم فنادى يوم النحر عند جمرة العقبة بنقض الصلح فينبغي لكل أمير أن يتأدب بآدابه صلى الله عليه وسلم في حفظ العهود واجرائها على وجه معهود (يحكى) أن خالد بن الوليد لما حارب بني حنيفة بأرض اليمامة وقتل مسيلمة الكذاب حتى صار الى حصن لبني حنيفة فخرج الى خالد رجل من الحصن فأسلم على يده ثم قال له ان في هذا الحصن ضعفة ونساء وصبية فاعطهم أمانا لنخرجوا اليك فليس فيهم درك فأخذ أمانا من خالد للجميع ثم أخرجهم فخرج فيهم رجال كانهم الاسد فقال خالد لم أعطك لهؤلاء أمانا وانما أعطيتك للضعيف قال الرجل فهم كلهم ضعيف لان الله عز وجل يقول وخلق الانسان ضعيفا فكتب في ذلك الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فاجاز الامان على خالد وما قاله الرجل الاسلمي لخالد يعد من باب دفع المكروه بقول صادق في حد ذاته كما يحكي ان رجلا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قبل هجرته الى المدينة فقال يا محمد أغثني فان خلفي من يطلب دمي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم امض لوجهك لاصد الطلب عنك ثم قام عليه السلام وجلس بعد نفوذ الرجل فاذا قوم يتعادون بالسيوف فقالوا يا محمد هل مر بك رجل هارب من صفته كذا وكذا فقال عليه السلام أما منذ جلست فلا فصدقه القوم وانصرفوا في غير ذلك الطريق

مطلب
وفاة أبي عبيدة عامر بن الجراح بعهده للروم عند فتح دمشق

(وقال) بعض المؤرخين لما غزا أبو عبيدة رضي الله تعالى عنه مدينة دمشق في عهد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وكان قد نازل هذه المدينة من جهة باب الجابية ونازلها خالد من جهة الباب الشرقي ونازلها عمرو بن العاص من جهة باب

توما ونازلها يزيد بن أبي سفيان من جهة الباب الصغير وحاصروها قريبا من سبعين يوما وكان خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه مصمما على أخذها بأي وجه كان صلحا أو عنوة وكان عساكر الروم بدمشق قد أيقنوا أن حصارها على هذه الحالة لا بد أن يعقبه الفتوح الاسلامي وانه لا مفر لهم من وقوعهم في اسر المسلمين وكان محافظ دمشق الامير توما صهر القيصر هرقل فدبر حيلة عسى يكون بها نجاة نفسه وجنده من الوقوع في أيدي المسلمين فخرج بجنده من المدينة عدة خرجات عساه ان يدافع جيوش المسلمين عن المدينة وينتصر عليهم وكان يعتمد على انه سيصله امدادات من القيصر فخاب رجاؤه وانهزم في جميع خرجاته ثم لما أيس من النصرة والامداد القريب وجزم بانه واشك بالوقوع في قبضة الاسلام شرع في التماس المسالمة بعقد الصلح مع أبي عبيدة رضي الله تعالى عنه

وكان قد بلغه موت الخليفة أبي بكر رضي الله تعالى عنه واستخلاف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما وكان أبو عبيدة هينا لينا صاحب رأفة ورحمة على عباد الله غير متعصب ولا مشدد على أهل الكتاب بدون حق وكان شريف النفس عالي الهمة يميل الى العدل والحلم وكان قد اشتهر عند الروم بحسن الشمائل ومكارم الاخلاق وصدق المقال فلما التمس أهل دمشق الصلح من هذا الامير وفاتحوه في شأن ذلك صالحهم على ان يؤمنهم على نفوسهم ورخص لمن لم يسلم اذا أراد أن يخرج من دياره خرج منها بجانب من أمواله واشترط عليهم ان يبلغوا امأمنهم بعد مضي ثلاثة أيام بلياليها من زمن جلائهم يجدون فيها السير كما يشاؤن ولا يقفوا اثرهم أحد من جيش الاسلام الا بعد مضيها فعلى هذا الصلح سلموا له مفاتيح المدينة فلما دخل فيها بجنده ووصل فيها الى ميدان عام في وسطها رأى في هذا الميدان جند خالد بن الوليد فكانوا نقبوها وأخذوها عنوة من الابواب المسامتة للباب الذي دخل منه أبو عبيدة عقب الصلح فكانت عساكر خالد بوصف كونهم فتحوها عنوة يقتلون من يجدونه في ممرهم فنهاهم عن ذلك بالتي هي أحسن وأمرهم بتقوى الله والرفق بعباده وأخبر الامير خالد بن الوليد بما صالحهم عليه لان خالدا رضي الله تعالى عنه كان بمنزلة عظيمة عند أمير المؤمنين وكان قد أتاه كتاب من عمر رضي الله تعالى عنه بتقليده امارة جيشه فأقر خالد ما صالح عليه أبو عبيدة ووعدهم برفع السلاح عنهم وان لا يقفوا اثرهم الا بعد مضي الثلاثة الايام المتفق عليها وأنجز حر ماوعد فاقتفى اثرهم بعد مضيها ثم جد المسير فأدركهم وبدد شملهم وسلبهم ما عندهم واغتنم منهم ما اغتنم ثم عاد سالما غانما الى دمشق وبعث أبو عبيدة بالفتح الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما فقدمه المؤرخون بوفاته بنفسه وبتوسطه الى

خالد بن الوليد وحمله على ذلك

قال بعض من وقف على هذه الواقعة من مؤلفي أوربا لو كانت أوصاف هذا الصحابي الجليل الذى كان أمير الجيش الاسلامى فى ذلك الجيل مجتمعة فى أمراء الجنود بالاجيال الجديدة المشهورة بالتمدنات المتنوعة والتقدمات العديدة لافادتهم غاية المجد والشرف ونفت عنهم مثالب الجور والسرف فأجل أمراء جيوش الدول العظيمة التمدن فى عهدنا هذا لم تبلغ درجة ذلك الامير الخطير الذى هو من بين الفاتحين عديم النظير فبكل منقبة من مناقب عدله وحلمه ووفائه تخجل أكابر رؤساء كل جيش من جيوش الدول المتأخرة وتزدرى بأمرائه انتهى وهذا من قبيل * ومليحة شهدت لها ضراتها *

ومع ذلك فنقول ان تمدن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين وتابعيهم هو تمدن حقيقى مكتسب من أنوار النبوة واتباع هدى من لا ينطق عن الهوى مع سلامة طبع أبى عبيدة عامر بن الجراح الذى قال فى حقه عليه الصلاة والسلام لكل أمة أمين وأمين هذه الامة أبو عبيدة عامر بن الجراح وقد كانت شفقته على نصارى الروم بدمشق واجبة لانها نتيجة المصالحة والمعاهدة والافكان لا يخشى فى الله لومة لائم فهكذا مكارم أخلاق الصحابة فمن أراد أن يقتدى بهم فهو من أهل السداد والاصابة وما أسعد من يتنزه من أول شبيبته عن الجهالات ويتمسك بناموس المروءة والشريعة ويخالف أهواء النفس اللوامة ويحالف معالى الامور المؤسسة على ما فى الكتاب العزيز من الآيات البينات فلا أحمق ممن تجرد عن الشفقة والمرحمة وأفضى به الجهل الى ارتكاب الامور المحرمة فكأنما هو تربى فى الجبال ورضع ألبان الوحوش والوعال كما يحكى عن نية غدر من مغربى مسلم بأسير من نصارى الاسبانيول منقاد لقضاء الله عليه بالاسر ومستسلم وذلك ان أكثر عرب المغاربة المتوطنين ببلاد افريقية أصلهم من عرب الاندلس الذين اجلاهم الاسبانيول من ديارهم بعد تغلبهم عليها وكانوا بقايا من نجا من القتل فكانت العداوة باقية بين الفريقين

مطلب ذم التجرد عند الشفقة والمرحمة بعد القتال فى حق الاسرى

وكان أغلب المغاربة يعتقدون حل التقرب الى الله تعالى بقتل النصارى لمخالفة الدين لاسيما اذا كانوا من نصارى الاسبانيول المعتدين وكان من قواد المغاربة الذين يغيرون على بلاد الاسبانيول الساحلية أمير يقال له على بن جرمى من قواد ملوك افريقية فانتصر مرة فى حربه مع الاسبانيول نصرة عظيمة وقتل وأسر وشحن سفينته من أسراهم حتى أرسى على سواحل افريقية وأنزلهم الى البر فحضر اليه شخص من حمقى العرب متمثلا بين يديه وجعل يقبل قدميه وقال له يا أيها الامير لقد أسعدك الله تعالى بالظفر والتأييد ووفقك لجلب عدد كثير من النصارى الاسارى فهم بجنابك العالى من

قبيل الارقاء والعبيد وطالما انتهزت الفرصة فى سفك دمائهم وسبى رجالهم ونسائهم وفى طاقتك ان تقتل منهم ماتشاء من العدد الكثير والجم الغفير فلا شك أن مثلك من أهل الجنة حيث وفقه الله تعالى الى الحصول على هذه المنة وأما أنا فلم أحظ فى عمرى بهذه الفضيلة ولا تيسرت لى هذه الذمة الجزيلة فأنا أسألك الله الا تفضلت على من احسانك وجميل فضلك وامتنانك بأحد هؤلاء الاسرى أعداء الدين لاتقرب به الى طاعة رب العالمين فأظهر له الامير حسن الاجابه وانه لبى دعوته لينال الاجر والاثابه وأفهمه أنه يرسل اليه هذا الشاب طويل النجاد فى الغابه وأمره أن ينتظره فيها فى هذه الساعه ليفتك به سرا بدون اشاعه ثم أمر الاسير بالمسير وأطلعه على خبيئة هذا الاحمق وحذره منه وأنذره حتى يعمل لنفسه فى الذب عنها أحسن التدبير فاقتحم الاسير الغابة شاكى السلاح مصمما على المناضلة والكفاح فلما رآه خصمه على أهبة بهذه الحاله لم يجد من الهروب بدا فنجا بنفسه ولا محاله ورجع الى الامير يرجف فؤاده وقد فاته مراده فقال له الامير بصوت جهورى بغاية من الحماس يسمعه كل من حضر من الناس يا أيها الشقى الاحمق والعدو الازرق كيف عشت بين أظهر مؤمنى البريه ولم تعلم حرمة قتل النفس البريه وهل محض اختلاف الاديان يبيح التعدى بقتل الانسان ابتغاء مرضاة الشيطان وكيف تظن أن بتصميمك على هذه النيه ترضى الله سبحانه وتعالى أو نبيه وهل من المروءة والسماحه قتل من ألقى سلاحه أما تعلم أن قتل النفس بغير حق من أعظم الآثام عند الله فخجل المغربى بالخزى والخجل يطلب الغفران من الله عز وجل واستحسن جميع الحاضرين ما دبره الامير فما أحسن العدل المرفوق بحسن التدبير لاسيما من قائد خطير (ويحكى) ان عمرو بن معدى كرب مر بحى من أحياء العرب فرأى فرسا مشدودا ورمحا مركوزا ورجلا فى وهدة يقضى حاجته فقال له عمرو خذ حذرك فانى قاتلك فقال له من أنت قال أبو ثور عمرو بن معدى كرب قال وأنا أبو الحرب ولكن ما أنصفتنى أنت على ظهر فرسك وأنا فى موضعى فأعطنى عهدا أن لا تقاتلنى حتى أركب فرسى وآخذ حذرى فعاهده على ذلك فخرج من الموضع الذى كان فيه وجلس محتبيا بسيفه فقال له عمرو وما هذا الجلوس قال ما أنا براكب فرسى ولا أنا مقاتلك فان نكثت العهد فأنت أعلم بما يليق بالناكث فتركه عمرو ومضى وقال هذا أجبن من رأيت فانظر الى حفظ العهود فهو وان كان واجب الوفاء به فى حد ذاته الا أن أحق الناس به الامراء والجنود وفى هذا القدر كفاية فيما يتعلق بالطبقة الثالثة التى هى طبقة الغزاة

مطلب وفاء عمرو بن معدى كرب بالعهد

الفصل



الفصل الرابع

(فى طبقة أهل الزراعة والتجارة والحرف والصنائع)

قد أسلفنا الكلام على هؤلاء بالبيان الشافى فى عدة مواطن لا سيما فى الباب الثانى من هذا الكتاب فلا فائدة فى الاعادة وإنما نقول هنا انه ينبغى لابناء الوطن ان يؤدوا ما يجب عليهم من الحقوق لوطنهم اياما كانت طبقتهم لاتحادهم فى وصف الاهلية وان يتعاونوا على ما فيه صلاح مملكتهم وجمعيتهم السياسية وان يبذل المستطيع ما عنده فى اصلاح حالها وما آلها حتى يصدق عليه انه ممن أحيا نخوة الملة وأنعش قوة الدولة فيشكره وطنه الذى هو مصره ويحمده زمنه الذى هو عصره فيكون مخلد الذكر فى دفاتر أخبار الاخيار الذين اشتهروا فى سلسلة الاعصار وان يتصف كل عضو من أعضاء الجمعية الاهلية بالامانة التى هى أشرف الخصال التى يحتاج اليها فى المعاملات وقد كانت هذه الفضيلة قديما فى الديار المصرية على غاية من التمسك بها ولو عند عرب البادية * ومن غريب ما يحكى فى ذلك ما أخبر به الشيخ عبد الرازق القفطى انه جاء اليه الشريف الاحمر ومعه بدوى فقال لعبد الرازق اشتهى أن تقرضنا دينارين وتركب معنا الله تعالى قال فدفعت لهما دينارين وركبت معهما فسقنا فى الحاجر ساعة فقلت للشريف ما تقول لى ايش أنت تطلب بنا فقال هذا البدوى كان أودع ناسا من العرب سخلة فى الحجاز من احدى عشر سنة وهو يطلب وديعته قال فقلت له ضيعت على دينارين واتعبتنا فقال لى الدينار الواحد معى والاخر اشتريت به هذا الجار فان وجدنا شيأ والا رددنا لك مالك فسرنا الى أبيات عرب هناك فجلسنا بعيدا وتقدم الاعرابى ونادى يا أبا فلان فكلمه انسان فقال من تكون أو قال من تريد فقال الله تعالى يعلم انى كنت أودعت لك بوادى الصفراء فى الحجاز فى السنة الفلانية سخلة قال فجاء الرجل الذى كلمه ونحى القرمزية عن رأس البدوى ونظر الى شجة فى رأسه وقال والله أنت هو وأبو فلان مات وأنا أخوه اقعد حتى تروح الابل فقعدنا حتى راحت الابل عليهم فعزل البدوى منها تسع نوق وقال الله تعالى يعلم ان السخلة ولدت وولد اولادها فبعناها واشترينا تلك الناقة فولدت وتوالدت فالذى كان منها ذكورا بعناه وأبقينا الاناث وأخرجنا عنك الزكاة وأخرج صرة زرقاء مربوطة بخيط من شعر فقال هذا من ثمن الذكور ففتحناها فوجدنا فيها اما قال تسعة عشر دينارا أو قال اثنين وثلاثين دينارا غاب عنى أيهما قال لطول المدة فقال الاعرابى أما هذا الذهب فخذوه ولا حاجة لى به وتكفينى النياق فقلنا والله ما نأخذ الا الدينارين فأخذناهما ورجعنا

انتهى فانظر الى قيمة قدر الامانة عند عرب البادية المؤتمنين والتعفف من المتوسطين وسماحة الاعرابى الذى أراد أن يترك الذهب لهم فلا يدرى أى الفرق الثلاثة أكرم وأعظم مروءة فعلى العاقل أن يتمسك بكل فضيلة يمدح بها وتبيض بها صحيفته دنيا وأخرى من كل مايحرز المنافع العموميه دنيويه أودينيه مما يكون به لاهل ملته تمام النظام وتعود منفعته عاجلا أوآجلا على قوة دولة الاسلام

وقد اسلفنا فى الفصل الاول من الباب الاول فى بيان المنافع العموميه مايتعلق بفعل الصدقات الجارية وان من جملتها بناء العمائر الخيريه وان كثيرا من الامراء تشبثوا بذلك ونقول الآن ان من جملة من اجتهد فى فعل الخير الجارى على الدوام مافعلته صاحبة الدولة والعصمة والدة الخديو الاكرم ولى النعمة فان بناءها المسجد المنير للقطب الشهير ولى الله تعالى الشيخ صالح أبى حديد هو من أعظم الخيرات لاسيما ماأجرته عليه من الاوقاف الدارة والوظائف البارة ومثل ذلك شروع حضرتها السنية فى بناء مسجد القطب الرفاعى الجارى فيه العمل الآن أمام السلطان حسن فانه أيضا صار توسيعه بما لامزيد عليه من الدور المتخذة بالشراء وتطييب خواطر أربابها مع الجد والاجتهاد فى العمارة التى يظهر أنها تصير فخمة جدا وتنافس جامع السلطان حسن المواجه لها مع ماسيرصد عليها من الاوقاف الجزيله مما ارادت حضرتها العلية تحصيله ومن المعلوم أن لحضرة المشار اليها من جزيل الخيرات مالايحصى ومن جميل المبرات مالايستقصى والرأفة الكاملة الكافلة بالتعطف على كل فقير والتلطف بجبر كل كسير وتوزيع الصدقات على الجم الغفير فهى سارة مصرها وأين منها زبيدة فى عصرها

مطلب العمائر الخيرية التى أجرتها والدة الخديو ولى النعمة وما أجراه جناب خليل اغا المغمور فى نعمائها من المدرسة والتكية المهمة

وقد سبق فى الفصل الاول من الباب الاول ذكر مافعله من الخير العميم وحسن الصنيع الجسيم حضرة خليل أغا باش أغاوات الجهة السامية المشار اليها من المدرسة والتكية ابتغاء مرضاة الله تعالى مما ازداد به وجه مصر ضياء وتلالا هكذا هكذا والافلالا وكما قد ذكرنا فى الفصل المذكور ما انشاه من الخيرات الامير الجليل والشريف النبيل سعادة راتب باشا بالجامع الازهر ثم بلغنا فيما بعد انه انشأ مسجدا جليلا بالاسكندريه ومدرسة جليلة عمومية بالاسكندرية أيضا وأرصد لذلك مافيه الكفاية لدوامه وأرصد جرايات لها وقع كبير على الاضرحة والمشاهد والمقارى بالمحروسة وأحيا تكية للنساء العجائز الفقراء مرصدة على احدى وعشرين مرأة كان انشاها المرحوم عبد الرحمن كتخدا ثم دثرت وبلغنا ان حضرة الباشا المشار اليه مصمم على تجديد بيمارستان للفقراء والضعفاء واوقف الامير المذكور من اراضيه وعقاره على

مطلب خيرات سعادة راتب باشا

خيراته

خيراته مايقوم بها على كثرتها وانه أوقف باقى اراضيه وعقاراته على ذريته وشرط انها
تؤول من بعدهم الى محال خيراته توسعة لها وزيادة هكذا يكون الكرم الواسع من
الاشراف أهل الديانة والصيانة والعفاف اطال الله بقاه ومن الاسواء حفظه ووقاه
وكثير من الامراء والاعيان ممن لاتعلم حقيقة أوقافهم الخيرية الا اجمالا تصدى لفعل
الخيرات على قدر حاله وبذل فيها جزأ عظيما من ماله فالحمد لله الذى وفق كثيرا من
الامراء والاهالى المصريين رجالا ونساء بالمحروسة او بالاقاليم على التشبث باسباب
الخير العميم والناس كما يقال على دين ملوكهم وهو أدب قديم ومع ان هذه الخيرات
تعد نوعا من المنافع العمومية الا ان هناك خيرات أعم منها نفعا وأتم وقعا كالشركات
السلمية الشرعيه وجمعية الاقتراضات المرعيه فانها نافعة كل النفع لفك المضايقات
عن أرباب الاحتياجات من أهل الصناعة والزراعة لسد خلتهم والقيام عند الاقتضاء
بقضاء حاجتهم فان هذه الشركات السلميه والجمعيات الاقتراضيه من أهم الامور
ومفرجة على الجمهور وبها تتقدم التجارة والزراعة وترتقى الدولة والملة فى المطالبه
واللوازم الاهليه الى أوج الفخار ودرج الاعتبار كما بيناه ذلك فى الفصل الاول من
الباب الاول

مطلب تمام المرغوب وختام المطلوب لكمال المنافع العموميه من تشكيل شركات مرعية

فلله من بيض من الاهالى صحائف اعماله النافعه وجعل أنوار افعاله على آفاق وطنه
مشرقة ساطعه وأما من بخل بذلك فقد خلا عن فضائل النفع العام وسود سطور
صحائف اعماله بمداد الآثام واخجل عصره الموجود فيه حيث غدره وخانه بدون أن
يوافيه أو يصافيه بل كدر رائق نفعه وزلال صافيه وهذا القدر من المكروه كافيه
فعلى ولى الامر العادل أن يرشد بافعاله السنيه رعيته الى سبل الرشاد السنيه وأن
يعينهم على ذلك بالحصول على كمال الحريه متى وجد ان رعيته بتلك الحرية حريه حتى
يحب الناس أوطانهم ويديموا شكرهم لمن حسن حالهم وأصلح شانهم

مطلب فك العهد وتأسيس الدوائر البلديه لراحة الرعية المصرية

فالحمد لله الذى وفق خديو مصر الاكرم لفعل ذلك بفك عهد المتعهدين للبلاد وبتأسيس
نظامات الدوائر البلدية المبنى على تحرير رقاب أهالى النواحى من شبه الاستعباد فان
هذا لامحاله قوام الانصاف والعداله فان من ملك احرارا طائعين كان خيرا ممن ملك
عبيدا مروعين ولاشك ان قلوب الرعية هى خزائن ملكها فما أودعه فيها فهو
مستودع فى انحاء مسالكها ولا يكون الملك عظيم القدر الا بأهال دونه عظموه
ولا تقوى قوته الا برجال أطاعوه ولا تنصرف منزلته الا بعوام اتضعوا له بالانخفاض
واتبعوه فعليه أن يمنحهم وسائل التعزيز والتكبير وان يمنع عنهم رذائل التصغير
والتحقير فرب صغير ترفع عن دناءة الهمة وتفرغ لجلائل التدبير وعلى الملك أن يعامل

احرار الناس بمحض المودّة والعامة بالرغبة والرهبة وان يسوس السفلة بالمخافة الصريحة وان يحسن سياسة جميع رعاياه على اختلاف أنواعهم لاجتناب الاسباب التى تبعث قلوبهم على معصيته ليقود أبدانهم الى طاعته فبهذا يستقيم أمره الى مدته (وسأل) رجل بعض حكماء بنى أمية ما كان سبب زوال نعمتكم فقال قد قلت ما سمع واذا سمعت فافهم اناشغلنا بالذتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا وظلمت رعيتنا ففسدت نياتهم لنا ويئسوا من انصافنا فتمنوا الراحة لغيرنا وخربت معايشهم فخربت بيوت أموالنا وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا واستدعاهم مخالفونا فتظاهروا على أمرنا فطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا وكان أول زوال ملكنا استتار الاخبار عنا انتهى

وقال المنصور يوما ما كان احوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم قيل يا أمير المؤمنين ومن هم قال هم أركان الملك لا يصلح الملك الا بهم كما ان السرير لا يصلح الا بأربع قوائم ان نقصت قائمة واحدة وهى أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث صاحب خراج يستقضى لى ولا يظلم الرعية فانى غنى عن ظلمها ثم عض على اصبعه السبابة يقول فى كل مرة آه آه قيل من هو يا أمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب بخبر هولاء على الصحة انتهى

ومما منّ الله سبحانه وتعالى على الديار المصرية ان خديويها الاكرم يحسن انتخاب وكلائه وينقدهم بعين البصر والبصيرة وانه بترتيبه لراحة الرعية الدوائر البلدية وتنظيمه المجالس الحكميه وحسن تربيته لأبناء الرعيه وتقليدهم بالمناصب الاداريه تستحوذ مصر التى هى منبع كل خير وفضل ومحط رحال كل شرق وغرب وبعد وقرب على الفضائل العليا ويصدق عليها اسمها القديم وانها أم الدنيا

مطلب ان تقسيم مصر الآن انسق من تقسيماتها القديمة

ومن امعن النظر فى حسن تقسيمها فى حلبة السياسه وأمعن الفكر فى نظام تقويمها فى رتبة الرياسه وجدها الآن على حالة أحسن تقسيما وتقويما مما كانت عليه فى أيام ان كانت كرسى الملك ودار الخلافة فى تلك الازمان كما يفهم من ذكر تخطيطها فى تلك الايام لبعض العلماء الاعلام حيث يقول لمصر وجهان قبلى وبحرى فالقبلى هو أجلهما قدرا وأطولهما مدى وأكثرهما جدى وهو الجيزة وهى أقربها الى القاهرة غربى النيل ويقع قبالة القبلى منها بلاد اطفيح شرقى النيل فى بر القاهرة تصاقب بركة الحبش وبساتين الوزر ثم يلى الجيزة مقبلا فى برها بلاد البهنسا وتصاقب البهنسا من

غربيها بلاد الفيوم وبينهما منقطع رمل والفيوم هو الذي بحره دائما مستمر وينقسم به
الماء في مقاسم ولا يعرفون قسمة الماء الا بالقصبات ثم يلي البهنسا مقبلا الاشمونين وفيها
الطحاوية ثم يليها بلاد منفلوط ثم يليها بلاد أسيوط ثم يليها بلاد اخميم واخميم شرقي النيل
ويقابل دمنتها البرابي المشهورة في البلاد المضروب بها المثل على الألسنة وهي وان
كانت شرقي النيل فكل بلادها ومزارعها غربي النيل ثم يليها بلاد قوص وقوص
أيضا شرقي النيل وهنالك جل العمارة وموضع الحرث والزرع وفي غربي النيل قبالتها
البلاد المعروفة بغرب قولا وهي من مضافات قوص وبلادها ثم اسوان وهي من عمل
قوص ووالبها نائب عن واليها ويخرج مما بين قوص وأسوان الى صحراء عيذاب حتى
ينتهي الى عيذاب وهي قرية حاضرة البحر ومنها تعدى الى جدة ويكون بها جند من
قوص ووالبها وان كان من قبل السلطان فانه نائب لوالى قوص ووالى قوص أعظم
ولاة مصر وأجلهم فهذه جملة الوجه القبلي وفيه الصعيدان الادنى والأعلى والادنى
كل ماسفل عن الاشمونين الى القاهرة والاعلى كل ماعلا عن الاشمونين الى أسوان
وغالب زرعه ورفعه وجلب قوته وحلب ضرعه غربي النيل وما يوجد شرقي النيل
قليل وهو تبع لا متبوع فاما الوجه البحري فهو كل ماسفل عن الجيزة الى حيث مصب
النيل في البحر الشامي بدمياط ورشيد وهو أعرض من الوجه القبلي وبه الاسكندرية
وهي مدينة مصر العظمى فاما ماوقع منه شرقي النيل في بر القاهرة المتصل بها فأقربها
منه الضواحي وهي القرى التي أمرها يبدو الى القاهرة ثم قليوب ثم الشرقية ومدينتها
بلبيس وأما ماوقع غربي أحد مرمى النيل الفرقتين في هذا الوجه فأقربها الى الجيزة
جزيرة بني نصر ثم منف وكلاهما عمل واحد والاسم لمنف وهي كانت مدينة مصر العظمى
زمن فرعون موسى ثم ابيار وهي من عمل منف أيضا ثم يليها بلاد الغربية ومدينتها
محلة المرحوم وهي عمل جليل متسع يضاهي قوص ثم يليه اشموم وتعرف باشموم الرمان
لكثرة وجود الرمان بها وهي بلاد الدقهلية والمرتاحية ثم يليها دمياط حماها الله وهي
أحد الثغور والضالة المستنقذة بعد طول الدهور واليها أحد مصبي النيل ثم ماهو
غربي الفرقة الثانية من النيل فأقربه الى الجزيرة بلاد البحيرة ومدينتها دمنهور
وهذه البلاد تشتمل على بلاد مقفرة وطوائف من العرب وبها بركة النطرون
التي لا يعلم في الدنيا أن يستغل من بقعة صغيرة نظير ما يستغل منها فانها نحو مائة
فدان تغل نحو مائة ألف دينار ثم يلي بلاد البحيرة مدينة الاسكندرية ثغر الاسلام
المفتر وحمى الملك المحضر حرسها الله تعالى وهي مدينة لا يتسع لها عمل ولا يكثر لها
قرى فهذه جملة الوجه البحري ثم لم يبق ماتنبه عليه الاقطيا وهي قرية في الرمل جعلت

لاخذ الموجبات وحفظ الطرقات وأمراهم ومنها يطالع بكل وارد وصادر وأما الواحات فجارية فى أقطاع امرائهم يولون عليها كل مقطع فى اقطاعه ومغلها كأنه مصالحة لعدم التمكن من استغلاله اسوة بقية ديار مصر لوقوعه منقطعا فى الرمال النائيه والقفار النازحه وهذه جملة نطاق القاهرة المحيطة بمصر سفلا وعلوا انتهى

مطلب
أصل الهوارة وتوطنهم بالصعيد

والظاهر ان فى عصر هذا المؤرخ كانت قصبات الصعيد الاعلى قوصا واخميا ولم تكن جرجا من القصبات المشهورة شهرة غيرها وانها صارت فيما بعد متصرفية وقد أنزل الى ناحيتها السلطان الظاهر برقوق بعد واقعة بدر بن سلام هنالك هوارة الصعيد فى نحو سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة وكانت خرابا فعمروها فأقطع هذه الناحية لاسمعيل بن مازن منهم وأقام بها حتى قتله على بن غريب فولى بعده عمر بن عبد العزيز الهوارى حتى مات فولى بعده ابنه المعروف بأبى الشوشه وفخم أمره وكثرت أمواله فانه أكثر من زراعة النواحى وأقام دواليب السكر واعتصاره حتى مات فتولى بعده أخوه يوسف بن عمر وهكذا وهؤلاء الهوارة أصل ديارهم من عمل سرت بالمغرب الى طرابلس قدم منهم طوائف الى أرض مصر ونزلوا بلاد البحيرة وملكوها من قبل السلطان ونزل منهم هوارة بالصعيد كما ذكرنا ونزلوا جهة جرجا التى نابت فيما بعد عن قوص وعن اخميم وصارت ولاية فى التقسيم فتقاسيم مصر الآن أكثر تنوعا وأعظم استقصاء وتتبعا وان لم تصل فيما يخص العلم والعلماء درجة ذلك الزمن البعيد الذى يعلم كثرة علمائه وفضلائه لمن طالع مثلا الطالع السعيد فى نجباء الصعيد الاان المعارف الآن سائرة بسيرة مستجدة فى نظريات العلوم والفنون الصناعيه التى هى جديرة بأن تسمى بالحكمة العمليه والطرائق المعاشيه ومع هذا فلم يزل التشبث بالعلوم الشرعيه والادبيه ومعرفة اللغات الاجنبيه والوقوف على معارف كل مملكة ومدينه مما يكسب الديار المصرية المنافع الضروريه ومحاسن الزينه فهذا طرز جديد فى التعلم والتعليم وبحث مفيد يضم حديث المعارف الحاليه الى القديم . فهو من بدائع التنظيم واذا أخذ حقه من حسن التدبير والاقتصاد فيه استحق مرتبة التعظيم

مطلب
انه ليس كل مبتدع مذموم وان المبتدع النافع يقع موقع الاستحسان

ولا ينبغى لابناء الزمان أن يعتقدوا أن زمن الخلف تجرد عن فضائل السلف وانه لا يصلح الزمان اذ صار عرضة للتلف فهذا من قبيل البهتان فالفساد لاعتقاد ذلك لا لفساد الزمان كما قال الشاعر

نعيب زماننا والعيب فينا * وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو فى الزمان بغير عيب * ولو نطق الزمان بنا هجانا

وانما حصول مثل هذه الاوهام السوفسطائية ناشئ من فهم كلام العلماء الراسخين

على خلاف المعنى المقصود منه وأخذه على ظاهره فاذا حفظ الانسان من جوهرة التوحيد قول الناظم

وكل خير فى اتباع من سلف * وكل شر فى ابتداع من خلف

أخذه على ظاهره فى أمر الدين والدنيا والمعاد والمعاش والترقى فى الرفاهية والزينة مع أنه خاص بالامور الدينيه واتباع الاحكام الشرعيه من الحلال والحرام دون المباح كما أوضحه بعد قوله وكل هدى للنبى قد رجح * فما أبيح افعل ودع مالم يبح فياليت من تمسك بتلك الافهام وتنسك بعضا من تلك الأوهام استمسك بقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ومما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون وبقوله تعالى هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور فليس كل مبتدع مذموم بل أكثره مستحسن على الخصوص والعموم فان الله سبحانه وتعالى جرت عادته بطى الاشياء فى خزائن الاسرار ليتشبث النوع البشرى بعقله وفكره ويخرجها من حيز الخفاء الى حيز الظهور حتى تبلغ مبلغ الانتشار والاشتهار

اذا حار وهمك فى معنيين * وأعياك حيث الهدى واليقين

فخالف هواك فان الهوى * يقود النفوس الى ما يشين

فمخترعات هذه الاعصر المتلقاة عند الرعايا والملوك بالقبول كلها من أشرف ثمرات العقول يرثها على التعاقب الآخر عن الاول ويبرزها فى قالب أكمل من السابق وأفضل فهى نفع صرف لرفاهية العباد وعمارة البلاد ومن ذا الذى يخطئ صواب رأى هذه الاستعدادات المعينة على المهمات المعاشية بطرقها النافعه وأنوارها الساطعة التى لظلام الارجاء دافعه وبسط الكلام على المخترعات كغيرها من المحسنات البديعات مبسوطة فى أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك لحكيم السياسة خير الدين باشا وعمل من طب لمن حب يورث القلب انتعاشا هريع لبعضهم

بدور لهم مغرب * بقلبى وان أغربوا * فوجدى بهم معرب

* عن الحال ما أصنع *

لكل هوى منتهى * وحبى اذا ما انتهى * أأسلو وأهل النهى

* على حسنهم أجمعوا *

فما أشار به فى كتابه من الاشارات القوليه جله فى مصرنا من قبيل الدلالات الوضعيه ودلالة الفعل فى الاصول أقوى من دلالة القول فما أجدر ما تجدد الآن فى مصرنا من حسن التنظيم المستحق من أهل الوطن كمال التبجيل والتعظيم مما به عظم قدر الوطن

وشرفت منزلته ومجدت فخامته حيث استأثر بالفوائد الجمه بهمة وأى همه مما لا يحصل الامن البررة المشفقين ومن أبناء الوطن الصادقين ممن روض نفسه لخدمة الوطن الحقيقيه من الراعى والرعيه وقد خرجوا من درجة التصغير والتحقير الى درجة الترفع والتكبير بصرف الهمة فى حسن التدبير لتنمية المنافع الوطنيه الحسية والمعنويه

ومما ينبغى للعاقل أن ينوه بذكره ولا يخرجه العارف من مرآة بصيرته وفكره ان ملوك الاسلام على كثرتهم وان كان يجب عليهم جميعا أن يكونوا على قلب رجل واحد فى تقديم أبهة الاسلام وان يهتموا بتأييد الاوطان المحمديه بالعلوم النافعة والمنافع العموميه لترقى الديار الاسلاميه درجة الكمال العليه الأن الاولى بالمسارعة فى ذلك لسهولة سلوك أقوم المسالك الدولة العليه العثمانيه والخديويه الجليلة المصريه فان حصل منهما براعة المخلص وحسن المقطع على شاكلة براعة الاستهلال على وجه أبدع بلغت شهامة الاوطان الاسلاميه بالنسبة الى قوة الدولة ونخوة الملة المحل الارفع

فاما تشبث الدولة المحروسة العلية بذلك الآن فغنى عن البيان وغير محتاج الى برهان

اذا ما رحاء الخير دارت على الورى * فانك منها قطبها وعمودها

وأما خديوينا الجليل فلا زال ينجز ما وعد به عند الولايه ويجدد عند انتهاز الفرص ما يستطيعه بكمال العنايه فكان الفرصة تناجيه بقولها

مولاى هذا الملك قد نلته * برغم مخلوق من الخالق
والدهر منقاد لما شئته * وذا أوان الموعد الصادق

هل مثله وامق ان قدر يرمقها بصحيح النظر والى ما تدعو يجيبها ولكن مل عين حبيبها فلا يزال لسانه يلهج بمعنى قول القائل

انا لنأمل ما كانت أوائلنا * من قبل تأمله ان ساعد القدر

ولسان حال النصر الحقيق ينشد لنيل أكرم مرام وأعظم مقصد

من جعل الحق له ناصرا * أيده الله على نصرته

وهاتف السعادة يحثه على كمال نيل المجاده وكسب السعاده بقوله

وكن فاعلا مثل فعل الزمان * فان الزمان فعول فعول

ولسان الاعتراف يبث على سبيل الاجمال ما فعله لوطنه من المحاسن والجمال بانشاده

لقد نبتت فى مصر منك منافع * كما نبتت فى الراحتين الاصابع

ولا عجب لمن توفيق العزيز رفيقه ان يستمد منه القطر المصرى جميع ما يحبه من

الكمالات وبروقه كما قال بعضهم فى هذا المعنى

قد أطلع الله لنا كوكبا * أضاء شرق الارض والمغربا
صاحب سعد يقتضى سعده * سعادة الوالد اذا نجبا
والاصل ان طاب يرى غرسه * أنبت فرعا مثمرا طيبا
مع هبة خص بها الله من * أصبح للنعمة مستوجبا
فدم قرير العين حتى ترى * خلفك من أولاده موكبا

ولما كانت حسنات ولى النعم تكاثر النجوم عددا والانفاس مددا اهتف لسان الجميع عن خالص الود الشاكر على حسن الصنيع بالدعاء له ببسط الاكف الى المولى السميع فقالوا اللهم أدم علينا احسانه العديد وبحر انعامه المديد حتى لا يزال يقول طالب رفده واحسانه هل من مزيد

وهذا آخر ما يسر الله جمعه جمع سلامه مما يلوح عليه من القبول أبهى علامه وهو جدير باسم مناهج الالباب المصريه فى مباهج الآداب العصريه

واذا انتهيت الى السلا * مة فى مدالك فلا تجاوز
ان السفين متى يصل * برا لسلامة فهو فائز
حسب الفتى أمنا اذا * فى سيره جاب المفاوز
وهل السلامة للرئيـ * ـس سوى مصادقة الجلاوز

والحمد لله ولى النعمه والصلاة والسلام على من هديت به الامه وعلى آله وأصحابه الذين تلألأت أنوارهم وأضاءت فى آفاق المعالى اقمارهم وتفتحت للسعادة بصائرهم وأبصارهم صلاة وسلاما دائمين الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

يقول المتوسل الى مولاه بالجاه الفاروقى ابراهيم عبد الغفار الدسوقى مصحح دار الطباعه جعل الله طباعه ماغردت بلابل الالسنه فى محاضر الانديه بأوجب من تحميد الملك الحميد فى خاتمة أى كتاب ولا لمعت بوارق الافئدة فى محاريب الادعية بأعذب من تمجيد المولى المجيد فى فاتحة الكتاب فالحمد لله فاتح أبواب الكرم ومانح أسباب النعم حمدا لا تزال اضواء مصابيحه بأندية الاخلاص ساطعه وأنواء سحائبه بأودية القبول هامعه على نعمة تمام طبع مناهج الالباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية لناظم اللآلئ سموطه ومطرز اعلام مروطه على الهمة والفضل والحسب جامع شرفى العلم والنسب رب البلاغة والادب الرائع حضرة البيك رفاعة بدوى رافع بالمطبعة العامره الزاهية الزاهره المتوفرة دواعى مجدها المشرقة كواكب سعدها فى ظل من تعطرت الافواه بثنائه وبلغ من كل وصف جميل

حد انتهائه وارث الولاة الاماجيد وسلالة السراة الصناديد الجامع بين طريف
المجد وتالده الراوي أحاديث الخديوية عن جده ووالده ذي الحلم الذي تستخف لديه
الاطواد والمآثر التي لا يفي ببعضها تعداد من ذلل بهممه الصعاب وتملك بمننه
الرقاب عزيز الديار المصريه وحامي حمى حوزتها النيليه المخجل بكرمه فيض النيل
جناب افندينا الخديوي اسمعيل ورعاية جناب نجله العظيم صاحب الابهة والتفخيم
رب المعارف المشهوره والعوارف المشكوره والرشد والاصابه والدولة والنجابه
من زادت به المعارف بهجة وانتعاشا سعادة محمد توفيق باشا أكبر أنجال الحضرة
الداورية وولي عهد الحكومة المصرية حفظه الله وأبقاه ولازالت الايام زاهية
بجلاه متباهية بعلاه وكان طبع هذا الكتاب الجليل الفائق بهذا الرونق الجميل
الرائق مشمولا بادارة من عليه أحاسن أخلاقه تثني حضرة حسين بك حسني ونظر
وكيله الناسج على منواله المداني له في آرائه وأحواله من لم يزل لثمر تذكائه يجني
حضرة محمد افندي حسني ولما حسن وضعه وكمل في اللطافة طبعه أرخه لسان
الحال مثنيا على مؤلفه فقال

لمناهج الالباب حسن وفاء * بمباهج الآداب والآراء
سفر اذا سار الملوك بهديه * عظمت شكائمهم على الاعداء
روض تجاوب طيره وغديره * يغنيك عن طرب وعن صهباء
لمؤلف سحر العقول براعة * ببراعة برعت على الجوزاء
مولى العلا والفضل من تاهت به * طهطا ففاقت سائر الارجاء
السيد السند الشريف رفاعة * فله اليد البيضاء في الانشاء
جعل الشريعة للسياسة محمدا * متمسكا بالآي والانباء
احيا رسوم سياسة وادارة * خفيت على الآباء والابناء
بما تكامل حسنه في طبعه * اطراه رب فطانة وذكاء
نجل المؤلف حيث قال مؤرخا * نور المناهج واضح الانباء

٢٥٦ ١٣٠ ٨١٥ ٨٥ سنة ١٢٨٦

وقد وافق تمام طبعه وكمال نفعه من فاضل أيام الشهور اواخر
شعبان ذي الفضل المأثور من سنة ست وثمانين بعد
المائتين والالف من هجرة من خلقه الله على اكمل
وصف صلى الله وسلم عليه وعلى آله وكل
ناسج على منواله